التنوير ورواده فى العالم العربى



إعداد نخبة من الكتاب والمفكرين

تحرير وتقديم الدكتور

إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافى

مركز الاسكندرية للكتاب

٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة

الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨

التنوير

ورواده في العالم العربي

إعداد

نخبة من الكُتاب والمفكرين

تحرير وتقديم

د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي

٢٠١٢م

مركز الأسكندرية للكتاب
٤٦ شارع مصطفى مشرفة – الأزاريطة
الأسكندرية – تليفون وفاكس ٤٨٤٦٥٠٨

عبد الكافي ،إسماعيل عبدالفتاح
التنوير ورواده في العالم العربي ، بقلم نخبة من المفكرين والأدباء / تحرير وإعداد ومراجعة وتقديم إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي. ـ ط١. ـ الإسكندرية : مركز الإسكندرية للكتاب ، ٢٠١١م .
٣٦٨ ص، ٢٤ سم.ـ
تدمك ٩٧٨٩٧٧٣٨٨٣٠٨٩
١ـ شخصيات أ ـ العنوان
٢ ـ العلماء ـ الأدباء العرب
٩٢٨,١

التنوير ورواده في العالم العربي

المؤلف : نخبة من المفكرين والأدباء
تحرير وإعداد : د.إسماعيل عبد الفتاح
سنة النشر : ٢٠١١/٢٠١٢
رقم الإيداع : ١٣١٥٠ /٢٠١١
الترقيم الدولي : I .S.B.N 978 - 977- 388-308-9
الناشر : مركز الأسكندرية للكتاب
٤٦ شارع مصطفى مشرفة ـ الأزاريطة
الأسكندرية ـ تليفون وفاكس ٤٨٤٦٥٠٨

إهداء

إلى تلك الأرواح الطيبة التي ساهمت في حضارة
وثقافة الوطن في كافة المجالات السياسية
والاقتصادية والثقافية والاجتماعية
والتي ما زالت تحلق بيننا بقاماتها العالية
لهم منا جميعاً هذا الإهداء المتواضع
المساهمون
في هذا العمل

الفهرس

تابع الفهرس

المقدمة

التنوير وأهميته في حياتنا

بقلم :

الدكتور إسماعيل عبد الفتاح

التنوير وما أدراك ما التنوير !!!

فالتنوير هو لُب حياتنا المعاصرة ، فبدون التنوير لا يوجد فكر ولا علم ولا ثقافة ولا أدب ولا فن ولا ابتكار ولا إبداع ولا موهبة ولا نشاط ولا أي شيء !!! نعم ، فبدون التنوير لا يتم الأخذ بمفاتيح الحياة ولا بوسائل التقدم ولا بوسائط النمو والتطور ، ولا يمكن انتشال المجتمعات المختلفة من سراديب الجهل والتخلف إلى ميادين التطور والنمو والتقدم ...

فالتنوير تتواصل الأمم والشعوب ، وتتلاقح الحضارات ، وتسمو المدنية ، وتنمو وتزدهر العلوم وتنشط الإنسانية ، وترتفع القامات العلمية والثقافية والأدبية ، وتزدهر الحياة الاجتماعية ، وتتطور الأمم والشعوب ، وتتواصل الأجيال في نمو متوازن وفي جو صحي يسمح بالحوار بدلاً من

الصراع ، وبالتعاون بدلاً من التنازع ، فالتنوير سبب رئيسي من أسباب النمو الإنساني بصفة عامة ...

وإذا كان مفهوم التنوير (أي التوعية) **Enlightenment** وهو اتجاه اجتماعي سياسي ظهر في ألمانيا في القرن الثامن عشر يحاول مقتنعوه إصلاح نواحي النقص في المجتمع بتغيير سلوكه وسياساته وأسلوب حياته بنشر مباديء الخير والعدل والمعرفة .

فإن التنوير يصبح ضرورياً ومهماً في حياتنا ، ليس لأنه ضروري ، بل لأنه أساسي لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونه ...

وإذا نظرنا في مصطلح التنوير ذاته نجده من النور ، وهو على وزن تفعيل ، نور تنوير ، مثل حمل تحميل ، عزز تعزيز ، بسَّر تيسير الخ ، فالتفعيل هو التشديد ، بمعنى التوكيد ، فالتنوير يعني الإضاءة بالتوعية في كافة المجالات الإنسانية ، ومن هنا فهناك التنوير الديني والتنوير الفنى والتنوير العلمي والتنوير الأدبي والتوير الثقافي والتنوير الاقتصادي والتوير الفكري والتنوير التقني (التكنولوجي) والتنوير السياسي والتنوير الحضاري ..الخ من مجالات التنوير...

ومسيرة التنوير مسيرة مهمة في حياة الأمم والشعوب ، فكل أمة لها رموزها الذين أحيوا الموات الفكري في مجال معين من مجالات الفكر الإنساني ، حتى في مجال الزعامة السياسية أو ريادة الحركة الوطنية ، فرموز التنوير يختلفون من مجتمع إلى آخر ، ومن أمة إلى أخرى ، ومن وطن إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى ، لأنهم هم المختصون بنشر التوعية بكافة مجالات التقدم الإنساني ، فشيخ المسجد وراعي الكنيسة دوره

التنويري الديني في منطقته هام جدا ، ولكن هناك رواد تنوير ديني على المستوى الأممي ، كالشيخ محمد عبده مثلاً ، ورواد التنوير العلمي والفكري ينتشرون في الأقاليم المحلية من مدرسين وأساتذة جامعات ورجال الصحافة ، ولكن على مستوى الأمة يوجد رواد للتنوير العلمي كأحمد زويل وأحمد مستجير وحمد الجاسر والفقي ..الخ، بل والطهطاوي وزكي مبارك ، وهناك التنوير الوطني على مستوى المدن والأقاليم متمثلاً في أعضاء المجالي المحلية والبلدية واللجان الشعبية ، ولكن على المستوى الوطني نجد رموز الحركة الوطنية من مصطفي كامل وسعد زغلول وابن بيلا وعبد القادر الجزائري وياسر عرفات وعبد العزيز سعود ..الخ ..

والتنوير على مستوى الأمة له رجالاته ، وهي تشمل الرجال والنساء على حد سواء ، فلقد شاركت المرأة ، بهمة بالغة ، في مسيرة التنوير في أمتنا العربية ، جنباً إلى جنب بجوار الرجل ، فهذه هي هدي شعراوي تنافس الرجال في الحركة الوطنية المصرية مع صفية زغلول ، ويحاذيها ، بل وتتفوق عليها جميلة بوحريد بطلة الكفاح الجزائري ، وهناك من رواد التنوير العلمي سميرة موسى ، وبل والسيدة الفاضلة سوزان مبارك رائدة القراءة للجميع في مصر والشيخة فاطمة بنت مبارك أم الإمارات ورائدة التنوير في الإمهارات وغيرهن الكثيرات ، وفي المجال الأدبي العشرات وعلى رأسهم مي زيادة وغيرهن من الصحفيات روز اليوسف ومن المجال الاجتماعي نبوية موسى والمئات ممن شاركوا في مسيرة التنوير بالعالم العربي .

بل نجد مسيرة هامة للمرأة في كل مكان : في مصر ، وفي المغرب ، وفي الخليج ولبنان والسعودية والعراق والسودان وتونس والجزائر وليبيا ، ولم لا؟ فالمرأة في التاريخ العربي لها باع كبير في التنوير : فعجيب أمر النقاد والمهتمين بأمور الشرق في الغرب ، إن الحقائق أمامهم ، ويتجاهلونها ، ويعيشون في تخيلات عقيمة ما أنزل الله بها من سلطان ، ويتوهمون أن الحياة الإسلامية العربية يقودها الرجال وتهمش فيها المرأة ، وهذا وهم كبير الآن ومن زمن الرسالة المحمدية الخالصة ، ففي عهد الرسول ﷺ كانت هناك أم المؤمنين عائشة الذي دعانا الرسول ﷺ لنأخذ نصف ديننا عنها ووصفها بالحميراء أي ذات الشعر الأحمر !! ، مما يعنى جواز اتخاذ أسماء شهرة للنساء ، وهذه الشاعرة الخنساء التي تغنت بمجد الانتصارات الإسلامية وقال لها النبي الكريم ﷺ : زيدي ، وهناك المرأة المجادلة والمرأة البطلة خولة بنت الأزور فارسة الصحراء وآلاف النساء في عصر النبي ﷺ ومن بعده من عصور الخلفاء الراشدين والدولة الإسلامية الأموية والعباسية ..

وفي القرآن الكريم ما يؤكد به الله عز وجل على أن القرآن نور ، فهو تنوير وتوعية للإنسانية كافة : قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) ([1]) ، ويقول سبحانه : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)([2]) بل أن الله جعل الإسلام دين تنوير لكافة العالمين ، فقال سبحانه : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)([3])

---

[1] ـــ المائدة:١٥ .

[2] ـــ النور: من الآية٤٠ .

[3] ـــ الزمر: من الآية٢٢ .

حتى أن المؤمنين هم رواد التنوير في الدنيا والآخرة ، فيصف لنا رسول الله ﷺ ذلك في الحديث الذي رواه أبو مَالِك الْأَشْعَرِيَّ جَمَعَ قَوْمَهُ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَشْعَرِيِّينَ اجْتَمِعُوا وَاجْمَعُوا نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ أُعَلِّمْكُمْ صَلاةَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَّى لَنَا بِالْمَدِينَةِ ... وقال ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ وَأَلْوَى بِيَدِهِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ انْعَتْهُمْ لَنَا يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِسُؤَالِ الأَعْرَابِيِّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا وَثِيَابَهُمْ نُورًا يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَفْزَعُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) ([1]) ، بل أن النبي ﷺ نفسه نور بمجرد ولادته لأنه أوعي العالم وهداهم للصراط المستقيم ، ففي الحديث الذي رواه لُقْمَانُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ قَالَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ) ([2]) . بل وأن المقسطون هم أصحاب العدل والكلمة السوية هم دعاة التنوير لهم نور يوم القيامة كما قال الحبيب المصطفى ﷺ فيما روي عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ : (الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ

[1] ـ رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم ٢١٨٣٢ ، كما رواه أبوداود حديث رقم ٣٠٦٠ ، رواه الترمذي حديث رقم ٢٣١٢، ويصف المتحابين في الله والمتزاورين بأنهم نور في الآخرة في حديث آخر رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم ٢١٧١٧ .

[2] ـ رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم ٢١٢٣١ .

الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) ([1])

إذن ، فالإسلام لا يحجر على المرأة ولا يحد من إبداعها ، بل يدعوها لبناء الشخصية المثقفة المبدعة وتوظف هذه الشخصية لخدمة بيتها ومجتمعها ، ويدعوها للتفكر في خلق الله وفي كون الله الفسيح ..

ولنأخذ نموذجاً من المملكة العربية السعودية عن الأدب النسائي هناك : وإذا عدنا إلى الأدب النسائي في المملكة العربية السعودية ، فنجد أن من أهم خصائص الأدب العربي في المملكة دخول المرأة العربية السعودية بشدة في مجال التأليف والنشر في الشعر والقصة وكافة مجالات الأدب ، حتى نافست الرجل بقوة في هذه الميادين الأدبية ، وظهرت إبداعاتها واضحة جلية ، سواء في المقال أو القصة أو النقد الأدبي أو الدراسات الأدبية ، والمرأة بطبيعتها الأنثوية عاطفية خيالية ، ولذلك ، فهي تسهم بإثراء مجال أدبي حيوي ، وفي هذا الفن الأدبي الرفيع : الشعر والقصة القصيرة ..

ورجال التنوير كثيرون جداً ويمكن إحصاء العديد منهم في كل الأزمان ، ولكن لابد أن نتوقف عند بعضهم ، فما هو العصر الذي نبدأ منه كتابنا عن التنوير ؟ ، ما هو الزمان ؟ وما هو المكان ؟

الإجابة محددة تحديداً دقيقاً وواقعياً ، فالمكان هو الأمة العربية ، في مصر والعالم العربي ، لأن التنوير هنا يكون باللغة التي يستطيع أن يقرأها الجميع : فكل العرب قرأوا لطه حسين والعقاد وحمد الجاسر وبيرم

---

[1] ـ رواه أحمد في مسنده حديث رقم ٦٢٠٤ ، ورواه النسائي حديث رقم ٥٢٨٤ ، ورواه الإمام مسلم حديث رقم ٣٤٠٦.

التونسي وخليل مطران اللبناني وسليمان العيسى السوري ..الخ ، ولابد من تحديد الإطار التاريخي للرواد ..

فهناك القدماء من أمثال الأصفهاني وابن العربي والجاحظ ، ولكن يهمنا رواد التنوير في التاريخ الحديث والمعاصر ، أي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، لأنهم أثروا في حياتنا وفي تنويرنا أعظم تأثير ، ولأننا مازلنا متأثرين بهم ، من رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك إلى أحمد زويل ...

ويشاركنا في الكتابة في مجال رواد التنوير نخبة من مفكري مصر وإعلامييها وأدبائها ، وعلى رأسهم أستاذنا الجليل الداعية الإسلامي والشيخ العالم الفاضل الذي يوصف بأنه مستنير فضيلة الشيخ منصور الرفاعي عبيد الوكيل الأسبق لوزارة الأوقاف لشؤون القرآن والمساجد ، ورجل من رجال القضاء المفكر المستشار سامي زين الدين وهو رئيس محكمة الاستئناف ، والمخرج التلفزيوني الكبير منصور شاهين المخرج بالقناة الأولى وهو كاتب قدير ، ومن رجال الأمن أبومسلم يوسف الشاعر الكبير والقصاص وعضو اتحاد الكتاب، ومن رجال الصحافة الأفذاذ : نجوى فؤاد وسيد شحم نواب رئيس تحرير الجمهورية والصحفية اللامعة نيلي عبد الحميد البرجي والكاتبة الإعلامية المتميزة نادية كريم ، والكاتبة الصحفية الكبيرة خديجة أمين جودة والكاتب الإعلامي المتميز أسعد النوبي..بالإضافة إلى كاتب هذه السطور الدكتور إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي وكيل الوزارة وأستاذ مساعد الإعلام التربوي وأدب الأطفال وعضو اتحاد الكتاب وعضو مجلس إدارة الهيئة العامة لقصور الثقافة والمجلس الأعلى للآثار ...

وهؤلاء صفوة متميزة من الكتاب والمفكرين والأدباء ، وكوكبة من الأدباء والعلماء والفنانين ، منهم الشيوخ الذين أثروا الحياة الثقافية والفكرية والدينية في مصر والعالم العربي ، ومنهم الرجال والنساء ، ومنهم الشباب الذين ينتظرهم المستقبل الواعد ، وجمعهم ميدان رواد التنوير ليبدعوا فيه ، وليصولوا وليجولوا من خلاله في ثنايا الأدب والفكر والعلم والثقافة والاجتماع والاقتصاد والحركة الوطنية والسياسة والقانون وحقوق الإنسان ، وليقدموا لنا وللقراء الكرام خلاصة الفكر العربي في كافة المجالات ، خلال القرنين الماضيين ، بكل الحب والإخلاص ، لنعرف أين نحن سائرون ، وعلى أي أرض نحن واقفون ، وإنها لمسيرة أمة ، مسيرة موفقة وسعيدة بإذن الله عز وجل لهذه الأمة العربية الإسلامية ..

ندعو المولى عز وجل أن يتقبل هذا العمل الخالص لوجهه الكريم ، وأن ينفع البلاد والعباد بما يحتويه من مضمون فكرى ، وأن يكون هؤلاء الرواد الذين اخترناهم يمثلون القدوة والحنكة للشباب وللأطفال ولكافة العرب في كل مكان ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

المُعد والمشارك

د. إسماعيل عبد الفتاح

٢٠٠٩م

رفاعه رافع الطهطاوي

الرائد الأول للتنوير في الشرق

بقلم

الدكتور إسماعيل عبد الفتاح

استهلال :

رفاعة الطهطاوى.. مصرى أصيل والرائد الأول للتنوير في العالم العربي ، بل في الشرق كله، ولم لا ؟ ، فهو باعث على نهضة مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر، ضم إلى ثقافته العربية الإسلامية خلاصة كنوز الفكر الفرنسى وعلوم الحضارة الأوروبية – النظرية منها والعملية – فلما عاد إلى وطنه.. ناضل كى يخرج أمته من عصر المماليك والعثمانيين إلى رحاب عصر اليقظة والنهضة والتنوير.. ولقد استعان على ذلك بكل ما هو مشرق وصالح ومستنير فى تراث الأمة، وكل ما هو ملائم فى حضارة أوروبا.. فكان الرائد الذى ارتاد العديد من ميادين التقدم والإصلاح والتجديد، ولذلك كان الطهطاوى أباً لحركة اليقظة العربية الحديثة ورائداً لدرب الصحوة الوطنية والتنبُه القومى، وفاتحاً لنوافذ حضارية بالكتب العلمية والفلسفية والأدبية والتاريخية والجغرافية التى ترجمها، وصانعاً لجيل عظيم من رواد الحضارة العربية الحديثة والمستنيرة.

لقد كان الطهطاوى أول مترجم لكتب الطب بمدرسة الطب وأول صحفى مصرى وأول منشئ لصحيفة عربية فى مصر "الوقائع المصرية" وأول من دعا لإنشاء جامعة مدنية

عربية، وأول مصرى ينشئ متحفاً لآثار مصر، كما أنه صاحب أول مشروع لإحياء التراث العربى الإسلامى فى مصر وصاحب أول مجلة فكرية وثقافية وأدبية فى مصر "روضة المدارس"! ولذلك يعد الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث.

ـ الطهطاوى.. تصفح للسيرة الذاتية :

* المولد.. والنشأة: فى مدينة "طهطا" إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر ولد رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع الطهطاوى فى ١٥ أكتوبر عام ١٨٠١م، يتصل نسبه عبر عدد من أشراف الصعيد وعلمائه وقضاة الشرع فيه، وأمه السيدة: فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلى ينتهى نسبها إلى العديد من العلماء والصالحين، وكانت عائلة والد الطهطاوى – وهم من الأشراف – ذوى مال ويسار فلقد كان "للأشراف" فى ذلك العصر امتيازات مالية. وقد شهدت طفولته المبكرة إلغاء محمد على لنظام "الالتزام" وسحبه للامتيازات الاقتصادية التى كان يتمتع بها الأشراف والشيوخ وترتب على ذلك تعرض هذه الأسرة لضائقة اقتصادية بما اضطر والده (بدوى رافع) إلى أن يهجر موطنه (طهطا) عام ١٨١٣م ويصحب معه ابنه رفاعة – وعمره يومئذ اثنا عشر عاماً – إلى مدينة "جرجا" كما لجأ به إلى مدينة "قنا" زمناً، وإلى مدينة "فرشوط" زمناً آخر، وفى أثناء ذلك أجاد الطفل رفاعة تعلم القراءة والكتابة وأتم حفظ القرآن الكريم، ثم توفى والده فعاد إلى موطنه "طهطا" لتكفله أسرة أخواله العامرة بالشيوخ والعلماء والصالحين.

تربى رفاعة الطهطاوى فى هذا الجو العلمى عند أخواله وقطع بعض الطريق فى دراسة المنهج الذى كان يتلقاه يومئذ طلاب الأزهر الشريف، عندما بلغ رفاعة السادسة عشرة قررت والدته وأخواله إلحاقه بالأزهر فى القاهرة فوفدها عام ١٨١٧ والتحق بالجامع الأزهر وانتظم فى تلقى الدروس واستمر فى هذا النظام ست سنوات تلقى خلالها العلم على يد شيوخ الأعلام وتتلمذ على عدد من الشيوخ الذين تولوا

منصب مشيخة الأزهر الشريف وبذلك تأهل بعدها ليكون أحد العلماء وقام بالتـدريس فى الأزهر.

* تأثير الشيخ "حسن العطار" فى تكوين فكر الطهطاوى:

وكان أعظم أستاذ تتلمذ عليه رفاعة هو الشيخ حسن العطار الذى كانت له فى حيـاة الطهطاوى العلمية والعملية مكانة الراعى والموجه والدافع إلى الأمام، وكثيراً ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور ويشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغريبـة التـى لـم تتداولها أيدى علماء الأزهر، وهو الذى سعى إلى تعيينه إماماً لإحدى كتائب الجـيش المصرى الحديث ثم إماماً للبعثة التعليمية التى أرسلها محمـد علـى للدراسـة فـى باريس.

* الطهطاوى.. رحلة حياة:

كانت لدى الطهطاوى ميول طبيعية لاحتراف التدريس مارسها هاوياً ومحترفـاً منـذ مرحلة طلبه العلم فى الأزهر وها هو يمارسها كعالم بعد تخرجه ويمكث فى ممارسته لها عامين (١٨٢٢م - ١٨٢٤م).

وكانت الضائقة المالية التى لازمت أسرة رفاعة لا زالت تسبب له الأزمـات، وكمـا دفعته هذه الضائقة وهو طالب إلى احتراف مهنة التـدريس فـى منـازل الأثريـاء والمدارس الخاصة التى يتعلم فيها المماليك فلقد دفعته إلى أن يهجر عمله المحبب - التدريس بالأزهر - فتحول إلى وظيفة عسكرية وأقام فى أحد (الألايات) بوظيفة "واعظ وإمام" واستمر فى هذا العمل حتى عام ١٨٢٦م.

• سفره إلى فرنسا:

فى هذا العام ١٨٢٦ قررت الحكومة المصرية إيفاد أكبر بعثاتها العلمية وأهمها إلـى فرنسا كى يتلقى طلابها العلم الحديث هناك، وكانت هذه البعثة هى الإطلالـة الهامـة

والحقيقية والكبرى للعنصر المصرى والعربى على الحضارة الأوروبية الحديثة فى مواطنها وديارها.

فى البداية لم يكن رفاعة طالباً من طلاب هذه البعثة بل رشح ليكون واعظاً وإماماً لهذه البعثة ويؤمهم فى الصلاة وكان معه شيخان آخران من شيوخ الأزهر. ولكن رفاعة الذى كان قد درس مع أستاذه الشيخ حسن العطار بعض العلوم الغريبة عن الأزهر ورجاله قرر أن يدرس مع طلاب البعثة وأن يتجاوز مهمة الواعظ والإمام فى الدين، فبدأ منذ وصول البعثة إلى "مرسيليا" وحتى قبل الذهاب إلى باريس فى دراسة اللغة الفرنسية وتعلمها فى ثلاثين يوماً!! حتى يستطيع أن يترجم علومهم إلى اللغة العربية.

أمام هذه المبادرة من رفاعة نحو التعليم والانتظام فى سلك الدارسين صدرت أوامر الحكومة المصرية بضمه إلى أفراد البعثة بحيث يتخصص فى الترجمة لتفوقه فى اللغة العربية وثقافته الأزهرية. وقد ترجم الطهطاوى بعض الكتب الفرنسية إلى العربية ولم تمض على إقامته فى باريس سنة وثمانية أشهر حتى بعث بهذه الكتب إلى مصر كى تطبع فترجم كتاب "مبادئ العلوم المعدنية" وترجم أيضاً تقويماً لعام ١٨٢٨م. وقد تجلت روح الطهطاوى ووعيه أنه ترجم كل الكتب التى قرأها فى أى علم أو فن فتتلمذ على مجموعة من أبرز علماء فرنسا فى ذلك الحين وعكف على مؤلفاتهم. وفى ١٩ أكتوبر عام ١٨٣٠م عُقد الامتحان النهائى لرفاعة الطهطاوى وتقدم إلى لجنة الامتحان باثنى عشر مترجماً كما قدم مخطوطة كتابه الذى ألفه عن رحلته إلى باريس وهو "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"، كما تُقدم الأبحاث والتقارير فى الامتحانات العليا. عندئذ قررت اللجنة أن الطالب قد اجتاز هذا الامتحان على وجه حسن.

* عودته إلى مصر:

فى علم ١٨٣١م عاد الطهطاوى إلى مصر من بعثته فى باريس وكانت قد سبقته إلى

"محمد على" ودوائر حكومته تقارير أساتذته التى تحكى تفوقه وتلفت النظر إليه.. بل كانت قد سبقته إلى مصر بعض مترجماته التى أرسلها منذ عام ١٨٢٨م كى تطبع فى مطبعة بولاق.

تولى رفاعة الطهطاوى وظيفة مترجم بمدرسة الطب.. فكان أول مصرى يعمل فى مثل هذا العمل إذ كانت أمور الترجمة يقوم بها مترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم.

أمضى رفاعة فى عمله سنتين أنجز فيهما الكثير من الكتب والأعمال المترجمة مثل "التوضيح لألفاظ التشريح".

وإلى جانب عمل الطهطاوى فى مدرسة الطب أُسند إليه الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب.

وفى عام ١٨٣٣م انتقل رفاعة من مدرسة الطب إلى مدرسة "الطوبيجية" (المدفعية) "بِطُرَه" كى يعمل مترجماً للعلوم الهندسية والفنون العسكرية.

كان رفاعة يحلك بإنشاء جامعة مصرية على غرار "مدرسة اللغات الشرقية" ومنذ التحاقه بمدرسة "الطوبيجية" خطا الخطوة الأولى نحو تحقيق حلمه هذا وكانت خطته أن ينشئ بالتدريج عدداً من المدارس "الخاصة" – أى العالية – تجتمع مع بعضها بالتدريج لتكون "الجامعة" التى يحلم بإقامتها، فأنشأ فى عام ١٨٣٣م (مدرسة التاريخ والجغرافيا).

فى عام ١٨٣٤م انتشر بالقاهرة وباء الطاعون فغادرها رفاعة إلى بلدته (طهطا) ومكث هناك نحو ستة أشهر ترجم فى شهرين منها مجلداً من (جغرافية ملطبرون) وعندما عاد إلى القاهرة قدم ترجمته إلى (محمد على) فكافأه مكافأة مالية ورقاه.

تقدم الطهطاوى بعدها إلى محمد على باقتراح إنشاء المدرسة التى كان يخطط لإنشائها.. مدرسة الألسن، وكانت تسمى أول ما أفتتحت عام ١٨٣٥م (مدرسة الترجمة) ثم تغير اسمها إلى (مدرسة الألسن).

كان عمل رفاعة فى هذه المدرسة هو الإشراف الفنى والإدارى وتدريس الأدب والشرائع الإسلامية والغربية واختيار الكتب المرشحة للترجمة وتوزيعها على المترجمين ثم المراجعة للترجمات.

وفى عام ١٨٤١م أخذت مدرسة الألسن الشكل والمضمون الحقيقيين (للجامعة المدنية).

لم يكن الطهطاوى أول منشئ لجامعة مدنية عربية فقط، بل كان أول عربى أنشأ متحفاً لآثار مصر وخطط لجمعها وصيانتها، ففى نفس العام الذى أنشأ فيه مدرسة الألسن عام ١٨٣٥م قدم إلى محمد على مشروعاً (لحماية الآثار)، ونشرت (الوقائع المصرية) المشروع الذى ينص على أن تسلم إلى مدير مدرسة الألسن جميع الآثار التى يجدها الأفراد، وكان أن تحول فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار فى مصر ويعد ذلك موقفاً وطنياً مرتبطاً بحب وطنه وعدائه الأصيل لحركة النهب الاستعمارى لآثارنا.

كان رفاعة الطهطاوى أول صحفى مصرى وأول منشئ لصحيفة عربية فى مصر (الوقائع المصرية) على اعتبار أنه أشرف على إصدار هذه الصحيفة باللغة العربية وجعل لها نظام الصحيفة من مقالات وأحاديث وتبويب صحفى ثابت وبذلك استحق الطهطاوى أن يكون أول صحفى مصرى.

كما أشرف رفاعة كذلك على تحرير (المجلة العسكرية) بالفرنسية والعربية كمجلة متخصصة للجندية وعلوم الحرب يهتم بها العسكريون.

فى عام ١٨٤١م أنشأ رفاعة (قلم الترجمة) كمجمع متخصص فى الترجمة وقسمه لأربعة أقسام: قسم لترجمة الرياضيات وقسم لترجمة العلوم الطبية والطبيعية وقسم لترجمة العلوم الاجتماعية وقسم للترجمة التركية.

فى عام ١٨٤٣م رقى رفاعة إلى رتبة "قائمقام" لجهوده فى قلم الترجمة.

وإلى جانب هذه المهام الإدارية والفنية والعلمية التى كان ينهض بها رفاعة قام بمهام أخرى منها: تفتيش عموم مكاتب الأقاليم، ونظارة "الكتبخانة الأفرنجية" ومخزن عموم المدارس وتفتيش مدارس "الخانقاة" و"أبو زعبل" ورئاسة امتحان تلاميذ المكاتب سنوياً يختار التلاميذ الأذكياء ويأتى بهم إلى القاهرة فيلحقهم بالمدرسة التجهيزية تمهيداً لإدخال المتفوقين منهم جامعة مصر المدنية الأولى (مدرسة الألسن).

فى عام ١٨٤٥م ترجم رفاعة مجلداً آخر من (جغرافية ملطبرون) فكافأه محمد على لذلك بأن رقاه إلى رتبة "أميرالاى الرفيعة".

وصار يدعى منذ ذلك التاريخ "رفاعة بك" بعد أن كان يلقب "بالشيخ رفاعة" ثم استمر فى ترجمة هذا المؤلف الضخم حتى أكمل منه أربعة مجلدات.

ومن خلال هذه العملية الحضارية الكبرى – التى قادها وأشرف عليها وساهم فيها الطهطاوى حتى عهد محمد على وخلفه إبراهيم باشا – وضعت أسس عصر النهضة فى مصر التى كانت فى ذلك طليعة الأمة العربية وشعوب الشرق.

وعرفت مصر جيلاً من المترجمين والمؤلفين والمثقفين الذين تخرجوا من المؤسسات الفكرية والتربوية والصحفية التى أقامها رفاعة طوال تلك السنوات، فبرز أكثر من المائة من الذين أبدعوا فى الحركة الفكرية تأليفاً وترجمة وأسهموا فى الحياة العلمية بأوفى نصيب.

* نفى الطهطاوى إلى السودان:

بعد أن توفى محمد على وإبراهيم باشا تولى الخديو عباس الأول الذى أوعز إلى

"المجلس المخصوص" برغبته فى نفى رفاعة الطهطاوى من البلاد كأحد عمليات العنف المغلف التى استهدفت تصفية التجربة التقدمية من قبل عباس الأول وتياره الرجعى ونعمق الأسباب التى أدت إلى نفيه عن مصر لم يبذل الرجل جهوداً جدية فى المصالحة مع عباس الأول ونظام حكمه.

* رفاعة فى عهد الخديو سعيد:

عاد رفاعة الطهطاوى إلى القاهرة فى عام ١٨٥٤م بعد تولى الخديو سعيد الحكم الذى كان ذا تفكير حُر وميول غربية فبعث الحياة فى المؤسسات الفكرية والثقافية والتربوية التى نمت فى عهد محمد على وإبراهيم فعين رفاعة عضواً ومترجماً فى مجلس المحافظة.

فى عام ١٨٥٥م عُين الطهطاوى وكيلاً للمدرسة الحربية "بالحوض المرصود" ولكن طموحه للتربية المدنية جعله يسعى حتى نجح فى عام ١٨٥٦م فى إنشاء مدرسة مستقلة "بالقلعة" ثم أنشأ فرقة خاصة للمحاسبة.

وتولى إلى جانب نظارة هذه المدرسة نظارة مدرستى "الهندسة الملكية والعمارة" و"تفتيش مصلحة الأبنية".

فى هذه الفترة أنجز الطهطاوى أول مشروع لإحياء التراث العربى الإسلامى فى مصر ونجح فى استصدار أمر الخديو سعيد بطبع مجموعة كتب عربية على نفقة الحكومة فعم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره.

* رفاعة فى عهد الخديو إسماعيل:

فى السنوات العشر التى عاشها الطهطاوى فى ظل حكم الخديو إسماعيل من عام ١٨٦٣م حتى وفاته عام ١٨٧٣م عادت للرجل حيويته وفتحت أمامه مرة أخرى أبواب العمل فى مجالات التربية والتعليم وميدان الترجمة والتأليف، فلقد أعاد

إسماعيل إنشاء "ديوان المدارس" وعين رفاعة فى "قومسيون" ذلك الديوان للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة.

وفى عام ١٨٦٧م عهد إليه النظر فى "لائحة تنظيم المكاتب الأهلية" فرأس (مجلس المكاتب الأهلية) كما أشرف على تدريس اللغة العربية بالمدارس فاختار مدرسيها ووجههم إلى طرق التدريس الحديثة واختار الكتب المقررة ورأس الكثير من لجان الامتحان بالمدارس المصرية والأجنبية.

ـ كما أنشأ الخديو إسماعيل "قلم" الترجمة الجديد عام ١٨٦٣م لترجمة القوانين الحديثة وعين رفاعة ناظراً فاستعان رفاعة بزملائه وترجموا مجلدات القانون الفرنسى ما بين عامى ١٨٦٦ و١٨٦٨م، كما ترجموا الدستور العثمانى وترجم رفاعة أيضاً القانون المدنى فى مجلدين ١٨٦٨م وقانون التجارة أيضاً.

ـ فى عام ١٨٧٠ قرر ديوان المدارس إصدار مجلة فكرية وثقافية وأدبية كانت الأولى من نوعها فى مصر وهى: (روضة المدارس) وإسناد رئاسة تحريرها إلى رفاعة الطهطاوى وصدر العدد الأول منها فى أبريل ١٨٧٠م. وظل الطهطاوى رئيساً لتحريرها إلى أن توفى بعد إصدار عددها السادس من سنتها الرابعة.

ـ ملامح فلسفة الطهطاوى التربوية :

كان التعليم سبيل الطهطاوى إلى الإحياء والتجديد وبعث النهضة فعاش حياته يعلم ويرشد ويوجه ويترجم. فلم يكن هناك سبيل للارتقاء غير تعليم الناس وتوجيههم إلى الغاية من حياتهم، وعلم تلاميذه كيف يُعَلمون. ويمكن تقسيم فلسفته التربوية إلى النقاط التالية:

١- ضرورة التربية فى تقدم المجتمع:

التربية فى رأى الطهطاوى ضرورة للإنسان لا يستطيع أن يستغنى عنها، فالإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بالعقل وهو وسيلة حماية الإنسان لنفسه، فالتربية فى نظر

الطهطاوى تعد ضرورة عامة عند البشر فهم فى حاجة دائمة إليها ويستطيعون التعليم واكتساب المهارات والخبرات على نحو يمكنهم من التغلب علـى صـعوبات الحيـاة والإفادة من الطبيعة والكائنات الأخرى لخدمة الإنسان، ومن هنا فقد أكد الطهطـاوى على العقل وأهميته وضرورته الحتمية فى تحكمه فى نواحى حياتنا وهو هنا متفق مع فلاسفة التنوير الذين آمنوا إيماناً مطلقاً بقدرة العقل على تغيير الواقع المعاش تغييراً يتمشى مع متطلبات العصر، فمن واجب الإنسان أن يستفيد من قدرته العقلية للـتعلم واكتساب المهارات والخبرات الجديدة حتى يتغلب على مصاعب الحياة ويسود الكون.

ومن هنا أتت التربية بهذا المعنى ضرورة للإنسان لأنها ولا شك فى ذلـك ضـرورة لتقدم المجتمع ودفعه فى اتجاه التطور وجنوحه عن اتجاه الجمود والتخلف.

٢- أهمية تعليم البنين والبنات:

لقد كان هدف الطهطاوى من وراء تعليم الشباب من الجنسين أن يقوم غرائزهم، فلا تضل من قراءة ما يفسدها أو ينحرف بها إلى الشذوذ ومجافاة الفضيلة، ونرى هـذا الاتجاه إلى الواقعية فى التربية ماثلاً فى الحوافز التى تدفع الشباب إلى الفضائل التى ينشدها "حيث أن مفتاح الفضيلة هو التربية والتعليم للـنشء" فالمحبـة الأخويـة لا تستقيم ما لم تستند إلى الود بين الآباء والأمهات والقدوة – دون النصيحة – هى التى يتمثلها الأبناء عن آبائهم والتلاميذ عن معلميهم.

وكان تعليم البنات فى نظر الطهطاوى مهماً لثلاثة أسباب:

* خلق الزيجات المتناسبة.
* تنشئة الأطفال تنشئة جيدة صالحة.
* أن تعمل النساء كما يعمل الرجال فى حدود طاقاتهن وأن يبعدن عن فراغ الحياة والثرثرة التى لا طائل من ورائها.

ولقد قسم الطهطاوى مراحل التربية العمومية إلى ثلاث مراحل: التعليـم الابتـدائى، والتعليم الثانوى التجهيزى، والتعليم الكامل الانتهائى (العالى).

أولاً: التعليم الأولى:

فهو المرحلة الأولى من مراحل التعليم وهو عام لجميع النـاس للأغنيـاء والفقـراء ذكورهم وأناثهم، وهو الأساس العام لكل مراحل التعليم والتدريبات التالية، ولذلك يعد التعليم الابتدائى أساساً لتكوين الفرد.

ولقد اهتم الطهطاوى بمحتوى هذا التعليم وحدده على النحو التالى: تعليـم القـراءة والكتابة والقرآن الشريف وأصول الحساب والنحو والهندسة. يضاف إليهـا بعـض التدريبات الجسدية للبنية كالسباحة والفروسية والرمى واللعب بالرمح وأشـباه ذلـك ليتمرن الطفل على وسائل الدفاع عن وطنه. إذن فكل أفراد المجتمع محتاجون إلـى التعليم كحاجتهم إلى الخبز والماء حسب تعبيره.

ثانياً: التعليم الثانوى:

جعل الطهطاوى تقسيم التلاميذ بعد المرحلة الابتدائية إلى مجموعتين إحداهما: للتعليم الثانوى والأخرى للتدريب الحرفى الصناعى وذلك حسب استعدادات وقدرات وميـول التلاميذ.

ثالثاً: رأى خاص فى العليم العالى:

فى هذا النوع من التعليم يتخصص الدارسون ويتبحرون فى علم مخصوص كعلم الطب أو الفقه والجغرافيا والفلك والتاريخ، ويرى أن يكون عدد التلاميذ فى التعليم العـالى محصوراً ولا يباح الانتساب إليه إلا لصاحب الثروة أو لذى اليسار بحيـث لا يضـر تفرغه للعلوم العالية بالبلد على عكس ما يرى من انتشار التعليم الأولى تجده يحـدد ويضيق التعليم العالى.

* الطهطاوى والتعليم الطبقى:

إذا كان موقف الطهطاوى من علوم الدراسات العليا ضرورة قصرها على أبناء الأغنياء فقط فقد كان ذلك لفكره عصره الاجتماعى ولفكره البرجوازى الوطنى، وقد يكون الطهطاوى تأثر فى هذه الجزئية فى فكره التربوى بالاتجاهات التى نتجت عن مخلفات المجتمعات العمرانية والتى قامت الثورة الفرنسية لكى تقوضها.

٣- ضرورة التربية الدينية:

يقوم اقتناع الطهطاوى بأهمية التربية الدينية على تكوينه الثقافى والدينى فى مصر أثناء دراسته وتدريسه بالأزهر كما يقوم أيضاً على صلته بمؤلفات الكتاب الفرنسيين الذين أكدوا ضرورة الاهتمام بالجانب الدينى فى التربية حيث رفض الطهطاوى الرأى القائل بتكوين السلوك الفردى اعتماداً على معايير أخلاقية عامة دون نظر فى الدين.

وعلى ذلك فالنظر العقلى – فى رأى الطهطاوى – لا يصح فى تلك الأمور التى قررها الدين فالدين قد وضع المعايير الضرورية للسلوك ومن ثم يعتمد عليه فيها وعليه "فينبغى تعليم النفوس السلوك والواجبات".

ومن هنا فالطهطاوى يؤكد على أهمية التثقيف الدينى لسلوك الفرد وأنه لا يمكن الاستغناء عنه بالنظر العقلى المجرد أو بالفكر الفلسفى أو الأخلاقى فى الأمور التى حددها الدين وباب التجديد مفتوح بعد ذلك فى باقى الأمور أمام البشر.

٤- أهمية التربية السياسية:

أكد الطهطاوى على ضرورة وجود وعى سياسى عند الأفراد فى الدولة الحديثة حتى يدرك كل مواطن حقوقه التامة والواجبات التى تطلبها منه الدولة، ولهذا لم تعد التربية السياسية مقصورة على الفئة أو الطبقة الحاكمة بل أصبحت ضرورة لكل

المواطنين، كذلك تهدف التربية السياسية إلى تكوين الوعى بالمواطنة وما تفرضه على المواطن من سلوك اجتماعى هادف إلى الصالح العام.

ـ الوطنية فى فكر الطهطاوى :

كان الطهطاوى هو أول من كتب نثراً وشعراً فى معنى الوطن والوطنية.

ويعتبر كتابه "مقدمة وطنية مصرية" هو أول كتاب من نوعه فى مصر فى الوطنية المصرية حيث يؤكد أن حب الوطن من الإيمان ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان.

ويناشد المربيين فى كتابه "المرشد الأمين" أن يغرسوا الوطنية فى نفوس طلابهم لأن الوطن هو عش الإنسان الذى فيه درج ومنه خرج وبذلك يحتل الوطن والوطنية مكانة عظمى فى فكر الطهطاوى وهى ليست فكرة هلامية وإنما محددة المعالم والوجوه وتستوجب ضرورة توعية الطلاب بها منذ طفولتهم حتى يعوا وطنهم.

والعلاقة بين الوطن والوطنية عند الطهطاوى علاقة شبه تعاقدية فالمواطن لا يؤدى حقوق الوطن عليه إلا إذا حصل على حقوقه من الوطن وأولها حريته.

ولذلك نجد أن الطهطاوى اهتم بالتربية السياسية لأن بالوعى السياسى يتفهم المواطن ما عليه وما له تجاه دولته التى يعيش فى كنفها، ويعتبر الطهطاوى رائداً لهذه الفلسفة فى مصر فى القرن التاسع عشر حيث أخذ بيد الأمة المصرية فأخرجها من ظلمات العصور الوسطى إلى رحاب عصر التنوير.

* تحرير المرأة ضرورة عصرية:

يعتبر الطهطاوى أول داعية لتعليم المرأة فى مصر الحديثة بل فى الشرق كله فقد اقترحت لجنة تنظيم التعليم فى مصر عام ١٨٣٦م العمل على تعليم المرأة وكان الطهطاوى عضواً فيها غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ لأن المجتمع المصرى لم يكن

على استعداد وقتئذ لقبول هذه الفكرة، إلا أنها لاقت تقديراً وإعجاباً من الطبقات العالية فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها فى البيوت على يد أساتذة من معلمين ومعلمات إلى أن أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر عام ١٨٧٣م، ولكن قبل إنشاء المدرسة بسنة واحدة أصدر الطهطاوى كتابه "المرشد الأمين" وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها بين أفراد المجتمع المصرى حينذاك.

وقد أكد رفاعة على أهمية تربية البنات وتعليمهن وضرورة مشاركة المرأة فى المجتمع وشجع على عمل المرأة إذا اقتضت الظروف ذلك، فليست مهمة المرأة فى الحياة هى مهمة الزوجية والأمومة فقط.

يقول: "ويمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها وخاصة شئون بيتها ثم الغزل والخياطة".

وتناول أيضاً زينة المرأة وملابسها ومقارناً أيضاً بين الزوج والزوجة وبعض الأعمال التى تلائم طبيعتها، وتكلم عن البيت السعيد والأسرة السعيدة بل دعا صراحة إلى عمل المرأة وقال: "إن العمل يصون المرأة عما لا يليق بها ويقربها من الفضيلة".

ويكفى الطهطاوى احتراماً للمرأة أنه كتب تعهداً لزوجته بعدم الزواج عليها طيلة حياتهما معاً!

* رفاعة والصحافة:

لعب رفاعة الطهطاوى دوراً كبيراً فى الصحافة المصرية جعله بحق "أباً للصحافة المصرية" فقد طورها شكلاً وموضوعاً فى حدود الإمكانات التى أتاحتها له الحكومة من صحافة وخبر كما تجلى ذلك فى صحيفة "الوقائع المصرية" وصحافة توجيه وتثقيف وإرشاد وتسلية وإقناع كما تجلى ذلك فى "روضة المدارس" فكانت بحق انعكاساً لحاجات الشعب من ناحية ولحاجات الحكومة من ناحية أخرى، وأهم هذه الصحف والمجلات:

د. "لوكورير ديجيبت" أى بريد مصر فى ٢٩ أغسطس ١٧٩٨م وكانت باللغة الفرنسية واختفت مع انتهاء الحملة الفرنسية.

"لاديكاد إيجيبشن" أى العشرية المصرية وهى بالفرنسية أيضاً وصدرت بأمر بونابرت لنشر أبحاث المجمع العلمى المصرى.

"الوقائع المصرية" صدرت فى عام ١٨٢٨م وعُين رفاعة رئيساً لتحريرها فى ١١ يناير ١٨٤٢م وجعل لغتها الأصلية اللغة العربية بدلاً من التركية وطورها تطويراً كبيراً بعد أن كانت تصدر باللغة التركية وبصورة ضعيفة وسجل بهذا نصراً كبيراً للغة العربية والقومية المصرية فى زمن كان نفوذ الأتراك يسيطر على كل شىء فى البلاد وأفسح صفحاتها للمواد الأدبية والثقافية وجعل من افتتاحية الوقائع مقالاً تحليلياً عميقاً فى موضوع من الموضوعات السياسية والاجتماعية.

مجلة "روضة المدارس" وصدر العدد الأول منها فى ١٧ أبريل ١٨٧٠م وكان رئيساً لتحريرها وكانت تهتم بشئون المرأة بل دعا رفاعة ناظرات مدارس البنات ومدرساتها لموافاته بالمقالات والموضوعات، وكانت تصدر مرتين فى الشهر ويشترك فى تحريرها ذوى العلم والمعرفة وكانت تضم قسماً للأخبار وقسماً للكتب، وكانت مجلة علمية وأدبية تنشر كافة الأخبار والمعارف وكان رفاعة يحرص على أن يقدم لتلاميذه وقرائه كافة أنواع المعرفة والثقافة من خلال هذه المجلة.

* مؤلفات رفاعة الطهطاوى:

- (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) وهو الكتاب الذى كتبه الطهطاوى فى باريس مصوراً فيه رحلته إليها وطبع عام ١٨٣٤م.
- أربعة مؤلفات تحت عنوان (منظومة وطنية مصرية) طبعت عام ١٨٥٥م.
- (قصيدة وطنية مصرية) قالها فى مدح الخديو محمد سعيد وطبعت عام ١٨٥٥م.

- (جمل الأجرومية) وهى منظومة فى نحو اللغة العربية طبع عام ١٨٦٣م.
- (قصيدة وطنية مصرية) قالها فى مدح الخديو إسماعيل وطبعت عام ١٨٦٤م.
- (مقدمة وطنية مصرية) مطبوعة عام ١٨٦٦م.
- (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) وهو الجزء الأول من موسوعة التاريخ التى عزم على تأليفها وطبع عام ١٨٦٨م.
- (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) وهو الكتاب الذى خصصه الطهطاوى لمعالجة "التمدن" وأودع فيه فكره الاجتماعى وطبع عام ١٨٦٩م.
- (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) وهو محاولة لتبسيط قواعد اللغة العربية وتيسير تعليمها وطبع عام ١٨٦٩م.
- (الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة) وهى مجموعة تهانى لبعض الأمراء وطبعت عام ١٨٧٢م.
- (المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين) وهو الذى خصصه الطهطاوى لفكره فى التربية وآرائه فى الوطنية والتمدن وطبع عام ١٨٧٣م.
- (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) وهو الجزء الثانى من موسوعة التاريخ وخصصه لسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومقومات البناء السياسى والإدارى والقضائى للدولة الإسلامية الأولى وطبع بعد وفاته.
- (القول السديد فى الاجتهاد والتجديد) وهو بحث فى موضوع الاجتهاد فى الإسلام.
- (تخميس قصيدة الشهاب محمود) وهى فى ستة وأربعين بيتاً طبعت عام ١٨٩١م

- (مجموع فى المذاهب الأربعة) مازال مخطوطاً ولم يطبع.
- (أرجوزة فى التوحيد) نظمها الطهطاوى ولم يطبع.
- (خاتمة لقطر الندى وبل الصدى) لم يطبع.

* مترجمات الطهطاوى:

١- (نظم العقود فى كسر العود) طبعت فى باريس عام ١٨٢٧م.

٢- (جغرافية صغيرة) طبع عام ١٨٣٠م.

٣- (المعادن النافعة لتدبير معايش الخلايق) طبع عام ١٨٣٢م.

٤- (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) طبع عام ١٨٣٣م.

٥- (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) طبع عام ١٨٣٥م.

٦- كتاب (قدماء الفلاسفة) طبع عام ١٨٣٦م.

٧- كتاب (تاريخ قدماء المصريين) طبع عام ١٨٣٨م.

٨- (المنطق) طبع عام ١٨٣٨م.

٩- (مبادئ الهندسة) طبع عام ١٨٥٤م.

١٠- (تعريب القانون الدولى الفرنساوى) طبع عام ١٨٦٦م.

١١- (مواقع الأفلاك فى أخبار تليماك) طبع عام ١٨٦٧م.

١٢- (رسالة المعادن) طبع عام ١٨٦٧م.

١٣- (تعريب قانون التجارة) طبع عام ١٨٦٨م.

١٤- (هندسة ساسير) طبع عام ١٨٧٤م.

١٥- (روح الشرائع لمونتسكو) لم يطبع.

١٦- (أصول الحقوق الطبيعية التى يعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم) لم يطبع.

١٧- (نبذة فى تاريخ الإسكندر الأكبر) ترجمها وهو بباريس.

١٨- (تقويم سنة ١٢٤٤هـ) الذى ألفه لمصر والشام مسيو "جومار" ترجمه وهو بباريس.

١٩- (مقدمة جغرافية طبيعية) ترجمه وهو بباريس.

٢٠- (ثلاث مقالات من كتاب "لجندر" فى علم الهندسة) ترجمها وهو بباريس.

٢١- (قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية) ترجمها وهو بباريس.

٢٢- (نبذة فى علم هيئة الدنيا) ترجمها وهو بباريس.

٢٣- (نبذة فى الميثولوجيا) ترجمها وهو بباريس.

٢٤- (نبذة فى علم سياسات الصحة) ترجمها فى باريس.

٢٥- (الدستور الفرنسى) الذى نشره فى (تخليص الإبريز).

٢٦- (الجغرافيا العمومية) وهو كتاب "ملطبرون" طبع بدون تاريخ.

٢٧- (أطلس جغرافى..) ترجمه عن الفرنسية.

* وفاته:

فى عام ١٨٧٣م كان الطهطاوى قد بلغ الثانية والسبعين وعرف الوهن طريقه إلى جسده الذى أضناه النضال العلمى غير العادى لأكثر من نصف قرن حتى انتقل إلى جوار ربه فى يوم الثلاثاء ٢٧ مايو عام ١٨٧٣م.

* من كلمات الطهطاوى:

* فى الفكر الوطنى:

"ما أسعد الإنسان الذى يميل لإبعاد الشر عن وطنه ولو بإضرار نفسه! فصفة الوطنية

لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن بل يجب عليه أيضاً أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه".

* عن العرب:

"إن العرب هم خيار الناس..

وقبائلهم أفضل القبائل ولسانهم أفصح الألسن ولقد اشتهرت أمة العرب جاهلية وإسلاماً بالفضائل".

* فى الفكر السياسى:

"إن الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى وإسعادهم فى بلادهم وكانت سبباً فى حبهم لأوطانهم".

* فى الفكر الاجتماعى:

"إن منبع السعادة الأول هو العمل والكد، وإن أعظم حرية فى المملكة الكتمدنة هى حرية الفلاحة والتجارة والصناعة".

* عن المرأة:

"يمكن للمرأة أن تتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال ...

فالعمل يصون المرأة عما لا يليق بها ويقربها من الفضيلة وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء!".

* قالوا عنه:

* د. أحمد أمين:

"كفى رفاعة شرفاً أن يكون أباً للفكر الحديث، وكفى مصر فخراً أن تجنب مثل هذا النابغة العظيم".

* د. مهدى علام:

"هذا الرجل جاد به الزمن حين كان الزمان شحيحاً بالرجال، وجاد هو على الزمان فى أيام شح فيها الرجال بالأعمال".

* أ. د. محمد أحمد حسين:

"إن رفاعة الطهطاوى أحد أركان النهضة العربية العلمية، بل إمام هذه النهضة فى مصر".

المصادر والمراجع :

١- رفاعة الطهطاوى — د. محمد عمارة

٢- رواد التنوير الفكرى — د. شبل بدران

٣- تاريخ الفكر المصرى الحديث — د. لويس عوض

٤- عصر رفاعة الطهطاوى — عبد الحميد حسن

٥- رفاعة رافع الطهطاوى — د. محمد الشيال

٦- مناهج الألباب — رفاعة الطهطاوى

٧- المرشد الأمين — رفاعة الطهطاوى

٨ ـ رفاعة رافع الطهطاوي — الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٨٠م.

٩ ـ رفاعة الطهطاوي في المرشد الأمين — الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٨٦م

على مبارك

أبو التعليم في مصر

بقلم : أبو مسلم يوسف

عضو اتحاد كتاب مصر

استهلال :

- كم حكى لنا التاريخ في سير العظماء كسيرة على مبارك التي هي سيرة لقدرته وإبداعه ومواهبه المتعددة وما استطاع من استثمار هذه القدرة والموهبة والإبداع وتوظيفها من الخير والنفع الكثير لمصرنا الحبيبة .

- فعلى مبارك إنسان دءوب مثابر يؤمن بحق وطنه عليه فيضع كل قدرته لخدمة هذا الوطن ورفع شأنه فهي سيرة عظيم تكمن عظمته بقربه من الحاكم وتوجيه إرادة الحاكم للهدف الذي ينشده ويرضيه لخدمة بلده وتكمن بطولته في المهارة التي يؤدى بها الرجل دوره الوطني.

- وتقاس عظمة على مبارك بالأثر التاريخي الذي نجم عن دوره ، ويُعد على مبارك رجل دولة كفيء : خدم المجتمع عن طريق الدولة وتميز عن جيله أو رجال عصره بنوع من العظمة والبطولة ، فهو ليس بطلا حربياً وزعيماً عسكرياً وثورياً

كأحمد عرابي يتصدى لموكب التاريخ ولكنه يمشى في رِكاب التاريخ ويُملــى إرادتــه ويترك بصمته على الزمن الذي عاش فيه ، يُمكننا القول أن على مبارك قد أسهم في تاريخ حركة الاستنارة التي سبقت الحركة العُرابية ومهدت لها ، وهى الحركة التــي حمل شعلتها جمال الدين الأفغاني وشاركت فيها الصحافة الشعبية وكانت ثمــرة مــن ثمار انتشار التعليم .

على مبارك ... السيرة الذاتية :

- ولد على مبارك فى قرية برنبال الجديدة - مركز دكرنس - مديرية الدقهلية عــام ١٨٢٤م / ١٢٣٩هـ .
- اجتاز مراحل التعليم المختلفة حتى وصل إلى مدرسة المهندسخانة واجتازها وكان أول دفعته واختاره سليمان باشا الفرنساوى عام ١٨٤٤ ممن اختارهم لدراسة الفنون الحربية في المدرسة المصرية الحربية بباريس وهى مدرسة أنشــأها محمــد علــى بباريس .
- وهذه البعثة سميت (ببعثة الأنجال) لأنها ضمت من أنجال محمد على وأحفــاده أربعة ورغم ذلك فقد تميزت هذه البعثة بعضهم عن بعض ، فالأمراء : هم أصــحاب السعادة البكوات ، أبناء الذوات : البكوات ، والباقي هم الأفندية.
- وعاد على مبارك من البعثة عام ١٨٥٠م وعاش فتــرة حكــم عبــاس وســعيد وإسماعيل وتوفيق .
- توفى على مبارك الملقب بـــ : أبو التعليم في ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٣م عن عمر يناهز التسعة وستون عاماً بعد كتابته صفحة ناصعة البياض في تاريخ مصر مازالت صورتها باقية حتى الآن وسوف نوضح أحوال البلاد في عصر ثم نتعرض لنشأته ثم لمشوار كفاحه ثم لأعماله بصفة عامة وأعماله في مجال التعليم بصــفة خاصــة ثــم مؤلفاته التي كان لها الأثر الكبير في التعليم وتثقيف وتأهيل المعلم ليؤدى دوره على أكمل وجه .

أحوال البلاد في عصر على مبارك:

- لابد أن نلقى نظرة موجزة على العهود التي عاشها على مبارك والتي أثرت فـي شخصية وأحوال البلاد التي كانت تمر بها ، فقد لحق على مبارك عصر محمد علـى ونشأ في مدارسه وسافر في بعثة الأنجال إلى فرنسا عام ١٨٤٤ أفنديا حيـث كانـت تضم هذه البعثة بعض الأمراء وهم كانوا أصحاب السعادة وأبناء الذوات وغيرهم من الأفندية وكان الخديوي إسماعيل من أصحاب السعادة والأمراء وكان معه من أبنـاء الذوات البكوات محمد شريف باشا ناظر النظام ، وكان من ضم الأفندية مثـل علـى مبارك نوبار باشا ناظر النظار أيضاً ثم حمادة باشا عبد العاطى وعلى باشا إبراهيم ٠

- وعاد على مبارك من البعثة مع رفيقه حمادة عبد العاطى وعلى إبراهيم أوائل حكم عباس ومضت الحياة بهم يتلاقون ويفترقون في خدمة مصر وخدمة كل من الخديوي عباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق وشهدوا مرحلة التحول في تكوين المجتمع المصري وفى أفكار المصريين في تلك الآونة ٠

وكانوا هم أنفسهم من معالمها البارزة حين قفزوا من صفوف المغمورين إلى صفوف السادة من الحكام فكانوا نواه لطبقة مصرية جديدة شاركت الطبقة التركيـة الثـراء والحياة بما نالوه من وظائف الدولة وبما نالوه من خير من ولى النعم ، وبقيت هـذه الطبقة تدين بالولاء وللنظام القائم دون الطبقة التركية ذاتها كطبقـة موجـودة فـي المجتمع المصري وبجانب هذين الطبقتين نشأت طبقة من أعيان الريف كـان العمـد والمشايخ نواتها الأصلية وظهرت وبرزت بقيام مجلس شورى النواب حيـث كانـت اللائحة تقول :[يتألف مجلس شورى النواب من عدد لا يزيد عن ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها فـي المـديريات وجماعـة الأعيان في القاهرة والإسكندرية ودمياط] ، فجاء مماثلا بطبقة مصرية صميمة لعبت دوراها ما في أحداث النواب التالية وغدت أساسا لطائفة مميزة مـن كبـار المـلاك

المصريين وكان ولاء هذه الطبقة إلى ذاتها ومصالحها فهي لا تدين بالولاء للخديوي بقدر ما يعود هذا الولاء من مكاسب ، بخلاف طبقة الموظفين التي نشأت في مدارس محمد على فهي تدين للنظام، وطبقة – باقي المجتمع ـ الذين ظلوا بعيدين عن الأحداث .

إن هذا هو البناء الاجتماعي في عصر إسماعيل وشهده على مبارك وكان يعتقد على مبارك ويؤمن أنه إذا انتشر التعليم بين المصريين فإنهم سيعملون محل هؤلاء الشراكة ولكنه كان صبورا لا يتعجل هذا التغيير ، فكان يحذر الضباط من العنف والثورة خشية أن ينتهي العنف إلى غير ما يأمل هو ، فقد كان رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك ممن أتيح لهما أن يمهدا الأرض للتحول الفكري لأنهما اهتديا إلى الأساس الذي يقوم علية بعث مصر ونهضتها الحديثة فاستقامت حركة تجديد الفكر المصري على يد رفاعة وحركة التعليم على يد على مبارك .

فكان رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك يعلمان أن حرية الحركة والانتشار في العمران والنهضة والتقدم لا يمكن أن تتم إلا برضاء الحاكم ، فما كانت المدارس تفتح إلا بأوامره والكتب تطبع إلا بإرادته .

– وبدأت المواجهة الغربية بدورها تشكل عقول الناس فأخذوا يحاكون الأوربيين في أزيائهم ومساكنهم ومأكلهم ويقبلون على التعليم الحديث ويقتنون الكتب ويحضرون الندوات العلمية وانتشرت الصحف الأدبية والسياحية وامتدت الموجه لعقول المصريين واطمأنوا إليها .

وبعد فترة ما لبثت أن أصابها من العنف والتوتر ما أصاب الحركتين الفكرية والاجتماعية ، فكان التحول ـ الذي لم يشهده رفاعة الطهطاوي وشهده على مبارك ـ موجه من الفقر بعد أن أرهق محمد على مصر بطموحه وآماله العريضة ، فلم يكن غريباً تقدم أعضاء الشورى في دورته الأولى عام ١٨٦٦ باقتراح تعميم التعليم الإبتدائى لأن الناس قد أخذوا يدركون أهمية وضرورته للتقدم وانتهت الأمور في مصر بعد كثرة ديون إسماعيل إلى التدخل الأجنبي في شئون مصر ، وكانت البداية

إنشاء صندوق الدين وفرض الرقابة الثنائية وقيام الوزارة المختلطة وتنتهي بالاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م ، فكانت ستة أعوام لم تشهدها مصر في تاريخها الحديث ، وكان الشعب في نظر الخديوي إسماعيل ليس شيئاً يخشاه أو يقيم له حساباً ، فهو لم يكن إلا كما يريده إسماعيل البقرة الحلوب التي تدر الضرائب لإقامة الميزانية ، لذلك لم يتحرك المصريون للتدخل الأجنبي وحينا صدرت جريدة (نزهة الأفكار) عام ١٨٦٩ وكتب فيها نقد للجيش وشئونه أغلقها إسماعيل .

وبدأ التحول يدب من جديد فلم يعد الناس يعتبرون شئونهم العامة والخاصة ملكاً للحاكم كما كان من قبل ولم تعد ذات الحاكم مقدسة مصونة بل هو إنسان يجرى عليه النقد كما يجرى على غيره وظهر هذا التحول على صفحات الجرائد وفى مناقشات مجلس شورى النواب وشعرت أوربا بالقوى الجديدة التي تلعب دورها في مصر وبعنف التحول الفكري الذي يغرى المصريين بالحركة ويمنحهم القدرة على التحدي ، فرأت عزل إسماعيل بعد فشلها في إجباره على التنازل عن العرش وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وصلت برقية من الباب العالي بخلعه وبرقية أخرى بإسناد منصب الخديوية إلى توفيق، ولم يحرك المصريون ساكنا لعزل إسماعيل بعد أن زار توفيق يعطف على مطالب المصريين ويميل جانبهم ، ولما استتب أمرهم أقال الوزارة وشكل وزارة برئاسته هو واستدعى رياض باشا وكلفه بتشكيل وزارة جديدة وكانت البداية التي أدت إلى الثورة العرابية وبدأوا في العمل السري وفى نوفمبر صدر أول بيان سياسي يندد بالخديوي وأرسله أديب إسحاق إلى باريس حيث أصدر جريدة القاهر فكانت أعنف الصحف التي حاربت رياض وسياسته وتم توزيعها في مصر، وهيأت كل هذه القوى مجتمعة بزعامة أحمد عرابي وللدور الذي ينتظره وأصبح عرابي شخصية مرموقة ــ ليس في الجيش وحده ــ ولكن في كل أنحاء البلاد ، وعند كل المصريين وأنه وحده دون الزعماء الوطنيين الذي تصدى للخديوي ولحكومته المستبدة وأجبرها على تنفيذ مطالبه، واكتملت قوى التحول الفكري على يد جمال الدين الأفغاني جاء فوجد التربة سهلة مهدها له رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك لبذره وغرسه .

وعاش على مبارك هذه الأحداث جميعاً وقد نأى بنفسه عن هذه التيارات ، ولكنه لم يتخذ أي موقف ضد الوطنيين كما وقف رياض باشا ، وبقى على الحياد يراقب الأحداث دون أن يشارك فيها، وإن كان كما قلنا مهد الأرض لهذه الأحدث بثورة التعليم بالمدارس التي وجدت طبقة من المصريين يشعرون بالظلم والاستبداد وبقسوة الحاكم.

نشأة على مبارك:

- ترجع أصول أسرة على مبارك إلى قرية الكوم والخليج على بحر طناح وبسبب فشل كبير حصل في بلدته تشتت عائلته في البلاد وأقام جده الأكبر إبراهيم الروجى بناصية برنبال الجديدة وكان أمام وخطيب وقاض القرية ، وخلفه ابنه سليمان على وظيفته ، ثم ابنه مبارك ، وهو الجد الأدنى لعلى مبارك ، وكانت تعرف هذه العائلة في بلدهم بعائلة الشيوخ ، ثم فروا من هذه البلد بسبب الخناق عليهم من كثرة الضرائب وتفرقوا في البلاد : فنزل والد على مبارك بقرية الحماديين شرقية وكان عمر على مبارك ست سنوات ثم ارتحل والده إلى عرب السماعنة بالشرقية الذين بنى أهلها لوالده مسجداً ليقيم فيه شعائر دينهم ، وكان قد تتلمذ من قبل في برنبال على يد فقيه أعمى يسمى أبا عسر ليعلمه القراءة والكتابة ثم إلى معلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردي قرب قرية برنبال وختم عنده القرآن ، ثم نسى ما حفظه ، وحاول والده إرساله للشيخ مرة ثانية ، ولكن من كثرة ضرب هذا الشيخ له رفض الحضور له مرة أخرى وقرر وقتها ألا يكون فقيها في الدين بل رغبته أن يصبح كاتبا ، فقد كان يرى على مبارك أن للكتاب حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام وإن دل على ذلك يدل على أن هذا الطفل لديه ذكاء فطرى يزن الأمور ويقدرها ثم أرسله والده إلى رجل صديق له بناحية[الأخيوه] لتعليمه ولكن هرب من قسوته واستقر به المقام بأخ له في برنبال الذي أرجعوه إلى والده ليعمل مع صاحب لوالده من كتبة المساجين

ولكن طرده بعد ثلاثة شهور ثم عمل مساعدا عند كاتب في مأمورية أبوكبير بماهية خمسين قرشاً ولم يُقَبضه الكاتب مرتبه لمدة ثلاثة أشهر ثم اقتصر راتبه من نقود كلف بتحصيلها فغيظ الكاتب من ذلك وزج به في السجن وتوسط والده لي وخرج من السجن وحاول الذهاب إلى قصر العيني حيث الطريق إلى التعليم بالمدارس هناك ، وفى الطريق يجد أطفالا يجلسون تبين له أنهم تلاميذ في مكتب منية العز ويحاول أن ينضم معهم فيمنعه أحد معارف والده ويأخذه والده ويحبسه عشرة أيام ليطلق سراحه ليرعى الأغنام لهم ، ويفر من جديد ليعود إلى صفوف المكتب ثم لمدرسة القصر العيني ، حيث أخبره خادم المأمور عنبر أفندي أن الطريق إلى التعليم في مدرسة القصر العيني وأن الحكام لا يؤخذون إلا من المدارس ، وتحول القصر العيني إلى مدرسة للطب ونقلت مدرسته إلى أبو زعبل ، وتعلم جميع مواد الهندسة والحساب ، وبعد أربع سنوات اختير لمدرسة المهندسخانة فأتم دروسها بعد خمس سنوات ، وكان أول فرقته طوال الخمس سنوات ــ [والألفة] وألفتها كما يقولون ــ ثم أوفد إلى فرنسا كما قلنا ضمن بعثة الأنجال .

- ووفاءً لأهله كان على مبارك يرسل لهم من راتبه شهرياً مائتين وخمسين قرشاً يصرف لهم من مصر كل شهر .

- ظل على مبارك ساهراً على المطالعة والحفظ حتى حصل على الجائزة الثانية للتقدم [وهى كتاب جغرافية مالطبرون الفرنساوى وأطلسها وتعين الثلاثة الأوائل من فرقته في مدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بناحية ميتس في مملكة فرنسا وأعطى رتبة ملازم ثاني وظل بها عامين وتعلم فيها في الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية والألغام وفن الحرب ، وبعد سنتين بها واجتيازها عين [بالآلاى الثالث من المهندسين الحربيين] وظل به عاما وعاد إلى مصر وطلبة حسن باشا المناسترلى [الكتخدا] حين زوكوا بآخرين وأنعم عليه برتبة يوزباشى أول تعين خوجة بمدرسة طرة ثم تزوج من ابنة معلمه في

الرسم بمدرسة أبى زعبل وكان والدها قد مات وصارت إلى حالة من الفقر فقام بزواجها لما لوالدها من حق التربية والمعروف عليه .

– ويعود لقريته بعد ١٤ عاماً وكان أهله قد رجعوا إليها ويجلس بها يومين ثم ينعم عليه سليمان باشا بإلحاقه بمعية جاليس بك ويسافر ليقابل الخديوي عباس ليخبرهم أنه ألحقه بمعيته ويأمره بامتحان مهندس الأرياف ومعلمي المدارس لأن الكثير منهم لا يعرفون شيء وينعم عليه برتبة الصاغقول أغاص ويعطيه نيشان الرتبة ويحال عليه أعمال أخرى مثل تيسير الملاحة خلال شلال أسوان وتحويل مياه البحر عن منفلوط وطلب الخديوي عباس منه وبعض زملائه مشروع سمي (لامبيريك) لتنظيم المدارس وعملوا تكلفته فلم يوافق عليها عباس لكثرة نفقاتها فعمل على مبارك مشروع آخر خفض فيه الميزانية ولقي موافقة وأنعم عليه الخديوي برتبة أميرالاى وجعله معلم لنجله إلهامي باشا ثم عمل التنظيم الجديد للمدارس وأصبح على مبارك ناظراً لمدرسة المهندسخانة حفظ لها مستواها رغم قلة ميزانيتها وظلت مركز للحركة التعليمية والعمرانية تؤدى خدمات جليلة للبلاد في تلك الفترة القصيرة .

مشوار كفاح على مبارك:

أسند لعلى مبارك التنظيم الجديد للمدارس وأصبح كما قلنا ناظراً لمدرسة المهندسخانه وألف في العمارة كتاباً بقى متبعاً في التعليم بالمدارس وأن لم يطبع ونجب على يديه تلاميذ كثيرة وترقى كثير منهم إلى الرتب العالية وشاع الثناء عليهم وكانت روح المعلم التي تسدد خطاه وهونت عليه كل صعاب فتقدمت المدارس المدنية وأثمرت في الوقت الذي عصفت فيه الأهواء بمدرسة الطب ومدرسة الولادة فساء أمرهما وانتهى بمدرسة الطب البيطري إلى الإلغاء ولولا رعاية عباس للمدرسة المفروزة التي أنشاها لكان مصيرها مصير غيرها .

– وظل على مبارك قائماً على التعليم المدني حتى تولى سعيد ، فأقاله وألحقه

بالقوات المصرية المحاربة في القرم عام ١٨٥٤ والتي كان يقودها أحمد باشا المنكلي وودعه تلاميذه ووقفوا تجاه المركب يبكون على وداعه وظل هناك ما بين القرم والأناضول قرابة عامين ونصف العام.

- وبعد عودته فوجيء بأمر الخديوي سعيد بتسريح جنود الحملة وفصل عدد من الضباط كان على مبارك منهم .

- وكانت هذه الأيام محنة على مبارك الذي تم فصله من وظيفته في حياته العامة وفشله في حياته الخاصة في زواجه الثاني بعد وفاة زوجته، ورغم المحنة التي مر بها على مبارك لم تغير في نفسه ولم يحمل في قلبه حقد أو ضغينة لأحد وبقى كما هو يعمل على خير الجماعة أكثر مما يعمل لنفسه .

وبدأ يستعد للعودة إلى القرية للعمل بالزراعة ، وأثناء استعداده صدر أمر أن جميع الضباط المرفوتين يحضرون للقلعة للفرز لإختيار القادرين على الخدمة وكان آدهم باشا أحد القائمين بهذا الفرز يعرف على مبارك ، فأعفاه من ذلك وقام بتعينه معاوناً بديوان الجهادية للنظر في القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجنحانات وغيرها من ملحقات الجهادية وظل بها حتى كلفه إسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان برسم بعض المناورات العسكرية فرسمها واثني عليه وأمره بنقله إلى مستودعي الداخلية بعد ذلك وظل بها حتى عين وكيلاً لمجلس التجار ولم يبق فيه غير شهرين وعاد عاطلاً من جديد وظل كذلك ثلاثة اشهر ، حتى عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلي ولم يبق فيها غير شهرين واستدعاه سعيد وكلفه بوضع مشروع استحكامات الحماد كما كلفه على باشا إبراهيم بالكشف على الجانب الغربي من النيل واشتغل مدة بلا ماهية أو مرتب ، وحاول عرض المشروع على سعيد باشا مدة طويلة ولن يتمكن من عرضه ، وحضر على باشا إبراهيم واصطحبه معه في السفر ثلاثة اشهر بلا ماهية .

ثم صدر له أمر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة ورغب العمل لاعتبارها فرصة لتعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم وطبع كتاب لهم اسمه (تقريب الهندسة) طبع على مطبعة الحجر.

- ويفصل مره أخرى من الخدمة واشتغل بالتجارة وربح منها وأدى التزاماته المادية الكثيرة ، وبالفعل ــ كاد ــ أن يصبح تاجراً عظيماً لما أوتى من ذكاء وقــدرة علـــى الابتكار والتكييف .

جاء نبأ وفاة الخديوي سعيد ليتحول مسار على مبارك تحويلاً آخر وأتت على مبارك الفرصة فقد ألحقه إسماعيل بمعيته واستشاره في أمر القناطر الخيرية وكانت عيــون القناطر لا تقفل ، كما قرر المهندسون ، خوفاً على جدرانها وكانت وقتها مياه النيــل تتجه إلى فرع رشيد وتقل عند فرع دمياط مما أدى إلى قلة مياه الري فــي الجانــب الشرقي من الدلتا مما أثر على الزراعة الصيفية بها ، وقال رأيه ، فأسعد الخــديوي إسماعيل هذا الرأي وعمل على مبارك أن تكون وسيلته للغاية التي ينشدها وهو تعليم أبناء الوطن لأنه يرى أن التعليم مرقاة الأمم والشعوب وهذه هي الغاية التي ينشدها ، لذا رفض أن يكون زعيماً شعبياً ولم يتصدى طوال حياته لقيادة الجمــاهير ، حتــى عندما قامت الثورة العرابية ظل بعيداً عنها لأنه يرى تحقيق غايته في عملــه وفيمــا تمنحه الدولة من قدرة على العمل المثمر ، وقد كان الخديوي إسماعيل يرى منه أنــه رجلاً يستطيع عمل ما يعجز عنه الآخرين ، وتتقابل قدراته مع رغبة الحاكم وقد تحقق على يديه بأقل نفقة وأحسن نتيجة .

وتم تعينه ناظر للقناطر الخيرية في خدمة معيــة إسماعيل باشــا عــام ١٨٦٥ .

- واختير ممثلا للحكومة المصرية في لجنة تقدير أراضى شركة قناة السويس وقــد وافق ومنحه إسماعيل باشا رتبة المتمايز ومنح النيشان المجيدى من الدرجة الثالثــة ومنحته فرنسا نيشان اللجبون دونير من رتبة ضابط .

- وفى عام ١٨٦٧م تم تعينه وكيلاً عاماً لديوان المدارس وبقائه ناظراً على القناطر الخيرية وكان قد تقدم بمشروع (لائحة) لإصلاح التعليم في مصر

وبعد قليل انتدب للسفر إلى باريس في مسالة تخص المالية وبعد عودته نــال رتبــة الميرميران علم ١٨٦٨م وأصبح على باشا مبارك وأحيل إليه أيضا ديــوان الأشــغال

العمومية وإدارة السكك الحديدية ونظارة عموم الأوقاف مع بقائه في المعية الخديوية ثم انفصلت عنه ديوان السكة ثم ديوان المدارس والأشغال بسبب وشاية عند الخديوي من إسماعيل صديق (المفتش ناظر المالية حينذاك) ثم عاد إلى ولاية المدارس وأحيلت إليه إدارة المكاتب الأهلية ثم أدمجت هذه الدواوين مع بعضها وتحولت إلى الأمير/حسين كامل وبقى على باشا مبارك معه مستشاراً له ثم عين على مبارك وكيلاً للأشغال العمومية ثم صدر قرار بفصله منها بعد شهرين وتم تعينه عضواً " بالمجلس الخصوصي " ثم أعيد إلى الخدمة رئيس أشغال الهندسة بديوان الأشغال ثم عين مستشاراً لها بعد ذلك ٠

- إلى أن تم تعينه في وزارة نوبار باشا عام ١٨٧٥ ناظراً للأوقاف والمعارف وظل في منصبه في وزارة توفيق حتى سقط وبقى بعيداً عن الحكم حتى تولى الخديوي / توفيق مصر وعين على باشا مبارك عام ١٨٧٩ ناظراً للأشغال في وزارة محمد رياض حتى استقالت في سبتمبر ١٨٨١م ثم عين في وزارة شريف باشا الرابعة بعد الاحتلال ناظراً للأشغال حتى استقالت في يناير ١٨٨٤ ثم عاد إلى الوزارة ناظراً للمعارف العمومية في عام ١٨٨٨ وبقى حتى عام ١٨٩١ وكان هذا آخر منصب يتولاه على باشا مبارك ولزم منزله ثم سافر إلى بلدته لإدارة أملاكه حتى مرض بداء المثانة فرجع إلى مصر واشتد عليه المرض وتوفى بداره بالحليمة الجديدة في ١٤ نوفمبر ١٨٣٩م ٠

أعمال على باشا مبارك:

- كان على باشا مبارك يقول إن الحافز الذي يدفعه إلى العمل النافع المثمر هو أن يخدم وطنه بكل ما نالته يده وما بلغه من مكانة وكانت وسيلته إلى ذلك هي الأوامر الخديوية التي تمثل سلطة الدولة العليا والأثر هو السجل الحافل من الأعمال الجليلة التي تمت على يديه والتي عادت على مصر بأعظم النفع واستطاع أن يوفق بين

حاجة الدولة ونظامها وما يقتضيه حبه لبلاده وهو نوع من الوطنية عنـــدما تعصـــف الدولة بحقوق المواطنين

- وضع ميزانية للتعليم مخفضة حين عهد إليه الخديوي عباس ذلك لعـــدم اهتمـــام الخديوي بالتعليم لاستمرار العملية التعليمية حين قدم مشروعه وقت ذلك .

- وقام أيام الخديوي سعيد يدور في حملة القـــرم فانشـــأ اســـتباليه للجنـــود فـــي كموشخانة بالتبرعات .

- وفى عهد الخديوي إسماعيل قام بتنظيم المدن بما يحقق رغبة الخديوي في رفعه حواجز البلاد ومدنها الكبرى لتكون على غرار المـــدن الأوروبيـــة فقامـــت المبـــاني والعمائر الجديدة وامتدت الشوارع الواسعة تحف بهـــا الأشـــجار وأقيمـــت قصـــور الإسماعيلية وبساتينها وشوارعها وبنى جسر قصر النيل ليصل القـــاهرة بـــالجيزة ، وأنيرت المدينة بغاز التنوير والتجديد الذي تم في الإسكندرية والسويس مـــن عمـــل الميناء ، وما رسم فيه المديريات من الجسور والقناطر والترع التي كـــان أعظمهـــا ترعة الإبراهيمية وترعة الإسماعيلية ، وعدل لائحة السخرة ووضع نظاماً للعمل في حفر وتطهير الترع .

وكان ديوان الأشغال قبله يستخدم كتائب الجيش لنقل الأحجار اللازمة لصيانة جسور النيل فاستعاض عنها بالتعاقد مع المقاولين لتوريد الأحجار اللازمة وأعفى الجيش من السخرة وحقق وفراً في النفقة وزيادة في كمية الأحجار اللازمة .

- عندما تولى السكك الحديدية عام ١٨٦٨ أخذ يعالج أمورها ليتقـــدم بهـــا للقيـــام بوظيفتها على أكمل وجه لراحة وخدمة المواطنين في كافة المحطـــات والمقطـــورات والمخازن وخاصة أن الخديوي إسماعيل كانت السكك الحديدية من أهم أهتماماته .

- وحين تولى دويان الأوقاف وكان وقتها أيضا مديراً للمدارس جعـــل كـــل منهمـــا يساعد الآخر وييسر لمن أكمل دراسته الأزهرية في الابتدائية بمكاتب الأوقاف الدخول للمدارس التجهيزية والتدرج فيها للمدارس العالية وكان في هذا العصر يـــتم إيقـــاف بعض الأهالي فأحيلت في عهده بعض الأوقاف وانتفعت بها المـــدارس ولمـــا شـــعر

بفسادها رد إلى ديوان الأوقاف وشملها بإشراف ديوان المعارف تحقيقاً لرغبة الواقف ومنفعة التعليم ... كما أنشـــأ مأمورية للأوقاف في كل أقسام القـاهرة يرأسـها مهندس يشرف على عمائر وأراضـــى الأوقاف وانشأ إدارة لأوقاف الوجه البحـري مركزها طنطا ٠

- وعندما تولى نظارة الأشغال العمومية عام ١٨٧٩ كان يراها أنها الأساس الأعظم للثورة وقسم الديوان إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي : قسم التحريرات والمحاسبة وقسم التصميمات لما يلزم تحديده من الأعمال وقسم يختص بالقاهرة وكافة مـدن القطـر والأقسام الفرعية وهي قسم الزراعة وقلم المصالح وقلم الانجرارية وقلم القضاء كما قسم الأعمال الهندسية إلى خمسة تفاتيش تتبع وكيل الوزارة وجعل الإشـراف علـى أعمال الري للمهندسين ومد ترعة الإبراهيمية لري أراضى بنى سويف وطهر ترعـة الإسماعيلية وبحر موسى والشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط وريـاح المنوفيـة ورياح الغربية واستخدم الكراكات في تطهيرها وعمل استباليا المنصـورة والغربيـة وعمل قانون للذبح وبنى مجموعة شون للمصالح وقراقولات للعساكر ووفر مياه الري للزراعة أيام التحاريق وعند هبوط الفيضان بإقامة آلات لرفع المياه ويقال أن عملـه في وزارة الأشغال في عهد الاحتلال أثمر منه في وزارة المعارف وإن بقى أبو التعليم مهتماً بالتعليم والمعلمين ٠

أعماله في مجال التعليم:

- نسب بعض المؤرخين إلى على باشا مبارك أنه صاحب اليد العليا في التعليم وأنه هو الذي أقال عثرته ونهض به من كبوته وعمل على نشره بين الكافة ..

والحقيقة أنه هو الذي نظم ونفذ فتمثل نظامه التعليمي إرادة عصره أو الحاكم فكـان على مبارك يوجهها أحسن توجيه لتثمر على يديه أحسـن الثمـر وكـان الخـديوي إسماعيل قد أخذ منذ أن تولى في إحياء المدارس القديمة وإنشاء غيرها علـى غيـر سياسة مرسومه وكانت بداية التفكير في صوغ سياسة مرسومه للتعليم هي التي قام

بها على مبارك وهى التي قرنت اسمه بالنهضة التعليمية واستحق من أجلها أن يلقب (بأبي التعليم) فقد كان يرى أن التعليم للشعب وليس لسد حاجة الدولة من الإداريين والفنيين ولن يصلح التعليم مالم تصلح المدرسة ويصلح المعلم ولم يثمر ما لم يتكيف مع البيئة وتكون البيئة ذاتها مجالاً صالحا لتقبل التعليم والحفاوة به .

- بذلك اهتم بإعداد المعلم وإعداده بإنشاء دار العلوم والاهتمام بالمستوى الثقافي المعرفة فأنشأ دار الكتب وقاعة للمحاضرات العامة وأنشأ القرار المعروف بلائحة رجب ١٢٨٤ واضطلع على مبارك بالتنفيذ وشملت مقدمه وخاتمة وأربعين مادة في ثلاثة أقسام وأباحت اللائحة هبات الأهالى للتعليم وتنص اللائحة على إنشاء أربعة مدارس مركزية في بنادر المديريات البحرية بالتدريج حسب الأماكن وأربع مدارس في بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا ، ويقوم الأهالي بتكاليف بناء هذه المدارس وتزويدها بالأدوات في مديرياتهم ووضع برنامج للدراسة في المدارس باللائحة وكذلك حددت اللائحة الزى المدرسي لتلاميذ المدارس المركزية والخاتمة كانت تعريف بأغراض التعليم وتوجيه المعلمين تتمثل فيها روح على مبارك وطريقته في التعليم والتربية كما يرى هي اكتساب الأدب وحسن السلوك والتعليم هو حصول أبناء القطر المصري على ما يوجب إصلاح شأنهم وشأن أهاليهم ليفوز الوطن بثمرة التقدم لأبنائه جميعا واتساع دائرة المعارف ، وتم العمل بهذه اللائحة حوالي عشرة سنوات حتى عرض على باشا إبراهيم ناظر المعارف عام ١٨٧٩م مذكرة فيها جوانب النقص في نظام التعليم واقترح الوسائل لتنفيذها وشكل قمسيون لدراستها عام ١٨٨٠ وانتهت أن يكون ناظر المعارف مسئولاً عن تنفيذ مقترحاته وفى مارس ١٨٨١ صدر المرسوم بإنشائه من أربعة وعشرين عضواً منهم على مبارك ناظر الأشغال والشيخ محمد عبده وجاء الاحتلال البريطاني فلم ترى التوصيات النور .

- كان على باشا مبارك لا يعنيه إلا أن يعلم النلس ما تعلم فإن أخذوا بعضه وأهملوا البعض الآخر فهو خير وأن أخذوه كله فهو كل الخير ولقد أدرك نعمة التعليم عليه وفضله فيما وصل إليه في وطنه ....

فيقول [حتى صرت من أبنائه المعدودين ورجاله المعروفين] وعلى أن أفيَ بدينه إلى
وإن كان على يقين من أنه وإن استوفى الجهد وقضى العمر في خدمته لم يقوم بعشر
معشار ما عليه من واجباته ، فكان على مبارك يريد لكل مواطن أن يكون على مبارك
آخر فلا يكتفى بافتتاح المدارس أو إعداد المعلم الصالح أو تيسير وسائل الثقافة
للكافة بل يلج ميدان التأليف ليزجى إلى الناس علمه ومعرفته ويدلى إليهم برأيه
وفكره .

- فكانت أكثر كتبه التي ألفها كتب مدرسيه كتبت للمدارس أو للمبتدئين
في دراسة العلوم الهندسية أو لنشر البسائط العلمية (تبسيط العلوم كما
نسميها) التي يحتاجها الناس في حياتهم ، أما القليل منها فهي الأثر الخالد
لجهده العلمي .

مؤلفات على مبارك :

١ - تقريب الهندسة : -

وقد وضعه لاستعمال العسكرية المصرية وطبع لأول مرة على مطبعة الحجر ببولاق
في أوائل عام ١٢٨٠ هـ ويتضمن تسهيل وتقريب فن الهندسة لأذهان المبتدئين .

٢ - حقائق الأخيار في أوصاف البحار : -

وهى خلاصة مؤلف جليل في علم البحار وطبع بمطبعة وادي النيل بالموسكى عام
١٢٨٧ هـ ويتكلم عن البحار بأنواعها وتركيب مياهها وخلجانها وتياراتها ومدها
وجزرها وكثبانها وشواطئها إلى آخر ما يتصل بعلوم البحار .

٣ - خواص الإعداد : -

وطبع بمطبعة المدارس الملكية بضرب الجماميز عام ١٢٨٩ هـ ويتناول الخواص
المميزة للإعداد وبعض ما يتصل بالرياضيات وسماه الجدول الوفقى .

٤ – تنوير الإفهام في تغذية الأجسام : –

وضع بمطبعة المدارس الملكية عام ١٢٨٩ هـ ويتناول التغذية الصحية .

٥ – تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين : –

وطبع بمطبعة المدارس الملكية عام ١٨٩٠م ويبحث في المساحة والخطوط الحديدية والقناطر والأحجام والمباني والمقاييس والمسطحات وكل ما يحتاجه البادي في دراسة الهندسة .

٦ – حروف الهجاء والتمرين على القراءة : –

وطبع بمطبعة وادي النيل العربية والأفرنكية بباب الشعرية عام ١٢٩٧ هـ وهو لتعليم القراءة والكتابة .

٧ – الميزان في الأقيسة والمكاييل والموازين : –

طبع بمطبعة بولاق عام ١٣٠٩ هـ ورد الأوقية والأوزان إلى أصولها المصرية القديمة .

٨ – أعمال لدنياك كأنك تعيش أبدا : –

وهى عبارة عن رسالة في شرح الحديث الشريف ولم تطبع .

٩ – خلاصة تاريخ العرب : –

كتاب ترجمة للمتشرق الفرنسي [سبديو] ، وطبع في مطبعة مصطفى محمد مجوس قدم عام ١٣٠٩ وهو يتكلم عن خلاص تاريخ العرب ولم يدع صغيرة أو كبيرة في تاريخ العرب إلا أحصاها .

١٠ – نخبة الفكر في تدبير نيل مصر : –

تم طبعه في مطبعة وادي النيل ونشر عام ١٢٩٨ هـ تناول تاريخ الديار المصرية وتعليمات الحوادث بها من مبدأ تاريخها إلى تاريخ نشرة وبيان ارتباط سعرها وشقائها بتدبير مياه النيل .

١١ – علم الدين : –

وفيه تتجلى روح المعلم وطبيعته وأهدافه الذي يغذى الناس بالمعرفة ويهديهم إلى الصلاح وينمى فيهم القدرة على النضج والاعتمال ويعتبر موسوعة كبيرة حوت كثيراً من المعارف والحكم وتقع في أربعة أجزاء ألف وأربعمائة وست وثمانين صفحة وكثير في إطار قصة متكاملة تنسق فيها البداية والنهاية ليكون كتاباً للمعرفة يلتقي فيه الشرق والغرب على وفاق .

١٢ – الخطط التوفيقية : –

ويعتبر أثره الخالد دون شك على مر السنين ولو لم يكن له كتب غيره لكفاه خلودا على مر الزمن ويسميها الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة في ٢٠ جزءاً على نسق خطط المقريزى فوصف مدن مصر وقراها ووصف طبوغرافيتها ويصف ما بها من منشآت ومرافق عامة مثل الأخرجة والمساجد والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والحمامات والمصنع والقصور إلى آخره .

وسار في تأليفه على المنهج العلمي للتاريخ في القرن التاسع عشر وهو المنهج الذي اتبعه رفاعة الطهطاوي ويقوم بحشد الأسانيد والمصادر والوثائق قديما وحديثا على اختلاف أنواعها .

واستغرق تأليف هذا الكتاب بضعة عشر عاماً فقد ظهرت عام ١٨٨٨ وكان وزيراً للمعارف ويعتبر كتاب الخطط التوفيقية أضخم عمل في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين دون منازعه لهذه المكانة لذلك أهتم بإعداد المعلم وإعداده بإنشاء دار العلوم والاهتمام بالمستوى الثقافي والمعرفة فأنشأ دار الكتب وقاعة للمحاضرات العامة ، والخاتمة كانت تعريف بأغراض التعليم وتوجيه المعلمين تتمثل فيها روح على مبارك وطريقته في التعليم والتربية كما يرى هي اكتساب الأدب

وحسن السلوك والتعليم هو حصول أبناء القطر المصري على ما يوجب إصلاح شأنهم وشأن أهاليهم ليفوز الوطن بثمرة التقدم لأبنائه جميعا واتساع دائرة المعارف .

رحم الله أبو التعليم في مصر والرائد الكبير للتنوير في المجتمع المصـــري ، الـــذي عانى الكثير والكثير ، ولكنه صبر وأصبح من رموز مصر الثقافية...

أبومسلم يوسف

الشيخ الإمام/ محمد عبده

رائد التنوير والتجديد

بقلم

الشيخ منصور الرفاعى عبيد

وكيل وزارة الأوقاف

للمساجد وشئون القرآن الأسبق

ـ استهلال :

الحمد لله رب العالمين. ولى المتقين وناصر المظلومين، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولا شريك له فى ملكه ولا تأخذه سنة ولا نوم، سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة وهو على كل شئ قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، الذى أرسله الله رحمة للعالمينومعلماً للأميين وهاديًا إلى الحق. أرسله الله للناس جميعًا. وأيده بالمعجزات الباهرة وأنزل الله عليه القرآن أكبر معجزة بين يديه. فى القرآن نبأ من قبلنا وحكم ما بيننا وخبر ما بعدنا. من قال به صدق. ومن حكم به عدل. لأنه تنزيل من حكيم عزيز يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. صلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه إلى يوم الدين. وبعد ..

فإنه لا يخفى على أحد أن معرفة الشخصيات ذات التاريخ المؤثر فى المجتمع إيجاباً وإصلاحًا من الأمور المطلوبة والمعارف المندوبة، لما يترتب على ذلك من محاولة دفع مسيرة الإصلاح. ولأن التعارف بين الناس من الأمور الهامة حتى لا تنسب الأعمال إلى غير فاعليها؛ لأن بعض الناس يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. ومع أن الأيام سوف تكشف أمرهم ولا تحسبنهم بمفازة من العذاب فى الدنيا والآخرة. ومن هنا جاء قول الله سبحانه "يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" الحجرات ١٣، لهذا كان لا بد من تجلية الحقائق أمام الأجيال القادمة ليستطيعوا مسايرة الأحداث التى بدأها قادة الإصلاح والتجديد فى الفكر الإسلامى والاجتماعى والاقتصادى والذين واصلوا الليل بالنهار لإيقاظ الأمة والأخذ بيدها من كبوتها وإنقاذها من الانحراف ووضعها على الطريق المستقيم وإبراز أفكار التجديد وتقديم ذلك بطريقة سهلة غير معقدة. لأن رجل الإصلاح لا بد أن يكون عالمًا موسوعيًّا ملماً بتاريخ الأمة يحيط بمشاكلها شديد الإحاطة بأحوال المجتمع والعصر الذى يعيش فيه، خبير بأحوال المجتمعات الملاصقة لمجتمعه. وعندما نقدم أى شخصية للقارئ الكريم ونتابع مسيرة حياته لا بد أن نلم إلمامًا واضحًا بأدق تفاصيل مسيرة هذه الشخصية حتى كأن القارئ يعيش معها، ونحلل بعض المواقف، ونصور أحداثها مع الإلمام بعصره ومعايشة بعض القضايا الاجتماعية والمشاركة فى معالجة المشاكل. وبهذا يستفيد القارئ مع شعوره بمتعة نفسية ولذة وجدانية عند دراسة عَلَم من أعلام أمته ورائد من رواد التنوير وقائد من قادة الإصلاح، والإسلام الذى نؤمن به غنى بشخصيات عظيمة من الجنسين الذين تربوا فى مدرسة الإسلام ومنهج هذه المدرسة القرآن الكريم والسنة النبوية وتاريخ الأعلام النبلاء من سلف هذه الأمة، مع الوضع فى الاعتبار اختلاف الزمن والبيئة والمناخ البيئى والتطور الاجتماعى. ولذلك فإن أستاذ هذه المدرسة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذى كان يخاطب كل شخص على قدر فهمه ويراعى بيئته الاجتماعية، ولذلك كان يخاطب الناس على قدر عقولهم، ورجل الإصلاح هو إنسان مرن بعيد النظر يقيم التوازن

والاعتدال فى أى موضوع ويراعى المصلحة العامة ولا يلعن الظلام. وإنما يضئ شمعة أمام الحيارى والتائهين وشخصية هذا الكتاب شخصية عظيمة فهو علم يشار إليه من كل مكان يذكر ولا ينكر، يعرف بفكره الثاقب وبعد نظره، لم يعرف التعصب طوال حياته يؤجج فى الناس روح الاعتماد على الله والنفس والتعاون مع الناس كلهم ينمى روح الرحمة فى قلوب الجميع، ينادى بنشر روح التكافل الاجتماعى والمودة والإحسان بين الناس، فقد تحلى هو بالسماحة والتعايش مع الناس بالخلق النبيل، فهو قدوة حسنة فى أخلاقه وعلاقاته. حصّل العلوم وحاز المعارف وابتعد عن الجمود والتعصب. على أرض مصر الطيبة نشأ- لذلك فهو يحمل ملامحها الإيجابية فى طيات صدره، يسهم فى عمل الخير ويسارع إلى إعانة المحتاج. لذلك أصبح أبرز رواد النهضة العربية الحديثة وصاحب الدعوة التى أسمعت العالم الإسلامى لتجديد الفقه الإسلامى، فقه الأولويات. وقد ساهم طوال حياته بعمله وعلمه ووعيه واجتهاداته فى تحرير العقل الإسلامى من الجمود وإبعاده عن الخرافات والتخلف والانتقال إلى آفاق الحداثة وملائمة التطور لأن دين الله رحمة ويسر، وقد قال الله سبحانه "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (سورة البقرة ١٨٥)، وقوله سبحانه "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا" (سورة النساء ٢٨).

إن أحدًا لا يستطيع أن ينكر على مصر دورها الريادى فى إبراز الوجه المشرق فى صنع الحضارة ودورها الثقافى فى إثراء حضارة العالم والتعايش السلمى مع الآخرين وإقامة جسر من الحوار البناء مع شعوب العالم مع الاستفادة مما ينتجه الآخرون وعدم التصادم مع أى فكر، وإنما الانصهار فى بوتقة الأخوة الإنسانية. لهذا رأينا صاحب هذه السيرة يعلن "لا بد أن ينتهى العالم إلى تآخى العلم والدين على نهج القرآن الذى يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والعدوان وقائدهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين" ومصر بما لها من ثقل دولى لأنها تحمل لواء إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية، وما زالت تقود حملة التنوير فى نشر المعارف الإنسانية. هذه مصر

التى نشأ على أرضها عملاق الفكر المستنير "محمد عبده" والذى وصفه مستشرق أمريكى بقوله: "كان محمد عبده فلاحاً صحيحًا. وليد تربة مصر العريقة قبل أن يغدوا مفتياً وإماماً للمسلمين. وإننا لنلمح فى إخلاصه لهذه التربة وفى دعوته إلى الوطنية مزاجاً عجيباً من العرفان للماضى المجيد. والاستمساك بيقين الدين والولاء لوطنية الفلاح" (من كتاب رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الأوسط د/ عثمان أمين/ كتاب الثقافة الجديدة/ مصر/ ٢٠٠٧).

إن عيون الناس متعلمهم وجاهلهم تعلقت بشخصية الشيخ محمد عبده- لذلك فإن حياته مسجلة إما بقلمه أو أقلام معاصريه ومن أهم مقومات حياته: الانضباط والنظام، والأدب مع الصديق والعدو، عف اللسان حتى مع من شتموه وتطاولوا عليه. ولهذا تجلى الشيخ محمد عبده فى كل الآفاق الدينية و الاجتماعية. ولذلك آلت إليه مشيخة الإسلام لإخلاصه وصدقه. ومن هنا أصبح قدوة لشباب العالم عامة وشباب المسلمين والعرب بصفة خاصة فى جده ومثابرته والتزامه- إن الشيخ محمد عبده رائد من رواد الاجتهاد، فقد اجتهد فى إيقاظ الأمة من نومها ودفع بها نحو التحرر وأحيا الاجتهاد الفقهى لمواجهة تطور العلم ومسايرة حركة المجتمع. وكان الشيخ يتميز بالهدوء والحكمة والنفس الطويل فى الدعوة للإصلاح. ولم يكن من المتحمسين للتغيير السريع. ولقد كان فى بدء حياته كارها للعلم، ثم أصبح مفتيا لمصر. إن من رحمة الله سبحانه أن يبعث على راس كل مائة سنة من يجدد للأمة الإسلامية أمر دينها ويصحح لها المفاهيم ويمحو الأغلاط والبدع والخرافات التى أحاطت بالإسلام نتيجة جهل أبنائه وعجز علمائه. لذلك لم يخل المجتمع أبدا من رجالات الإصلاح الدينى والوطنى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى وغير ذلك. حكمة الله ورحمته بعباده ونحن اليوم فى منعطف تاريخى والأمر يتطلب تعريف الشباب بشخصيات اصطدمت بمشاكل اجتماعية وأخرى دولية ومع ذلك لم يتسرب اليأس إلى نفوسهم ولم يلعنوا الناس والأيام وإنما تعاملوا بالأدب والاحترام وتنوير الأذهان برفق وسماحة لأن حب الوطن من الإيمان. وخير الناس أنفعهم للناس. وما دخل الرفق فى شئ إلا زانه.

لكل هذه المعايير كان قادة الأمة على قدر كبير من الإخلاص لله والاعتماد عليه والثقة بالنفس وتحصيل العلم والاطلاع على سنة الله فى الأمم وسعة الصدر وبعد النظر. هذه بعض أسلحة رجال التنوير مع عدم التعصب للرأى، بل الاستجابة للحق. وإن كان هناك خلاف فإن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية. ويردد الإنسان لنا أعمالنا ولكم أعمالكم- لكن نتفق على أسلوب الإصلاح ومنهج التقدم والرقى خدمة لأمتنا وإعلاء شأن وطننا، ونشر روح المحبة والتسامح والتعايش السلمى بين الناس. وهذا ما تحلى به رائد التنوير الشيخ محمد عبده الذى أصبح ملئ السمع وغره على جبين الدهر وله ذكر بين الناس. فعلينا أن نقرأ سيرته ونتخذه قدوة فى جده ومثابرته ونبنى ونؤسس ونعمر النفوس بالعلم النافع- ونقول للعالم: "أولئك أبائى فجئنى بمثلهم" والله ولى التوفيق.

منصور الرفاعى عبيد

عضو اتحاد الكتاب

الشيخ محمد عبده :

شخصية عظيمة تتمتع بعقل منظم وفكر مرتب. فأهله ذلك ليكون قائداً من قادة الفكر الدينى و العربى وزعيمًا من زعماء الإصلاح فى المجتمع المصرى. وانتشر اسمه فعرف فى المجتمع الدولى بفكره فى الإصلاح المجتمعى ونشر العدالة الاجتماعية بين سكان الأرض. وقد أحاط الشيخ بالنتاج الفكرى العالمى.. فكانت شخصية الشيخ محمد عبده ذات طابع خاص. فهو صريح مع نفسه وغيره، يقظ الضمير- فى نفس الوقت يعتز بنفسه ويحافظ على كرامته. لهذا كانت حياته خصبة بجلائل الأعمال متعددة الجوانب فى كل نواحى الحياة. إن هذا الرجل الكبير العقل السديد الرأى المتوقد الذهن أصبح فيلسوفاً إنسانى النزعة و عرف بأنه مجدد دينى واسع الثقافة والتى استكملها برحلاته المتعددة إلى الدول العربية والإفريقية والأوربية.

وقد اكتسب إمامنا الجليل فى رحلاته صداقة العديد مـن الشخصـيات ذات المواهـب المتعددة والأفكار الوسعة فاكتسب بذلك مزايا كثيرة، حيث كـان يراسـلهم فـانبهروا بأسلوب علاجه للمشاكل التى تتسم بروح الإنصاف للمظلوم وتنبيه الظالم برفق ولين وشجاعة ليس لها نظير. مما دفع بالمستشرق البريطانى "إدوارد بـراون" أن يظهـر إعجابه الشديد به ويحضر إلى مصر ليستمع إلى دروس الشيخ التى كان يلقيها فـى الأزهر فى تفسير القرآن العظيم. ومع كل هذا كان الشيخ محبًا لوطنه مصـر يعلـن اعتزازه بها.

وحتى يتم غرس روح الانتماء فى نفوس الجميع بدءاً من النشـئ ومـرورًا بجميـع مراحل العمر، فإنه كان يعلم بأن التربية هى السبيل إلى ذلك ويؤدى الإعـلام الـدور الأساسى فى ذلك مساهمة مع دور العبادة والمدارس. وتكون البداية من الأسرة التى ينشأ الطفل فى أحضانها ويتغذى بلباب المعرفة والأدب ودفء العاطفة بين أفرادهـا، مما يجعل كل شخص عنده ولاء لوطنه وانتماء لقومه وحُب لأهله ومعرفة الحقـوق والواجبات.

مولـــــده :

على أرض مصر الطيبة وفى محافظة البحيرة ولد الإمام محمد عبده وكـان مولـده عام- ١٢٦٥هـ - الموافق- ١٨٤٩م. وهذه الفترة كانـت مصـر مسـتهدفة مـن الأجانب يحاولون أن يحتلوا مصر ويستعمرونها. طمعًا منهم فى خيراتها فهـى أرض زراعية تجود بمحاصيل متنوعة وجيدة. وهى من الدول الرائدة والأكثر أهمية فى نظر كل الدول، حيث إن مصر تتوسط العالم على الخريطة وترتبط بثلاث قارات. وتسـهم بشكل فعال فى انسياب الحركة التجارية بين دول المجتمع الإنسانى وأنت اليوم تشهد ما تؤديه قناة السويس من تقديم خدمة عظيمة للتجارة البحرية وفى نقل ما تحتاجـه الدول من بعضها بأقصر طريق علاوة على مد خطوط أنابيب البترول وخـط الـربط

الكهربائى مع الدول المجاورة. لكل هذه المميزات جعلت الدول الاستعمارية تطمع فى مصر، فقامت حملات وحملات تستهدف إخضاع مصر واستعباد أهلها. وكانت محافظة البحيرة هدفاً لنزول قوات الاحتلال على أرضها لأن البحر المتوسط يحدها من الشمال ومن الشرق نهر النيل. ومن البلاد المشهورة فيها "رشيد" وأصبحت شهرتها من وجود حجر بها عليه كلام لم يستطع أحد فك رموزه ولكن استطاعت حملة جنرال "فريزر" من حمل الحجر وفك رموزه، وكان هذا هو السبب فى معرفة اللغة الفرعونية والتعرف على حضارتهم، ومن هنا توصلوا إلى ما خلده الفراعنة وما نقشوه على جدران معابدهم أو صوروه، مما كشف عن حضارة غير مسبوقة فى التاريخ. وعلى أرض البحيرة صور للبطولة النادرة التى وقعت من أبناء البحيرة، مما يشهد لهم بالجد والابتكار فى أسالب المقاومة الشعبية فأثناء حملة "فريزر" عام ١٨٠٧م، وهذه الحملة إنجليزية، وكانت عند بلدة تسمى "الحماد"، اتفق قائد المقاومة الشعبية و كان إمام مسجد يسمى الشيخ "إبراهيم" مع الأهالى على أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوها عليهم وأن كلمة السر التى يخرجون بها من بيوتهم عندما يسمعوها هى الأذان. ودخلت فرقة من الحملة إلى القرية، فوجدوها مغلقة الأبواب خالية من البشر ففرحوا وجلسوا يستريحون وأخرجوا زجاجات الخمر فشربوا وسكروا وناموا فصعد الشيخ إبراهيم على المئذنة وأذن. وهنا خرج الأهالى يحملون الفؤوس وعصى الحديد وانهالوا على جند الإنجليز وفتكوا بهم، ومن نجى منهم فإنه يحمل إصابة تدل على بطولة نادرة للمقاومة الشعبية، علاوة على معركة كفر الدوار والتى قادها "أحمد عرابى" سنة ١٨٨٢ وساعده عمد البلاد. وقد هَزَم "أحمد عرابى" الإنجليز بمساعدة أبناء البحيرة الذين شهد لهم التاريخ بالبطولة الشعبية ومحاربة العدو بالعصى والفؤوس والطوب. هذه الأحداث المتتابعة والمناوشات الدائمة والتحفز والاستعداد للدفاع عن الوطن وحريته، فى هذا المناخ ولد الإمام وكأنه جاء على قدر مع الأحداث الملتهبة والحركات الاستعمارية والاضطرابات الدولية. وولد الإمام كما يولد مئات الأطفال. لكن ما سبق فى علم الله هو الذى يرفع قدر الإنسان أو يخفضه. لماذا؟

يرجع ذلك إلى صلاح الآباء والأمهات فإن صلاحهم يمتد إلى سابع مولود من نسـلهم ونقرأ فى هذا ما قاله ربنا جل جلاله: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينـة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغـا أشـدهما ويسـتخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسـطع عليـه صـبرا" (سورة الكهف٨٢) وإذا نظرنا إلى أبوى محمد عبده فهما من متوسطى الحال فى هذه الفترة التاريخية .

انوار كاشفة للبيئة الاجتماعية :

البلد:

محلة نصر مركز شبراخيت، قرية تحيط بها الزراعة ومن حولهـا ترتفـع الأشـجار ويهتم أهلها مع الزراعة بتربية المواشى. وهى فيها منافع متعددة وفوائـد عظيمـة، فهى تدر اللبن وهو يشرب ويستعمل فى أنواع متعددة من الأطعمة ويسـتخرج منـه القشدة والزبدة والسمن ويمكن لمن يملكون المواشى المتعددة أن يعيشوا على خيرها، ومن روث المواشى يكون سماد الأرض لتجديد خصوبتها وتحسين تربتها حتى تجود بأجود أنواع مزروعاتها. ومن جلدها وأشعارها وأصوافها يتم صناعة العديـد ممـا يحتاجه الناس، وإلى هذا أشار الحق سبحانه "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعـل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويـوم إقـامتكم. ومـن أصـوافها وأوبارها وأشعارها أساسا لكم ومتاعا إلى حين" (سورة النحل ٨٠). وقد حدثنا ربنـا جل جلاله عن اللبن وأنه آية من آيات دلائل قدرته ونعمة عظيمة علينـا أن نشـكر المنعم المتفضل بها علينا. لهذا يقول الحق سبحانه: "وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبن خالصا سائغا للشاربين" (سـورة النحـل ٦٦). لذلك نرى أن القرية المصرية من أسعد البلاد لأنها تتمتع بهواء نقى وغذاء جيد وخير عظيم من فضل الله الكريم الذى قال لنا: "لئن شكرتم لأزيدنكم. ولئن كفرتم إن عذابى

لشديد" (سورة إبراهيم ٧). ويقول سبحانه "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون" (سورة الأعراف٩٦)، فالقرى فى مصر أهلها يعيشون فى خير ما داموا يخرجون الزكاة ويصلون أرحامهم ويمدون يدهم بالمساعده لكل محتاج. وهذا ما كان يتحلى به آباء الإمام محمد عبده.

الأب :

عبده خير الله له مكانة اجتماعية عظيمة بين سكان القرية لأنه يتمتع بخصائص الرجولة ويتحلى بالقيم الأخلاقية العالية، يحترم الكبير، ويعطف على الصغير، الضيف يكرمه ويقدم إليه أجود ما فى بيته من مطعم ويهئ مكاناً فى بيته لمبيت أى غريب يفد على القرية. تمتع هذا الأب بالشجاعة فى الحق والتمسك بدور الدفاع عن صاحب الحق حتى أنس إليه مأمور المركز وأعوانه فكان لا ينزل إلا فى بيته يستضيفهم وهذا ما يقرره الشيخ محمد عبده فى مذكراته "ويقول" كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيها دونه. وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا. لأن الدنيا لم تكن عندى أوسع من قرية محلة نصر". ثم يقول "ونشأ عندى لذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال- وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثبات فى عزيمته وشدته فى المعاملة وقسوته على من يعاديه.. وقد أخذت عنه جميع الصفات ما عدا القسوة- وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه".

ولما كان والد الشيخ محمد عبده يحتل مكانة مرموقة فى القرية ويحترمه كل أهلها وإنه كان لا يأكل مع أهل بيته لكثرة ضيوفه من فقراء القرية والضيوف الغرباء الذين يفدون إلى القرية. فهو يفعل ذلك لتأثره بوالده.

ولا شك أن كل ذك صقل عقلية الشيخ عبده الذى أصبح يتميز بالذكاء وبعد النظر وشدة الحساسية. ويؤكد الشيخ محمد عبده فى مذكراته أن جده الأكبر تركمانى الأصل، وقد أكد ذلك "على باشا مبارك" الذى اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادى

وتعرف بالرحلة الكبرى. إن أسرة الشيخ محمد عبده من الأسر التى وهبت نفسها للدفاع عن المظلومين وإغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج وقد أكسبهم ذلك ثناء الناس عليهم وتعلق الأنظار بهم، مما جعلهم محل أهل الحسد والحقد وكانت سيرتهم تتسم بالنزاهة والاستقامة والتسامح والحوار مع من يحبهم أو يبغضهم ومن إيمانهم القوى بكرامة الإنسان لم يترددوا فى بذل الغالى والرخيص لصد الظلم والتمسك بالحق وحب الخير للناس كلهم.

عندما هاجر الشيخ عبده مع والده إلى الغربية مضهداً وعاش فى قرية "شطرة" وهى مجاورة لقرية "منية طوخ". تعرف على عائلة لها مجد وحسب فى قرية "حصة شبشير" تعرف بعائلة "عثمان وقد تزوج من هذه العائلة ويقال عن هذه العائلة أنها من قريش، ولهم صلة نسب بسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ونحن نعلم أن العرب أشد الناس حرصا محافظة على الأنساب وكانوا يبالغون فى الاعتزاز بالشرف والأحساب. لذلك نحن لا نستبعد هذا النسب بأن الأسرة عربية صميمة والمرأة فى هذه الفترة كانت هى المسئولة عن إدارة المنزل – ماليا وإداريا– وكانت لا تتعلم إلا فى كتاب القرية، فكانت تحفظ بعض آيات القرآن وقصار السور حتى إذا بلغت الفتاة عشر سنوات تحجز فى البيت وتتعلم إدارة المنزل على يد والدتها التى كانت تجيد تعليم ابنتها أو بناتها فى ترتيب المنزل وإعداده وكيفية استقبال الزوج وتهيئة المناخ العام كى يستريح الرجل فى بيته وتضفى عليه كل شئ يحقق له الراحة والسعادة، إن المرأة فى القرية هى الأساس الذى يرتكز عليه نجاح البيت وهى محور حركته. بل هى القلب الذى يضخ الدماء النقية الدافئة فى شرايين الأسرة. ومن هنا فهى الأستاذة لأولادها تنبههم إلى غسل أيديهم قبل وبعد الطعام وحسن العلاقة بالجيران والأصدقاء وكيفية استقبال الضيوف. واحترام الأكبر سنا ورحمة الصغير واليتيم وعدم رفع الصوت حتى لا ينزعج أحد. وتردد الأم على مسامع أبنائها "الأدب فضلوه على العلم" ولهذا كانت القرية منتجة مصدرة لكثير من الأشياء كاللبن ومشتقاته والدواجن والبيض واللحوم بكل أنواعهم والخضار والفواكه وغير ذلك. لهذا كانت الأم هى

المدبرة والمشرفة والحاسبة وتحاول أن تشترى أرضًا فى كل عام أو تبنى بيتاً وتزوج أولادها وغير ذلك. كانت والدة الشيخ محمد عبده من هذه الشخصيات ومع إشـرافها وتدبير بيتها وتنظيمه ربَّت أولادها فغرست فى نفوس أولادهـا حـب الخيـر وبـذل المعروف. ودفعت بولدها الشيخ محمد ليتعلم القراءة والكتابة فى المنزل. ثم أرسـلت به إلى الكتاب ليحفظ القرآن فحفظه و احتفل به أهل قريته كعادة جميع القرى ومـن كان يحفظ القرآن يقام له احتفال يقدم فيه الطعام بكل أنواعه. وكان أهل الحى يحملون هدايا للحافظ. والنساء تغنى له بمثل "طالع من صلاة الجمعـة. وفـى إيـده الكتـاب والربعة" (والربعة هى المصحف، والكتاب صحيح البخارى لأنه أصح كتاب فى جميع الأحاديث النبوية). هذه هى النشأة الأولى للشيخ محمد. جو أسرى متماسك. عواطف نبيلة متبادلة. إقبال على الدنيا مع الالتزام على العادات الطيبة والسلوك المنضبط على القيم الأخلاقية والمحافظة على الصلوات فى مسجد القرية والتعايش السـلمى بـين الجميع. ولا شك أن النشأة الأولى هى الأساس فى تكوين الشخصية". ولأن الإنسـان فى أيامه الأولى ينشأ حسبما يوجه من أبويه- ولهذا قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الأطفال منا * على ما كان عوده أبوه

فعلى حسب التوجيه منذ الصغر يكون الاتجاه والاستعداد عند الإنسان. ونرى من نشأة الشيخ أنه كان يمارس الرياضة البدنية ليحفظ لنفسه صحة وعافية ونضارة. كما أنه تعلم السباحة فى البحر لأنها تكسب الإنسان الصبر لتحقيق ما يريد. فهو بين تيارات الأمواج المتلاطمة المتدافقة عليه أن يصابر ويفكر كيف يتغلب على الأمواج العاتيـة بفن وقدرة وإرادة. كما كان يدخل مع قرنائه فى الجرى والركض ليتعلم سرعة إنجاز ما يوكل إليه. وكان يمارس الرماية ليتعلم التركيز على هدفه. وتعلم ركـوب الخيـل ليتعلم الفروسية مع ضبط النفس والتوازن فى الأداء. وكل هذا مـن هـدى الإسـلام وتوجيهات نبيه صلى الله عليه وسلم. فالإسلام يدعو إلى أن نعلم أولادنـا السـباحة والرماية وركوب الخيل، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحث أبناء المسلمين علـى تعلم الرماية ويقول: "ارم بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا"، وكان يسـابق السـيدة

عائشة فى الجرى فتسبقه مرة ويسبقها مرة فيباسطها ويقول "هذه بتلك". إن الإمام كان يدرب نفسه على هذه الرياضة ليقوى جسمه وعقله "فالعقل السليم فى الجسم السليم" و "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".

أول رحلة :

عندما أتم الشيخ حفظ القرآن بدأت أول رحلة له خارج قريته فقد اصطحبه والده إلى طنطا ليلتحق بالمسجد الأحمدى ليجود القرآن ويتعلم فنون التجويد ومن المعلوم أن هذا التعلم يزيد فى حسن النطق ويجعل الحروف سليمة ومخارج الحروف من مواضعها، مما يزيد فى إقبال الناس على المتكلم لأنهم يفهمون منه، ولهذا قيل "من لم يجود القرآن آثم"، ومع تعلم فن التجويد بدا الشيخ يتعلم شرح الكفراوى على الأجرومية وهذا العلم خاص باللغة العربية. وهناك مواد أخرى. لكن الفتى وجد نفسه فى متاهة، فالطريق أمامه وعر، والعلوم صعبة والذين يشرحون لا يقدرون على توصيل المعلومة إلى الفتى اليافع. لهذا بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه. وقد مضى سنة ونصف لا يفهم أى شئ لأن الاصطلاحات والتعريفات جامدة جدا ولم يستطع أى شخص أن يقرب المعنى لعقلية الفتى الذى أحس باليأس من النجاح وقرر الهرب. وفعلا هرب عند أخواله واختفى لمدة ثلاثة أشهر. ثم عثر عليه وأمسك به أخ له من الأم كان يدرس معه وأخذه للمسجد الأحمدى مرة ثانية لكنه رفض الانتظام فى الدراسة لكراهيته لطريقة الشرح وأعلن أنه سيقوم بعمل الزراعة وملاحظة الأطيان التى يمتلكها والده. وفعلا سافر إلى بلده وأعلن أنه لن يعود لطلب العلم أبدا.

زواجه :

أعلن الشاب محمد عبده أنه سيقيم فى البلد وسيقوم بأعمال الزراعة ويريد أن يستقر ويؤسس أسرة ينعم فى ظلالها. وفعلا تم له ذلك وحققت له أسرته ما يريد خاصة

وانهم وجدوه لا يفكر فى طلب العلم بعد أن شاهد هذه التجربة. إنـــه حصَّــن نفســه بالزواج. وأصر على عدم العودة إلى طلب علم لا ينفع. وهذا يدل على استقلال إرادته وقوة عزيمته وأنه يمتلك حريته ولا يسلم نفسه لغيره. وكان الشاب يحب أن يجعــل تفكيره علنا ويعلن عن رأيه بصراحة. يناقش غيره فى حوار يتسم بالأدب واحتــرام الآخرين وكان يفكر فى إحداث إصلاح حال المدرس لأنه محور الزاويــة التعليميــة. وكان يؤمن بأن الإصلاح له طريق وخطط وبــرامج ولا يتحقــق بالصــياح والبكــاء والعويل، وإنما يتحقق بالتخطيط ووضوح المنهج وملائمته لمجريات أحداث المجتمع.

المارد الإسلامى :

هل استكان الشيخ محمد عبده وهدأت نفسه وهل رضى بوضعه، تدل الأحداث على أنه كان يشعر بقلق نفسى وأنه مسجون ولم تهدأ نفسه ولذلك يقول فى مذكراته: "تفرقت عنى جميع الهموم. ولم يبق إلا هم واحد. هو أن أكون كامــل المعرفــة. كامــل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى ســوى ذلــك الشــيخ الــذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة".

كان المجتمع الإنسانى يمر بأزمة أوجدها المجتمع الغربى عنــدما تحــرك بأســاطيله وأسلحته ليستعمر الدول ويقتل الحرية ويقضى على العدالة وينشر الثــالوث المــدمر "الفقر- والجهل- والمرض" لذلك رأينا أن أصحاب الفكر المستنير فى العالم الإسلامى بدءوا يتحركون وينشرون الوعى وينادون بالحرية وأن على الاستعمار أن يرحل وإلا فإن المقاومة ستضطره لأن يرحل. لهذا رأينا رواد الفكر المستنير المتميز يتحركــون هنا وهناك. وكان منهم "محمد إقبال" من دولة الهند، جمــال الــدين الأفغــانى مــن أفغانستان، عبد الرحمن الكواكبى من سوريا، محمد عبده من مصر. وعلت أصواتهم فى المجتمع وهدفهم تنبيه الناس إلى الأخطار المترتبة على هذه الحروب واســتغلال الشعوب وكبت الحريات. وبدءوا فى إيقاظ الوعى وتنبيــه عقــول النــاس وتحريــك

عواطفهم للحفاظ على حرية أوطانهم وكرامة المواطنين ووعيهم لحقوقهم وعدم التفريط فى حقوق الناس وقد تزامن هؤلاء لإيقاظ العالم الإسلامى والتنبيه إلى الأخطار المحدقة بهم وكان من شعار هؤلاء "الحرية أفضل من الحياة نفسها وأكرم. وإن الشرف أعز من المنصب والمال" ولسان حالهم يردد:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما * فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

لقد كانت بلاد الشرق هى شغل هؤلاء الرواد الذين صاحوا فى الإنسانية ليحركوا فيها الوعى واتفقوا على أن الدين هو الأصل والأساس الذى تبنى عليه الصحوة القومية. ويقصدون بالدين الذى يهئ الإنسان لحمل العبء والشعور بالمسئولية والحفاظ على الوطن وتحقيق العدل والمساواة ونشر روح التسامح والتعايش السلمى بين جميع المواطنين. هو دين الله الذى حمله الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأن بعض الناس جعلوا الإسلام كهنوتا أو دروشة، ولذلك أصبحت أحكامه جامدة فى نظر هؤلاء. إن هؤلاء الرواد أعلنوا أن الإسلام دين يتسم باليسر والتخفيف وعدم التزمت والجمود. والإسلام مرن يتسم بالمعاصرة مع الحفاظ على الأصول الثابته والنصوص المرنة والقابلة للتنفيذ مع اليقظة والانتباه والتعاون والإيثار. لقد نادوا بصوت عال وكتبوا فى الجرائد وخطبوا فى المحافل الدولية وحاوروا أعداء الوطن وشرحوا أهدافهم وكانوا طليعة قوية لحركة التحرير التى نبهت غفاة البشر الذين هبوا لتحرير أوطانهم ونشر الوعى الإنسانى فى المجتمع الدولى علما بأن الإسلام يدعو إلى الرفق وحسن التعامل مع كل المخلوقات ويدعو إلى صحوة مرشدة أساسها العلم واليقظة وفهم الآخرين. ولعل هذا من يمن طالع الشيخ محمد عبده الذى زامله هؤلاء فجنسياتهم مختلفة وتعليمهم كذلك وبلادهم تختلف فى البيئة والعقلية وغير ذلك. الأمر الذى يجعلنا نؤكد أن العناية الإلهية تلحظ الإنسانية وتبعث بين الحين والحين من يجدد لهذه الأمة دينها ويحرك مشاعرها للحفاظ على حرية الأوطان وكرامة الإنسان ومنع الحروب والاستغلال.

مفتاح الشخصية :

كل شخصية فيها جانب خير وجانب شر. وصدق الله العظيم "ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها" ويقول فى آية أخرى "فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأما من خاف ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى" (سورة النازعات ٣٧- ٤١). وكل شخصية لها مفتاح فمن يرد الله له الهداية يوفقه لأن يلتقى بشخصية طيبة مهذبة صالحة تحب الخير للناس.كلهم ويكون الشخص عنده استعداد فطرى لتلقى ما يقال له. وهذا ما كان عليه الشيخ محمد لأنه بعد أن تزوج بأربعين يوماً صمم والده على أن يذهب به إلى طنطا لطلب العلم. وكان الرفض من الشيخ محمد فأحضر والده شخصًا من العائلة "فتوة" قاد الشيخ بالقوة. وقرب طنطا غافل الشيخ قائده أو حارسه وفر هارباً إلى بلدة أخواله وقد استقبله أولاد أخواله وفرحوا به لأن له شهرة فى الفروسية واللعب بالسلاح فهم سيلعبون معه ويتعلمون منه. وبعد خمسة عشر يومًا تقرب منه أحد أخواله ويسمى "الشيخ درويش"، وهذا الشيخ كان كثير السفر إلى صحراء ليبيا، وله هناك علاقات طيبة بكثير من الفقهاء والعلماء والأدباء وله صلة قوية بالمدرسة الشاذلية وأستاذها هو "أبو الحسن على بن عبد الحميد الشاذلى" والمدفون بمصر على شاطئ البحر الأحمر، وكان فقيهاً على مذهب الإمام مالك، فالشيخ درويش شخصية متفتحة مثقف واسع الثقافة، له أسلوب ساحر أخاذ. كان الشيخ محمد عبده يتابع خاله هذا فيجده يخاطب كل شخص على قدر ما يفهم ويصحح الأخطاء بأسلوب مهذب، لا يجرح شعور أحد، ولا يحط من قدر أى إنسان مهما كان وضعه. لذلك أحبه الجميع. كان الشيخ درويش يلاحظ الشيخ محمد عبده وبنكائه فهم أن الشيخ بداخله طاقة تحتاج إلى صقل وهذه الشخصية تحتاج إلى مفتاح يفتح القمقم لينطلق المارد الجبار يوقظ النائمين وينبه الغافلين ويحرك الراقدين. واراد الشيخ درويش أن يكون هو مفتاح هذه الشخصية

التى يتوسم فيها الذكاء واليقظة والانتباه. لذلك استعان بالله ووسيلته فى ذلك أنه يجيد حفظ القرآن ويحفظ الموطأ وهو كتاب للإمام مالك فى الفقه. وله أسفار متعددة التقى فيها بشخصيات متعددة الثقافات والاتجاهات. و قد أهله كل ذلك ليكون مفتاحًا لشخصية الشيخ محمد عبده. فى ليلة رق هواؤها وطاب نسيمها واستنارت الأرض بالقمر نادى الشيخ درويش على محمد وقدم إليه نسخة من كتاب "للشيخ محمد المدنى" وهو مغربى. وهذا الكتاب بخط جميل وهى عبارة عن رسائل بعث بها الشيخ المدنى إلى أصدقائه فهى أسلوب أدبى فى الفقه والتفسير. قال الخال لابن أخته "خذ فاقرأ لى منه شيئًا" لكن محمدًا رفض وبشدة وأخذ يلعن الكتب وما فيها. ولكن الشيخ درويش تحلى بالصبر وطول البال وأخذ يلح على ابن أخته أن يقرأ له وهو يبتسم وأخيرا أخذ الكتاب وأخذ يقرأ بلا فهم، ولكن الشيخ درويش استوقفه وأخذ يشرح ويبسط ويأتى بحكاية أو قصة. وكان شرح الشيخ ينساب فى أذن الشيخ محمد عبده ويحتل فى عقله مكانة خاصة وأتم الشرح وهو يتسم بالحلم وتظهر على وجهه ابتسامة رقيقة ولان قلب الشاب وتفتح لكن حضر بعض الشباب وطلبوا من محمد عبده أن يصحبهم لركوب الخيل واللعب بالسلاح وغير ذلك من أنواع اللعب فرمى بالكتاب وقام مسرعا معهم. لكن الشيخ درويش التقط الكتاب وهو يبتسم ولم يعاتبه. قبيل المغرب جاء الشيخ درويش إلى محمد يحمل نفس الكتاب وألح على محمد أن يقرأ له فيه فقرأ وشرح الشيخ . وهكذا تكرر مثل هذا الموقف ثم كان فى يوم جاء محمد يطلب أن يقرأ لكن الشيخ قال له أنه ذاهب إلى الحقل لرعاية الزرع، فطلب الشيخ محمد عبده إعطاءه الكتاب وتركه معه فتركه وقرأ فيه، وكلما مر على جملة لم يفهمها وضع تحتها علامة. وجاء الشباب يدعوه للعب فرفض لأنه كان قد استغرق فى القراءة التى بهرته وجذبته وشدت انتباهه وسيطرت على مشاعره. ولما حضر الشيخ من الحقل ذهب إليه محمد عبده يسأله عما لم يفهمه. وقد زاد انبهار الشيخ محمد بهذا العلم الذى يفيض من فم الشيخ درويش خاصة وأنه كان يمزج كلامه بكلام الصوفية وهم دائما يهتمون بترويض النفس على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس

الرذائل وتحليها بالأدب فى التعامل مع الخلق أجمعين والالتزام بالانضباط والبعد عن لغو الكلام وغير ذلك من القيم الإيجابية والبعد عن القيم السلبية.
انبهر الشيخ محمد عبده الذى استغرق فى قراءة الكتب التى يقدمها إليه الشيخ درويش حتى أصبح يحب العلم ويبغض اللعب. وكلما دعاه الشباب ليلعب معهم رفض بل هو يدعوهم إلى القراءة. بعد فترة زمنية وجد الشيخ محمد عبده نفسه وقد اهتم بالكتب واقتنائها. ثم جلس الشيخ محمد وجها لوجه أمام الشيخ درويش وهو فى حالة تأهب لطرح أسئلة وأبدى الشيخ درويش استعداده فسأل الشيخ محمد "ماهى طريقتكم؟" قال الشيخ درويش "طريقتنا الإسلام" قال الشيخ محمد: "أوليس كل الناس بمسلمين؟" قال الشيخ درويش: "نعم لكنهم يتنازعون ويتشاجرون ويلعن بعضهم بعضا ويحلفون بالله وهم كاذبون، أما نحن فنلتزم بما فى القرآن من قيم وأخلاق ونحب الناس وإن أساءوا إلينا ونصبر على آذاهم. لأننا إخوة قبلتنا واحدة وقرآننا واحد وصلاتنا واحدة وصيامنا واحد وحجنا شعائره واحدة" وكان الشيخ محمد يسمع فى إنصات تام ثم قال لنفسه "هذه الكلمات نار أحرقت ما كان عندى من غرور" وقلت لنفسى "أننا مسلمون بالاسم ونحن فى غمرة ساهون". أفاق الشيخ محمد وقد اغرورقت عيناه وسأل الشيخ درويش "ماهو وردكم الذى تتلونه فى الخلوات وعقب الصلاة؟" قال الشيخ: "وردنا القرآن الكريم والسنة النبوية". قال الشيخ محمد "أنى لم أفهم القرآن ولم أحفظ أحاديث متعددة؟" قال الشيخ درويش "اقرأ معك ويكفيك أن تفهم جملة وببركتها يفيض الله عليك لأنه القائل "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" (سورة القمر الآية ١٧) وعليك بذكر الله فى خلوتك وأكثر من الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه". بدأ الشيخ محمد يمارس ما وجهه إليه الشيخ درويش وبعد فترة قصيرة يقول الشيخ محمد "التزمت بذلك فرأيت أننى أكاد أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى أعيش فيه واتسع أمامى ما كان ضيقا. وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرًا. وقد أخرجنى الشيخ درويش من حيرتى وأخرجنى من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة. إن هذا الشيخ هو مفتاح سعادتى. وهو الذى رد لى ما كان

قد غاب عنى وكشف لى ما خفى على". انفتح الشيخ محمد وأصبح يتلهف علــى أى كتاب ويبحث عن الشيخ درويش وترك اللعب وابتعد عن شلة الأصدقاء التى لا هم لها إلا اللعب.

بينما الشيخ فى خواطره التقى بأحد معارفه من محلة نصر جاء لزيارة بعض معارفه فأخبره أن والدته توجهت لطنطا لزيارته. وهنا أسرع الشيخ محمد بالتوجه إلى طنطا ليلتقى بوالدته خوفًا من أن تعود دون أن تراه فتخبر أباه بــذلك فيشــتد فــى لومــه وعتابه.

أمــــل يتحقق:

أسرع الشيخ متوجهًا إلى طنطا وشاءت الأقدار أن ذلك كان قرب نهاية العام الدراسى فتوجه إلى الحلقة التى كان يدرس فيها، ولم يفهم وتصادف أن شيخ الحلقة لم يحضر لموت ابنته فانضم إلى الطلبة وقرءوا، وانبرى الشيخ محمد بالشرح لما خفى علــى زملائه، وقد أفاض الله عليه وفتح له مغالق النفس فأجاد، فالتف الطلبة حوله يسألونه وهو يجيب وقرأ معهم الدروس التى سوف يسمعونها من المشايخ، يقول الشيخ أنه فى يوم من شهر رجب عام ١٢٨٢هـ وبينما هو منهمك فى القراءة مع زملائه وقف عليهم رجل من المجاذيب وخاطب الشيخ محمد بقوله "ما أحلى حلو مصر البيضــاء" فقال له الشيخ محمد: "وأين الحلوى التى معك؟" قال المجذوب "سبحان الله مــن جــد وجد" ثم انصرف. يقول الشيخ "فوقع فى نفسى أن ذلك القول منه إلهام ساقه الله إلى لأتوجه إلى مصر فى طلب العلم وأترك طنطا وعقدت العزم وسافرت إلى مصــر بعــد عيد فطر هذه السنة وهناك التحقت بالحلقات أستمع العلم من المشايخ". ولكنه كــان يحب العزلة بعد الدروس ويكثر من الاستغفار ولا يــتكلم إلا فــى العلــم أو لقضــاء المصالح. كانت الأجازة الدراسية تبدأ من منتصف شهر شعبان إلى منتصــف شــهر شوال وكان أحب شئ إليه أن يقضى هذه الأجازة فى محلة نصر.

مُلاحـــقـــة :

من المؤكد أن الإنسان إذا تفجرت قدراته ووجهها إلى الخير فإن عناية الله معه. تسدد خطاه وترعاه وتهيئ له الأسباب. يؤكد ذلك قول الله تعالى: "إن الذين قالوا ربنا الله. ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشـــروا بالجنـــة التـــى توعدون. نحن أولاياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة" (ســـورة فصـــلت ٣٠، ٣١). ويقول سبحانه: "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتســـب ومـــن يتوكل على الله فهو حسبه" (سورة الطلاق ٢، ٣). ويقول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان

وكل هذا لا بد أن يصاحبه نية بصدق فى أن الإنسان يحب العلم ويخدم العلماء ويقرأ بهمة وعزيمة. علما بأن الإنسان مخير لأنه حر. والإسلام يحترم إرادتـــك لقـــول الله سبحانه "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى" (سورة البقرة ٢٥٦). ولأن الشيخ محمد ترك اللعب وابتعد عن قرناء السوء. فعناية الله معه تفتح له مغالق النفس وتنير له البصيرة وتفهمه بعد تعلمه وقراءته وتهيئ له أسباب النجاح. لذلك مـــا أن تحـــل عليه أجازة نهاية السنة إلا ويسارع إلى مسقط رأسه ووطنه الأول الذى عليـــه نشـــأ وبين أزقته مشى ولعب مع رفاقه، وصلى فى مسجده واحترم الكبار ووقرهم واستقبل بالترحاب ضيوف أبيه، وساهم فى تقديم الطعام الذى تعده الأم بعناية يتناسب مع إكرام الضيف الذى حث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله "من كان يـــؤمن بـــالله واليوم فليكرم ضيفه"، لهذا كان الشيخ محمد عبده شغوفًا بالأجازة يفرح بها ويسارع إلى بلده. لكن الشئ الذى يرسم أمام أعيننا علامات استفهام هو أن الشيخ مـــا يكـــاد يحط متاعه إلا ويجد الشيخ درويش مفتاح شخصية الشيخ محمد عبده أمامه فى محلة نصر. لم يخبره أحد أنه حضر أو هو موجود، وبلا شك هى مفاجأة سارة يزيـــد فـــى بهجتها أن الشيخ درويش يحمل تحت إبطه مجموعة كتب. وهنا تظهر الفرحة علـــى

وجه الشيخ محمد الذى يسعده اللقاء وتزداد السعادة بهذه الكتب التى يراها تحت إبط خاله فى شهرى الأجازة حيث يمضيها الشيخ محمد فى القراءة والاستماع إلى الشرح.
كان ذهن الشيخ محمد يتسع وتكبر الدنيا أمامه ويزداد أمله فى أن يكون شيئا فى هذا المجتمع وكان هذا اللقاء يتكرر كل سنة والكتب تختلف عناوينها وتتنوع موضوعاتها والشيخ يقرأ. وفى سنة سأله خاله "هل درست المنطق؟ هل درست الحساب؟" فيقول الشيخ "هذه الأشياء لا ندرسها" ، فيقول له "طالب العلم لا يعجزه شئ ولا يحتج الإنسان بكبر سنه، فطلب العلم من المهد إلى اللحد أمر لازم وفى كل يوم بعد صلاة الصبح يرفع الشخص وجهه ويرفع يديه إلى الله قائلا "رب زدنى علما" هذا وإذا كان الأزهر فى هذه الفترة لا يدرس هذه العلوم فاقرأ ما كتبه فتحى باشا زغلول فى تقرير لجنة إصلاح الأزهر المطبوع عام ١٩١٠ يقول فيه: "جاء على الأزهر زمن- العهد به قريب- كان الكثيرون من أهله يعتبرون استبدال الحنفيات بالميضات منافيا للدين- وتعهد الكتب بالحفظ والصون فى مكان خاص مخالف للدين وتعليم العلوم الحديثة مفسد للدين"؛ (سلسلة إعلام الإسلام للمستشار عبد الحليم الجندى "الإمام محمد عبده")". لكن الأزهر استيقظ رجاله يوم أن دخل الفرنسيون إلى ساحته بالخيل والنعال، وسمع الأزهريون صوت المدافع فاستيقظوا وتنبهوا إلى التطور الصناعى الذى حدث حولهم فاحتكوا بعلماء أوروبا، وقام بعض علماء الأزهر بزيارة أوروبا. وكان فى مقدمتهم الشيخ حسن العطار الذى ولد عام ١٧٧٦م وتوفى عام ١٨٣٥م، وقد درس الطبيعة والهندسة والطب وبعض علوم الميكانيكا وعنده إلمام ببعض اللغات الأجنبية. لذلك لما أنشأ محمد على- صحيفة "الوقائع المصرية" ولاه رئاسة تحريرها ثم ولاه مشيخة الأزهر. عندئذ بعث بالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ليكون إماماً فى فرنسا للمصريين هناك ووجهه إلى أن يكتب ويدون كل ما يراه لينتفع به بعد عودته وينفع غيره. وكان للشيخ رفاعة آراء واجه بها المجتمع كالدعوة إلى تعليم المرأة وأنشأ مدرسة الألسن وترجم الدستور الفرنسى وكتب عن الثورة الفرنسية. ولقد بينت ذلك لنتدلل على أن العالم الأزهرى يستطيع أن يصنع المعجزات لأنه حفظ القرآن

الكريم الذى يوسع عند الشخص المدارك ويحرك فيه المشاعر ويوقظ الانتباه لديه ويجعل عند الشخص قدرة إذا صحت عزيمته فى الارتقاء والتقدم لأن من زرع حصد ومن جد وجد ومن طلب العلا سهر الليالى. أما الشيخ فقد سار فى دراسته بالأزهر على يد الشيخ عليش فى الفقه على مذهب الإمام مالك و مذهب الشيخ درويش الذى أحبه حبًا ملك عليه كل شئ فى حياته. ولما فرغ من دراسة مذهب الإمام مالك، بدأ فى دراسة المذهب الحنفى لأنه هو الذى يطبق فى المحاكم وبين أن المذهب المالكى أكثر المذاهب عملا بالمصلحة أما المذهب الحنفى فهو مذهب أهل الرأى. وبهذا يكون الشيخ محمد قد تأسس على أسس قوية من الفقه والقدرة على الاستيعاب وحل المشاكل والإفتاء وغير ذلك.

صُدف عظيمة :

من الصدف العظيمة التى هيأها الله للشيخ محمد أن يلتقى بشخصية أخرى عظيمة صقلت موهبته وفتحت عينيه على العالم، عالم من الرواد الذين أسهموا فى إيقاظ الأمة وتنبيهها إلى هدف الاستعمار. إنه "جمال الدين الأفغانى" وكأن أبواب السماء تفتحت لتنير الطريق للشيخ محمد، ولذلك رأيناه يواظب على حضور دروس الشيخ جمال والذى كان يبدأ فيها بعد العصر فى الفلسفة فى منزله بخان أبى طاقية بالقرب من الأزهر وبعد صلاة المغرب يدرس المنطق، وفى أيام الخميس والجمعة تكون الدراسة فى علوم الرياضيات من فلك وحساب ومبادئ الهندسة. كما أن الشيخ محمد قرأ على السيد جمال كتاب "الزوراء فى التصوف وسلم العلوم" من كتب المنطق. ولقد ذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الشيخ محمد عبده أصبح مجاورًا منقطعا للتصوف زاهدًا فى الدنيا مقبلاً على العلم.

يقول الشيخ محمد عن جمال الدين الأفغانى"كالغيث أرسل لإحياء نعمة التفكير فى العلوم الحقيقية". كان يقرأ ويعلم بقلمه على هامش الكتب التى يقرؤها، مما يدل على

أنه يقرأ بفهم وفكر وتدبر لا يفسق المسلم ولا يتهم أحدا بالكفر. لا يتعصب وإنما يبحث عن الدليل. ويعلم أن الإنسان حر الإرادة. وأن الإيمان قرين العمل ومن قوله فى هذا "والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع الوجود واجب الوجود. ثم منه إلى إثبات النبوات م يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة". ولقد تأثر حمد عبده بجمال الدين الأفغانى الذى كانت لديه القدرة فى تكوين الرجال وصياغة عقولهم. وكانت حلقته التى يدرس فيها تموج بالشخصيات المتعددة مثل عبد الكريم سليمان وإبراهيم الهلباوى ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وعبد الله نديم و سعد زغلول، وغيرهم كثير وكانت روح جمال الدين تسرى فى أجسامهم وتفتح عقولهم ويحسون بتيار يسرى فى جسدهم كما تسرى الكهرباء فى أسلاكها. وكانت حلقة جمال الدين من أعظم الحلقات، وعندما غادر جمال الدين مصر قال لهم جميعا "حسبكم محمد عبده" ولقد كان الشيخ جمال بعيد النظر يقدر أصحاب العقول، ولذلك رأينا على يد رواد الحلقة ومن سلوكهم صحوة اجتماعية مرشدة فى مصر وانتشر خبرها فى المجتمع الدولى. وكان الشيخ محمد عبده فى طليعة هؤلاء وقد صاحب ثقافته اتجاهه الوطنى فعندما صدرت جريدة الأهرام وفى عددها الخامس فى سبتمبر ١٨٧٦م كان محمد عبده واحدًا من كُتَّابها وله عنوان (الكتابة والقلم) وعلقت الجريدة على المقال "الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر"، وفى مقال آخر تعلق "جناب العلامة الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بمصر" وفى ٣٠ ديسمبر من نفس العام تعلق الجريدة فى العدد ٣٦ بقولها "الأديب الفاضل أحد أهل العلم بالأزهر" وعلّقت الجريدة على مقال له، حيث وجه فيه الدعوة لعلماء الأزهر أن يأخذوا العلوم العصرية ويدرسوها لطلبتهم بقولها " جناب العالم العلامة"، ولعل هذا أكبر دليل على ما كان يتمتع به الشيخ محمد من فكر مرتب وعقلية واسعة وبعد نظر وإلمام واضح بالأمراض الدولية والخلل الواضح فى التركيبة الاجتماعية. لذلك رأيناه يكتب ويتصدى لتوضيح الأمور ووصف العلاج لجيش من المعوقين الاجتماعيين والدينيين الذين

شكلوا جبهة تنشر بعض الأفكار المتخلفة التى تهز شخصية الشيخ محمد عبده وتصفه بالعدو الوطنى وهذه آفة كل عصر. حتى الأنبياء لم يسلموا من هـؤلاء المعـوقين، ولذلك قال الله سبحانه "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنـى ألقـى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته. والله عليم حكـيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظـالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا بـه فتخبـت لـه قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم" (سورة الحـج ٥٢، ٥٣، ٥٤). ويقول سبحانه "قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلموا إلينا ولا يـأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا" (سورة الأحـزاب ١٨، ١٩). لذلك رأينا أعداء الإصلاح يشكلون جماعات ضد المصلحين وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده الذى يقود حركة الصحوة الإسلامية والاجتماعية هذا وإن أعداء النجاح لا تخلو منهم أمة ولا مجتمع لذلك علينا أن نتجاوزهم ونحذر الناس منهم ولا نرد كلامهم ولا نستمع لأفكارهم ونرد عليهم بما تعلمناه من أدب الإسلام قائلين لهم: "سلام علـيكم لا نبتغى الجاهلين".

(من كتاب "سلسلة أعلام الإسلام")

امتحان العالمية :

يوم الامتحان يكرم المرء أو يهان. والامتحان أيا كان له رهبة فى نفس الممتحن مهما كان تمكنه من المواد التى يمتحن فيها. ونحن ندرك أن الشيخ محمد عبـده اتجهـت حياته اتجاهًا جديدًا بعد لقائه بجمال الدين الأفغانى، وأخذ يبذل جهده فى التحرر مـن سلطان العرف السائد الذى فيه خروج على قيم الدين وقواعد السلوك الأخلاقية. فـى

نفس الوقت كان يقرأ ما يترجم إلى العربية من ثمرات عقول الغربيين. وقد دفعه ذلك للتحرر من الفكر الجامد المتخلف والتقاليد الموروثة بجهالة، ولهذا كان يعلن في مقالاته أن الغرب لم يتقدم إلا بالعلم والمعارف، فإذا أردنا أن نتفوق عليهم فعلينا بتحصيل العلوم ونشر الثقافة- وليست الثقافة التى تملأ الرأس بالمعارف وتجعل المثقفين نسخة من المؤلفات التى تملأ الأرفف وخزائن الكتب. بل الثقافة التى نرجوها هى التى تهتم بالعقلية وتهيئها لإدراك الحقائق وابتكار الأفكار وتصنع الرجال أصحاب الفهم الواسع والقدرة على مواجهة الأزمات وإدارتها بنجاح والتخلص منها. وهكذا كان فكر الشيخ محمد الذى ذاع اسمه قبل أن يحصل على العالمية من الأزهر لكنه تقدم لامتحان العالمية سنة ١٨٧٧م وفوجئ بغير ما كان يتوقعه. كانت الإشاعات التى حامت حوله من جانب الذين عادوه جراء صحبته للشيخ جمال الأفغانى الذين إعتبروه خارج على التقاليد والعرف الاجتماعى. وقد توقفت اللجنة عن إنجاحه لولا أن تدخل شيخ الأزهر ورئيس لجنة الامتحان وقال بعلو صوته "لو أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له" فوافقت اللجنة على إنجاحه بشرط أن يكون النجاح من الدرجة الثانية. وهكذا تخرج الشيخ محمد عبده ليصبح عالمًا يجلس فى الأزهر للتدريس ورغم ظلم جماعة من الناس له إلا أن الله وفقه وامتلأت حلقته بطلاب العلم والراغبين فى التجديد وإصلاح شأن المجتمع والله سبحانه لن يضيع أجر من أحسن عملا. كان الشيخ محمد فى فكره قواعد لإصلاح الأزهر الذى كان شغل حياته. ولذلك أخذ عليه أن كتب مقدمة فى كتب "التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية" وكاتبه رئيس وزراء فرنسا "فرانسوا جيزو" وترجمه إلى العربية "نعمة الله خورى" وقد دأب الشيخ محمد على نشر المعارف فأنشا حلقة فى بيته يلقى دروسه على الحاضرين من كتاب "تهذيب الأخلاق" لابن مسكويه. كان الشيخ مولعًا بتدريس التاريخ لذلك واتته الفرصه فعين مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم وبدأ "بمقدمة ابن خلدون" وأضاف إليها "علم الاجتماع والعمران"، ولما ظهرت براعته وتفوق على غيره فى توصيل المعلومات إلى الطلبة فتم تعيينه مدرسًا للعلوم العربية فى مدرسة الإدارة

والألسن وهكذا بدأ محمد عبده يتحرك فى نطاق الأغراض العلمية واتخذ أصدقاء جدد من دار العلوم كالشيخ حسين المرصفى ومن مدرسة الألسن التقى بالشـيخ حسـونة النواوى، لأن هؤلاء وغيرهم وجدوا أن الشيخ يعبر الفجوة بين القديم والحديث بفكر مرتب وعزيمة قوية ورغبة فى الإصلاح. ومن كان كذلك لابد أن يصل إلـى غايتـه ونذكر هنا مقولة لصلاح الدين الأيوبى لجنوده بعد أن انتصروا "لا تظنوا أنى ملكـت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى العادل والمفكر الذى ينقل فكره إلـى غيـره ويربـى الأجيال على بعد النظر وصلاح الحال وحسن الاعتقاد مع رعاية حق الوطن ومساعدة الجماهير" وهذا ما كان يدعو إليه الشيخ محمد . لكن أعداءه لم تهدأ خـواطرهم ولا تنام عيونهم إلا إذا أوقعوا فريستهم فى شباكهم وعوقوا مسيرة الإصلاح التى ينـادى بها.

لكن الشيخ وجد نفسه :

يجد الإنسان نفسه إذا تحققت آماله فيما كان يخطط له ويحلم به. والشيخ محمد بـدأ يلمع اسمه بين الناس حتى صار بينهم نجمًا يتألق فى سماء المجتمع ولهذا فقد قدمت جريدة التجارة التى تصدر فى الإسكندرية وكذلك جريـدة مصـر وكـان ذلـك فـى ١٨٧٩/٦/٥ قدمت محمد عبده بقولها "وردت إلينا المقالة الآتية من حضرة مظهـر نور الجمال والجلال ومطلع بدر الحكمة والكمال العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمـد عبده مدرس علم الكلام بالجامع الأزهر". فى هذه الفترة كان السـيد/ جمـال الـدين الأفغانى والشيخ محمد عبده قاما بتأسيس الحزب الوطنى الحر ومن أغراضه: العمل الجاد على خلع إسماعيل من الحكم وتولية ولى العهد "محمد توفيق" وقد كـان علـى صلة بالإمامين محمد عبده، وجمال الدين. والسبب فـى ذلـك أن فرنسـا وانجلتـرا يتسابقان على السيطرة وبسط النفوذ على مصر. وقد تمكنت انجلترا من بلوغ مآربها عندما دمرت الجيش المصرى وأسطوله واستطاعت أن تلف حول عنق مصر حبـال

الدائنين. وألزمت انجلترا إسماعيل باشا أن يعين رئيس الوزراء شخصية أرمانية هو "توبار" استوردوه ليعينوه ووزير المالية انجليزى ووزير الأشغال من فرنسا. وقد حاول هذا الفريق عرقلة سير العمل الوطنى والاجتماعى لذلك هاج مجلس الشعب وثار على تهميش المصريين وإبعادهم عن المناصب الهامة وفى مقدمة من أشعلوا هذه الثورة "عبد السلام المويلحى" نائب القاهرة وهو تلميذ لجمال الدين وصديق للشيخ محمد عبده. وسبب الثورة من النواب علاوة على ماسبق أن وزير المالية الإنجليزى أخر رواتب الضباط المصريين وأحال الكثير منهم إلى التقاعد فثاروا. وامتدت ثورة الجيش إلى المدنيين الذين تظاهروا وقبضوا على نوبار باشا وجذبوه من شاربيه. وسقطت الوزارة إلا إن الأنجليز سعوا إلى الباب العالى فى تركيا فخلع إسماعيل باشا وأعاد الوزارة. وتم نفى إسماعيل خارج البلاد إلى إيطاليا وولى الباب العالى "توفيق" الذى بادر الى تعطيل الحياة النيابة ونفى جمال الدين خارج البلاد وقد كان صديقًا له وأنشأ معه الحزب الوطنى الحر وكان يقول له: "انت أملى أيها السيد". لكن الكرسى له جاذبية وحفاظًا عليه لا بد أن ينفذ ما أشار به الإنجليز والفرنسيون الذين أتوا به إلى هذا الكرسى فأنساه صداقة الرجال الأوفياء، أما محمد عبده فتم تحديد إقامته فى بلدة محلة نصر. لكنه لم يهدأ أو يستسلم وفي الوقت ذاته لم يشكل أى فريق للمقاومه لأن حب الوطن ملأ عليه فكره ومشاعره فضلاً عن أنه لا يحب أى صراع يضر بالوطن ولهذا كان يغافل حراسه ويحضر إلى مصر حيث يلتقى ببعض زملائه الذين يتوسم فيهم الإخلاص والصدق، علاوة على أنه كان يعكف على مكتبة رفاعة الطهطاوى يقلب فى تاريخ الأمم وكيف نهضت من كبوتها وتخلصت من جلاديها بالهدوء وضبط النفس."

ونحن نتذكر- الشيخ درويش الذى جعله يجد نفسه فيتجه إلى العلم والبحث والمعرفة بالهدوء وضبط النفس- أما جمال الدين فجعله يعرف طريقه الصحيح ويشارك فى العمل الإجتماعى التطوعى ومع أن إقامته محدودة إلا أنه كالطائر ينتقل من غصن إلى غصن ليسمع الكون تغريده، ولقد اقترن اسم محمد عبده بالأحداث الكبرى فى تاريخ

مصر، وكان سنه لم يبلغ الثلاثين من عمره. وقد اكتسب هذا من ثقافتـه الواسـعة. لذلك نؤكد على أن القراءة أمر مهم جدا لكل إنسان والشئ الأهم قراءة القرآن الكريم وحفظه، ولهذا نرى أن محمد عبده أصبح قريبًا إلى أن يتولى مقاليد قيادة أمة وهـو فى هذه المرحلة السنية من عمره بسبب ترتيب فكره وبعد نظـره وتخطيطـه بدقـة متناهية.

مواهب الرجال :

الحاجة هى أم الإختراع. لذلك فإن الحاجة إلى الرجال بسبب مواهبهم أمر هـام جـدا فالقدرات العالية والكفاءات العلمية وسعة الأفق وتنوع الثقافة تجعل للموقع العـادى شأنا غير عادى إذا تولاه قيادى ماهر له كفاءة وقدرة على اتخاذ القرار. فـى سـنة ١٨٧٩م عين رياض باشا ناظرًا للنظار "رئيس وزراء"، وكان رياض باشا مصـريا يحب مصر وأهلها، وقبل أن يتولى المنصب كان يتألم للشعب المصرى الذى يسـخره الأجانب لصالحهم ويفرضون عليه الضرائب المتعددة ويستعملون معه الكرباج بشـدة وعنف ومع أن الفلاح المصرى يزرع لكنه لا يأكل من زرعه، ينتج ولكنـه لا ينتفـع بإنتاجه، فكل عمله لصالح الإنجليز والفرنسيين كان رياض باشا يرى ذلك ويتألم. وما إن أصبح رئيسًا للوزراء إلا وألغى كل ذلك بل واسترد للدولة خمسة عشر قصرًا كان الخديوى قد استولى عليها. فى نفس الوقت وهو يعمل لصالح الشعب أراد أن يستعين بشخصيات لهم فكر مستنير فكلما استشار الأوفياء والمخلصين أشاروا عليه بالشـيخ محمد عبده المحدد إقامته فى بلده ولذلك فهو بعيد عن العيون لكن مواهـب الرجـال تجعل الحاجة إليهم وإن بعدوا عن الانظار. لذلك بادر رياض باشا فاستصـدر أمـرًا بالعفو عنه وعينه محررًا أول بجريدة "الوقائع" وهذه الجريدة هى لسـان الحكومـة. وفى نفس الوقت لها حق نقد الحكومة وتصويب الصحف الأجنبية التى كانت تـروج للفساد والانحلال الخلقى والخلخلة الأسرية والتصدع الاجتماعى. ولذلك بـدأ الشـيخ

محمد عبده- وفى يده أداة رسمية تخاطب الجماهير بلسان الحكومة- يؤدى عمله بمهارة وكفاءة ونجاح. ولقد اختار الشيخ معه مجموعة من الرجال منهم سعد زغلول، والشيخ وفا زغلول وهما ممن يتسمون بالوطنية والحماسة و يتمتعون بالعقل المرتب والفكر المنضبط. ولقد كتب الشيخ منشورا وزع على مديرى المديريات (تعادل هذه الوظيفة محافظ) كتب يقول "وليعلم المديرون ورجال الدولة جميعاً أن الأهالى ليسوا عبيدا لأنهم أحرار وعليكم أن توجهوهم إلى منافعهم العامة أو الخاصة" وقد أيده رئيس الوزراء فى ذلك كما انتقد وزارة المعارف نقدا بناء حيث شخص الداء وبين العلاج. ووجه وزارة الأوقاف إلى وسائل الإصلاح عن طريق المسجد ووضع مكتبة فى كل حى. واهتم بالقضاء ووضع نظام المحاماة ونادى بإنشاء جمعيات خيرية وحدد هدفها وبرنامج عملها. وهنا نبهت الأفكار أمة مزقها الظلم وقهرها الإستعباد. وبدأت الحياة الاجتماعية تجد طريقها الصحيح بين الناس. والذى يقود فريق الإصلاح والكتابة والبيان هو الشاب محمد عبده. إن إدارة مثل هذا العمل المتنوع والمتشعب تحتاج إلى عقل مستنير وشخصية جذابة لها ثقافتها وصلتها بالناس. والنجاح دائما له أعداء. لذلك كثر أعداؤه. وكان الشيخ لا يأبه بهم. وإنما يعمل ويعمل بجد ويستفيد من نقد هؤلاء فى تصحيح المسار لأن العاقل من استفاد من نقد غيره له ولكن الاستعمار الذى وجد يقظة فى الشعب المصرى خاف على مصالحه وكان من شعاره "جوع كلبك يتبعك" "وفرق تسد" ولقد تعاون أعداء البلاد مع الذين فى قلوبهم مرض من أبناء الشعب حتى استطاعوا أن يسقطوا وزارة رياض. وتألفت وزارة برئاسة "شريف باشا" فى ١٨٨١م. وكان من أهم نقاط برنامجها "تصحيح الحالة المالية". و كانت الجماهير قد تحررت بسبب مقالات الشيخ محمد عبده. ولقد كتبت الصحف الأجنبية عن انتصارات الشعب المصرى وفك القيود من حول عنقه. فى نفس الوقت قدم الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى وزير الحربية وأحمد عرابى برنامج عمل بإسم "الحزب الوطنى" وأوصلوا نسخة إلى المستشرق "بلنت" وهو من أحرار الإنجليز وكان صديقا لعرابى ومن حبه لمصر اشترى أرضا بعين شمس بجوار منزل الشيخ محمد

عبده وقد نشر هذا المستشرق هذا البرنامج بصحيفة "التيمز البريطانية" فى أول يناير سنة ١٨٨٢م.

بعد خمسة أشهر تقريبا استقالت وزارة شريف وتولى البارودى رئاسة الوزراء وتولى أحمد عرابى وزارة الحربية وأصدرت الوزارة دستورا كاملا فى عام ١٨٨٢م وأقيمت الاحتفالات الشعبية وتبارى الخطباء وفى طليعتهم محمد عبده وعبد الله النديم لتحريك مشاعر الجماهير وهنا فزع الغرب كما فزع ضباط الجراكسة، كذلك تحرك قناصل الدول الأوروبية وأعدوا مؤامرة دبرها أعداء الوطن فقد شجعوا شخصا من رعايا الإنجليز مالطى الجنسية فطعن مصريا بمطواة فقتله فهاج المصريون وهبوا ليدافعوا عن أنفسهم وقاوم اليونانيون وقتل من المصريين ١٦٣ شخصا ومن الأوربيين ٧٥ فردا وهنا سقطت الوزارة وتشكلت أخرى برئاسة راغب باشا. ونظرا لغضب الشعب فقد انتقل الخديوى إلى الإسكندرية ليكون فى رعاية الإنجليز وحماية أسطولهم وتحرك الشعب غضباً نظرا لتحرك الأسطول الفرنسى لينضم إلى الأسطول الإنجليزى لضرب الإسكندرية واحتلالها ووضع الخديوى فى حمايتهم. وكان محمد عبده يعيش وسط الأحداث متفاعلا معها مؤثرا فيها وقد انعقد مجلس وطنى حضره الأمراء والعلماء والأعيان وقرروا الاستعداد للحرب. لكن الخديوى رفض وقرر عزل عرابى فرفض وطلب انعقاد الجمعية الوطنية "مجلس الشعب الآن" لكن اجتمع أكثر من خمسمائة فرد من العلماء والأمراء والأعيان وفيهم شيخ الأزهر والمفتى وقاضى القضاء وبطريرك الأقباط و حاخام اليهود ومحمود سامى البارودى. وتُليت عليهم أوامر الخديوى والرد عليها من عرابى. وكان الذى يقرأ "الشيخ محمد عبده" ثم قرأ فتوى شرعية صادرة من الشيخ محمد عليش والشيخ حسين العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى تؤكد على أن الخديوى خان البلاد ويجب عزله لانحيازه إلى الجيش الذى أعلن الحرب على مصر وأن الخديوى خرج على قواعد الشرع وقررت بقاء عرابى وعدم عزله لأنه وطنى مخلص. فى غمرة الأحداث وضع الشيخ محمد عبده صيغة يمين قسم يردده الضباط والوزراء والاعيان أن يتولوا الدفاع عن الوطن. وقاد الدعوة للتطوع فى

الجيش وجمع الأموال وتحرك الإنجليز بجيوشهم إلى كفر الدوار مرورًا برشيد فانتصر عليهم عرابى. لكنهم سرعان ما اتجهوا إلى قناة السويس وكان يديرها "دليسبس"، وهو فرنسى، فرخص لهم باستعمالها ورخص الخديوى لهم باحتلالها. وبوغت الجيش المصرى فى التل الكبير بجيش الإنجليز يحيط به وانهزم الجيش المصرى وأصدر الخديوى قرارًا بحله وتفريق الجنود. وآلت الأمور إلى الأسوأ. وحوكم محمد عبده وقدم مذكرة قال فيها "هل يشك أحد أن جهادنا وطنى ولقد تآزرنا نحن المصريين- مسلمون وأقباط ويهود لنجدة الوطن بحماس غريب، لأنها حرب بين المصريين والإنجليز" واتهم الخديوى ومحافظ الإسكندرية عمر لطفى بتدبير هذه الخطط التى أدت إلى ما آل إليه حال البلاد من احتلال الأجانب وعودة السخرة وفرض الضرائب المتعددة وشل حركة العمل الوطنى والاجتماعى، مما كان السبب فى تأخير ونشر الجهل والفقر والمرض بين المواطنين. كل هذه الأحداث المؤلمة المؤسفة وقعت خلال الفترة من ١١ يونيو عام ١٨٨٢م، واستمرت حتى ١٣ سبتمبر من نفس العام.

العزل والنفي :

استطاع الاستعمار أن يحاكم من شارك فى هذه الأحداث أو فى العمل الاجتماعى لتنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وتحريك مشاعر الجماهير ولولا خوف الخديوى والإنجليز من ثورة شعبية لأعدموا عرابى ومحمد عبده واكتفوا بعد المحاكمة بإصدار الحكم الآتى:

١) عرابى حكم عليه بالنفى مدى الحياة فى جزيرة إنجليزية ليكون تحت أعينهم.

٢) محمد عبده بالنفى لمدة ٣ سنوات فى بيروت.

أن الإنجليز بدأوا يستردون نفقات الحرب من الشعب المصرى. والعجب أن الجلاد يأخذ أجره من المضروب. ولذلك كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول "انتهت الثورة بالفشل وجرت على البلاد أسوأ العواقب لا لأنها قامت على غير أساس شريف. ولكن

لأن دسائس الدول الأجنبية وأغراضها فرقت بين الحاكم والمحكوم وتبع ذلك تفريق الأمة نفسها. وليس من العدل أن نلقى إثم هذا على أحد جزافا. غير أن دعاة الحرية والمخلصين للوطن والمجاهدين فى سبيلها هم الأشرف مكانًا والأعز عندنا شأنًا وإن وهنوا وخابوا. وقد كان الشيخ محمد قد طلب من أولئك الثائرين أن يتعاونوا ليخلصوا البلاد من الشقاء وينقذوا العباد من طول العناء".

إن جميع من كتب عن هذه الفترة يؤكد أن الشيخ محمد عبده لم يكن يدعو للإصلاح عن طريق الثورة. لكن لما رأى أن الثورة قائمة لنصرة المبادئ التى يدعوا إليها اتصل بها وساهم مساهمة إيجابية فعالة وهدفه تحرير الوطن ورفع الظلم عن الفلاح المصرى الذى يقدم الخير ويقابل بالإهانة وتسخيره بلا مقابل، ذهب الشيخ إلى بيروت منفاه من عام ١٨٨٢م إلى ١٨٨٨، وكان أهل الشام فى مطلع عصر جديد حفزهم له مدحت باشا من تركيا فظهرت نهضة تعليمية. والسبب أن المبشرين اتخذوها وطنًا لهم ونشروا أفكارهم بين المواطنين. ونزل الشيخ محمد عبده فى زقاق البلاط قريباً من دار رئيس البلدية محى الدين حمادة الذى أصبح صديقًا لمحمد عبده. وكان مجلس محمد عبده يضم العديد من الشخصيات وكان يقرأ عليهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشرح لهم مواقفه وجهاده ودعوته إلى الشورى والحرية والعدالة ثم رأى الإسلام فى تعدد الزوجات وحجاب المرأة والطلاق وفى أثناء الحديث يرد على الشبه التى يثيرها المستشرقون. وهكذا تحولت داره إلى ندوة علمية و دينية و ثقافية يومية وأصبحت داره مقصدًا لطلاب العلم والمعرفة.

نجم يتألق :

النجم لا يغيب أبدا وإن حجبه السحاب يومًا فلابد أن يظهر فى الأفق وله بريق. لذلك فإن الشيخ محمد تألق فى لبنان وذاع خبره. ومن هنا أقبل الناس عليه فأمهم فى الصلاة وألقى عليهم العظات الدينية والإجتماعية والتعليمية إلى غير ذلك ولكن قطع

هذا التيار المتدفق من العلم والثقافة وصول رسالة من جمال الدين الأفغاني يدعو الشيخ محمد لزيارته فى باريس. وأسرع الشيخ للسفر إلى باريس وهناك التقى بأستاذه. وبعد ليلة واحدة تم الاتفاق على:

١) تشكيل جمعية "العروة الوثقى" و يتشكل أعضاؤها ممن ينضم إليها من أى بلد.

٢) إصدار صحيفة باسم "العروة الوثقى".

٣) يرأس مجلس الإدارة للجمعية والصحيفة جمال الدين الأفغانى ونائبه "محمد عبده".

فى باريس بدأ الشيخ محمد عبده يلبس الطربوش ويطيل شعره لأن علماء المسلمين فى الخارج هكذا وفى هذه البلاد هذا وضعهم وزيهم وبدأ الشيخ يكتب مقالات منها على سبيل المثال "انجلترا والمسألة المصرية"، "الاستعمار فى مصر"، "ماضى الأمة وحاضرها". كما أنه حاور الصحفيين ونواب مجلس الشيوخ الذين كانوا يكتبون فى الصحف أو يخطبون فى المنتديات ويعلنون أن مصر يحيط بها الخطر من حركة المهدى فى السودان "ثورة السودان" لكنه رد عليهم بمقال قال فيه "والله لا خطر على مصر من حركة المهدى لأنهم جيراننا وأشقاؤنا وإخواننا. وإنما الخطر منكم على مصر ومن وجودكم فيها. إنكم إذا غادرتم مصر فالمهدى لن يفكر فى الهجوم عليها". ثم يقول "إن توفيق باشا أساء إلينا أبلغ إساءة لأنه مهد لدخولكم لبلادنا وقد انضم إلى أعدائنا فى قتالنا". ثم يستطرد "لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت أمة أشد منها قوة وقهرتها بقوة السلاح. وإنما العار الذى لا يمحوه كر الدهر هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منها لتمكن أيدى العدو من نواحيهم إما غفلة عن شئونهم أو رغبة فى نفع مادى وقتى. إن كل من التقينا به من الإنجليز يؤكد أنه يريد الخير لمصر. لكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد تصريحاتهم. إننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية كنا نظن أن الإنجليز يناصرون قضية الحرية. لكننا لم نصدق مثل هذا الإدعاء، إن الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام. إننا نرى

أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم. وأن عطفكم علينـا كعطـف الذئب على الحمل لقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكى يكون لكم من ذلـك حجـة للبقاء فى بلادنا".

بهذه الروح القوية دأب الشيخ محمد على الجهاد لأنه رأى أن موطن الداء هو ضعف النفوس وجمود الأذهان والبعد عن العلم والرضا بالجهل وعدم المعرفة بتاريخ بـلاده وعدم معرفة رجالات أمته. وأن أساس الإصلاح الاجتماعى يبدأ من تحرير النفـوس وتأسيس الناس على العلم والبعد عن الخرافات وتحرير النفوس من النزعات الفردية والأنانية. إن على من يريد الإصلاح لأمته أن يعمل على إيقاظ الضمير وإثـارة روح الوطنية وتنبيه الوجدان وتحريك المشاعر. ويصاحب ذلـك جرعـة ثقافيـة لتكـون الصحوة الدينية مرشدة. وأن يكون العمل علنا وتحت مظلة شرعية وبأسلوب هـادئ بعيد عن الإثارة. لأن الواجب علينا أن نسير فى وجودنا الحاضر مهتـدين بتجـارب السلف وليس من واجبنا أن نقبل كل ما يؤثر عنهم من تقاليد دون تدبر وتمحيص، بل ينبغى أن نستعمل الفكر فى موروثاتنا. فإن وجـدناها صـحيحة أى موافقـة للعقـل الصريح- قبلناها وزكيناها- وإلا رفضناها غير آسفين.

وهكذا تبرز أمام أعيننا شجاعة نادرة فى طلب الحق لا تزعزها المخاوف ولهذا قـال الشيخ "يكون الإنسان حرًا خالصًا من رق الأغيار. عبدًا للحق وحـده. وهنـا يكـون الإنسان عزيزًا كريمًا. بعيدًا عن أوهام الجهلة (فإن الذليل للحق عزيز)"

اختلاف فى الرأى :

الشيخ محمد له رأى واضح هو "عدم الاشتغال بالسياسة" ومن رأيه تربية جيل مـن الأبناء ليكون عندهم القدرة على الإصلاح المنشود لأنه حسب قوله "السياسـة بحـر يموج بعضه فى بعض يسقى راكبيه ما لا حيلة لهم فيه"، ولهذا كان هناك بين جمـال الدين وبينه فى هذه النقطة خلاف، فجمال الدين يحب الثورة وتجييش الجيوش، أمـا

الشيخ ففقيه يؤثر تربية العقول على تجييش الجيوش ويفضل الروية والتهدئة. ولذلك نقرأ لجمال الدين خطبة ألقاها فى الإسكندرية قال فيها: "أنت أيها الفلاح المسكين لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك"؟ وفى مجلة العروة الوثقى نشر مقال بلسان جمال الدين وقلم الشيخ محمد وكانت عن "توبار" الذى رمى مصر بنظام المحاكم مختلطة وقد جعلت الأجانب ملوكًا غير متوجين فى مصر. وكان نوبار يعمل على نشر الفساد والرشوة وتولى وزارة الأشغال وأخذ امتيازًا بإنشاء شركة لبيع مياه النيل لأهل القاهرة. وقد جاء فى المقال المشترك عن نوبار "الرجل ليس مصريًا ولا عربيًا. ولا مسلمًا. فإذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح. لا خسر ملة ولا وطناً ولا جنسًا. إنى أتعجب وكل ذى إحساس من سكان مصر من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين ألا يوجد بين هؤلاء من يشمر عن ساعد ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصنعة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمتمردين من أمثاله حقيقة الوطنية". ومن الأمور المؤكدة أن "اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية" فالرجلان يتفقان على نظام لإصلاح المجتمع. هذا له أسلوبه. وهذا له أسلوبه. لكن الغاية واحدة. والطرق الموصلة للغاية مختلفة لكنهما يلتقيان فى النهاية.

(سلسلة أعلام الإسلام)

رحلة بلا عودة :

كان الشيخ محمد عبده فى منفاه ببيروت حين وصله خطاب جمال الدين الأفغانى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣ يدعوه لباريس فسافر على الفور ومكث بها حتى سنة ١٨٨٥ وخلال هذه الفترة أسس وشيخه جمعية العروة الوثقى و مجلة العروة الوثقى. وقابل العديد من الشخصيات وناقش وحاور وشرح وبسط الأمور ووضحها فى سنة ١٨٨٥ عندما غادر باريس. وتوجَّه إلى تونس فزارها والتقى بالعديد من علمائها

ومفكريها وقادة الرأى هناك. ثم توجَّه إلى مصر فدخلها متخفيًا. وكان يتـردد علـى مكتبة على بك رفاعة الطهطاوى. وكان وكيلاً لوزارة المعارف وكانت هـذه الرحلـة نهاية اللقاء مع شيخه "جمال الدين الأفغانى"ولم تطل إقامة محمد عبده بمصر. فسافر إلى بيروت مكان منفاه. وكانت بيروت هى مركز الثقافة العربيـة. ولـذلك اسـتطاع بمعاونة شخص يسمى "العارف أبو تراب" وهو فارسى أن يتـرجم كتابًـا بالفارسـية "لجمال الدين الأفغانى" وهو رد على الدهريين الذين يقولون "ما هى إلا أرحام تـدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر" والقرآن تولى الرد عليهم فى سورة "الأنعـام" ثـم كان له فى بيروت مجلسًا لتفسير القرآن فى مسجد الباشورة ثلاث ليال فى الأسبوع. أما فى شهر رمضان فكان فى كل عصر له درس فى مسجد العمرى الكبيـر، وكـان المسجد يضيق بالمصلين والمسيحيون يقفون على الأبواب والشبابيك يستمعون وكانت له ندوة فى بيته يحضرها علماء السنة والشيعة وأساقفة النصـارى والكـل يعتبـره مرجعاً عاماً كما يقول الأمير "شكيب أرسلان" لقـد تجلـت فـى شخصـه وعلاقتـه الإجتماعية سماحة الفكر الإسلامى. لهذا تجد أن قسـيس الكنيسـة يعـرض عليـه الموعظة قبل إلقائها ويزوره البهاء زعيم البهائية ويناقشه ويحاوره مما يـدل علـى سماحة الإسلام. ومع أن المصائب أحاطت بالشيخ فى غربته حيث تـوفى ولـده ثـم زوجته إلا أنه كان يردد:

وتجلدى للشامتين أريهموا * أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ومع ذلك لم تفته فى بيروت فرصة إلا انتهزها ليبين سر تأخر المسلمين ويدعو إلـى الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية مع الحرص على تعليم الأخلاق والتربية الدينية. وقد كتب لائحتين عن التعليم وقَّع معه عليها وجهاء بيروت وتم إرسـالهما إلـى شـيخ الإسلام فى اسطنبول. وكان يكتب فى المجلات والجرائد فى مقالاته يدعو إلى تـدعيم الوحدة الوطنية وعدم التفريق بين المسلمين ومن يخالفهم فى العقيدة. فشعار المسلم "لكم دينكم ولى دين"، وقول الله كذلك: "لا إكراه فى الدين" فالدين للديان جل جلالـه، والوطن للجميع، وعدونا يريد أن نشعل حربًا داخلية لتنشغل بها فيغزونا ويسـتعمرنا

وينهب خير بلادنا وشعار العدو "فرق تسد" وهذا مادفع بالقس "إسحاق تيلر" راعى الكنيسة الإنجليزية فى لندن بنشر مقالات عن الإسلام تحدث فيها عن الإسلام حديثًا مليئًا بروح التآلف والتضامن والود والتسامح لأن هذا هو شعار الأديان كلها. وكان يلقى دروسًا فى الفقه والسنة النبوية فى جمعية المقاصد الإسلامية. على تلاميذ المدرسة السلطانية. وكان من بين التلاميذ "شكيب أرسلان وعبد الباسط فتح الله" ولهما مع الشيخ مواقف عظيمة. لقد انخرط الشيخ بالعمل يصل نهاره بليله. ولم يسترح ولم يضيع ساعة من حياته فجهاده متصل بين المسجد وجمعية المقاصد وندوة بيته ومقالاته والرد على من يسأل وتصحيح الأفكار المغلوطة والاطلاع على ما كتب فى المجلات والجرائد. ولقد تعلَّم الشيخ الفارسية، وبدأ يتعلم الفرنسية، وهذا نموذج نقدمه للكبار ونقول للشباب ولهم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" و"اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" وارفعوا معى أكف الضراعة إلى الله وقولوا: "رب زدنى علمـا"؛ وليكن شعارنا "من المحبرة إلى المقبرة".

ابتكار فى أسلوب العمل :

كانت مجلة العروة الوثقى قصيرة الأجل لأن مقالات الشيخ كانت أقوى من مدافع الإنجليز. وقد ذهب الشيخ إلى انجلترا وقابله صديقه "ولفرد بلنت" وكان ذلك فى مطلع صيف عام ١٨٨٤م وقد لعب هذا الصديق دورًا عظيمًا فى أسماع صوت الشيخ إلى أعضاء البرلمان الإنجليزى الذى ندد بجيوش بلاده وهى تحصد أرواح المصريين وتبتزهم. ولقد سمع الرأى العام فى إنجلترا من خلال مقالاته فى الصحافة ولقاءاته مع رجال السياسة، مما دفع بالحكومة الإنجليزية أن تصادر مجلة العروة الوثقى وتمنع دخولها إلى البلاد العربية. كان الشيخ كلما حاربوه فى ميدان فتح ميدانًا جديدًا. لذلك أنشأ جمعية دينية. أهم أهدافها التقريب بين المذاهب، وقد انضم إليها شخصيات عظيمة من الذين يحبون السلام والتعايش مع الآخرين فى ود وسماحة. ثم أنشأ

الجمعية الخيرية الإسلامية ومن أهدافها: نشر التكافل الإجتماعى، مع خلق روح التعاون بين الأفراد، والاعتماد على النفس، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة على الفقراء والإحسان إليهم والرفق بهم وتحقيق العدالة الاجتماعية. ثم أسس جمعية إحياء الكتب.

إن الروح الوثابة الناهضة لا تعرف للراحة طعمًا ولا تتكاسل وكل يوم تبتكر فى أسلوب العمل. ومن هنا كان الشيخ محمد عبده بحق قدوة عظيمة لأنه عقلية مفكرة مبتكرة. وحيثما اتجه لأى طريق نظر أعداؤه إليه وأشاعوا الشائعات حول الجمعيات التي أنشأها وقللوا من شأنها وبدؤا يرسمون خطط وضع العراقيل أمام نشاطها ثم فتح الشيخ باب الدعوة إلى إنشاء جامعة مصرية تقوم بجوار جامعة الأزهر ليكون فى المجتمع ملائمة بين العلم الدينى والعلم المدنى لأن المسلمين لابد أن يجمعوا بين الدين والدنيا كما يحثهم الإسلام. والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا. وهذا ما أشار إليه القرآن ووجه إليه فى قول الله سبحانه "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين" (سورة القصص ٧٧) وهكذا نجد أن الشيخ يتمتع ببعد نظر ويخطط فى هدوء مع ضبط النفس وطول النفس والحلم والدقة فى وضع البرامج الناجحة.

تحرير المرأة :

أتت على المجتمع الإسلامى فترة من الزمن عزلت المرأة عن المشاركة فى أى عمل بل نشأت تحت سيطرة الرجل يطوف بها حيثما أراد. وخالفوا بذلك تعاليم الأديان السماوية التى راعت مصلحة المرأة. وإن كانت مصلحتها تختلف باختلاف العصور والبيئات. أما المدنية الحديثه فقد وقفت إزاءها موقفًا ليس فى مصلحتها فقد قذفتها إلى لجة الحياة المتلاطمة بعنف وقسوة أو بإغراء فيه لين الأفاعى. فكان الرومانيون

لا يعترفون بأنها إنسانة. وكان الأثينيون يتجرون بالنساء ويبيحون للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل. وفى سنة ١٧٩٠م بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين وكان القانون الإنجليزى يبيح للرجل أن يبيع زوجته لأنه لا يعدها من المواطنين واستمر الحال على ذلك حتى سنة ١٨٥٠م. هذا شئ علينا أن نعلمه. ونعلم أن أول من نادى بتحرير المرأة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و أن القرآن أنصفها ورفع الظلم عنها وقال بصريح العبارة "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف" (سورة البقرة ٢٢٨). يقول أحد أستاذة التاريخ بجامعة شيكاغو "فى الوقت الذى كان سكان بغداد ومصر والبلاد الإسلامية تحتل المرأة المركز اللائق بها ثم لا تكلف إلا بتدبير المنزل وتربية الأولاد، كان نساء الرومان وعبيدهم يزرعون الأرض ويرعون الماشية. إن الإسلام قرر للمرأة حقوقًا لم يكن المجتمع الإنسانى يعترف بها. وعلى رأس تلك الحقوق حق الحياة".

ونقرأ فى سورة النساء فنرى المساواة التامة مع الرجل فيما هو من خصائص الإنسانية من كسب، وعمل، وعرض لها كذلك فى سورة القصص فبين حسن فراستها وبعد نظرها، كما حدث مع ابنة الرجل الصالح عندما قدمت موسى لأبيها بقولها: "يا أبت استأجره. إن خير من استأجرت القوى الأمين"، وفى سورة النمل بين قدرتها على إصدار الأحكام وقيادة الدولة وقوة نفاذ رأيها عندما ذكر قصة بلقيس وسيدنا سليمان عليه السلام واستمع الله إلى شكواها وهى تجادل وتحاور النبى العظيم سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم واحترم رأيها وقرر رفع الغبن عنها بمبدأ يسير عليه التشريع العام. وكان حكم الظهار أثرا من آثار الفكرالنسائى. لقد مزق الإسلام الفوارق فى المجتمع، فأصبحت المرأة فى ظل تعاليم الإسلام قسيمة الرجل لها من الحق ماله. لكن الرجل يقوم بحمايتها وبسط يد الرحمة عليها بماله من قوة واتساع الحيلة و الزود عنها والإنفاق عليها إلى غير ذلك مما بين الله ووضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الإسلام قد قرن بين الرجل والمرأة فى علمة المواطن، فلقد عرف لها نصيبها من رقة القلب ودقة الحس ورقة المشاعر، وأنها مناط شرف الرجل وموطن

عرضه. لذلك أحاطها بالرعاية واختصها بنصيب كبير من الحرمة والكرامـــة، فمـــن حقها أن تكون فى موضع الرعاية وأن يكون اسمها بعيدًا عن لغو الكلام ومنال اللسان وصيانة سيرتها، ذلك قول الله وحكمه تكريمًا للمرأة بعد أن عانت ما عانت على يدى الرجل الذى ظلمها وباعها وأكل حقها فى الميراث. إن الله سبحانه مــاخلق المــرأة لتكون رهينة بيت أو سجينته، بل هى ربته، والقائمة بأمره، والمسئولة عنـــه، ولقـــد كان عصر الشيخ محمد عبده حيث أقصيت المرأة المسلمة فيه عن المجتمع وعزلـــت عن الحياة ولم تتعلم ولم تشارك فى أى عمل اجتماعى لذلك نراه يحطم هذا ويشـــارك فى "صالون الأميرة نازلى فاضل" وزوجها التونسى "خليل بوحاجب" وكان الصـــالون عبارة عن غرفة كبيرة جدا يجتمع فيه أهل الصفوة من القوم تختلف دراستهم وكانوا يتدارسون مشاكل المجتمع من كل ويضعون الحلول لكل مشكلة، ولهـــذا كـــان مـــن المترددين على هذا الصالون سعد زغلول، أحمد عفيفى، قاسم أمين، محمـــد فريـــد، وكانت السيدة نازلى امرأة برزة (هى التى تبرز أمام الرجال)، تجـــالس العليـــة مـــن القوم، رجال السياسةو علماء الاجتماع و الدين و الطب. بدأ الشـــيخ يحضـــر إلـــى الصالون ويدير الحوار فى المسائل الوطنية والاجتماعية وغيرها. ولقد حث الشـــيخ هذه السيدة على أن تتبرع بمكتبة أسرتها. وفعلا تم هذا التبرع وكانت هـــى النـــواة الأولى لدار الكتب المصرية. ثم قال لها "كيف تتكلمين فى السياسة وأنت لم تســـهمى ولم تؤسسى مدرسة للبنات". لأن تعليم البنت مما رغب فيه الإسلام وحث عليه. لذلك بدأت الأميرة نازلى تعد العدة لإنشاء أول مدرسة للبنات. فى هذا الجو العلمى نشـــأت الفكرة عند قاسم أمين لكتابة كتابه "تحرير المرأة" بموافقة سعد زغلول وبدأت مظاهر النهضة النسائية التى تزعمتها هدى شعراوى زوجة على شعراوى وهو تلميذ للإمام محمد عبده. إن الإصلاح فى نظر الشيخ محمد عبده يشمل كل شئ. إنه ينتهز الفرصة ليعمل أى عمل اجتماعى له مردود على الجماهير بالخير وبشرط أن يكون هذا العمل متفق مع شرع الله وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم والا يكون هناك صدام مع أحـــد. وإن كان يستبعد السياسة من ذهنه. لكنه يؤمن أن السياسة هى "خدمة الجميع بأسرع

ما يمكن. فى الوقت المناسب دون صدام مع أحد. ولا الاعتداء على أحد. ولا سلب حقوق أى شخص". هذا ما آمن به الرجل المصلح العظيم صاحب الخلق العالى والأدب الرفيع الذى لم يشغله شئ عن التفكير المتواصل فى إصلاح حال الأمة ورفع شأنها ومحاربة الظلم وعدم الاستكانة لظالم حتى ولو كان أقوى منه وزج به فى السجن. فى سبيل المصلحة العامة ينسى نفسه. وهكذا يكون عمل العظماء والتاريخ لن ننساهم أبدا فإن أسماءهم يسجلها على جبين الزمن بأحرف من نور.

أفكار عامة :

كان الشيخ يعلن أن موطن الداء فى هذه الأمة هو "ضعف النفوس. وجمود الأذهان وأنهم قد فقدوا الإيمان بالله. لأنهم أخذوه اسما ونظريات فقط وتركوا العمل بأركان الإيمان. وهذا دليل على ضعف العقيدة والجهل بالدين، وقد أدى ذلك إلى شيوع البدع وانتشارها. ولهذا كان يندد بسكوت العلماء وانطوائهم وبعدهم عن المجتمع وفرارهم من أداء الخدمة العسكرية وهى من أهم الفروض الدينية. كما أنه يلوم الأغنياء على بخلهم بأموالهم وعدم مساندة الدولة مما دفعها إلى إرهاق المواطنين بالضرائب وابتزاز الفلاحين وقهرهم فى السخرة وترك القاعدة العريضة تعانى من الفقر الذى أوصلهم إلى الأمراض ولم يجدوا لها علاجًا ولهذا كان يحث الأغنياء على بذل أموالهم والمساهمة فى المشروعات العامة كبناء المستشفيات وتقديم العلاج للمحتاجين وكل ما من شأنه أن يعود بالنفع على الجماعة. رفع الشيخ صوته مناديًا بتحرير الفكر من قيد الجمود مع حرية الإرادة ومن قوله "إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه فإن مثل هذا لمن سخف الرأى ولم يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين إن جزءا من أعمالنا منسوب إلى الإرادة الشخصية وذلك ما يسمى بالكسب وهومناط الثواب والعقاب".

إن التحليل لملامح العصر الذى كان يعيش فيه الشيخ يجد أنه ملئ بالأحداث فهناك مشكلات سياسية وأخرى اجتماعية وأخرى تربوية علاوة على جمود عقلية الكثير. لهذا كان الشيخ يغير من آرائه ليستطيع توصيل المعلومة إلى القيادة برفق ولأن الجهل الذى خيم على العقول أفسدها. والانحطاط الأخلاقى الذى ساد فى البلاد عقب الاحتلال الإنجليزى لمصر فرق شملها. ومن هنا كان الشيخ يؤكد أن الإصلاح الأخلاقى هو الأهم لأنه كما يقول القائل:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم * فأقم عليهم مأتما وعويلا

وإصلاح الأخلاق يسبق الإصلاح السياسى. لذلك كان يطالب بإجراء حركة التطهير فى المناصب الحكومية والوظائف العامة تشمل محترفى السياسة وضعاف النفوس والكسالى والخاملين والانتهازيين والمهرجين الذين يمشون فى كل زفة ويصفقون لكل وافد. وأن يحل محلهم من عندهم القدرة على تحمل المسئولية والذين لا ترتعش أيديهم عند التوقيع على المستندات وأهل الإرادة القوية والضمير الحى مع التوجه لإعداد جيل قادر على القيام بما يعهد إليه من بعث روح قوية تسرى فى المجتمع، ويتم ذلك على أساس التعاون بين جميع المسئولين و التماسك الاجتماعى بين الأفراد. إن الذى أدى بالمجتمع إلى البوار والانهيار هو هذا التفكك فى الروابط الاجتماعية والعزلة التى فرضت على كل فئة وسيطرة روح الأنانية وعدم المبالاة عند البعض. ومن قول الشيخ فى هذا "إن الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هى الأخلاق الفاضلة. إن العلم الحقيقى هو الذى يعلم الإنسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط اجتماعية واحدة وهذا هو الاتحاد القومى المتين".

"إن علينا أن نعمل على بعث النفوس على الإقدام للعمل الاجتماعى مع احتمال واقتحام الأهوال بشجاعة وصبر وتطويع النفوس على الثبات على الحق والبذل بسخاء. والإنسان لا يرهب الموت فى الدفاع عن حقه فى إعلاء شأن أمته ولا يخاف الفقر

لإحساسه بأنه عبد الغنى. والعمل على تشييد مجد الأمة على حسب الأوامر الإلهية وأصول الإجتماعات البشرية".

لقد كان الشيخ يردد بأن ضعف النفوس وجمود الأذهان آخر الأمة وقتل فيها روح الإبتكار والجد والعمل. لذلك علينا أن نهيئ جيلا جديدا يدرك قيمة العلم والعمل خوض معركة البناء بروح الجد والإبتكار مع فهم رسالة الدين فى العمل على إسعاد المجتمع. والتمييز بين ما للحاكم من حق الطاعة وما للشعب من حق العدالة والقضاء على المحسوبية ومحاربة الرشوة وتقديم الكفاءات والتعاون بروح الجد والتفانى فى كل ما من شانه يخدم الجماهير مثل إنشاء الجمعيات الخيرية وجدية القائمين عليها لرعاية الأيتام ونشر روح الاتحاد والتضامن بين جميع الأفراد. كذلك عودة الصالونات الثقافية ومناقشة المشاكل الإجتماعية بروح الجد والإخلاص وتشخيص العلاج وهكذا كانت أفكار الشيخ وهذه عينات منها. نرى إن الشيخ بأفكاره شديد القرب منا. لذلك فقد أيقظ الوعى القومى والإنسانى وقبلهما الديني و عمل فى فترة عصيبة على إيقاظ الضمير وتنبيه الغافلين عن القيم الأخلاقية ففتح بذلك باب الأمل وقتل اليأس الذى كان قد خيم على المجتمع الذى احتله الإنجليز وكشف من الداخل من فى قلوبهم مرض وهم من المعوقين الذين اشتراهم الاستعمار بالكرسى أو المال وأصبحوا فى أعين العقلاء من أعداء الأمة واتسموا بفتور الهمم. ونحن علينا ان نؤمن بأن النصر للحق والبقاء للحق وصدق الله العظيم "فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض" (سورة الرعد ١٧). لقد كان الشيخ مصلحا عاما. وكان يستعمل الرفق مع سعة الصدر والحلم مع الصبر ولذلك كأن لآرائه آثار عظيمة. ولا يستسلم للأمر الواقع ما دام فيه خطأ وغير موافق للنظم الإلهية والسنة النبوية. ومع أن الشيخ كان عنده ثقة كبيرة فى الله، مؤمن بنصره إلا أنه كان يأخذ بالأسباب. إن الشيخ اشتغل بالتجديد الدينى و دعا فى نفس الوقت إلى الإصلاح الإجتماعى لذلك أصبح بحق "رجل علم وعمل. رجل دين ودنيا. وكان يهاجم ما يراه يخالف الصواب أو التمسك بعادات

شائعة. ولهذ كان الشيخ يرى أن الواجب على الإنسان أن لا يذل فكره لشئ غير الحق".

حركة الإصلاح :

إن من يدرس حياة الإمام العظيم محمد عبده يستطيع أن يلخص فكره فى نقطتين هما:

١- محبة الحكمة، ويكتسبها الإنسان من كثرة القراءة والتعرف على أحوال الأمم ورقيها وأسباب عوامل ضعفها وسقوطها الأخلاقية و الدينية والإجتماعية.

٢- تهذيب السلوك الإنسانى بغرس الفضائل فى النفوس وحث الهمم على الارتقاء بها والتقدم، لهذا كان الشيخ يتمسك بذلك وعرف الجميع أنه قوى الشكيمة وأنه على الحق، لذلك حدثت مساعى للعفو عنه عاد بعدها إلى وطنه من منفاه فى بيروت وصدر العفو بناء على وساطة عدة جهات لأن سيرة الشيخ كانت أنشودة عامة يترنم بها الكثير من أصحاب المراكز والنفوذ، لأن الشيخ لم يهدأ وأثبتت الأيام أن بيروت هى وطنه يحتضنه برفق ويحنو عليه. ولهذا أفسحت له أن يتحرك فى أى إتجاه.

يقول الهلباوى فى كتابه اليوبيل الذهبى للمحاكم الأهلية من سنة (١٨٨٣) إلى (١٩٣٣م) " وأذكر أن جميع الذين أبعدوا عن مصر بسبب الثورة بعدت عنا ذكراهم وجهلنا سيرتهم من يوم نفيهم إلى يوم عودتهم. إلا الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان اسمه يجلجل فى جميع المحافل المصرية أثناء هذه المدة كأنه بين ظهرانينا" وكان سعد زغلول الذى كان يتصدر صحبه ويبهر قاعات المحاكم بمرافعاته ينادى بعودة الشيخ والعفو عنه لذلك أصبح محط أنظار الأمراء والقادة والعلماء وأفراد الشعب وكان يمثل مصر كلها فى العمل على عودة الإمام. لذلك وسط الأميرة نازلى فاضل للتحدث مع المسئولين للعفو عنه، وأما اللورد كرومر- فيذكر فى كتابه "مصر

الحديثة" أن العفو صدر بسبب الضغط البريطانى. فى حين يذكر الإمام الشيخ محمد البسيونى أن الخديوى قال "ما عفوت عن أحد عفوا هو أشبه بالاعتذار إلا هذا". و يقول مختار باشا نائب تركيا فى مصر بأن العفو صدر بناء على وساطته. ولهذا كان مختار يردد "إن دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرفت". ولقد فوت الخديوى على الشيخ بعد عودته من منفاه وظيفة كان يرجوها وهى التدريس فى دار العلوم أو أن يقوم بالتدريس فى الأزهر. وعلل الخديوى منع الشيخ بقوله حتى لا يجتمع عليه الشباب. لكن الشيخ لم ييأس فكان يجلس بجوار إحدى أساطين الأزهر يدرس التفسير متطوعا.

كانت عودة الشيخ إلى مصر عام ١٨٨٨م وما لبس فى دروس التفسير كثيرا حتى صدر له قرار بتعيينه قاضيا بالمحاكم الشرعية. وبعد أشهر عين مستشارا فى محكمة الإستئناف. وكان يتوخى فى أحكامه تنبيه الجماهير إلي المخاطر التى تحيط بهم من جراء الخصومة ويعمل على إيقاظ الوعى فيهم وإصلاح ذات البين. ذللت مواهب الشيخ والإجماع على الحاجة إليه العقبة التى كانت قائمة بشأن إشتغاله بالقضاء. كان فى احكامه يطبق العدل حتى ولو خالف القانون سأله مستشار وقال له "إن ما حكمت به يخالف القانون" فقال له "هل العدل وضع لأجل القانون أم أن القانون وضع لأجل العدل". ثم يشرح العدل فينشرح صدر المستشار، ولقد عرضت عليه قضية لرجل أجنبى "وكان الأجانب يتمتعون بحماية ليست لهم فى بلادهم" فتطاول أحدهم وأساء. محتميا بالامتياز. فأمر بحبسه. ولما سأل قال "ما دمت على كرسى القضاء فلن أقصر فى احترامه". وذات يوم استعان مصرى بإنجليزى ليرفع علم بريطانيا على أرض إغتصبها فأمر بنزع العلم وطرد الغاصب. كما كان يطارد الفواحش والإنحرافات حتى قالت إمرأة "إن النبى ظهر ثانية فى هذا العصر". كان الشيخ موضع إعجاب جميع الطبقات. وليس له مثيل فى حب الناس له وهو على كرسى القضاء. ومع ذلك كان يسعى لإصلاح القضاء بكل الأساليب وينادى برفق وحكمة بتعديل القوانين لقد حمل الشيخ عبئا فوق طاقته، لكنه كان يشعر أن عمله هذا عبادة لله الذى يأمر بالعدل إذا

فليصل ليله بنهاره حتى يتحقق إلغاء المحاكم المختلطة والإمتيازات للأجانب ويعمل على رفع شأن المواطن المصرى وإعطانه حق الإعتبار حتى يكون مواطنا صالحا يخدم امته وينهض بها لأن من فقد كرامته هانت عليه نفسه ففرط فى وطنه ولا يدافع عنه أبدا.

فى عام ١٨٨٩م انتقل الشيخ من القضاء إلى دار الإفتاء فعين مفتيا فنهض بهذه المؤسسة وأضفى على المنصب سناء ومهابة ولقد وسع من إختصاص دار الإفتاء مما قوى نفوذه ويرجع ذلك إلى:

١- كانت فتاوى الشيخ تمتاز بالتيسير والملائمة بين نصوص الإسلام فى سماحته والتخفيف على الناس وبين روح الحياة المعاصرة مع ملاحظة التطور فى العلوم "المدنية المعاصرة" وذلك أخذا من قول الله سبحانه "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا" (سورة النساء ٢٨) وقوله سبحانه "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (سورة البقرة ١٨٥) وقوله سبحانه "ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج" (سورة المائدة ٦).

٢- بعد البحث فى آراء السابقين كان الشيخ يجتهد ويسوق النصوص والشواهد على رأيه المتوازن الملائم ويطلع على ما يتعلق بالموضوع من قريب أو بعيد. ويبتعد عن التقليد ويميل إلى التيسير والتخفيف. لأنه كان يؤمن بأنه لكل مقام مقال. ولكل بيئة مشاكلها. فكان يراعى مستوى العقلية حتى لا يصطدم بالجهلاء فيشوشرون عليه. وكان يقر قول الإمام الشافعى "لو جاءنى عالم لغلبته ولو جاءنى جاهل لغلبنى" ويطبق قول الله سبحانه "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" (سورة إبراهيم الآية ٤).

إن الزمن الذى عاش فيه الشيخ كان التعصب قد بلغ فيه درجة عالية نتيجة الجمود الفكرى ولذلك قال الإمام "يوجد فى بعض كتب الفقه أمور عدت مسقطات للشهادة كحلق اللحية والعمل فى بعض الوظائف لمعاونة الحكام ونحو ذلك وقد علل الفقهاء بأن حلق اللحية مسقط للمروءة ومعاونة الظلمة فسق. وكان أحد المفتين قد حكم برد

شهادة رجلين لحلق لحيتهما. ولم يراع فى ذلك أن الأمر الأول قد ذهب زمنه. لأن المدير ووكيل المديرية ومأمور المركز وهم معدودون من أهل الصلاح والمروءة وجميعهم فى تلك المديرية يحلقون اللحية ولا أرتفع إلى أعلى من ذلك. والأمر الثانى أن أمهات الكتب صرحت بقبول شهادة الفاسق. وبعضهم قيدها بذوى المروءة وبعضهم أطلق. وبنوا على هذا جواز تولية القاضى الفاسق خصوصا من كان فسقه بعمل لا يتعلق بالشهادة كالشرب والقذف ونحوهما فلو أخذنا بما ألفه المقصورون فى فهم الشريعة حصرنا قبول الشهادة فيما يصدر من رعاع الناس ومجهولى الحال الذين لا نعرف أهليتهم للثقه بمقالهم. وكثير من طويلى اللحي الظاهرين بلباس الصلاح إنما يقتاتون بالكذب. وكثير من غيرهم يتنزهون أن يكذبوا مرة واحدة فى حياتهم، أما بقية الأدلة فلا يزال القضاء يتخبطون فى أحكام الإقرار وقبول الشهادة عليه. والأدلة الخطية مهملة بالمرة لا يعدها القضاء إلا مؤيدة للشهادات وعار على قوم يأخذون الأحكام من الكتب ويجلسون للحكم بدلائل الحظ لا سواها ولا يستعملون عقولهم فى النصوص الدينية والإجتماعية والمصالح المرسلة. يجب مراعاة الأصلح حتى لا نعرض دين الله للإضطراب فى نظر الناس. لقد أصبح وحده لا يقدر على حل المشاكل الحياتية للناس فى كل مكان. لإن من يتصدر للفتوى أو القضاء عليه أن ينظر إلي أقوال العلماء فى الأحكام الشرعية المذكورة فى الكتب و هي مخلوطة بالخلاف والبحث وطرق التحقيق. ومن رفعت إليه واقعة شرعية قد يصعب عليه الحكم فيها إلا بعد الرجوع إلى المطولات من الكتب وربما أحتاج إلى عدة أبواب مختلفة. ثم يستعمل عقله ويوائم بين الزمن الذى كتب فيه الكتاب وبين زمنه ثم يرجع إلى كتاب الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يقدم حكم أو فتوى ملاءمة للواقع يسهل الأخذ بها حتى لا يكذب الله ورسوله ولا نميع الحكم أو نهدد النص أو نقول ما لا يتناسب مع الآية القرآنية أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لا ينطق عن الهوى. إن علينا أن نفزع إلى الشريعة الإسلامية المطهرة لنجد الوسيلة إلى وقاية الأعراض والأنفس مع أن المحافظة عليهما من أهم مقاصد الدين ولا نعدم فى

نصوصه وسيلة إلى حل المشاكل الإجتماعية". وكان رأى الشيخ أن كل ذلك يتطلب إصلاح الأزهر مع النظر فى كتب الفقه والتفسير والسنة المطهرة. ولذلك نادى بتشكيل لجنة من العلماء ليستخرجوا من الأحكام الشرعية ما فيه شفاء لعلل الأمة فى جميع أبواب المعاملات. ويكون ما يستخرجونه كتابا شاملا لكل ما تمس إليه الحاجة فى هذا الوقت لأن فى الإسلام من ضروب الهداية ما يعد من الأصول الخاصة بالإسلام كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح المرسلة والمنافع ودفع الضرر.

إصلاح الأزهر :

تمتع الشيخ بالذكاء الحاد والفطنة وبعد النظر. لذلك وجد أن الإنجليز وهم الذين يحكمون مصر حقيقة لا يتدخلون فى مؤسسات ثلاث:

١- الأزهر

٢- الأوقاف

٣- المحاكم الشرعية

لذلك بادر بتقديم مذكرة بإصلاح الأزهر. واقترح تشكيل لجنة لوضع الأسس وقد تم ذلك فعلا. وكانت المقترحات التى تقدم بها إلى اللجنة تتلخص فى:

١- أن يكون للأزهر أطباء وصيادلة مع إلزام مصلحة الصحة برعاية الظروف الصحية للمشايخ والطلاب.

٢- زيادة مرتبات المشايخ لتتلائم مع حركة الغلاء وحتى يكون للعلماء كفاية لمعيشتهم.

٣- وضع نظام الدرجات المالية حسب المؤهل والإجازة والسن.

٤- وضع حوافز للطلبة ليتفرغوا للدرس والتحصيل.

٥- النظر فى منهج الدراسة لتوائم التطور الزمنى وحتى يتخرج الطلبة وهم علماء يفيدون الأمة ويخدمون وطنهم بنشر الفكر الصحيح والبعد عن الخرافات والقضاء على الأباطيل.

وكان يعمل على النهوض بالتعليم بصفة عامة وفقاً للمناهج الحديثة والمساهمة فى إزالة الستارة التى تحجب الحضارة الإسلامية العربية عن الناس مع تدريس هذه الحضارة برجالاتها ونسائها وما قدمته للإنسانية ليعلم الناس أن الإسلام دين له أسس وقواعد لا تتصادم مع أى حضارة وإنما تنادى بإدارة حوار مع الآخرين بروح المودة والتسامح وحتى مع من يخالفنا فى الدين. و كان يردد على مسامع القوم قول الله سبحانه "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه" (سورة التوبة ٦).

٦- بناء مساكن للطلبة ليشعروا بالعزة والكرامة لأنهم الوعاظ والعلماء الذين يؤمون الناس فى الصلاة وهم القيادات الطبيعية فى كل ميدان فى عمل الإصلاح الإجتماعى والدينى.

لقد كانت عين الشيخ دائما على الطلبة فهم الهدف الأعلى، فقرر للمجدين منهم حوافز.

٧- نظم قواعد التدريس والأجازات والامتحانات.

٨- قرر تدريس الحساب والجبر والتاريخ والجغرافيا والكتب النافعة مثل "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" للجرجانى و"الوسيلة الأدبية" و "الكلم الثمان" للشيخ حسين المرصفى و"الكامل" للمبرد و "الحماسة" لأبى تمام.

٩- تنظيم مكتبة الأزهر وتزويدها بأمهات الكتب.

١٠- ثم اجتمع مع المستشار المالى للحكومة- انجليزى- ويده مقبوضة عن الأزهر فقال له الشيخ "إن الأزهر مدرسة كمدارس الحكومة وعليها أن تنفق

عليه ومسجد كالمساجد. وهو أولى بأموال الأوقاف من غيره ووعاظه أنفع للأمة. ومعلموه يخرجون المعلمين والقضاه...

لذلك فإن حقوقه فى ميزانية الدولة لا تقبل الجدل". ولقد شملت دعوته إلى إصلاح كل المرافق الهامة مثل القضاء والنيابة العامة ووضع لوائح المحاكم والجمعيات الخيرية.

١١- فى سنة ١٩٠٢ احترقت بلدة ميت غمر فهب الشيخ وجمع ثلاثة من أصدقائه طافوا بمصر كلها يجمعون التبرعات.

وكان الشيخ يخطب ويكتب ومن مقال له فى صحيفة المؤيد قال فيه "فإذا لهيب الحريق يأكل قلبى أكله لحوم أولئك المساكين سكان ميت غمر ويصهر فؤادى ما يصهره من لحومهم. أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلا وكيف ينام من يتقلب فى نعيم الله.

وهذا العدد الجم من أخوة لنا وأخوات يتقلبون فى الشدة والبأساء".

وبعد ،،،

لا شك أن كل مصلح له أعداء وكلما تعددت مواهبه كثر أعداؤه وكلما اتجه إلى مؤسسات أو هيئات أو مجتمعات بأسلوب تصحيحه أو تصويبه فإن أعداءه يكثرون ويتنوعون، تلك طبيعة الحياة قديما وحديثا ومستقبلا. فإن النعمة كلما زادت عند أحد زاد حساده وهم أعدى عدو للإصلاح.

لكن المؤمن الحق هو الذي يعتمد على ربه ويثق فيه فهو سبحانه يتولى المؤمنين ويدافع عنهم ويوحى إلى ملائكته أن يثبتوا الذين آمنوا. وأى مصلح لا بد أن يكون على صلة بالعلم والبحث والقراءة والاطلاع على أفكار الآخرين والاستماع منهم لذلك نوصى بالآتى:

١- علينا أن نعود إلى الكتب التراثية لنطلع على رأى الأوائل ونعرف أسلوبهم فى معالجة المشاكل. مع متابعة كل جديد- ولنعلم- أن الواجبات أكثر من الأوقات- فعلينا أن نحافظ على الوقت ولا نضيعه فإن الوقت هو رصيد الشخص فى بنك القدر. وكل ساعة تمر عليك ولا تحصل فيها علما أو تستفيد من تجارب الآخرين أو تؤدى خدمة أو عمل نافع- فسوف تحاسب على الوقت الذى ضاع منك. ففى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاتزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه-وعن علمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه".

٢- علينا المشاركة الايجابية فى خدمة وتنمية مجتمعنا من خلال العمل التطوعى وأن نكون إيجابيين. والشيخ محمد عبده الذى أحب دينه حفظ القرآن الكريم ودرس وتفقه وتعلم اللغة الفرنسية وسنه أكثر من أربعين لأنه منذ صغره وفى نفسه ثورة على الجهل والباطل والبدع والخرافات. فهل لشبابنا أن يقتدوا به. فالتشبه بالرجال فلاح. ونسمع لقول الشاعر حافظ إبراهيم وهو يمدح هذا الإمام العظيم :

رأيتك والأبصار حولك خشع * فقلت أبو حفصى ببرديك أم على

وفاته :

الإنسان من يوم ميلاده وهو مرتحل لأن النهاية انتقال من الدنيا إلى الآخرة. وأول منازل الآخرة القبر. وبعد القبر بعث للحساب ثم الإنصراف إلى الجنة أو النار. والإنسان العاقل هو الذى يعمل لما بعد الموت الذى هو نازل بالمرء مهما كانت قوته أو ثروته أو أولاده.

كل ابن آدم وإن طالت سلامته لا بد يوما على الأعناق محمول

وعمر الإنسان لا يقاس بالزمان أو الأعوام..... وإنما عمر الإنسان يقاس بحركته فى الحياة وعمله..

لذلك رأينا بعد هذا الجهاد المتواصل والأعمال النافعة للأمة وللشخص أن مرض الشيخ المفتى الذى أسمع الدنيا حلو الحديث وترك فى كل مكان بصمة من بصمات الخير والإصلاح. ولقد أجمع كل من حوله على ضرورة سفره إلى الخارج للعلاج فسافر إلى الإسكندرية لكن....

إن الطبيب له علم يطب به * ما دام فى أجل الإنسان تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام مدته * حار الطبيب وخانته العقاقير

وفى الإسكندرية وافاه أجله يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ فيكون قد عاش أربع وخمسين سنة. ونقل الجثمان من الإسكندرية إلى القاهرة فى قطار خاص كما يفعل مع رؤساء الدول. وخرجت مصر كلها. الخلصاء والخصماء يشيعون الشخص الملهم الذى وهبته السماء لأهل مصر. وعلى أرض مصر التى أحبها وتحمل فى سبيل الدفاع عنها الصعاب ولم تلن عزيمته ولم يضعف. فسلام عليه فى الأولين والآخرين ويوم يبعث حيا ...

ولنعلم ان بين الأموات فى القبور أحياء بأعمالهم وما تركوه من نظم فى الإصلاح أو دونوه من العلم النافع.

وكم بين الأحياء من هو ميت لا يذكر لأن خامل الذكر سلبى فى حياته ترتعش يده ويخشى اتخاذ القرار.

ولهذا قال القائل:

ليس من مات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا * كاسفا باله قليل الرجاء

فيا من تنشد الخير لنفسك والأمن لقلبك وحسن السمعة بين الناس وبقاء سيرتك، شمر واجتهد.

ومن طلب العلا سهر الليالى. وميدان العمل يطلبك. فأنزل إليه وأنت مزود بالعلم. وإلا انكشف خالك. والتزم بحب وطنك وأهلك و سر على بركة الله وبمثل الشـيخ محمـد عبده تشبه:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

سائلين الله أن يكون عوننا وأن ياخذ بيدنا إلى طريق الخير ويلهمنا الرشاد. وصـلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

- صدر فى عام ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

منصور الرفاعى عبيد

عضو اتحاد الكتاب

محمود سامى البارودى

رائد للتنوير / شاعر السيف والقلم

بقلم

المستشار سامي زين الدين

استهلال :

من شجرة تمتد جذورها إلى خارج مصر وأن كانت أوراقها و أحلى وأجمل ثمرة من ثمارها ولدت بالقاهرة وأشاعت حلاوة مذاقها بمصر ..إنه محمود سامى البـــارودى ... و الذى أطلق عليه البارودى نسبة إلى بلدة إيتاى البارود وهى إحـــدى البلـــدان التابعة لمحافظة البحيرة بالقرب من الإسكندرية بشمال مصر والذى كان أحد أجـــداد محمود سامى البارودى يعمل جامعاً للضرائب من أهلها وكان يســـمى ملتزمـــاً ..... ولد محمود سامي البارودي بالقاهرة في.. (٦ من أكتوبر ١٨٣٩م) لأبـــوين مـــن الجراكسة.....

نشأ البارودي في أسرة على شيء من الثراء والسلطان، نعم .. فأبوه كان ضـــابطًا في الجيش المصري برتبة لواء ، وعُين مديرًا لمدينتي "بربر" و"دنقلة" في السودان، ومات هناك ، وكان ابنه محمود سامي حينئذ في السابعة من عمره لم يعي شيئاً عن الحياة بعد .

لكن أمه الجركسية الأصل مصرية النشأة والفكر والثقافة لم تترك نجلهـا محمـود سامى نهباً للحزن على والده وانما جاءت له بالمنزل بمن يعلمه......، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ النحو والصرف، ودرس شيئاً من الفقه ليتعلم الرأى والرأى الأخر ثم بعضاً من تاريخ مصر والعالم ، وانتهى بتعلم قواعـد الحساب..

وبعد ذلك جاء وقت الخروج من التعليم المنزلى ... فالتحق وهو مازال صبياً صغيراً في الثانية عشرة من عمره بالمدرسة الحربية سنة (١٨٥٢م)، وفيها تعلم الفروسية وبدأ يقرأ الشعر العربى القديم وتأثر كثيراً بشعراء ما قبل الإسلام وما بعـد ظهـور الإسلام ، ولا سيما المتنبى وأبى العلاء المعرى وابن عربى وأبـو تمـام ، وكـذلك الأعمال الأدبية العظيمة للجاحظ وفقهاء وفلاسفة الإسلام بدءاً من أبو حنيفة النعمان والشافعى ومالك وأحمد إبن حنبل وصولاً لإبن رشد وإبن خلدون وإبن الهيثم ..

خلاصة القول أن محمود سامى البارودى تأثر كثيراً بالشعر العربى القـديم والأدب والفلسفة الإسلامية وجعل منها جميعاً قاعدة راسخة داخله اختلطت بمواهبه الخاصة وشغفه بالشعر لتطلق صواريخاً من الشعر العربـى القـوى ذو المعـانى الصـادقة والخيال المبتكر فى إبداع رائع يأخذ النفس ويثير الفكر ويمتع الروح بمعانى تمـس شغاف القلوب .

وبعد أن تخرّج محمود سامى البـارودى مـن المدرسـة الحربيـة بمصـر برتبـة "باشجاويش" جاءته الفرصة للسفر إلى عاصمة الخلافة الإسـلامية آنـذاك ــ وهـى إستانبول ــ فسافر إلى هناك، والتحق بوزارة الخارجية، واستمر فى عاصمة الخلافة ثمانى سنوات ، تعلم خلالها اللغة التركية والفارسية ، حتى أتقنهما فتمكن من مطالعة آدابهما، وحفظ كثيرًا من أشعارهما، حتى أنه نظم الشعر بهما مستغلاً سليقته الشعرية المتوهجة وخياله الخصب ، وقد تساوى شعرة بالعربية فى قوة معانيه وابتكار الفاظه وعمق مشاعره وخياله الواسع مع شعره بالفارسية والتركية .

بعد ثماني سنوات قضاها محمود سامى البارودى فى إستانبول فوجئ بالخديوى إسماعيل بعد توليه عرش مصر يحضر إلى إستانبول ليقدم آيات الشكر والطاعة للخليفه فأمر الخليفة التركى بإلحاق محمود سامى البارودى بحاشية الخديوى إسماعيل ، فعاد إلى مصر بعد غيبة طويلة عنها.

ـ العودة إلى مصر :

بعد عودة محمود سامى البارودى إلى مصر ظل فى معية الخديوى إسماعيل يعمل فى حاشيته ، إلا أنه ما لبث أن حنّ إلى حياة الجندية، فترك حاشية الخديوي وانتقل إلى الجيش برتبة بكباشي.

أثناء وجود البارودى بالجيش أخذ يطلق صواريخه الشعرية المؤثرة ، والتى كانت كأشعة من نور تضىء ظلمات الحياة الشعرية فى مصر فى ذلك الحين ، والتى كانت تتسم بالسطحية والضعف وترسف فى أغلال الصنعة اللفظية ، فكانت عبارة عن ألفاظ براقة متراسة لا تحمل من المعانى شىء وتفتقر إلى الخيال الخصب المبتكر .

بدأ البارودى بنظم الشعر وكأنه بدأ ثورة تأخرت كثيراً فى هذا المجال فقد استرد البارودى للشعر عافيته وأخرجه من حالة الضعف والوهن إلى الأفاق الرحبة الواسعة والخيال البديع بلغة عربية رصينة و بيان راقى فخيم ، فبث فى الشعر روح الحياة مذكراً بشعراء العرب العظماء وعلى رأسهم المتنبى شاعر العربية الفحل ، وذلك بفضل موهبة البارودى الفذة وسلامة ذوقه الرائع واتساع ثقافته العربية الفارسية التركية وعمق تجاربه الحياتية الزاخرة مع نبل فروسيته و شهامته المصرية الأصيلة ، فلم يكن البارودى يوما طالب جاه أو مال ولا مصطرعا من أجل منصب :

فلقد توفر له من الثراء و المنصب و من المنزلة الاجتماعية والأدبية مالم يتوفر لنظرانه، لكنه خالفهم في أهمية تقديم الراي و ضرب الأسوة الحسنة و التضحية في

أسمي درجاتها ، فلقد كانت ثقته بنفسه وبثقافته كبيرة وكان تعظيمه لكرامته فوق كل اعتبار ...

لذلك كان البارودى زهرة فى وسط نظرائه قوياً بينهم ذو حظوة ومنزلـة وهيبـة لا مثيل له بينهم وخالفهم فى أهمية تقديم الرأى وضرب الأسوة الحسنة و التضحية فى أسمى درجاتها حتى أنه قال عن نفسه :

لا عيب في سوي حرية ملكت أعنتني عن قبول الذل بالمال

لكنني في زمان عشت مغتربا في أهله حين قلت فيه أمثالي

- هكذا كان البارودى رجلاً شاعراً وظف فى شعره الأسطورة ورموزها وصاغ القصة والملحمة شعراً وتأسى بالدراما نهجاً معبراً عن الخيال الشعبى والواقع الإجتماعى والروح المصرى أحسن وأرقى تعبيراً.

- ولكون البارودى جندياً فارساً وشاعراً: فقد لقبوه برب السيف والقلم وإن كان هو يرفض تقديم السيف على القلم، فالقلم عنده يسبق السيف وهذا من شيم المثقف النابه الذى يحل ما استعصى على الحل بالفكر والقلم قبل السيف والعنف فيقول البارودى :

بقوة العلم تمضي شوكة الأمم فالحكم في الدهر منسوب الي القلم

كم بين ما تلفظ الأسياف من عـلق و بين ما تنفث الأقلام من حكم

نعم...

إن البارودى لعلى حق فالقلم أقوى وأقطع من السيف !!!

فالقلم أهم من السيف و أمضي منه ..

فبالقلم ينصلح حال الأمم ، فهو رمز العلم ، والعلم نبع المعرفة ، والمعرفة طريق التقدم ، والتقدم يثير الخيال ، وبالخيال نضىء المستقبل لنصل إلى حقيقة جديدة كل يوم ...!!!

أما السيف فهو رمز العنف وكبت الحريات ونسيان العلم ورفض الرأى الأخر ومنـع للخيال لتتوقف حضارة الأمم، بل تعود إلى الماضى، إلى الشعوذة، إلى الخزعبلات ، إلى التفسيرات الغيبية للأمور التى تستحق تفسيرات علمية ...!!!

وتلك فلسفة عميقة عبر عنها الروح المصري في تعاليم خيتي ملك اهناسيا الحكـيم قديما حين قال:(ان الكلمة أقوي من السيف).

وفى هذا الشأن قال البارودى :

هيهات ما النصر في حد الأسنة بل بقوة الرأي تمضي شوكة الأسل

فالأسنة و الرمـــــــــــاح لا يوجهها الا الرأي و الفكر و الحكمة .

هكذا ظهر البارودى فى مصر التى كانت التركية لغتها الرسمية وكان التعلم الحـديث يخطو خطواته الأولى وكانت دراسة الأدب واللغة غير موجودة إلا فى الأزهر الشريف بمناهجه وأساليبه القديمة البالية ، والتى لا تعين على تكوين ذوق أدبـى سـليم ولا صقل لموهبة شعرية نابتة .

ظهر البارودى كزهرة يانعة تمتص رحيق الحياة من أرض مصر الطيبة وسط كومـة من فروع زابلة وسيقان جافة موحلة .

-البارودى شاعر بالموهبة لم يدرس شيئاً من علوم العربية ، إنما تلقـى بـالقراءة والشغف أشعار كبار الشعراء فى العصور المختلفة ، فصار الشاعر مطبوعـاً يطلـق العنان لخياله الشعرى فى كل أفق معبراً عما يجيش فى نفسه ، وصار الشـعر كأنـه مرآة صور فيه كل ما حدث له من حوادث عظيمة وحوادث صـغيرة حتـى أمانيـه صورها البارودى فى شعره .. فكان له الأسلوب الجزل الذى لم يعهـده النـاس فـى عصره من شعراء جيله ، كما كان له باع فى ابداع تصوير الحياة بعين فاحصة قديرة بأسلوب سلس جميل يتمثل الحدث الواقع بتفصيلاته فى جُمل شعرية موزونـة تتسـم بالأصالة كالمتعارف عليه من شعر العرب .

ولأصالة شعر البارودى وقوته أحبه وسار على دربه وترسم خطاه كل من جاء بعده من شعراء العربية العظام ، فبرز حافظ ابراهيم واحمد شوقى الى ساحة الشعر العربى امتداداً لمحمود سامى البارودى بل أضافا إليه وجددا فى موضوعاتهما .

جيل البارودي :

إن التجديد الذي قاده البارودي ــ ومن سار على منهجه ــ هو تجديد في قراءة التراث قراءة متعمقة يعرف المبحر فيها ما سيواجهه من عواصف وما سيقابله من شطآن ، لذلك وجدناهم قبل أن ينطلقوا في رحلتهم هذه يعدون لها ما يمكنهم من خوض غمارها لذلك وجدناهم يرسون بنا على شاطئ من الإبداع الذي توشح بعبق التراث وفهم مكنونه واستلهام الحاضر وما يمليه من تطورات اجتماعية وسياسية بعيدا عما شاع في ذلك الزمان من سفسفة الأفكار وركاكة الأسلوب ، فقدموا لنا نموذجاً صافيا وأسلوبا فريدا في التعمق في التراث وأخذ مبادرة الانطلاق من قواعد متينة و حصون منيعة ، حتى إذا ما هبت رياح أرادت أن تزيل معالم هذه الثقافة أعياها ما تجده من تماسك البناء

البارودي وتجديد التراث العربى :

إن البارودي ــ ومن سار على نهجه ــ كان لهم وجة محددة في قراءتهم للتراث العربي القديم حيث استطاع هؤلاء أن يقدموا لنا صورة القديم بحلة جديدة بثوا فيها كل همومهم وأمورهم الاجتماعية والسياسية ، فمن هذا المنطلق نجد أنهم أسهموا في الحراك الأدبي في عصر اتسم بالجمود والتكلف المقيت الذي قتل روح النص الأدبي، مما جعل الأنفس تمجه وتنكره الفطرة السليمة، فقد بعد أهل هذا الزمان عن غاية الأدب الحقيقية وهي إبراز المعنى في وضوح وجلاء ليستعيضوا بدلا منه اللفظ

ويجعلوه هو الهدف الأسمى ليسقطوا في نهاية أمرهم في تعقيدات أشبه بـالخزعبلات منها بالأدب الذي يمتع النفس ويفيد العقل ، لنجد البارودي يحمل على عاتقه لـواء التجديد ، وهو تجديد يرتكز على القديم لكن بروح العصر ، وينطلق من التراث لكـن بفكر منفتح على المستقبل.

البارودى نهضة النهضة:

لم يكن البارودي نهضة في النهضة وتجديدا في التجديد ، بل كان نهضة قبل عصـر النهضة وتجديدا قبل زمان التجديد !!!!!!!..

فكل من جاء بعد البارودي جددوا ونهضوا على مثال سابق ، وكان هذا المثـال هـو البارودي وحده ..

أما البارودي فقد نهض من بين الأموات ، على غير سابق مثال ، فكان نهضته هـو وحده ، مع أنه لم يدرس شيئا من علوم العربية ، بل تلقاها شفاهة بطبعه السليم ، ..

فنحن لا نقيس البارودي على زماننا ، وإنما نقيسه على عصره ، أفليس مجددا مـن نقل الشعر من محنطات أواخر عصور الدول المتتابعة إلى مستويات روائع المتنبـي والمعري وأبي تمام ؟

ونقف أمام قصيدة شاعر النيل في رثاء البارودي لنري كيف أحبه تلاميـذه, وأحبـوا شعره, واعتزوا به:

لبيك يا مؤنس الموتي وموحشـنا

يا فارس الشـعر والهيجاء والجود

ملك القلوب, وأنت المسـتقل به

أبقي علي الدهر من ملك ابن داود

****

لقد نزحـت عن الدنيا كما نزحت

عنها لياليك من بيض ومن ســـود

أغمضت عينيك عنها وازدريت بها

قبل الممات, ولم تحفـــــل بموجود

****

لبيك يا شاعرا ضن الزمــــان به

علي النهي والقوافي والأناشـــــيد

تجري السلاسة في أثناء منطــــقه

تحت الفصاحة جري الماء في العود

****

في كل بيت له مـــــــاء يرف به

يغار من ذكـــــــره ماء العناقيد

لو حنطوك بشـــــعر أنت قائله

غنيت عن نفحات المسك والعود!

البارودى فى الحرب :

وفي أثناء عمله بالجيش اشترك في الحملة العسكرية التي خرجت سنة (١٢٨٢ هـــ = ١٨٦٥م) لمساندة جيش الخلافة العثمانية في إخماد الفتنة التي نشبت في جزيـــرة "كريت"، وهناك أبلى البارودي بلاء حسنًا، وجرى الشعر على لسانه يتغنى ببلده الذي فارقه، ويصف جانبًا من الحرب التي خاض غمارها، في رائعة من روائعـــه الخالـــدة التي مطلعها:

أخذ الكرى بمعاقد الأجفـــــان

وهفا السرى بأعنة الفرســـان

والليل منشور الذوائب ضارب
فوق المتالع والربا بجـــــران
لا تستبين العين في ظلـــماته
إلا اشتعال أسنَّة المــــــــران

(الكرى: النوم، هفا: أسرع، السرى: السير ليلاً، المتالع: التلال، ضارب بجران: يقصد أن الليل يعم الكون ظلامه).

الخديو إسماعيل :

وبعد عودة البارودي من حرب كريت تم نقله إلى المعيـــة الخديويـــة يـــاورًا خاصًـــا للخديوي إسماعيل، وقد ظل في هذا المنصب ثمانية أعوام، ثم تم تعيينه كبيرًا لياوران ولي العهد "توفيق بن إسماعيل" في (ربيع الآخـــر ١٢٩٠هـــــ = يونيـــو ١٨٧٣م)، ومكث في منصبه سنتين ونصف السنة، عاد بعدها إلى معية الخديوي إسماعيل كاتبًا لسره (سكرتيرًا)، ثم ترك منصبه في القصر وعاد إلى الجيش.

ولما استنجدت الدولة العثمانية بمصر في حربها ضــــد روســـيا ورومانيـــا وبلغاريـــا والصرب...

كان البارودي ضمن قواد الحملة الضخمة التي بعثتها مصر، ونزلـــت الحملـــة فـــي "وارنة" أحد ثغور البحر الأسود، وحاربت في "أوكرانيا" ببسالة وشـــجاعة، غيـــر أن الهزيمة لحقت بالعثمانيين، وألجأتهم إلى عقد معاهدة "سان استفانوا" في (ربيع الأول ١٢٩٥هـــ = مارس ١٨٧٨م)، وعادت الحملة إلى مصر، وكان الإنعام على البارودي برتبة "اللواء" والوسام المجيدي من الدرجة الثالثة، ونيشان الشرف؛ لِمَا قدمـــه مـــن ضروب الشجاعة وألوان البطولة.

البارودى وظهور تيار الوعى :

بعد عودة البارودي من حرب البلقان تم تعيينه مديرًا لمحافظة الشرقية في (ربيع الآخر ١٢٩٥هـ = إبريل ١٨٧٨م)، وسرعان ما نقل محافظًا للقاهرة، وكانت مصر في هذه الفترة تمر بمرحلة حرجة من تاريخها، بعد أن غرقت البلاد في الديون، وتدخلت إنجلترا وفرنسا في توجيه السياسة المصرية، بعد أن صار لهما وزيران في الحكومة المصرية، ونتيجة لذلك نشطت الحركة الوطنية وتحركت الصحافة، وظهر تيار الوعي الذي يقوده "جمال الدين الأفغاني" لإنقاذ العالم الإسلامي من الاستعمار، وفي هذه الأجواء المشتعلة تنطلق قيثارة البارودي بقصيدة ثائرة تصرخ في أمته، توقظ النائم وتنبه الغافل، وهي قصيدة طويلة، منها:

جلبت أشطر هذا الدهر تجربة

وذقت ما فيه من صاب ومن عسل

فما وجدت على الأيام باقية

أشهى إلى النفس من حرية العمل

لكننا غرض للشر في زمن

أهل العقول به في طاعة الخمل

قامت به من رجال السوء طائفة

أدهى على النفس من بؤس على ثكل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت

قواعد الملك حتى ظل في خلل

وبينما كان محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار يحاول أن يضع للبلاد دستورًا قويمًا يصلح أحوالها ويرد كرامتها، فارضًا على الوزارة مسؤوليتها على كل ما تقوم به أمام مجلس شورى النواب.
إذا بالحكومة الإنجليزية والفرنسية تكيدان للخديوي إسماعيل عند الدولة العثمانية لإقصائه الوزيرين الأجنبيين عن الوزارة، وإسناد نظارتها إلى شريف باشا الوطني الغيور، وأثمرت سعايتهما، فصدر قرار من الدولة العثمانية بخلع إسماعيل وتولية ابنه توفيق.

ولما تولّى الخديوي توفيق الحكم سنة (١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م) أسند نظارة الوزارة إلى شريف باشا، فأدخل معه في الوزارة البارودي ناظرًا للمعارف والأوقاف، ونرى البارودي يُحيّي توفيقًا بولايته على مصر، ويستحثه إلى إصدار الدستور وتأييد الشورى، فيقول:

سن المشورة وهي أكرم خطة
يجري عليها كل راع مرشد
هي عصمة الدين التي أوحى بها
رب العباد إلى النبي محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه
ومن استهان بها لم يرشد

غير أن "توفيق" نكص على عقبيه بعد أن تعلقت به الآمال في الإصلاح، فقبض على جمال الدين الأفغاني ونفاه من البلاد، وشرد أنصاره ومريديه، وأجبر شريف باشا على تقديم استقالته، وقبض هو على زمام الوزارة، وشكلها تحت رئاسته، وأبقى البارودي في منصبه وزيرًا للمعارف والأوقاف، بعدها صار وزيرًا للأوقاف في وزارة رياض.

وقد نهض البارودي بوزارة الأوقاف، ونَقَّحَ قوانينها، وكــون لجنــة مــن العلمــاء والمهندسين والمؤرخين للبحث عن الأوقاف المجهولة، وجمع الكتب والمخطوطــات الموقوفة في المساجد، ووضعها في مكان واحد، وكانت هــذه المجموعــة نــواة دار الكتب التي أنشأها "علي مبارك"، كما عُني بالآثار العربية وكون لها لجنــة لجمعهــا، فوضعت ما جمعت في مسجد الحاكم حتى تُبنى لها دار خاصة، ونجح فــي أن يــولي صديقه "محمد عبده" تحرير الوقائع المصرية، فبدأت الصحافة في مصر عهدًا جديدًا.

البارودى فى وزارة رياض :

ثم تولى البارودي وزارة الحربية خلفًا لرفقي باشا إلى جانب وزارته للأوقاف، بعــد مطالبة حركة الجيش الوطنية بقيادة عرابي بعزل رفقي، وبدأ البارودي فــي إصــلاح القوانين العسكرية مع زيادة رواتب الضباط والجند، لكنه لم يســتمر فــي المنصــب طويلاً، فخرج من الوزارة بعد تقديم استقالته (٢٥ من رمضــان ١٢٩٨ = ٢٢ مــن أغسطس ١٨٨١م)؛ نظرًا لسوء العلاقة بينه وبين رياض باشا رئيس الوزراء، الذي دس له عند الخديوي

البارودى ناظراً للحربية :

عاد البارودي مرة أخرى إلى نظارة الحربية والبحرية في الوزارة التي شكلها شريف باشا عقب مظاهرة عابدين التي قام بها الجيش في (١٤ من شوال ١٢٩٨ هـــ = ٩ من سبتمبر ١٨٨١م)، لكن الوزارة لم تستمر طويلاً، وشكل البارودي الوزارة الجديدة في (٥ من ربيع الآخر ١٢٩٩هـــ = ٢٤ من فبراير ١٨٨٢م) وعين "أحمد عرابــي" وزيرًا للحربية، و"محمود فهمي" للأشغال؛ ولذا أُطلق علــى وزارة البــارودي وزارة الثورة؛ لأنها ضمت ثلاثة من زعمائها.

وافتتحت الوزارة أعمالها بإعداد الدستور، ووضعته بحيث يكون موائمًا لآمال الأمـــة، ومحققًا أهدافها، وحافظا كرامتها واستقلالها، وحمل البارودي نـــص الدســـتور إلـــى الخديوي، فلم يسعه إلا أن يضع خاتمه عليه بالتصديق، ثم عرضـــه علـــى مجلـــس النواب.

البارودى والمؤامرة :

تم كشف مؤامرة قام بها بعض الضباط الجراكسة لاغتيال البارودي وعرابـــي، وتـــم تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين، فقضت بتجريدهم من رتبهم ونفيهم إلـــى أقاصي السودان، ولمّا رفع "البارودي" الحكم إلى الخديوي توفيق للتصـــديق عليـــه، رفض بتحريض من قنصلي إنجلترا وفرنسا، فغضب البارودي، وعرض الأمر علـــى مجلس النظار، فقرر أنه ليس من حق الخديوي أن يرفض قرار المحكمة العســـكرية العليا وفقًا للدستور، ثم عرضت الوزارة الأمر على مجلس النواب، فاجتمع أعضـــاؤه في منزل البارودي، وأعلنوا تضامنهم مع الوزارة، وضرورة خلع الخديوي ومحاكمته إذا استمر على دسائسه.

موقف انجلترا وفرنسا :

انتهزت إنجلترا وفرنسا هذا الخلاف، وحشدتا أسطوليهما في الإســـكندرية، منـــذرتين بحماية الأجانب، وقدم قنصلاهما مذكرة في (٧ من رجب ١٢٩٩هـــ = ٢٥ من مايو ١٨٨٢م) بضرورة استقالة الوزارة، ونفي عرابي، وتحديد إقامة بعض زملائه، وقـــد قابلت وزارة البارودي هذه المطالب بالرفض في الوقت الذي قبلها الخديوي توفيـــق، ولم يكن أمام البارودي سوى الاستقالة، ثم تطورت الأحداث، وانتهت بدخول الإنجليز

مصر، والقبض على زعماء الثورة العرابية وكبار القادة المشتركين بها، وحُكِم علـــى البارودي وستة من زملائه بالإعدام، ثم خُفف إلى النفي المؤبد إلى جزيرة سرنديب.

مع مجموعة من رفاقه الثوار أطل شاعرنا على ساحل مصر ليلقى عليه نظرة الوداع وما تكاد الباخرة تغادر أرض النيل حتى ترتفع عواطف الشاعر الدافقة لتتحول إلـــى مشهد حزين ينتهى إلى تجربة صادقة تجسدها قصيدته النونية التى يبدأها بقوله :

ولما وقفـــنا للوداع وأسبلت
أهبت بصبرى أن يعـــود فعزنى
وما هى الا خطرة ثم اقلعـــت
مدامعنا فوق الترائب كالمـــزن
وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن

البارودى شاعراً وناقداً سياسياً:

كان البارودى فى شعره السياسى ناقدا اجتماعياً وثائراً وطنيا ومصلحاً صريحاً شديد الحرص على حرية أبناء بلده ناقداً لهوانهم وذلهم وتهاونهم فى الـــرد علـــى الظلـــم والسكوت عليه قائلاً :

وكيف ترون الذل دار إقــــامــــة وذلك فضل الله في الأرض واســـعُ
أرى رؤوساً قد أينعت لحصادهـــا فأين ــ ولا أين ــ السيف القواطعُ ؟
فكونوا حصيدا خامدين أو افزعـــوا إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافـــع
أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجـــة أليَّ ولبَّاني الصدى وهو طائـــــعُ
فلم ادرِ أن الله صور قبلكـــــــم تماثيل يخلق لهن مسامـــــــعُ

حنين إلى الوطن :

أقام البارودي في جزيرة سرنديب سبعة عشر عامًا وبعض عام، وأقام مع زملائه في "كولومبو" سبعة أعوام، ثم فارقهم إلى "كندي" بعد أن دبت الخلافات بينهم، وألقى كل واحد منهم فشل الثورة على أخيه...

وفي المنفى شغل البارودي نفسه بتعلم الإنجليزية حتى أتقنها، وانصرف إلى تعليم أهل الجزيرة اللغة العربية ليعرفوا لغة دينهم الحنيف، وإلى اعتلاء المنابر في مساجد المدينة ليُفقّه أهلها شعائر الإسلام.

وطوال هذه الفترة قال قصائده الخالدة، التي يسكب فيها آلامه وحنينه إلى الوطن، ويرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه، ويتذكر أيام شبابه ولهوه وما آل إليه حاله، ومضت به أيامه في المنفى ثقيلة واجتمعت عليه علل الأمراض، وفقدان الأهل والأحباب ...

فساءت صحته، واشتدت وطأة المرض عليه، ثم سُمح له بالعودة بعد أن تنادت الأصوات وتعالت بضرورة رجوعه إلى مصر، فعاد في (٦ من جمادى الأولى ١٣١٧هـ = ١٢من سبتمبر ١٨٩٩م). وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن الغالي إلى قلبه وأنشد :

أبابل رأى العين أم هذه مصر	فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر
نواعس أيقظن الهوى بلواحظ	تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فليس لعقل دون سلطانها حمىً	ولا فؤاد من غشيانها ستر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة	فذلك عصر المعجزات وذا عصر

رائد الشعر العربى الحديث :

يُعَد البارودي رائد الشعر العربي في العصر الحديث؛ حيث وثب به وثبة عالية لم يكن يحلم بها معاصروه، ففكّه من قيوده البديعية وأغراضه الضيقة، ووصله بروائعه القديمة وصياغتها المحكمة، وربطه بحياته وحياة أمته.

وهو إن قلّد القدماء وحاكاهم في أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفي أسلوبهم وفي معانيهم، فإن له مع ذلك تجديدًا ملموسًا من حيث التعبير عن شعوره وإحساسه، وله معان جديدة وصور مبتكرة.

وقد نظم الشعر في كل أغراضه المعروفة من غزل ومديح وفخر وهجاء ورثاء، مرتسمًا نهج الشعر العربي القديم، غير أن شخصيته كانت واضحة في كل ما نظم؛ فهو الضابط الشجاع، والثائر على الظلم، والمغترب عن الوطن، والزوج الحاني، والأب الشفيق، والصديق الوفي.

وترك ديوان شعر يزيد عدد أبياته على خمسة آلاف بيت، طبع في أربعة مجلدات، وقصيدة طويلة عارض بها البوصيري، أطلق عليها "كشف الغمة"، وله أيضًا "قيد الأوابد" وهو كتاب نثري سجل فيه خواطره ورسائله بأسلوب مسجوع، و"مختارات البارودي" وهي مجموعة انتخبها الشاعر من شعر ثلاثين شاعرًا من فحول الشعر العباسي، يبلغ نحو ٤٠ ألف بيت.

وكثيرا ما تغنى بمصر وجمالها وسحرها لاسيما في المنفى إذ ظلت تلك القصائد تؤكد مشاعره تجاه وطنه وأحبابه يقول :

فيا (مصر) مدّ الله ظلك وآرتوى ثراك بسلسال من النيل دافقِ
ولا برحت تمتار منك يد الصبا أريجا يداوي عرفه كل ناشقِ
فانت حمى قومي ومشعب أسرتي وملعب أترابي ، ومجرى سوابقي
بلاد بها حل الشباب تمائمي وناط نجاد المشرفيّ بعانقي

البارودي باعث النهضة الشعرية الحديثة في الشعر العربي:

نجح في تحميل الإطار القديم تجارب حياته الخاصة، كما نجح في إعادة الشعر العربي إلى ما كان عليه في عصوره الزاهرة، فأضحى شعره يشاكل شعر الفحول في صدر العصر العباسي. وساعده ذكاؤه الحاد وموهبته الفذة على تحقيق ذلك الهدف بمعارضة الشعراء الأقدمين وتقليد أساليبهم وتراكيبهم، وبذلك أصبح رائد حركة الإحياء في الأدب العربي الحديث، وكان عظيم التأثير في المدارس الشعرية التالية، وقد صنف مختاراته التي جمعها لثلاثين شاعراً، وله ديوان في جزأين أعادت طبعه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري وكرمته فأطلقت اسمه على إحدى دورات جوائزها للإبداع الشعري، (الدورة الثالثة عام ١٩٩٢)

الشعر قبل البارودي

يقول الأستاذ العقاد : " فإذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والو هاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد . وهذه وثبة قديرة في تاريخ الأدب المصري ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام .

فالشعر في مصر كان في القرن التاسع عشر متخلفا ..
{ يُعنى بالتسلية والمجاملات ، ويُعنى – أيضا – بالمحسنات البديعية والبلاغية من بديع وجناس وطباق ، والتمرينات الشكلية من تخميس وتشطير ، إلى جانب فنون البديعيات والتطريز والتأريخ والتراسل وغيرها من الألاعيب الشعرية}

مما جعل الشعر صنعة لا فنا ، ولم تعد له صـلة بأفضـل أمثلـة الشـعر القـديم .

ومما يدل على ذلك ما يرويه عبد الرحمن الجبرتي:

في عجائب الآثار في تراجم الأخبار

"في الثالث عشر رمضان فى ٢٠أبريل ١٦٩٦م " قامت العساكر علـى يـا سـف اليهودي وقتلوه ، وجروه من رجله وطرحوه في الرميلة ، وقامت الرعايـا فجمعـوا حطبـا وأحرقـوه ، وذلـك يـوم الجمعـة بعـد الصـلاة "

وفي ذلك يقول الشيخ حسن البدري حجازي رحمه الله:

بمصرَ حـلَّ يهودي أخفى عليه الإلـه
فظٌّ غليظٌ عـنيفٌ سوءٌ كريهٌ لقـاهُ
بعَشْرِ صومِ أتـانا لهُ جَوادٌ عـلاهُ
والناسُ تشـتد سـعيا أمامـه وو راهُ
ومعه أمرٌ وفيـه ما قـاده لـرداه
من أن دينـار مـصرِ يغيّرون حِـلاهُ
والقرشُ يبـدل نقْـشٌ فيه بنقش سـواه
ليأخذ المال قـهرا بالنقص مما حـواهُ
فحين قصٍّ علـيهم ما قصٍّ قصّوا قـفـاهُ
وبعد ذا حرَّقـوه والعالَمون تـراهُ
يا بئس ذاك اليهـودي يا بئس ما قد نـحاهُ
وكان ثالث عـشر من صومنا ما دهـاه
بجمعة عطـلوها في قلعة مـِن بـلاهُ
وموته أرَّخـوه قد ذاق ما قد جـناهُ

وهكذا ، كان الشعر قبل البارودي ، ولكن لا يفوتنا أن نـهمل شعر الساعاتي ، " فلـم يكن قبل البارودي من هو أمتن منه ولم يكن قبل الساعاتي من هو أمتن منه ، كـذلك

على كل حال ، كان الشعر قبل البارودي متخلفا – كما ذكرنا آنفا – للدرجة التي أطلق العقاد على شعراء ما قبل البارودي " عروضيين " ، لأنهم كانوا ينظمون الشعر نظما عروضيا ، خاليا من الإحساس والعاطفة المشوبة بالوجدان والفكر ، أي ،كانوا شعراء يتصنعون الشعر ، وكانوا غير مطبوعين العوامل التي هيأت البارودي للنبوغ في الشعر ، وجعلته " إمام المطبوعين،كما يقول العقاد :

يقول العقاد على لسان حسين المرصفي في كتابه الوسيلة الأدبية:

" محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد في طبعه ميلا إلى قراءة الشعر .

أن البارودي كان لديه استعداد فطري للقراءة والاطلاع.

*أكب على كتب التراث العربي واختار منها مختاراته التي جمع فيها نخب العباسيين، وهي مختارات قارئ مستقص لما في دواوين أولئك الشعراء من أبواب الشعر المشهورة عند الأقدمين.

*قد يكون الباعث له إلى حب الشعر وراثة بعيدة أو قريبة كما قال :

أنا في الشعر عريقٌ لم أرثه عن كلالة

كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقالة

ويقول العقاد : إن الولع بالشعر لم يكن غريبا عن طالب المدرسة الحربية في ذلك الزمن كما تبدو عليه الغرابة في الأمم الأوربية أو في مصرنا الحاضرة ، إذ كانت الفروسية قرينة الشعر في عرف الخاصة والعامة على حد سواء وقد كان اسم عنترة وأبي فراس من أشهر الأسماء بين الفرسان الشعراء ، وكان أبناء الشعب وأبناء السراة يرون القهوات الوطنية –إن لم يجلسوا فيها ويترددوا عليها – فيسمعون حديث الزير سالم وأبي زيد الهلالي و...وكلهم فرسان مغاوير يقدمون للغارة بإنشاد الأشعار ويقرنون بين المناجزة بالحسام والمناجزة الكلام

كلمات فى البارودى :

كتب عباس محمود العقاد كتابا عن : (شعراء مصر وبيناتهم في الجيل الماضـــي) ، وأفرد للبارودي فصلا كاملا ، تناول فيه شعره بالدراسة والتحليل ، وقرر- أي العقاد - أن البارودي من الشعراء الذين ارتفعوا بالشعر المصري - بل والعربي - ارتفاعا لا يطاوله فيه أحد ممن سبقه ، وعلل ذلك بأن الشاعرية مزية قد تنجم وحـــدها بـــين أقوام لا يقاربونها في العظمة ، وقد يظهر الشاعر العظيم وقبله خواء وبعده خـــواء ، أو يظهر الشاعر العظيم وبعده أناس أقل منه وأقرب إلى من ظهروا قبله...

تقديم الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى:

ليست قراءة ديوان البارودي متاحة للجميع.. فالبارودي لم يكن شاعرا مقلا، وديوانه يماثل في حجمه ديوان المتنبي. ولغته ثمرة قراءات واسعة مضنية متأنية في تـــراث الشعر العربي كله: فهي تأليف من لغات الشعراء العرب في كل العصور. وهـــي فـــي قصائد الصبا والبارودي مازال يقرأ ويتعرف علي معمه ويكشف عن موهبته غيرهـــا في قصائد المراحل التالية. التي نضجت فيها أدواته. وتبلورت شخصيته. وأصبح له دور في الحياة ومكان في اللغة.

لهذا نحتاج في قراءة البارودي إلي جهد يشبه جهده .وخبرة تشبه خبرته حتي نتمثل عالمه. ونتذوق شعره: ونميز فيه بين القصائد الأولي من ناحية. والقصائد النابضـــة من ناحية أخري: بين التجارب التي كان يشحذ فيها قلمه.ويبحث عن صوته الخـــاص والإنجازات الحقيقية التي اهتدي فيها إلي نفسه، فتحولـــت فيهـــا لغتـــه مـــن درس واكتساب، إلي طبيعة وسليقة.

ونحن قد نقع علي الاثنين في قصيدة واحدة. يبدؤها الشاعر وقد اختلط صوته بصوت سواه. ثم ينفعل ويندم. ويستسلم لما ينطلق به قلبه. ويري علي لسانه. ونحن إذن - أقصد نحن الذين لم يقرأوا البارودي من قبل. نحتاج إلي دليل يقترح علينا مدخلا لقراءته. ويعرض علينا ديوانه علي نحو يقربنا منه. ويساعدنا علي تذوقه،. ويشجعنا علي أن نتصدي له بأنفسنا. ونتوغل فيه. وهذا هو مافعله الشاعر حسن طلب في هذه المختارات.

لقد وضع يدنا علي قيمة وهرمية في شاعرية البارودي. ميزته عن كثير من شعراء الأجيال التي سبقته. وتمثل هذه القيمة في أن الشعر لم يكن حرفة يمارسها البارودي في وقت. وينفض يده منها في وقت آخر: ولم يكن قناعا يظهر به للناس ثم يخلعه حين يخلو إلي نفسه: وإنما كان الشعر بالنسبة للبارودي لغة حياته في السر والعلن: وفي الاجتماع والانفراد.

ليس في ديوان البارودي قصيدة واحدة ينطق فيها بلسان سواه. أو يدعي غير مايحسه ويراه. ديوان البارودي هو سيرة البارودي: كأنه قصيدة واحدة تتحدث فيها الأنا الشاعرة عن نفسها. وعن حياتها في الوطن والمنفي والحب. والحرب. والسخط والرضا. والجد والهزل. والشباب والشيخوخة:

أنا مصدر الكلم النوادي/ أنا المرء لايثنيه عن درك العلا نعيم/ أنا الرجل المشفوع بالفعل قوله/ فإني امرؤ جربت دهري/ وإني لقوال../ خلقت حرا../ واطول شوقي إليك ياوطني..

ولقد عاش البارودي الذي رحل عن عالمنا قبل مائة عام وهو في حوالي الخامسة والستين من عمره حياة عريضة خصبة لم تتح لكثيرين ممن طالت أعمارهم وخاض من التجارب أغناها وأعنفها، فهو فتي وسيم من علية القوم. يعشق المال. ويطلب اللذة: وهو فارس شاع يخرج من غبار معركة ليدخل في غبار معركة أخري . يبدأ حياته في مصر ثم يعمل في خدمة السلطان في استنبول. ثم يعود إلي وطنه ليعمل في

خدمة الخديو إسماعيل. ثم يبحر مع الجيش المصري الذي حارب في كريت. ثم يخــر من حرب كريت ليدخل في حرب روسيا .
هو شاعر مثقف يصول ويول في عصور الشعر العربي كما يصول ويجول في ميادين القتال: ويتقن التركية والفارسية. ويتعلم الإنجليزية في منفاه.
وهو واحد من زعماء النهضة. يتزعم حركة إحياء الشعر. ويقف في الطليعــة مــع الأفغاني ومحمد عبده وعبدالله فكري وشكيب أرسلان. وهو بعد ذلك بطل من أبطــال الوطن. يتصدي للطغيان ويحارب من أجل الديمقراطية. ويتحمل عذاب المنفي سنوات وسنوات. وهكذا قدمه لنا حسن طلب في هذه المختارات: قدم لنا البــارودي الشــاعر والرجل وتقدمنا إليه. ودلنا عليه فكان خير دليل ...

البارودى فى ميزان النقد :

البارودي بدا سامقاً في رائعاته السياسية، وفي شعر الطبيعة والحنين، إذ فيها تطابق بين صدق معاناته، وصدق تعبيره. ويميل الى اعتنــاق رأي هيكــل بــأن محاكاتــه الاقدمين، ومعارضته إياهم، كانت جديدة.
ظهر البارودي في زمن كان فيه جلّ الشعر المصــري يرفــل فــي ثيــاب الصــنعة والمحسنات، ويخوض بحر التزلف والنفاق، أدواته المبالغة والتزييف والكذب، ولغته ضعيفة، وأساليبه متهالكة، ومعانيه وصوره سقيمة ومبتذلة.

في هذا الجو ظهر البارودي وتكوّنت شخصيته، ويذكر أن له خالاً اسمه ابراهيم علي آغا البارودي، وكان أديباً وشاعراً، راوية لدواوين الشعر العربي والتركي، وحينمــا وافته المنية وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أمــرت اختــه فاطمــة، والــدة الشاعر، بكتابة شعره في ألواح زيّنت بها غرف الطابق العلوي مــن بيتهــا، واقبــل محمود سلمي في صباه على هذه الألواح فقرأها ورواها، وانتفع بمكتبة خاله، فكــان

ذلك فاتحة نبوغه في الشعر، وكانت هذه المادة الشعرية هي نقطة البداية لمسيرته الشعرية. وفي ذلك يقول:

أنا في الشعر عريق　　لم أرثه عن كلالة

كان ابراهيم خالي　　فيه مشهور المقالة

ومع أن البارودي لم يدرس اللغة العربية في كتبها المتخصصة، بل أخذها من مصادرها الأصلية، كما كان يفعل الشعراء القدامى عندما كانوا يخرجون الى البادية لأخذ اللغة من أفواه الأعراب. وفي ذلك يقول أستاذه حسين المرصفي: «البارودي لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية، ولكنه كان يستمع لمن له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين او يقرأ بحضرته، حتى تصوّر في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن». ولم يكتفِ بذلك، بل قد مدّ يده الى مخطوطات دواوين الشعراء الكبار، والشعراء الفرسان في العصور العباسية والأموية والجاهلية، يقرأ فيها بنهم وشغف، ليجد نفسه في عالم أدبي ولغوي وشعري، يختلف عن العالم الذي يعيشه الشعر في مصر آنذاك.. في ذلك الجو تشكّلت شخصيته الأدبية، وتكاملت أدواته الشعرية، فإذا بشعره مختلف كل الاختلاف عن شعر عصره، روحاً ولغة واسلوباً ومعاني وصوراً وأنساقاً بلاغية.. وإذاً نحن أمام شاعر يعيدنا الى العصور الذهبية للشعر العربي، ويذكّرنا بفحول الشعراء العرب من المعري الى المتنبي الى الشريف الراضي الى أبي تمام الى البحتري الى ابي نواس الى مسلم بن الوليد الى بشار بن برد.. فهو يعارضهم ويروض القول على منوالهم، ويتمثل قصائدهم وتجاربهم، ويعيد لنا معاجمهم الشعرية، وأساليبهم، ومعانيهم، وصورهم، وقوافيهم، وأوزانهم، وكأنه واحد منهم، ينتمي الى القرن الخامس او الرابع الهجري، وليس للقرن التاسع عشر، وكأنه يعيش في صحراء نجد أو جنوبي العراق، وليس في القاهرة ذات الماء والخضرة.

بدا البارودي ظاهرة جديدة في عصره حيّرت النقاد والباحثين، في زمنه وبعد زمنـــه، وما يزال شاغل الناس حتى يومنا هذا: أهو باعــث أم مجـدد؟ تقليـدي أم حـديث، كلاسيكي أم رومانسي؟ وجداني أم واقعي؟ وما يزال الدارسون يبحثون عن إجابـات حول موقعه في مسيرة الشعر العربي، وحول قيمته الفنية في زمنـه، وفـي وقتنـا الحاضر.

اختلفت الآراء والأحكام حول البارودي الشاعر/ الظاهرة، وبلغ الأمر في الاختلاف أن تتناقض الأحكام، فمقدم ديوان البارودي الدكتور محمد حسنين هيكل يـرى أن شـعر البارودي حياته وأن كل قصيدة في الديوان صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم.. ويتفق معه في الرأي عباس محمود العقاد، إذ يقـول: «اسـتعرض ديـوان البارودي كله لا ترى فيه بيتاً واحداً إلاّ وهو يدلّ على البارودي كما عرفناه في حياته العامة والخاصة، او يدّل على البارودي كما وصفته لنا أعماله وصوّرد لنا مؤرخوه». ويرى أن ذلك آية الشاعرية الأولى، لأن الشعر تعبير، والشاعر هو الذي يعبـر عـن النفوس الإنسانية، فإذا كان القائل لا يصف حياته وطبيعته في قوله، فهو بالعجز عن وصف حياة الآخرين أولى.، فقيمة الشعر واهميته في قدرته على تصوير حياة صاحبه ؤأحواله وظروفه.

ولكن الأثنين يختلفان في ربط بعض فنون الشعر بهذه الشخصية، ففي الوقت الـذي يحاول فيه هيكل ان يبرّئ البارودي الفارس من (تهمتي) الحب وتعاطي الخمر ، فـي قوله: «... ثم كان يجعل الغزل واللهو بالخمر والنساء، والحماسة والفخر، أغراضاً له في القصيدة الواحدة على طراز من حمل نفسه على معارضتهم. وكانت ذاكرته القوية تواتيه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله أحدهم، ويختلط عليك الأمر إذا أردت أن تميّـز بين شعره وشعرهم. ومن كانت هذه حالته لم يكن غزله ولم يكن لهوه صادرين عـن عاطفة ألهبها الحب أو حركتها الخمر بمقدار ما حركها الحرص على التفوق في حلبة الفحول الأولين».

في حين يراها العقاد تعبيراً صادقاً عن وجه أو جانب من جوانب شخصية البارودي، وهو الجانب اللاهي، أو البارودي في أوقات السلم: « أما في السلم فالبـــارودي بـــين الروضة والمنيل والمقياس والجزيرة على أمتع ما يكون طالب اللهو والهوى، وأمرح ما يكون طليق الموت والأخطار».

كما يرد شوقي ضيف على ذلك الرأي بقوله: «أما أن البارودي لم يصدر فـــي حبـــه ولهوه أو خمره عن عاطفة حقيقية بمقدار ما صدر عن معارضة القدماء ومحاولته أن يبدأهم في الميدانين، فان في ذلك إنحرافاً عن تبين حقائقه العاطفية، ومجاوزة للقصد، وما كان الحب آثماً حتى ندفعه عن البارودي، وحتى نبرأه من آثاره، فالبارودي نعـــم بالحب واحتسى الخمر، ولكن في صراحة وحزم، وفي سمو عن التورط في المجون».

أما تصوير الواقع فيراه هيكل إنعكاساً لما يراه في المجتمع، وإنه اعتمد في ذلك على حاسة النظر «في شعر البارودي ظاهرة لعله لم يفطن لها أول الأمر أحد، فهـــو قـــد اعتمد في تصويره الواقع على حاسة النظر أكثر من اعتماده على سواها، وأن تصوير المنظور صفة بارزة في شعر البارودي كله، وذلك شأنه بخاصة فيما لم ينـــزع الـــى تقليد المتقدمين، بل كان هذا التصور الروائي للمنظور يغالبه وهو يقلد».

أما زكي نجيب محمود، فيخالف هيكل في ما ذهب إليه، ويرى أن صور البارودي هي نتاج حاسة السمع. كما يعارض رأي هيكل بأن شعر البـــارودي حياتـــه، بـــل يـــراه قراءاته، فالبارودي إذا وصف أو تغزّل أو أجرى الحكمة في شعره، فالأرجح أنه كان في كل هذا يصدر لا عن خبرته الذاتية الحيّة، بل يصدر عن رنين اللفظ كما وعته أذنه مما قرأ للأقدمين.

فمحور الشعر عن البارودي هو حاسة السمع، إليها ترتد الكثرة الغالبة مما نظم، حتى في الصور المرئية التي تكثر كثرة ملحوظة في ديوانه، كان في الحقيقة يســـتند الـــى محصوله السمعي أكثر مما يستند إلى رؤية العين.

وفي مكان آخر، وخلال مناقشة القديم والجديد في شعر البـــارودي، يـــرى هيكـــل أن الشعر السياسي ووصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة المصـــرية، هـــي

أغراض جديدة، وما خلا ذلك لم يعد به البارودي مقاصد المتقدمين من شعراء العرب.
فهل الشعر السياسي ووصف الطبيعة والآثار وحياة الناس أغراض جديدة؟ ألا نـرى تلك الاغراض والموضوعات في الشعر الأموي العباسـي والأندلسـي والمملـوكي؟
يضيف هيكل قائلاً: « هو في الحق لم يتجه بالشعر غيـر وجهـة الأقـدمين الـذين عارضهم وعارض القول على مثالهم، وان كان لم يفن فيهم ولم يقصر همـه علـى النقل عنهم.... وإذا أردنا ان نبلغ النصفة حين البحث عن الجديد في شعر البارودي، لابد من القول أن هذا الشعر كان في عصره جديداً كله. كانت محاكاته الأقدمين جديدة، وكانت معارضته لهم جديدة....».
ينتهي هيكل الى القول أن حكمة البارودي وكثيراً مما قاله في الفخر، ليس إلاّ ترديداً لما قال القدماء، إذ لم تكن له فلسفة خاصة. كما أنه كـان يبعـث معـاني الأقـدمين ولغتهم، وأن رسالة البارودي لم تكن تجديد الشعر العربي في حياته المندفعة الفياضة، بل كانت بعث الشع العربي من مرقده، وما وفق له من هذا البعث لا يزال حتى اليـوم أعظم تجديد تمّ في حياة الشعر العربي.
طالما أن هيكل سيصل الى هذه النتيجة، وهي أن رسالة البارودي لم تكن تجديد الشعر العربي بل بعثه، فلماذا اشغل نفسه بالبحث عن الجديد في الأغراض والموضوعات؟؟
أما العقاد فيضع أربع مراحل أو أربع درجات في أطوار الانتقال مـن الركـود إلـى النهضة وهي:

١- دور التقليد الضعيف.
٢- دور التقليد المحكم.
٣- الابتكار الناشئ من شعور بالحرية القومية.
٤- الابتكار الناشئ من استقلال الشخصية او من شعور بالحرية الفردية.

ويضع البارودي في طور الابتكار الناشئ من شعور بالحرية القومية، وإن كان يـراه يقلّد لحياناً كما كان يقلّد النظّامون في عهد الحملة الفرنسية، ويبتكر أحياناً كما يبتكر الشاعر الطليق بين أحدث المعاصرين، ويسجل له ميزة لا نظير لها في الأدب الحديث،

وهي وثوبة بالعبارة الشعرية من طريق الضعف والركاكة، إلى طريق الصحة والمتانة، ويصفه بأنه أول الشعراء المطبوعين في العصر الحديث، ويراه فناناً خالقاً في اتباعه كما يكون المرء فناناً خالقاً في ابتداعه، بل ويغلو في عدّ محاكاته للأقدمين أنفع ما في شعره للادب المصري الحديث، لأنه ردّ الى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة والتركيب، بما أتقن من معارضتهم في المذاهب والأساليب.

ولا يخفى ما في هذه الأحكام من مغالاة وتناقض، إذ كيف يكون الشاعر مبدعاً في تقليده مع أن ثمة تناقضاً بين التقليد والإبداع؟!

ولذلك يرى عمر الدسوقي أن البارودي لم يجدّد في أغراض الشعر التي عرفها شعراء العصر العباسي، فهو يمدح ويصف ويهجو ويرثي ويفخر.. كما يفعلون. وقد حاكى القدماء في أساليبهم وأغراضهم، فبلغ به التقليد حداً نسي معه أنه في مصر وليس في نجد، فقد وقف على الأطلال والدمن، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعاني والوجه والزي، لا يمتّ الى عصره وعصر الحضارة بصلة.

اختلاف الدارسون والنقاد حول البارودى :

لقد اختلف الدارسون والنقاد حول أمور كثيرة في البارودي:

- فهل هو شاعر مطبوع أم مصنوع؟ ..
- وهل شعره تصوير لحياته أو تعبير عن تجاربه؟ ..
- وهل الجديد عنده هو الأسلوب الجزل والديباجة البدوية، أم نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة، دون اعتماد محسّنات اللفظ البديعية، ودون إغراب في الخيال؟ ...
- وهل معارضاته للقدماء تنم عن استقلالية أم عبودية؟..
- وهل شعره تراثي أم وجداني؟ ..

ـ وهل جدّد في الاغراض والموضوعات، ام جدّد في الاساليب واللغة؟ ..
ـ وهل صوره نتاج رؤيته ومعاينته للواقع والحياة، أم نتاج قراءاته؟ ..
ـ وهل تعدد الأغراض في القصيدة عنده دليل تجديد أم تقليد؟ ..
ـ وهل غزله ولهوه صادران عن عاطفة ألهبها الحب أو حركتها الخمرة، أم هما تقليد للقدماء، وحرص على التفوق عليهم؟ ..
ـ وهل عرف وحدة الغرض او الموضوع في القصيدة، أم لم يعرفهما؟ ..
ـ وهل كانت رسالته تجديد الشعر العربي أم بعثه من مرقده؟ ...
ـ وهل في شعره فلسفة خاصة، أم أنه يردّد ما قاله القدماء في أقوالهم وحكمهم؟!!!

تلك وغيرها من الاسئلة والتساؤلات ظلّت تتردّد حول البارودي منذ القرن التاسع عشر حتى يومنها هذا، ومازلنا نقرأ البارودي قراءات متباينة، ونخرج بنتائج متباينة، ونطرح تلك الاسئلة التي ستظل حائرة. وما تزال الأحكام والآراء التي قال بها هيكل والعقاد تشكل مرجعية لكل ما قيل وكتب بعدها.

بعض الأراء فى من ينتقد البارودى :

الذين يقرأون شعر البارودي فيتهمونه بالتقليد, لأنه يعارض الشعراء القدماء, ويستعير لغتهم أحيانا, ويستدعي عالمهم ـ هؤلاء السادة الأفاضل لا يحسنون القراءة, ولا يصبرون علي تكاليفها.

ونحن لا نستطيع أن نتصدي لنقد الشعر والحكم عليه إذ اكتفينا بقراءة سهلة متعجلة تتحكم فيها الانطباعات الأولي أو الأحكام المسبقة التي نحاول ـ من خلال القراءة ـ أن نجد تبريرا لها أو برهانا عليها.

ولاشك في أن البارودي عارض بعض الشعراء القدماء. ولاشك في أنه تأثر بلغة البادية العربية, والتزم في بعض قصائده عمود الشعر القديم فوقف علي الأطلال,

وتغزل في النساء, ووصف الرحلة والراحلة, لكنه لم يكن في ذلك مقلدا, وإنما كـان يستعيد لنفسه ولبلاده ثقافة كانت في العصور التي سبقت ظهوره قد انـدثرت, ولغـة كانت قد أصبحت غريبة بعيدة حتي عن متناول المشتغلين بها من الكتاب والشـعراء. وما علينا إلا أن نقرأ ما نقلته لنا التـواريخ والموسـوعات مـن شـعر الإدكـاوي, وإسماعيل الظهوري, وعامر الأنبوطي من المصريين, وجعفر بن محمد السقاف مـن شعراء الحجاز, وبطرس كرامة من لبنان, لنري إلي أي حد فسـدت اللغـة, وانحـط الذوق, واختلطت الفصحي بالعامية, وابتعد الشعراء عن الحياة الجادة, وتحول الشعر علي أيديهم إلي تهريج ماجن, وعبث ركيك, كما نجد في قول القائل فيما يقرأ من أوله لآخره, كما يقرأ من آخره لأوله:

ألغ من نم فمن نم غلا !

وكما نجد في قول الآخر:

اضربوا مندلا لنـــا يا ثقاتي

ربما يحصـــل المني ولعلا

دخنوا دخنة التهاطـيل قولوا

يا طهاطيل طهطهيلات طهلا!

في تلك العصور كانت العربية الفصحي قد اعتزلت الحياة اعتزالا تاما, وانزوت فـي الجامع الأزهر الذي اتخذها مجرد آلة لحل رموز النصوص الدينية, علي حين كانـت التركية والفارسية هما المستخدمتين في الإدارة وفي أوساط النخبة الحاكمة. ولم تكن نسبة القادرين علي القراءة بين المصريين تزيد علي ثمانية في المائـة, ولـم تكـن المطبعة قد دخلت مصر بعد. ولنقرأ هذه السطور من الأمر الذي أصدره سعيد باشـا ابن محمد علي باستخدام اللغة العربية في دواوين الحكومة لنزداد علما بما كانت عليه من ضعف:

(إن الجاري ــ والحالة هذه بالدواوين وسائر الجهات ــ في خصـوص المخاطبـات المتعلقة بالقضايا وإدارة المصالح, البعض تركي والبعض عربي, ومـن أجـل ذلـك

حاصل تداخل الأشغال في بعضها... وبما أنه يجب تمشية المصالح علي طريقة واحدة لمنع حصول ما يماثل ذلك, إذ أنه من المعلوم أن معظم أشغال هذه الديار ومصالحها إنما تنتهي بالعربي, فقد تعلقت إرادتنا أنه من الآن تحصل المباشرة في الكتابة, بالعربي كما ذكر...!)

كيف كان باستطاعة البارودي أن يعيد الحياة للشعر قبل أن يعيد الحياة للغة التي سيكتبه بها؟

واللغة بالنسبة للشاعر ليست مجرد أداة نقل أو اتصال كما هي بالنسبة للرجل العادي, أو للكاتب الذي لا يريد من اللغة إلا أن تحمل لغيره ما يريد من أفكار وأخبار..

اللغة بالنسبة للشاعر غاية لا وسيلة:

ومعني هذا أنه لا يستخدم اللغة كما هي, ولا يلتزم ما تدل عليه مفرداتها كما نجدها في المعجم ولا يكتفي بما نملكه في اللغة ملكية مشتركة وإنما يحمل اللغة ما لم تكن تحمله.

ويستخدم أدوات لا تستخدم في لغة النثر أو لغة الاتصال اليومي كالأوزان والرموز والصور, ويقيم بين المفردات علاقات تولد منها معاني جديدة, وتضيف إليها ظلالا وإيحاءات وإيماءات نجدها في القصيدة ولا نجدها في أي نص آخر.

والشاعر بما يملك من موهبة, وبما يستخدم من أدوات يخلق لغة جديدة نتلقاها عنه لنستمتع بما فيها من جمال..

فالجمال هو المقصد الأول الذي يسعي له الشاعر ونسعي له معه, لأن الجمال في القصيدة هو خالق المعني.

والشاعر لا يستطيع أن يتصرف في اللغة أو يستخدمها علي هذا النحو الخلاق, إلا إذا كان يملكها كما يملك قدرته علي التنفس. وتلك هي المعجزة التي حققها البارودي.

مقارنة بين البارودى وجبران :

إنه لم يقنع من اللغة بما استطاع أن يقنع به منها شاعر مثل جبران خليل جبران, الذي يفضله أدونيس علي كل الشعراء العرب المحدثين, رغم أن لغته العربية كانت متواضعة, ولم يكن يستنكف فيها من استخدام التراكيب اللغوية الدارجة, وخلط العامية بالفصحي, كما في البيت الذي يستخدم فيه الفعل تحمم بمعني استحم:

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور؟

أو في قوله البالغ الركاكة:

لكن هو الدهر في نفسي له أرب

فكلما رمت غابا قام يعتذر

يقصد أنه كلما طلب من الدهر أن يتيح له الحياة في الغاب, أي في أحضان الطبيعة, وقف الدهر له بالمرصاد, واعتذر عن أن يحقق له ما تمناه!

وأنا لا أشك في شاعرية جبران خليل جبران التي تمثلت في مؤلفاته النثرية أكثر مما تمثلت في أشعاره القليلة, لكني لا أتردد في أن أقول ـ كما قلت ـ إن لغة جبران كانت متواضعة, وهو معذور في ذلك إلي حد ما, فقد غادر لبنان إلي الولايات المتحدة وهو بعد شاب في نحو العشرين لم تنضج لغته, ثم هجر الكتابة بالعربية وهو في نحو الخامسة والثلاثين ليكتب بالإنجليزية, حتي غادر الدنيا قبل أن يبلغ الخمسين.

من هنا كانت لغته ـ كما رأينا ـ ضعيفة, لا تدين لها العربية الحديثة, ولا تدين لصاحبها, كما تدين للبارودي الذي لم يتلق لغته من معاصريه, كما فعل جبران, وإنما تلقاها من مصادرها القديمة, وتمثلها وعاشها في شعره وفكر بها وتخيل وانفعل, حتي

استطاع في النهاية أن يرد إليها الروح ويسلمها حية لمن ظهر بعده من الكتاب والشعراء.

البارودي لم يقتنع من اللغة بما يعبر به عن مثل الخواطر والأفكار التي عبر عنها جبران, وإنما أراد من اللغة أن يعرف بها تراث الشعر العربي كله, وأن يبعثه حيا من جديد, أراد من اللغة أن تعود بكامل طاقتها وحيويتها, وأن تتسع للحاضر والمستقبل, كما اتسعت للماضي, إذن فلابد من امتلاكها كلها بكل ما تحقق فيها منذ قصد فيها الجاهليون قصائدهم, وعلقوا معلقاتهم حتي ظهر فيها أبو نواس, والبحتري, وأبو تمام, والمتنبي, والمعري.

من هنا معارضات البارودي لهؤلاء الشعراء, ومختاراته من قصائدهم, ومن هنا طللياته, وغزلياته, وخمرياته, وطردياته, وحماسياته.

والبارودي في كل ذلك لا يقلد, بل يملك ويحوز. المقلد فقير معدم يمد يده للآخرين ويستجديهم, والبارودي الذي ينطق بلسان البدو والحضر, والذي يعارض شعراء القرن التاسع, كما يعارض شعراء القرن الثالث عشر, غني بما يملكه من هذا التراث الحافل.

المقلد لص يتسلل إلي شعر غيره يحاول أن يدعيه ويضع اسمه عليه, لكنه يفضح نفسه لأن أدواته قاصرة حتي عن أن تمكنه من التقليد المتقن..

أما المالك فيستخلص أجمل ما سبق إليه السابقون, فإذا تمكن منه صار ملكا له. وهذه الملكية المشتركة خاصية لا تتحقق إلا في فن الشعر, لأنه فن اللغة, واللغة ملك لجميع الناطقين بها

والفرق هائل بين دعي يقلد نصا لا يستطيع أن يضيف إليه شيئا من عنده, بل إن النص هو الذي يملي عليه ما يقول, وشاعر حقيقي يحترم التقاليد ويطوعها في الوقت نفسه لما يريد.

وهذا هو البارودي الذي يقول عن نفسه:

ملكت مقاليد الكلام وحكمة
لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى
لباء بفضلي جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسي لم يقل
أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرني أني تأخرت عنهم
وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أول
وبذ الجياد السابقات أخير!

ليس كل من عاد للتراث القديم مقلدا.. والمغرضون وحدهم والسذج الأغرار هم الذين يخلطون بين التقليد وإحياء التقاليد.

***

التقليد ــ كما تقول المعاجم ــ هو إتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل من غير نظر وتأمل في الدليل. وهو غير التقليد بمعني المأثور المتوارث الذي يتداوله الناس ويرونه قاسما مشتركا يجمع بينهم, ويجمعهم بأسلافهم, ويعبر عن شخصيتهم القومية.

والتقليد بهذا المعني الأخير يستخدم في الأغلب بصيغة الجمع, فيقال تقاليد إشارة لتلك المنظومة من الأعمال والرسوم التي اصطلح الناس علي مراعاتها في بعض الأمور المتصلة بالنشاط القومي. وإذا كان التقليد بمعني المحاكاة مستهجنا, فالتقليد بمعني احترام المأثورات مقبول ومحمود.

غير أن التقليد بمعني الاتباع لا يستهجن في كل حال, فالمشتغل بكل فن أو صناعة لابد أن يبدأ بتقليد من يتتلمذ عليهم ويتعلم منهم, حتي يسيطر علي أدواته ويتمكن منها, ويصبح قادرا علي أن يستقل بأسلوب خاص, كما أن التقاليد تتطور وتتغير فيحافظ بعضها علي حيويته وقدرته علي أداء وظيفته, ويجف بعضها الآخر ويتحجر ويموت, لأنه لم يعد قادرا علي الاستجابة لحاجات العصر ولم يعد قادرا علي العطاء. وهذا هو المحك, فنحن نحكم علي لغة الشاعر بما أدته لا بما تنتمي إليه من تيارات ومذاهب.

ولاشك أن الشعر الذي نجده في بعض قصائد البارودي يفوق الشعر الذي نجده في دواوين الكثيرين ممن ظهروا قبله وممن ظهروا بعده. وهذا هو الذي يهمنا, القيمة الشعرية التي تضمنتها القصيدة سواء كتبت بلغة عصرية أو بلغة تقليدية. فاللغات الشعرية تتعايش في العصر الواحد الذي يضم المجددين والمحافظين. والتقاليد القديمة تبعث من جديد في الأدب والفن, والشاعر الواحد ربما كان في جانب من شعره مجددا وفي جانب آخر محافظا.

شوقي الكلاسيكي في ديوانه رومانتيكي في مسرحه. وفيكتور هيجو زعيم الرومانتيكية الفرنسية كان يكتب بلغة كلاسيكية نقية, والرسام بابلو بيكاسو جمع كل المذاهب في فنه, فكان انطباعيا, وكان تكعيبيا, وكان سورياليا. والشاعر أبوللينير, الذي تزعم حركات التجديد الفرنسية عقب الحرب العالمية الأولي كان يقول إن الروح الجديدة تدافع قبل كل شيء عن الواجب والنظام, أي عن ميراث العقل الفرنسي.

وما يقال عن هؤلاء يقال عن البارودي, فالبارودي الذي عارض النابغة والمتنبي, وذكر المواضع, وحن لأراك الحمي, هو البارودي الذي ينظم في وزن لم ينظم فيه العرب من قبل, ويرثي ولده فيستخدم اللغة البسيطة التي يستخدمها كل من تفطر قلبه بهذا المصاب الأليم:

كيف طوتك المنون يا ولدي

وكيف أودعتك الثري بيدي

واكبدي يا علي بعدك! لو

كانت تبل الغليل واكبـــدي

فقدك ســل العظام مني,

ورد الصـــــبر عــني

وفَـــــــتّ في عضدي!

والبارودي لم يعد للغة القديمة إلا ليزود العصر الذي عاش فيه بلغة صحيحة, وليجدد اللغة بما في هذا العصر الجديد من حياة جديدة.

التجديد هو هدف البارودي من التقليد, إذا صحت هذه العبارة, بل هو هدف النهضـــة المصرية كلها وهدف كتابها وشعرائها ومفكريها, كلهم كانوا يتحدثون عــن التجديـــد ويلهجون به ويدعون له.

الشيخ حسن العطار، أستاذ الطهطاوي ، الذي تأثر بما رآه عنـــد الفرنســيين خـــلال وجودهم في مصر يقول: إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها, ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها.

والطهطاوي يقول: لا ينبغي لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلــف ـــ أي الـــزمن الحاضر ـــ تجرد عن فضائل السلف. وهو يميز بين ما يجب للدين وما يجب للــدنيا, فيقول: إن الاتباع مطلوب في الأمور الدينية وحدها, أما في أمور الــدنيا, فالابتـــداع ليس مذموما, بل أكثره مستحسن!

***

في إطار هذا الجدل بين إحياء القديم واقتباس الجديد نفهم حركة النهضة, ونفهم شعر البارودي الذي ألف فيه بين سيرته الجديدة ولغته القديمة.

لقد وجد البارودي في لغة الفرسان البدو ما يلبي حاجته للتعبير عن نفســه كفـــارس عصري...

فليس في الشعر العربي فروسية إلا فروسية البدو القدماء. ومع أن هذه اللغة قديمة, فقد استطاع البارودي أن يطوعها لنفسه ويجعلها لغته ويصور بها سيرته, ويخرج بهذه السيرة من الواقع إلي الأسطورة, ويحولها إلي مغامرة روحية فريدة, كما فعل في قصيدته الفاتنة التي يصف فيها ناقة من النعمانيات, وهي المنسوبة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة, وكانت له إبل كريمة يقال لها عصافير النعمان:

وروعاء المسامع ما تمطت
بحمل بين سائمة مخاض
خرجت بها علي البيداء وهنا
خروج الليث من سدف الغياض
تقلب أيديا متسابقات
إلي الغايات كالنبل المواضي
مددت زمامها والصبح باد
فما كفكفتها والليل غاض
فما بلغت مغيب الشمس حتي
أضاعت آتيا منه بماضي
أحال السير جرتها رمادا
فراحت وهي خاوية الوفاض
وما كانت لتسأم, غير أني
رميت بها اعتزامي واعتراضي
هتكت بها ستور الليل حتي
خرجت من السواد إلي البياض!

في هذه القصيدة, يصف الشاعر رحلة له علي ناقة يقول إنها حادة السمع لم تحمل

ولم تلد, خرج بها إلي الصحراء خروج الأسد من الشجر الكثيف, فأسرعت به, ومدت قوائمها المتسابقة كأنها السهام المفوفة, تصل الليل بالنهار, حتي جوعها طول السير وأنهكها. لكن الشاعر ظل يدفعها إلي غايته حتي خرج بها من السواد إلي البياض.

تجربة لا تتصل بحياة محمود سامي البارودي في الواقع, لكنها موغلة في أعماقه كفارس شاعر.

ومع أن ناقة البارودي تنتسب للنعمان, وتذكرنا بناقة طرفة بن العبد, والشماخ, والأعشي, فهي ناقة أخري, والبارودي شاعر آخر.

الشاعر الجاهلي يصف ما يراه ويسمعه ويلمسه. وأما البارودي فيرحل في العصور, ذاهبا إلي نقطة البدء أو إلي الروح, يخرج وحده مغاضبا من الخفاء إلي الوضوح, ومن كثافة الأشياء إلي شفافية الوعي بالعالم, يخرج من الليل كما يخرج من النهار, كأنه فكرة تخلصت من أسر الزمن, وانسربت من عتمة الظن إلي انبلاج اليقين.

وليست الناقة في هذه القصيدة إلا لغة البارودي, لغته القديمة التي ركبها ليمنحنا هذه التحفة الرائعة...

وفاته

بعد أن عانى البارودى البعاد عن وطنه الأم مصر الحبيبة لمدة سبعة عشرة سنة قضاها منفياً فى جزيرة سرنديب عاد إلى القاهرة ...

وترك العمل السياسى تماماً وفتح بيته للأدباء والشعراء، يستمع إليهم، ويسمعون منه تجاربه الشعرية وكان على رأسهم شوقى وحافظ ابراهيم ، ومطران، وإسماعيل صبري...

وقد تأثروا به ونسجوا على منواله، فخطوا بالشعر خطوات واسعة، وأُطلق علـيهم "مدرسة النهضة" أو "مدرسة الأحياء".

ظل البارودى على حاله مستمتعاً بحياته مع الأدباء والشعراء الجدد بعد رجوعه مـن منفاه .

ولم تطل الحياة ، فلقي ربه في (١٢ من ديسمبر ١٩٠٤م).

المستشار

سامي زين الدين

مصطفى كامل
مؤسس الحزب الوطني

إعداد
سيد شحم

استهلال :

مصطفى كامل شاب مصري . ساقه القدر أن يعيش في مرحلة احُتلت فيها مصر بعد نكسة الثورة العرابية .

امتلك القدرة على تحريك الجماهير ، فلم يترك فرصة إلا استغلها لحساب تحرير وطنه من الاحتلال الانجليزى ، حتى مهَّد نضاله الثوري الطريق لقيام ثورة ١٩١٩ .

لم يكن الاحتلال قضيته الوحيدة .. بل كانت هناك قضايا كثيرة تشغله منها نشر التعليم، فوضع أول لبنة في بناء الجامعة المصرية .

مصطفى كامل زعيم وطني ، ومثال نادر لشباب مصر .

تنبأ له بالعبقرية الخديوي حلمي الثاني حاكم مصر . الذي اختلف معه كثيراً ، وشهد له بالنبوغ على باشا مبارك وزير المعارف العمومية .

كما أثر فيه عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية رغم رؤية مصطفى كامل السلبية للثورة العرابية .

كان مصطفى كامل يرد دائما " مصر هي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام " .
لم يترك مصطفى كامل زعيما أجنبيا مؤثرا إلا واتصل به وشرح له حق مصر في الجلاء .
أجبر بتحركه في أوربا وفضحه لجرائم الاستعمار في مصر " اللورد كرومر " على الرحيل من مصر مطرودا .
أسس " الحزب الوطني " لتنظيم صفوف الوطنيين المصريين في دفاعهم عن القضايا الوطنية وتحقيق الجلاء عن مصر .. وإقرار دستور للبلاد ، ونشر التعليم ، وبث الشعور الوطني .
رحمك الله يا أيها الرائد الجليل يا مصطفى كامل .. يا من وقف شامخا صامدا عندما ضعفت همم الرجال ..
يا أول من أبدع مسرحية مصرية تأليفا في تاريخ الأدب العربي .
مصطفى كامل ، اسم ذائع الصيت في تاريخ النضال الوطني المصري .. اشتهر اسمه زعيما سياسيا ، وثائراً وطنيا في الداخل والخارج ، في مصر وأوربا ، زعيم عهد من أقوى عهود الوطنية المصرية ، وأعمقها أثرا في مسيرة التاريخ الوطني .
كان نقطة الارتكاز الضخمة التي أقيمت عليها مبادىء الحركة الوطنية ، كانت دعوته هي الجذع الذي نمت حوله الأغصان التي أينعت من سنين نضالنا الوطني ، وعلى حد ما ارتآه هو نفسه ببصيرة نافذة .
مصطفى كامل من أقطاب الحركة الوطنية تخرج في عهده أحرار ، وظهرت أقلام وثارت أفئدة .
بدأ الجهاد الوطني لمصطفى كامل بعد تسع سنوات من انتهاء الثورة العرابية . والتي أفلح الاحتلال خلالها في السيطرة على مقادير البلاد سيطرة كاملة . فأشاع فيها روح اليأس والقنوط والاستلام .
رفع مصطفى كامل أكثر من شعار ، أصبحت فيما بعد حكما شعبية ، وتراثاً مصريا ، تتردد على ألسنة الشعب المصري .

مولده ونشأته :

ولد مصطفى كامل بحي الحلمية بقسم الخليفة بالقاهرة في الأول من شهر رجب عام ١٢٩١ هجرية الموافق ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ ميلادية . من أب مصري يعمل ضابطا مهندسا في الجيش المصري . أنجبه في سن الستين من عمره .. هو علـــى أفندي محمد .

يعود إلى أصول ريفية من قرية " مكبرة كتامة الغابة " من أعمال طنطا .. وكان جده يعمل بالتجارة .

وعُرِف عن الابن النابه حبُه للنضال والحرية منذ صغره ، وهو الأمر الذي كان مفتاح شخصيته وصاحبه على مدى ٣٤ عاماً ، هي عمره القصير .

ككل أقرانه من المصريين في ذلك الزمان ألحقه والده بكتّاب الشيخ (أحمد الســيد) ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب ويحفظ القرآن الكريم .

والمعروف عنه أنه تلقى تعليمه الابتدائي في ثلاث مدارس ، أما التعليم الثانوي فقــد التحق بالمدرسة الخديوية أفضل مدارس مصر آنذاك ، والوحيدة أيضــاً ولــم يتــرك مدرسة من المدارس إلا بعد صدام لم يمتلك فيه من السلاح إلا ثقته بنفسه وإيمانـــه بحقه .

وفى المدرسة الخديوية أسس جماعة أدبية وطنية كان يخطب مـــن خلالهـــا فـــي زملائه وحصل على الثانوية وهو في السادسة عشرة من عمره ، ثم التحق بمدرســـة الحقوق سنة (١٣٠٩ هـــ = ١٨٩١ م) ، التي كانت تعد مدرسة الكتابة والخطابة في عصره ، فأتقن اللغة الفرنسية ، والتحق بجمعيتين وطنيتين ، وأصبح يتنقل بـــين عدد من الجمعيات ؛ مما أدى إلى صقل وطنيته وقدراته الخطابية .

وقد استطاع أن يتعرف على عدد من الشخصيات الوطنية والأدبية منهم " إســـماعيل صبري " الشاعر الكبير ووكيل وزارة العدل ؛ والشاعر الكبيــر " خليــل مطــران ، " وبشارة تكلا " مؤسس جريدة " الأهرام " ، الذي نشر له بعض مقالاته في جريدتـــه ، ثم نشر مقالات في جريدة " المؤيد " .

وفى سنة " ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ م " ترك مصطفى كامل مصر ليلتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ؛ ليكمل بقية سنوات دراسته ، ثم التحق بعد عام بكلية حقوق " تولوز " ، واستطاع أن يحصل منها على شهادة الحقوق ، ووضع في تلك الفترة مسرحية " فتح الأندلس " التي تعتبر أول مسرحية مصرية ، وبعد عودته إلى مصر سطع نجمه في سماء الصحافة ، واستطاع أن يتعرف على بعض رجال الثقافة والفكر في فرنسا ، وازدادت شهرته مع هجوم الصحافة البريطانية عليه .
وسافر مصطفى كامل إلى برلين في نطاق حملته السياسية والدعائية ضد الاحتلال البريطاني وأصبح اسمه من الأسماء المصرية اللامعة في مصر .

الحماس الوطني :

في المرحلة الثانوية من تعليمه أبدى مصطفى كامل صورة الحماس الوطني منذ صغره.. ففي المدرسة الخديوية أسس جمعية أدبية وطنية أسماها " جمعية الصليبة الأدبية " نسبة إلى اسم الحي الذي ولد فيه، ونجح في جذب الأعضاء لها ، حيث بلغوا سبعين عضواً في خلال ثلاثة أشهر فقط ، كان يخطب من خلالها في زملائه وقد تجلت مواهبه الخطابية وهو مازال في سن مبكرة ، وكانت أول خطبة ألقاها في فضل الجمعيات في العالم" .

لفت نبوغه وذكاؤه وحماسته رجالات ذلك العصر.. فقد تنبأ له(على باشا مبارك) وزير المعارف العمومية " أنه الشاب الذي سيكون له شأن كبير فقال له :" إنك امرؤ القيس وبشّره بأنه سيكون عظيماً " وفعلا.. تحققت نبوءة وزير المعارف على باشا مبارك لمستقبل مصطفى كامل ، ودفع ذلك مصطفى كامل إلى الالتحاق بمدرسة الحقوق والتحق بها أيضا لأنها مدرسة المعرفة الحقيقية لحقوق الأمم والأفراد .

ورغبة منه في صقل معارفه الوطنية ، ومعلوماته السياسية التمس المعرفة في الانضمام للجمعيات الوطنية بل وانتقل بين عدد من الجمعيات .. فأصبح خطيبا وطنيا مفوهاً يلتف حوله الكثيرون .

ولم تكن شهادة على باشا مبارك أبو التعليم على عبقرية مصطفى كامل هي الشهادة الوحيدة ، وإنما كانت الخطوة التي خطاها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وزعيمها الروحي، عندما عاد من منفاه إلى مصر ، ومفاجأته المذهلة بما آلت إليه روح الشعب المصري من هدوء واستسلام، بعد أن ظن البعض أن الحركة الوطنية ماتت في نفوس المصريين، باستسلام مقيت للاحتلال ممثلا في شخصية " اللورد كرومر " الحاكم المطلق غير المتوج لمصر .

فكان لابد لعبد الله النديم أن يفعل شيئا لإحياء جذور الوطنية.. فكان أعظم ما قام به اكتشافه لنبوغ وحماس ووطنية مصطفى كامل فراح يتقرب له ويقربه إليه ويصطفيه من بين الكثيرين، ويمده بكل ما لديه من أسرار الثورة العرابية والمعلومات الخفية الخاصة بها، أهدافها ، ونقاط ضعفها، وأسباب خذلانها. وهو في كل ذلك يبث بذكاء نادر روح العزة القومية في نفس ووجدان مصطفى كامل .

وبذلك نجح عبد الله النديم في تأكيد ونقل روح القدرة على تحريك الجماهير التي كان يمتلكها عبد الله النديم إلى مصطفى كامل.. وبذلك نستطيع بثقة أن نؤكد أن حماس مصطفى كامل لم يكن سوى نقطة الالتقاء التي انتهت عندها الثورة العرابية، وكان تاريخيا لابد أن تنبع منها مباشرة ثورة جديدة .. وقد حدثت فعلا وهى ثورة ١٩١٩ م.

تستمر حركة صعود زعامة مصطفى كامل وتتسع قاعدة معارفه وعلاقاته.. وتنتشر عبر الوطن والكون سمعته كزعيم وطني شاب .

وقد عرف عن الخديوي عباس حلمي الثاني زياراته للمدارس.. ومناقشته للمناهج التعليمية وبحثها، حيث كانت العلوم تدرس باللغة الإنجليزية.وقد زار الخديوي عباس مدرسة الحقوق فألقى مصطفى كامل بين يديه قصيدة ترحيب جاء فيها :

بشرى الحقوق بسيد الأمراء ..

كنز العلا عباس ذو النعماء

بشراك يا دار العدالة والهدى ..

بمليك مصر وأوحد العظماء

فكان هذا اللقاء وهو الحلقة الأولى من سلسلة العلاقات التي لم تلبث أن تقوم بين الخديوي ومصطفى كامل والتنسيق فيما بعد لمقاومة الاحتلال البريطاني .. وقد سلك في بداية نضاله من أجل الجلاء سياسة التفاهم مع الخديوي عباس الثاني ،لإيمانه بأن اصطدام العرابيين بالخديوي توفيق قد مكنّ للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر .. فأراد أن يتجنب هذه السياسة ، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديوي إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً.

ففي يونيو عام ١٨٩٣ ميلادية الموافق ١٣١١ هجرية ترك مصطفى كامل مصر مغادرا إلى باريس ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق.

أدى مصطفى كامل الامتحان بنجاح. وقد استفاد من زيارته ووجوده في فرنسا ، إذ وقف على سير الحضارة الأوروبية ، وما أصبح الأوربيون ينعمون به من حريات سياسية ونشاط ثقافي وعلمي كبير ، فعمَّق ذلك عند مصطفى كامل أحاسيسه الوطنية وأنضج حبه لمصر وشعبها ، مما دفعه أكثر وأكثر للسير في الطريق الذي رسمه لنضاله الوطني لتحقيق أهدافه الأساسية وأهمها وأولها جلاء الإنجليز عن مصر.

حصل على شهادة الحقوق قبل بلوغه سن العشرين في الثامن عشر من نوفمبر عام ١٨٩٤ من كلية الحقوق " جامعة تولوز " ...وأرسل مصطفى كامل رسالة إلى أخيه على فهمى كامل يبشره بتخرجه قال فيها : اليوم أحمد الله حمدا كبيرا وأشكره شكراً جزيلاً على فك قيد أسرى ، والمنّ بإطلاقي في ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق وحولت بمشيئة الله على الانتقال في سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ولو أتيح لي الخير ، وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء " .

علاقة مصطفى كامل بالخديوي عباس حلمي الثاني :

يقول لنا أحمد باشا شفيق في مذكراته عن مصطفى كامل : في ٦ ديسمبر ١٨٩٤ ميلادية عاد مصطفى كامل إلى مصر وكان يومئذ في سن العشرين...

فقربه الخديوي عباس حلمي الثاني إليه وساعده بالمال وتعاهدا سرا على أن يعمــلا لخلاص البلاد من الاحتلال الإنجليزي .
واستطرد أحمد باشا قائلاً : وقد اتفق الخديوي مع مصطفى كامل على تشكيل لجنــة سرية تتكون من بعض الشباب المتحمسين الوطنيين الممتازين ممن تلقــوا تعلــيمهم العالي في مصر والخارج ، وكنت من أعضاء هذه اللجنة المكونة مني أنــا وزميلــي روليبه بك، وإسماعيل الشيمى بك ، ويوسف صديق بك ، ومحمود سالم بك ، وهــم القضاة بمحكمة المنصورة المختلطة ومسيو (أرشيد جافيو) نائب الجالية الفرنســية بمصر ، وقد كانت مسئوليتي الاتصال بممثل فرنسا في مصر ، وكان يعضد سياســة الخديوي ضد الاحتلال الانجليزى بهدف استرداد النفوذ الفرنسي في مصر .
وقررت هذه اللجنة الدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين بالكتابة في الصــحف الفرنسية في مصر وباريس بأسماء مستعارة .
وقد بنى مصطفى كامل موقفه السياسي إزاء فرنسا على أنها دولة يمكن تدخلها لصالح مصر . فظل يعمل ويأمل في معاونتها لمساعدة مصر في جلاء الإنجليز .
أراد مصطفى كامل أن يعيد الروح الوطنية إلــى نفــوس الشــعب المصــري .. ومساهمة في ذلك أنشأ مجلة " المدرسة " أصدر عددها الأول في يــوم الســبت ١٨ فبراير من عام ١٨٩٣ ميلادية ، وهو طالب بكلية الحقوق ، أكد فيها مواقفه الوطنية من قضايا أمته وموقفه من الاستعمار الانجليزى .. موضحا بأن " المدرسة " مجلــة وطنية ، أدبية ، تهذيبية ، علمية ، تصدر مرة واحدة في أول كل شهر عربي ، وجعل شعارها المطبوع في واجهة كل عدد " حبك مدرستك ، حبك أهلك ووطنك " .
وهو ما يشهد له ليس فقط بالنبوغ ، ولكن بمضاءة العزم والعزيمــة وقــوة الإرادة ، وعمق الحسّ الوطني ، واتساع الوعي السياسي وهو لا يزال طالبا في كلية الحقوق.
استقبل عبد الله النديم مجلة " المدرسة " استقبالاً حافلاً ، وأشاد بها في مجلتــه " الأستاذ " وإن دلّ ذلك .. فيدل على عمق وقوة الصلة بين عبد الله النديم ومصطفى كامل إلى جانب التعاطف الروحي بين الزعيــم الكبير وبــرعم الزعامــة الوطنيــة الناشىء .

لم يكتف مصطفى كامل بذلك .. فكان طموحه توصيل صوته إلى أبعد الآفاق ؛ وإلى كل أرجاء الأرض ويبلغ وينشر كل مقالاته الوطنية على كل الدنيا ، فقرر مراسلة الصحف المصرية والأجنبية ، وسار على هذا المنوال منذ أن كان طالبا ، وفى فرنسا ألف مسرحية فتح " الأندلس " التي تعتبر أول مسرحية مصرية في تاريخ الأدب العربي .

التنديد بالاحتلال الإنجليزي :

وفى السنة التالية لتخرجه تعرف مصطفى على مدام جولييت آدم التي كانت من أعظم الشخصيات الفرنسية في عالم الوطنية والسياسة والأدب .

في الثاني عشر من سبتمبر من عام ١٨٩٥ ميلادية بدأ مصطفى كامل اتصاله بمدام جولييت آدم ـ المفكرة والكاتبة الفرنسية الشهيرة المرموقة ذات النفوذ الكبير في فرنسا ـ مبتدءا هذه العلاقة الروحية التي كان لها أعظم الأثر في ازدهار كفاحه من أجل مصر .

وكان كتابه إليها من مدينة (تولوز) قطعة من العاطفة الوطنية المتأججة بالحماس والولاء اللذين كانا يملآن صدر مصطفى كامل تجاه وطنه مصر فكتب إليها قائلا :

سيدتي :

" إنني لا أزال صغيرا : ولكن لي آمالا كبارا فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة .. مصر الفتاه هم يقولون أن وطني لا وجود له ! وأنا أقول يا سيدتي : إنه موجود وأسفر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه وسأجود في سبيله بجميع قواي ، وأفديه بشبابي وأجعل حياتي وقفا عليه " .

سيدتي :

" إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة وقد نلت إجازة الحقوق من " تولوز " قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر المحبة والإخلاص اللذين أسفر بهما في سبيل رفعة الوطن العزيز وقد قيل لي أكثر من مرة أنى أحاول محالا ، وحقيقة نفسي تصبو

إلى هذا المجال فأعينني يا سيدتي فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي ، وتقوية عزمي وشد أزرى وتقبلي تحية واحترام " .

استجابت جولييت آدم لندائه ، ودعته لمقابلتها فوقع من نفسها وقعا حسنا ، وأصبحت له منذ هذه اللحظة بمثابة الأم وراحت تكتب عنه وفتحت أمامه صفحات مجلتها " لانوفيل ريفيو " ليكتب فيها .

لم تكتف مدام جوليت آدم بذلك إيمانا منها بموقفه ، ومنطقه ، ووطنيته ، فقدمته لكبار الشخصيات الفرنسية ، فألقى المحاضرات في عدد من المحافل الفرنسية .

وفى الحادي عشر من ديسمبر من نفس العام ١٨٩٥ ميلادية عقد مصطفى كامل اجتماعا ضخما بدار الجمعية الجغرافية في باريس ، وقد حضر هذا الاجتماع العديد من المشاهير السياسيين وكبار الكتاب الفرنسيين ، والعلماء والنواب بالبرلمان الفرنسي .

ألقى مصطفى كامل في هذا الاجتماع الذي حضره صفوة المجتمع الباريسي بل والفرنسي عامة خطابا سياسيا مهما موضوعه " الاحتلال الانجليزى في مصر " وكان رد فعل هذا الخطاب عظيما ، ففي فرنسا : نشرت معظم الصحف الفرنسية فقرات كاملة منه ، وأفردت الصحف المصرية لنشره الصفحات الطوال ، أما صحيفة المؤيد فقد كان لها موقفا خاصا جدا فاحتفت به ونشرته كاملاً على عدة أعداد متوالية .

في الثاني من يناير ١٨٩٦ ميلادية الموافق ١٣١٤ هجرية . أرسل مصطفى كامل – وكان يقيم في باريس في ذلك الوقت – خطابا إلى المستر (جلادستون) رئيس حزب الأحرار الإنجليزي– والذي تم احتلال مصر في أيام توليه رئاسة الوزارة البريطانية – وكان خارج الوزارة وقت وصول الرسالة إليه فذكّره مصطفى كامل في هذا الخطاب بوعوده المتكررة عن ضرورة الجلاء عن مصر.

عودته إلى مصر:

عاد مصطفى كامل إلى مصر بعد حصوله على شهادة الحقوق من " تولوز" ورفض الوظيفة الحكومية التي كانت ستضعه تحت سيطرة الإنجليز فسطع نجمه في سماء الصحافة والسياسة والفكر والنضال الوطني، واستطاع أن يجمع حوله رجالات

المواقف الوطنية من الشعراء والصحفيين والمفكرين والساسة .. مثلما جمع حولـه هؤلاء في فرنسا ولندن.. وزادت شهرته العالمية مع هجوم الصحافة البريطانية عليه وعلى توجهاته الوطنية المضادة للاستعمار الانجليزى .. فقد جمع حوله فـي مصر العديد من الشخصيات الوطنية والأدبية منهم :

- إسماعيل صبري : الشاعر الكبير ، وكيل وزارة العدل والذي ولد بالقاهرة ونشأ بها وتتلمذ على يديه كبار شعراء العربية مثل أمير الشـعراء أحمـد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم . ومن بين أهم أصدقاء مصطفى كامـل كذلك .
- خليل مطران : شاعر القطرين وأطلق عليه هذا اللقب لأنه ولد ونشأ فـي لبنان وقضى معظم حياته في مصر ومات بها .
- بشارة تكلا : مؤسس جريدة الأهرام الذي نشر لمصطفى كامل الكثير مـن المقالات . ولما تولى الخديوي عباس حلمي الثاني حكم مصر كـان عمـر مصطفى كامل ١٧ عاماً وكان يكبر الخديوي بعام وكان يحلـم بالاسـتقلال بالسلطة بمصر بالسيطرة الفعلية عليها بعيدا عن الإنجليز.. وهذا ما قربـه لمصطفى كامل ٠في وحدة الهدف .. والتخلص من الاستعمار الانجليزى .

منذ عاد مصطفى كامل إلى مصر فى السادس من ديسمبر ١٨٩٤م٠ واقترب منه الخديوى واتفقا على ضرورة مواجهة الاحتلال حتى شرع فى كفاحه السياسى العلنى ، وكان يومئذ فى سن العشرين .

ففي عدد جريدة المؤيد الصادر في يوم ٧ يناير من عام ١٨٩٥م نشر أول عمـل صحفي سياسي على نطاق واسع كان العمل يدور حول تعهدات الإنجليز بالجلاء عـن مصر وحول أحقية مصر في المطالبة بالوفاء بها .. وهو الموضوع الأثير لقلب وعقل مصطفى كامل والذي ظل ينادى به طوال حياته ويكتب فيه ويذكّر العالم به دائما أبداً .

قام بكتابته مصطفى كامل وإن لم يحمل اسمه ولكنهم قالوا إن كاتب المقـال احـد أدباء مصر ونجباء شبابها.. وهى الألقاب التي اعتادت الصحيفة أن تخلعهـا علـى مصطفى في هذه الفترة .

فقرر الخديوي الاستعانة بجهود مصطفى كامل واستغلال شـعبيته وسـمعته فـي الخارج فاتفق معه على إيفاده إلى أوروبا وخاصة فرنسا لإيمان الخديوي بأن فرنسا سوف تساعده في استقلال مصر من الاحتلال البريطاني وجلائه عن مصر .. وكـان هذا أيضا يقين مصطفى كامل في الاستعانة بفرنسا .

والزعيم مصطفى كامل كان يضع في اعتباره هدفا واحدا وهو الجلاء وعدواً واحداً هو الاحتلال البريطاني .. فقد وافق على اقتراح الخديوي بإيفاده إلى أوروبا . ورحل إلى باريس وبدأ نشاطه الفعلي في الدعوة إلى الجلاء والاستقلال .

وازداد اقتراب الخديوي عباس من مصطفى كامل بتأليف " جمعية الحزب الـوطني السرية " برئاسة الخديوي عباس حلمي الثاني .

وكان الهدف من تأليف اللجنة السرية الاتصال بالوطنيين المصريين فـي مصـر وأوروبا وخاصة في فرنسا ، لآمالهم الكبيرة في مساعدة فرنسا لهـم فـي تحقيـق الاستقلال وجلاء الإنجليز .. فالتقى مصطفى كامل وأحمد لطفي السـيد وعـدد مـن الوطنيين بمنزل محمد فريد .

تم في هذا الاجتماع الإعلان عن اللجنة السرية بعدها سافر أحمد لطفي السيد إلى أوروبا والتقى ببعض المصريين هناك ، ودارت حوارات عميقـة وسـاخنة.. وعنـد عودته كتب تقريراً عن رحلته خلص فيه أن مصر لا يمكن تحريرها إلا بجهود أبنائها وأن المصلحة الوطنية تقتضى بأن يترأس الخديوي عباس حلمـي الثـاني الحركـة السرية لأنه كان يُعادى الإنجليز المحتلين لمنافستهم له في حكم البلاد و كان بطبيعته وبحكم مصالحه يلجأ في مقاومته إلى التقرب السافر من الحركة الوطنية حتـى لقـد استند مصطفى كامل في أول ظهوره على مؤازرة الخديوي له ، وكان مصطفى كامل يقصد بها تجنب أخطاء الزعماء العرابيين في التفرقة بين الأمة والخـديوي الأمـر الذي حاول مصطفى كامل أن يتلافاه بهدف بعث الحركة الوطنية .

وإن كان البعض قد رأى أن في ذلك أزمة خطيرة قد صاحبت الحزب الـوطني منـذ بداياته الأولى وقد كان فعلاً وحدثت الأزمة .

الأزمة مع الخديوي:

والمعروف أن النشاط السياسي للحزب الوطني بدأ تحت ولاية ورئاسة الخديوي ورعايته وهذه العلاقة تأثرت بالضرورة بعوامل الشد والجذب في علاقة الخديوي بالإنجليز.

وبالتبعية انعكست على علاقة الخديوي عباس حلمي الثاني بالحزب الوطني ، والتي انتقلت من الرعاية والصداقة أحيانا إلى قطع الصلة بالحزب الوطني وقياداته البارزة وخاصة عندما يفشل الخديوي في ترويض قادته وزعيمه والتي أدت في بعض الأحيان إلى مطاردتهم وإغلاق صحفهم وانقلبت في أحيان أخرى إلى تعليق أنشطتهم واتهاماتهم بمحاولة الاغتيال .

لكل هذه الأسباب اتخذ أعضاء الحزب الوطني الحيطة بإطلاق اسم مستعار لكل منهم حتى الخديوي الذين أطلقوا عليه الاسم المستعار " الشيخ " أما الاسم المستعار لمصطفى كامل أطلقوا عليه " أبو الفدا " .

وكان دور مصطفى كامل مهما ، فقد كان لسان حال الجمعية السرية ، وسافر إلى بعض الدول الأوروبية وغير الأوروبية للدعاية لقضية الجلاء المصرية واستقلال مصر عن الاحتلال الانجليزى .

غير أن مصطفى كامل قد أدرك بما لا يدع مجالا لشك ، من خلال جولاته المتعددة والمتنوعة وحواراته الطويلة العميقة الممتدة والمتعددة قد أدرك حقيقة مهمة .. وهى أن الأسلوب الدعائي للقضية المصرية في أوروبا بهدف استقلال مصر وخروج الإنجليز لا يكفى الجلاء وأن العبء الأكبر يجب أن يقع على عاتق المصريين .

ومن ناحية اخرى ، وفى المقابل أدرك الخديوي عباس حلمي الثاني أن مناصرته العلنية للحركة الوطنية ضد الاحتلال الانجليزى ، كانت نتيجتها تقليص نفوذه وزيادة سلطة ونفوذ المعتمد البريطاني في مصر (اللورد كرومر) .

ولهذا.. اتخذ موقفا مختلفا حيث بدأ فتح قنوات للتقارب مع الإنجليز !! على حساب الحركة الوطنية ، ولهذا فقد استدعى الخديوي عباس الثاني ، الزعيم مصطفى

كامل للحضور من أوروبا إلى مصر .. حتى تتوقف حملاته الدعائية في أوروبا ضد الإنجليز !

وكان رد الفعل الطبيعي لهذا الاستدعاء ، أن يرفض الزعيم مصطفى كامل الحضور ، ويرفض الاستدعاء من الخديوي ..

وبالتبعية .. بدأت العلاقات بينهما تأخذ طابعا مغايرا ، وتصبغها التوترات ويحكمها عدم الاستقرار .. وهذا هو الدرس الذي لم يعه مصطفى كامل منذ البداية ..فلم يدرك أن المواقف مختلفة بينه وبين الخديوي والمصالح متغايرة بينهما .

لقد آمن مصطفى كامل " أن حياة الأمة ومستقبله مرتبطان بمقدار قوة الروح الوطنية في الشعب " ومؤكدا " أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها " .

وصل مصطفى كامل إلى هذه النتيجة بعدما سار الخديوي عباس الثاني على سياسة الوفاق الظاهري مع الإنجليز ، والمقاومة السرية ضدهم .

وحتى هذه السياسة لم تستمر طويلا ليأس الخديوي من أي تأييد يأتيه من أوروبا وخاصة من فرنسا التي شكلت سياستها مع مصر بما يتواءم مع مصالحها وتجلى ذلك في الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤ ميلادية الموافق ١٣٢٢ هجرية كان هذا الاتفاق ضربة شديدة للحركة الوطنية، فقد كان مصطفى كامل يعلق الأمل على معونة فرنسا متأثرا في ذلك تأثرا مثاليا صرفا بما أنبتته الثورة الفرنسية من شعارات الحرية والإخاء والمساواة في عقول المثقفين الفرنسيين ووجدان المفكرين والذين عاصروه ، ولكن ما أن تم الاتفاق الودي حتى ارتد إلى الجوهر الذي كان لابد أن يقيم عليه دعوته من الأصل ..

وقف مصطفى كامل والتيار الذي يمثله وحيدا في مسلكه ، فإن الخديوي قرر الانصياع التام " لكرومر " وتوجيهات " كرومر " حماية لعرشه الذي زلزله الاتفاق الفرنسي البريطاني ، وسار في نفس الاتجاه تابعا للخديوي الشيخ على يوسف وجريدة " المؤيد " !

واستمراراً لتصاعد غضب مصطفى كامل نشر في جريدة " اللواء " خطابا موجها من مصطفى كامل باشا إلى الخديوي عباس حلمي الثاني في الخامس والعشرين من

أكتوبر عام ١٩٠٤ ، يقطع فيه صلته بالخديوي نهائياً . فقد كان الاتفاق الودي ضربة شديدة للحركة الوطنية التي بدأت تبتعد عن الخديوي ، بعد أن كانت تتخذ منه أداة لعمودها وقوتها .

حسم مصطفى كامل أمره وكتب رسالة إلى الخديوي في أكتوبر ١٩٠٤ ميلادية الموافق شعبان ١٣٢٢ هجرية قال فيها : " رفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى بأن أكون بعيدا عن فخامتكم وأن أتحمل وحدي مسئولية الخطة التي اتبعها نحو الاحتلال والمحتلين " .

ولم ينس مصطفى كامل أو يتجاهل أن يسجل للخديوي وهو يقطع صلته به أنه كان رائدا للوطنية المصرية في مستهل حكمه .

وهنا يسجل مصطفى كامل موقفا شجاعا يشهد له بالإيمان المطلق لقضيته لا يحكم علاقاته إلا هذا الإيمان بصرف النظر عن مركز الإنسان المتفق معه أو المختلف .

وأنه لا موقف فذ يشهد لمصطفى كامل بالإيمان والشجاعة التي لا حد لها . فهاهو يقطع صلته بآخر سند له في مصر ، وهو حاكمها الشرعي فيجمع مصطفى كامل بين عدائه للإنجليز وعدائه للقصر ، في الوقت الذي تخلت فيه فرنسا عن تأييد الحركة الوطنية المصرية .

فكتب مصطفى كامل مقالا في جريدة اللواء عام ١٩٠٧ ميلادية الموافق ١٣٢٥ هجرية قال فيه : " إن كل مصري صادق ، لا يقبل أن يكون حكم مصر بين سمو الخديوي بمفرده أو بيد المعتمد البريطاني ، أو الاثنين معا " .

كان مصطفى كامل مدركا أنه ليس للاحتلال وضع قانوني بوصفه رجل قانون يعرف ذلك .. ويؤمن أن مصر ولاية عثمانية تتمتع باستقلال داخلي ، وتخضع لحكم أسرة محمد على باشا ، وأكد على ذلك في دعواه ، ودعاياته ، ومقالاته ، وخطبه في الداخل والخارج. وكان رد الفعل ايجابيا لهذه المواقف ، عندما أعلنت بريطانيا – مضطرة أمام هذا الطوفان من الهجوم في كل الوسائل ، وبكل اللغات – أن وضعها في مصر مؤقت ، وسوف ينتهي بإعادة النظام ، وتثبيت سلطة خديوي مصر .

حدث هذا رغم أن مصطفى كامل كان يقف وحيدا في وجه الاحتلال ، والفساد ، لا يسانده إلا إيمانه بالله ، وقراء جريدته .

روح المقاومة:

أفاق المصـــــريون ، وبدأ اليأس يتلاشى من نفوس المـــواطنين ، مـــع نمـــو روح المقاومة ، حيث ظهرت جريدة " العروة الوثقى " التي أصدرها الشيخ جمـــال الـــدين الأفغاني والإمام محمد عبده ، كما تشكلت جمعية سرية من المـــواطنين المتحمســـين للقضية ، عرفت باسم (جمعية الانتقام) .

وظهرت من جديد شخصية عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، الذي أشعل بخطبه ومقالاته الوطنية الحماسة في النفوس .

وظهر أيضا شخصية لطيف باشا سليم أحد ضباط الجيش العرابى ، والذي كان أيضـــا من رجالات الحزب الوطني ، وهو أحد الذين بثوا الوعي الوطني في نفوس الكثير من المثقفين وأكد مصطفى كامل مطالبه بحتمية الاستقلال .. وضـــرورة خـــروج جـــيش الاحتلال بعد ما مهد له الطريق زعماء وطنيون .

لم يكتف مصطفى كامل بدعوته للاستقلال في الجمهور المصـــري فـــي القطـــر المصري .. فقد كان كثير الأسفار إلى أوروبا سواء فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا وإلى تركيا أيضاً ..

ومن كثرة أسفاره ، عانى الكثير من الأزمات الصحية والشدائد ،وهو ما كان لـــه أكبر الأثر في ضعف قواه، وتردى صحته .

كرس الزعيم مصطفى كامل حياته بعد ذلك للدعوة للحركة الوطنية ، ولمقاومـــة الاحتلال البريطاني بأكثر من وسيلة..كإلقاء الخطب وكتابة المقالات وتنظيم المؤتمرات والندوات الحاشدة والحوارات والاجتماعات .

حزب الجريدة :

كان دائما يفكر في أكثر الأساليب جدوى لنشر دعوته . ففكر في دور الإعلام فـــي تحريك الرأي العام الداخلي والخارجي، الوطني والعالمي .

وأيقن مصطفى كامل أن القضية الوطنية سوف تتجمد إذا لم يتم الترويج لها في مصر وأوروبا وكل أنحاء العالم .

لهذا أسس الزعيم مصطفى كامل جريدة " اللواء " اليومية عام ١٩٠٠ ميلادية الموافق ١٣١٨ هجرية هذا على المستوى الوطني أما على المستوى العالمي فقد أسس جريدة اللواء الإنجليزية " ذي اجبشان ستاندر " كما أسس جريدة اللواء الفرنسية " ليتندار اجبسيان " لنشر دعوته في أوروبا ونشر دعوته عن حقوق مصر في العالم الغربي وكذلك للأوروبيين الناطقين بالفرنسية والإنجليزية المقيمين في مصر .

وفكر في أن يكون له سند شعبي في مصر ففكر في نفس العام في أن يجعل " الحزب الوطني " حزبا تقليديا منظما له أسس تنظيمية وفكرية وسياسية له قوام إداري . فكتب دعوته لتأسيس الحزب الوطني في جريدة " اللواء " في عدد ٢ يوليو ١٩٠٠ ميلادية في مقال بعنوان " حزب وطني حر في مصر " أعرب فيه عن أمنيته في تأسيس هذا الحزب ، وقد ختم مقاله بقوله : " هل يسمح لي الزمان أن أرى في مصر هذا الحزب الوطني الحر الشريف " الذي يقام على المبادىء التي تدعو للجلاء واستقلال مصر ونشر التعليم . وأن يقوم بذلك الأعضاء المؤمنين بمبادئه القادرين على النهوض بالأمة إلى مراتب النجاح والفلاح ، وتحقيق الأمنيات الوطنية .

واستدرك مصطفى كامل في نفس المقال مكملا قوله.. " إني أعرف أن اليائسين سيقولون أن تأسيس حزب كهذا أمر محال ، ولكن إذا كنت لا أيأس من خلاص بلادي ، فمن المحال عليَّ أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل ، رافعا شعار " لا معنى لليأس مع الحياة ، ولا معنى للحياة مع اليأس " .

وأكد في مقاله وجود هذا الحزب في الواقع المصري منذ زمن بعيد فقال : " إن الحزب الوطني المصري الذي جعل أول مراميه ، وأسمى غاياته استقلال مصر ، ورد حقوقها عليها ، موجود فيها فعلا منذ ثلاثة عشر عاماً مضت ، فهو وإن لم يظهر بشكل نظامي وبلائحة ومجلس إدارة ولجان نوعية، فقد ظهر في الواقع السياسي المصري بأعمال وطنية مهمة اتفق أعضاؤه عليها لخدمة البلاد بكل قوة ، وقاوم هذا

الحزب الاحتلال في أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين وشهدوا لها كما شهد عليها الأوروبيون ، ولقد ارتبط الحزب بروابط وثيقة مع عـدد كبيـر مـن ساسـة أوروبا .

وكان الزعيم مصطفى يعتبر أن هذا الحزب موجود منذ أن بدأ نشاطه الوطني.. ولم يكن هناك حزب منظم له رئيس .. وله أعضاء ومجلس إدارة .

وفى عام ١٩٠٥ ميلادية الموافق ١٣٢٣ هجرية اشتد بالزعيم مصـطفى كامـل المرض ولم يمض عام على هذا التاريخ حتى وقعت حادثة دنشواى الشهيرة التي أعدم فيها الإنجليز عددا من الفلاحين المصريين من أبناء دنشواى أما أعين ذويهـم بعد محاكمة صورية برئاسة بطرس غالى باشا رئيس الوزراء في ذلك الوقت .

حادثة دنشواى :

كانت حادثة دنشواى التي وقعت في ١٣ يونيو ١٩٠٦ عندما قـدم خمسـة مـن الضباط الإنجليز إلى دنشواى من عمال المنوفية لصيد الحمام ، فأصيب برصاصـهم بعض الأهالي ، ومن ثم هوجم الضباط ، فأصيب بضعهم ، ومات أحدهم من ضـربة الشمس ، فثار المعتمد البريطاني " اللورد كرومر" وعقدت محكمة خاصـة لمحاكمـة المصريين ، والتي قضت بإعدام أربعة من الأهالي، وجلد وحبس ثمانية منهم . ونفذ الإعدام والجلد أمام ذويهم في دنشواى علنا وهنا نجح مصطفى كامل في إثارة الرأي العام العالمي ضد الإنجليز بسبب بشاعة ما ارتكبوه في حق الأهالي العُزل .

أججت الحادثة مشاعر الوطنية والإحساس بالظلم في نفوس المصريين، والإيمـان بضرورة الجلاء .

كان قبل ذلك الوقت قد تأسس نادى المدارس العليا سـنة ١٩٠٦ ميلاديـة حيـث اجتمع صفوة الشباب المصري من المتعلمين والمثقفين. والمتشبعين بدعوة وتعاليم مصطفى كامل .

وبعد تأسيس النادي كانت حادثة دنشواى فحمل مصطفى كامـل علـى الاحـتلال وسياسته البشعة، أشد الحملات مما أجبر اللورد كرومر على الرحيل من مصر .. لأن

صوت مصطفى كامل ملأ الأماكن وسد آذان المستعمر في الداخل والخارج فكان لابد من السيطرة النسبية على ما حدث.. فتم إقصاء كرومر عن مصر .

في الرابع من يونيو ، كان مصطفى كامل قد سافر إلى فرنسا ، وجَّه نداء إلى البرلمان الفرنسي ، على شكل صورة رمزية ، صور فيها مصر بشكل فتاة ترسف في الأغلال وقيود الاحتلال، هذه الفتاة تستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها من الاستعمار الانجليزى كما عاونت على تحرير أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا في الحصول على حرياتهن من قبل ونيل استقلالهن . وطبع مصطفى كامل من هذه الصورة عدة آلاف من النسخ .

حمل مصطفى كامل الصورة مع ستة من زملائه المصريين قاصدين سراي مجلس النواب الفرنسي .

ومَرَّ مصطفى كامل على أهم الصحف الفرنسية مودعين نسخ من الصورة والكتاب ، فنوهت الصحف الفرنسية كلها وصحف أوروبا وأمريكا بمقابلة مصطفى كامل برئيس البرلمان الفرنسي وبعض النواب. ونشر بعضها الصورة والكتاب فتحققت بذلك أعظم دعاية للقضية المصرية ، بعد أن كانت انجلترا قد نجحت في إقناع العالم وخاصة أوروبا أن المصريين جميعا راضون بالاحتلال البريطاني ومرحبون بوجوده .

وهنا انقلبت الصورة، وأصبح العالم كله مقتنع بحق مصر في الاستقلال .

قطع مصطفى كامل رحلة علاجه في باريس وسافر إلى لندن، وكتب مجموعة من المقالات الثورية العنيفة ضد الاحتلال الانجليزى في عقر دارهم .

التقى في لندن " بالسير كامبل باترمان " رئيس الوزراء البريطاني الذي عرض على الزعيم مصطفى كامل تشكيل الوزارة المصرية ، كنوع من الترضية بهدف وقف الحملة القومية التي قادها مصطفى كامل ضد الإنجليز.. لشراء سكوته على تلك الفضيحة المدوية التي ارتكبها الضباط الإنجليز ، ضد المواطنين العزل في " دنشواى " والتي استطاع مصطفى كامل أن يدين بها انجلترا ، ويعرى وحشيتها وأن يقنع العالم كله بذلك .

رفض مصطفى كامل هذا العرض الرشوة ، رفضه بقوة وإيمان بحق وطنه في التحرر ، واستمر في حملته ضد الاحتلال الانجليزى لوطنه مصر .

مساعي مصطفى كامل في إنشاء الجامعة الأهلية:

أثناء وجود الزعيم مصطفى كامل في بريطانيا ، دفاعا عن القضية الوطنية المصرية ، والتنديد بوحشية الإنجليز بعد مذبحة (دنشواى) وتصاعد نجاحاته السياسية ضد الإنجليز في بلادهم جاءته الأخبار بأن لجنة وطنية مصرية تأسست للقيام باكتتاب عام لدعوته إلى حفل وطني كبير ، ومنحه هدية قيمة تليق بهذا الجهد العظيم الذي يقدمه من أجل حرية مصر واستقلالها ، وإعلانا عن تقدير المصريين لدوره في خدمة البلاد والدفاع عن القضية الوطنية المصرية .

فلما علم بما تقوم به هذه اللجنة المصرية التي كان يتولى أمر تنظيمها زميل كفاحه (محمد فريد) رجف رافضا الفكرة من أساسها ، لأنه ليس مأجورا للدفاع عن مصر، إنما يقوم بهذا العمل كواجب وطني ، لا يصح أن يكافأ أو يحصل على أجر في مقاله .

ولكنه استغل هذه الحماسة الوطنية المصرية الجماهيرية وقدم اقتراحا عمليا لخدمة مصر والمصريين ، فقال لهم : ، إنه خير من منحى هدية ، فلنقوم جميعا بعمل هو امتداد لنضالنا من أجل مصرنا الخالدة ، وقال : إنه خير من ذلك أن تقوم هذه اللجنة بدعوة الأمة كلها لإقامة جامعة أهلية تنهض ببناء الإنسان المصري، بالمعرفة ، والفكر والثقافة لتنمية الوجدان الوطني المصري .

لم يكتف برفض الهدية واقتراح إقامة الجامعة الأهلية .. بل طالب بطرق باب كل مصري للتبرع كل في حدود ما يستطيع وما يقدر لتأسيس جامعة أهلية تجمع أبناء شعب مصر ، أبناء الفقراء ، وأبناء الأغنياء على السواء ، وان كل قرش يزيد عن حاجة المواطن المصري ولا ينفقه في سبيل دعم التعليم ، فهو قرش ضائع سدى وبلا جدوى، والأمة بلا شك محرومة منه بغير حق .

ولإعطاء الاقتراح جدية التنفيذ ، وبث الروح فيه ، أرسل النداء إلى الشيخ علـــى يوسف صاحب جريدة " المؤيد " برسالة يدعو فيها إلى نشر الدعوة لفتح باب التبرع للمشروع ، وأعلن مبادرته إلى الاكتتاب بالتبرع للمشروع بمبلـــغ خمســمائة جنيـــه لمشروع إنشاء الجامعة ، وكان هذا المبلغ كبير جدا بمقاييس هذا الزمن .

بذلك وضع الزعيم مصطفى كامل أول لبنة حقيقية في بناء الجامعة الأهلية.. بعــد أن كان صاحب أول نداء لإقامتها .

نشرت جريدة " المؤيد " رسالة الزعيم الوطني الكبير باهتمام بالغ فـــي صــفحتها الأولى ، في عددها الصادر في ٣ سبتمبر ١٩٠٦ ميلادية الموافق ١١ مــن شــعبان ١٣٢٤ هجرية .

قابل الجمهور المصري اقتراح الزعيم مصطفى كامل بحماس شديد بعد نشره فـــي جريدة المؤيد، وتوالت خطابات التأييد للمشروع من جانب الأعيان وكبار رجال الدولة والكبراء، وأهل الرأي.. وانهالت التبرعات للبدء فورا في إقامة الجامعة .

كما نشرت قائمة بأسماء المتبرعين وكان في مقدمتهم حسن بك جمجوم أحد كبار الأعيان والذي تبرع بمبلغ ألف جنيه..

أيضا كان في مقدمة المتبرعين سعد زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهليـــة .. وأيضا زميله بمحكمة الاستئناف الأهلية المستشار قاسم أمين ، حيث تبرع كل منهما بمائة جنيه .

وأمام هذا الحماس الوطني الدافق والمتسارع لإقامـــة الجامعـــة المصــرية ، رأت جريدة المؤيد ضرورة تنظيم جميع المتبرعات لأنها لـــم تكـــن منظمـــة ، فاقترحـــت الجريدة على الزعيم مصطفى كامل أن ينظم مشروع الاكتتاب وجميـــع التبرعـــات ، وذلك بتشكيل لجنة من المكتتبين والشخصيات الوطنية ذات الســمعة الطيبـــة لهـــذا الغرض ، تتولى أمره بشكل منظم وتعمل بأسس علمية وعملية في المشــروع حتـــى تصبح الجامعة الأهلية واقعا ملموسا ويشعر المواطنين بالجدية .

تم تشكيل اللجنة ، وأتمت عملها بنجاح باهر وأقيمت الجامعة المصرية ولكن بعد وفاته..ورأسها الملك فؤاد ملك مصر في ذلك الزمان .

الحزب الوطني:

عاد الزعيم مصطفى كامل باشا إلى الوطن في حالة شديدة من الإعياء والمرض في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ ميلادية الموافق ١٦ رمضان عام ١٣٢٥ هجرية.. وكانت عودته إلى مدينة الإسكندرية .

ألقى خطبة طويلة بمسرح " زيزينيا " أطلق عليها خطبة الوداع، استمرت الخطبة حوالي الساعة والنصف ساعة .. وكانت أكبر خطبة سياسية ألقاها في حياته .

جعل مصطفى كامل الخطبة بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام للحزب الوطني، واتخذ الجلاء مبدأ الحزب حتى صار أشهر تعريف للحزب وأصحها جميعا هو " حزب الجلاء " .

وقد اعتزم تنفيذ فكرته بوضع نظام محدد للحزب الوطني ، وفي ذلك يقول مصطفى كامل فيما يتصل بالحزب : " ولما كان لكل عمل وقت ، فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطني نظام تام يجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين أمضوا السنوات وهم يشاركون في العمل بكل أنواع المشاركة وأنني من ساعة وصولي الإسكندرية حتى هذه الساعة ، وكل واحد من الرجال والشخصيات المرموقة يطالبون بإعلان هذا الحزب .

ألقى مصطفى كامل الخطبة في جمع حافل كبير بالمسرح ، وحضر الاجتماع مجموعة من فضلاء القوم ، وذوى المكانة الأدبية ، ومجموعة من الشباب المثقف بلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف مواطن .

ألقيت الخطبة في منتصف الساعة التاسعة مساء ، وعند ظهور الزعيم مصطفى كامل ضجَّت الصالة بالتهليل والتصفيق والهتاف للوطن وخدام الوطن "مصر ، ليحيا خدام الوطن ، ليحيا الوطن " .

دعا الزعيم مصطفى كامل الأمة كلها في خطبته إلى الانضمام للحزب الوطني ، وأنهى خطبته قائلا : " ضموا صفوفكم، واجمعوا أمركم ، واعملوا بجد ، واثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق بالدستور والاستقلال" وقد وصف عبد الرحمن الرافعى

في كتابه عن مصطفى كامل " إن خطبة مصطفى كامل التي ألقاها في مسرح " زيزينيا" بالإسكندرية بمناسبة إعلان قيام تشكيل الحزب الوطني هي أعظم وأقوى خطب الزعيم مصطفى كامل " ...

بل في رأيه " أنها أعظم خطبة في مصر والشرق منذ أقدم العصور .

وترجمت الخطبة أسلوب عمل فتشكلت لجنة مؤقتة للتحضير لاجتماع الجمعية العمومية ، وكانت أهم البرامج التي عرضت على الجمعية هي :-

- منح مصر الحكم الذاتي أو منحها الاستقلال الداخلي طبقا لمعاهدة لندن عام ١٩٤٠م .
- إقامة حكومة دستورية يكون فيها الحكام مسئولين أمام برلمان منتخب .
- احترام المعاهدات والاتفاقيات المالية التي تتعهد فيها الحكومة المصرية بدفع الديون المستحقة .
- نشر التعليم في أنحاء البلاد ، ونشر المبادئ الدينية ، وحث الأغنياء على تأسيس الجامعات ، وإرسال البعثات إلى أوروبا ، وإنشاء مدارس ليلية لتعليم العمال الذين فاتهم قطار التعليم .
- تنمية الزراعة والصناعة والتجارة، وجميع المرافق في حياتنا الاجتماعية ، في سبيل الحصول على الاستقلال الاقتصادي للبلاد .
- تحقيق الوحدة الوطنية بتقارب عنصري الأمة : المسلمين والمسيحيين ن والوحدة المتينة بينهما .
- تحسين الأحوال الصحية لازدياد النسل القوى .
- تقوية روابط التعاون وحسن التفاهم بين المصريين والأجانب المقيمين في وادي النيل .
- تقوية الروابط الودية بين تركيا ومصر وبين مصر والدول الأوروبية من جهة أخرى لاكتسابها إلى جانبها في معاركها الوطنية وخطط التنمية .

وأمام هذا البرنامج الذي يضمن التقدم لمصر .. ويعمل على استقلالها ، انهالت طلبات الانضمام للحزب الوطني من كل جانب .. وبحماس بالغ بشكل لم يكن يتوقعه أحد من المؤسسين أنفسهم .

وعقدت أولى جمعية عمومية للحزب الوطني بمصر ، وكان ذلك في يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ميلادية بدار (اللواء) وكان اجتماعا حافلاً ، تمثلت فيه كل طبقات الأمة وفئاتها ، من أعيان ومزارعين ، ومحامين ، وأطباء ، وتجار ، ومهندسين ، وأرباب أعمال وصناع .

كان عدد الحاضرين في اجتماع الجمعية العمومية ١٠١٩ وكان عدد المعتذرين لأسباب قهرية ٨٤٦ ٠ وافتتح مصطفى كامل الاجتماع بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطني منذ بداية نشاطه الوطني .

وانتهى اجتماع الجمعية العمومية في تمام الساعة السادسة مساء بعد أن اتخذت مجموعة من الإجراءات التنظيمية والإدارية وهى :

- تسمية الجمعية العمومية باسم " المؤتمر الوطني " .
- أن يجتمع المؤتمر الوطني في شهر ديسمبر من كل عام بصفة عادية .
- يمكن دعوة المؤتمر الوطني لجلسة طارئة أو جلسة استثنائية ، أو غير عادية لمناقشة قضية طارئة ومهمة أو حدث جلل لابد من تحديد موقف تجاهه .
- يناقش المؤتمر الوطني كافة المسائل الحيوية الخاصة بالوطن ، بالقطر المصري .
- يتم إنشاء ناد للحزب الوطني ، وفروع له بالأقاليم لتكون بمثابة مقار للأعضاء ، وتكون رابطا بين أعضاء الحزب في كل مصر .
- انتخب الحاضرون في نهاية الاجتماع، وبالإجماع الزعيم مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة.

أعمال مصطفى كامل السياسية والأدبية:

- قام مصطفى كامل بكتابة مسرحية " فتح الأندلس " التي تعتبر أول مسرحية مصرية وبعد عودته إلى مصر سطع نجمه في سماء الصحافة .

- وتعرف على بعض رجال الثقافة والفكر في فرنسا وقد عرف عن فرنسا أنها ندٌّ لإنجلترا ، ولما شنّت عليه الصحافة البريطانية هجوماً عنيفاً ازدادت شهرته وتعاطف كثير من المصريين معه لهذا السبب.
- أعلن مصطفى كامل عن الحزب رسمياً في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ بعد إدخال تعديلات وتغييرات أسفر عنها عمل لائحة وبرنامج للحزب وتشكيل إدارة وقيادة له . وكان مصطفى كامل قد سافر في ١٣ ابريل ١٨٩٥ للدعاية للقضية الوطنية على نفقة الخديوي الذي كان ينسق في حذر مع الفرنسيين ضد انجلترا ، ولما طلب الخديوي من مصطفى كامل أن يعود في نفس السنة وخفض مصاريف البعثة ، رفض مصطفى وطلب من أصدقائه وباسم الوطنية أن يمدوه بالمال للاستمرار في مهمته .
- في عام (١٣١٦هـ = ١٨٩٨م) طبع كتاب سياسي له بعنوان " كتاب المسألة الشرقية" وهو من الكتب الهامة في تاريخ السياسة المصرية .
- وفى عام (١٣١٨هـ=١٩٠٠م) أصدر جريدة اللواء اليومية .
- في عام ١٩٠٧م أسس مصطفى كامل في مصر الحزب الوطني " القديم " .

الفكر الإسلامي لمصطفى كامل:

حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الاحتلال الأجنبي حركة إسلامية قلباً وقالباً ، مصطفى كامل امتداد طبيعي لعمر مكرم – النديم – والحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل هو حزب الجامعة الإسلامية ،يقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه : " المسألة الشرقية " الذي صدر سنة ١٨٩٨م :" إني أضرع إلى الله فاطر السماوات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلوية القوة الأبدية والنصر السرمدى– ليعيش المسلمون والعثمانيون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها وللإسلام إمامه وناصره " ويضيف مصطفى كامل :"اتفق

الكتاب والسياسيين على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العثمانية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا ، وقال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسالة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية: (المسألة الشرقية ص٥) .

ويضيف مصطفى كامل : " إن العناصر التي أشعلت الفتن كالأرمن تستعملها بعض الدول كانجلترا فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية .

وقد ثبت ذلك جليا في المسألة الأرمينية وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويديرون المكائد ضد الحكومة العثمانية فمسألة الدين في الدولة العلية العثمانية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة العثمانية إنما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم وإتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم ، فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمينية إنما ماتوا فريسة للدسائس الإنجليزية ، والذين ماتوا في كريت ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية ، بل الذين ماتوا من اليونانيين ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية ذاتها – المسألة الشرقية ص ٨ ،٩ .

ونادى مصطفى كامل بضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية" فقال: ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلوية ضروري للجنس البشرى ، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق ، وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة والإعلام أن بقاء الدولة العلوية أمر لازم للتوازن العام وأن زوالها لا قدر الله مجلبة للأخطار ومشعلة للنار يمتد لهيبها بالأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية، وأن الذين يدعون لخير

النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلوية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عموماً قبل مسلميه ، فقد أجمع العقلاء البصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين تجرى كالأنهار والبحار في كل واد (المسألة الشرقية ص١٢ ، ١٤).

ويختتم مصطفى كامل الفصل الأول في كتابه (المسألة الشرقية) بالدعوة إلى الالتفاف حول راية الخلافة العثمانية قائلا : " واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انجلترا للدولة العلوية أن يجتمعوا حول راية الخلافة وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكبير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً ، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وبقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية " المسألة الشرقية ص ٢٣٠ .

وفى إطار دعوة مصطفى كامل إلى نشر التعليم لكل الناس في مختلف ربوع مصر، حرص على تأكيد الطابع الديني للتعليم بالعلوم الإسلامية ومكارم الأخلاق في نفس الوقت مع الاهتمام بالعلوم العصرية والطبيعية ، يقول مصطفى كامل : " يجب تأسيس المدارس في كل مكان على أساس من الدين القويم والتربية السليمة " المؤيد عدد ٣١ يوليو سنة ١٨٩٥ .

يقول الرافعى : " إن مصطفى كامل اتجه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية فأصدر صحيفة أسبوعية باسم العالم الإسلامي ، كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء (الرافعي ٠ مصطفى كامل ص ٤٣) .

ويوحد مصطفى كامل الدين والوطنية في صعيد واحد قائلا : " قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية وأن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان " ، خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية في يونيو سنة ١٩٠٠ م .

ويصف مصطفى كامل الحضارة الأوربية بأنها حضارة ظالمة قائلاً : " من سوء حظ الجنس البشرى أن المدنية الحاضرة أعلنت الرق في الشعوب وسمحت بمخالفة الذمة والشرف في المعاملات الدولية . " خطبة مصطفى كامل في القاهرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م .

ويلخص مصطفى كامل أحوال العالم الإسلامي في زمانه قائلاً : " إن هناك أسبابا واحدة لتأخر المسلمين وأن نهضتهم تكون بوسائل واحدة وأن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط ، بل هو قانون اجتماعي أيضاً ، وأن ميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي "

(من مقال مصطفى كامل في صحيفة الطان الفرنسية العدد الصادر بتاريخ٨ ديسمبر سنة ١٩٠١ م)

التناقضات بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية:

لاشك أن قضية التناقضات الجوهرية والتناقضات الثانوية من القضايا الهامة التي مازالت تشغل جزء كبير من الاهتمام الإسلامي والثوري عموما ، ولاشك أن الظروف الدولية التي ظهر في ظلها مصطفى كامل تمثل نموذجا هاما في هذا الإطار .

وبداية فإن مصطفى كامل – مثل غيره من الزعماء الإسلاميين – كان يدرك أن هناك تناقضا جوهريا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، وأن المعسكرين المتميزين هما معسكر الشعوب الإسلامية من ناحية ومعسكر الغرب الاستعماري الصليبي وحلفاؤه من الحكومات العميلة من ناحية أخرى ، وأن التاريخ القديم والحديث يؤكد على حقيقة هذا التناقض الجوهري ، ولكن هناك أيضا تناقضات ثانوية بين قوى المعسكر الاستعماري ذاته وأنه لا مانع من الاستفادة بها بشرط أن نتأكد دائما أنها مجرد تناقضات ثانوية وأنه لن يحسم المعركة مع الاستعمار إلا كفاح

الشعوب ، كان هناك تناقضات ثانوية بين انجلترا وفرنسا في إطار التسابق الاستعماري ، ولكن هذا التناقض الثانوي ما لبث أن تلاشى عند ظهور الثورة الإسلامية العرابية ، بل وقامت فرنسا بمساعدة انجلترا على احتلال مصر مضحية بمصالحها في مصر لأن هذا أفضل من ظهور ثورة إسلامية قوية في مصر تكون خطراً على المشروع الاستعماري بكامله ، أو خطراً على المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا ، وقد عبر عن ذلك وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت في تهنئة للسفير الإنجليزي في باريس بمناسبة احتلال الإنجليز مصر ونجاحهم في القضاء على الثورة العرابية .

على أية حال حاول مصطفى كامل أن يستفيد من التناقض الثانوي بين انجلترا وفرنسا في الدعوة للقضية الوطنية ، ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر وقوتها تلاشت تلك التناقضات الثانوية ، ووقع الإنجليز والفرنسيين الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤م الذي يقضي بإطلاق يد انجلترا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب ، أي أن فرنسا شجعت الحركة الوطنية في مصر لتحسين ظروف التفاوض مع انجلترا في إطار التسابق الاستعماري لا أكثر ولا أقل .

وفى نفس إطار التناقضات الثانوية ، شجَّع الخديوي عباس حلمي الثاني الحركة الوطنية ومصطفى كامل ، وحاول مصطفى كامل الاستفادة من الخديوي ، ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر ، خاف الخديوي عباس حلمي الثاني من خطرها على عرشه فأدار لها ظهره وأظهر الود للإنجليز ، أي أن الخديوي عباس حلمي الثاني أيضاً أراد من دعم الحركة مجرد تحسين أوضاعه أمام الإنجليز لا أكثر ولا أقل والمحافظة على أكبر قدر ممكن من السلطة في مصر من السيطرة الإنجليزية .

وعلى أية حال فخبرة هذه التجربة تؤكد أنه لا فائدة كبيرة من الاعتماد على تلك التناقضات الثانوية ، ولكنها أيضاً لا تمنع من الاستفادة بها بشرط إدراك أنها مجرد تناقضات ثانوية لا تلبث أن تزول مع تصاعد قوة الحركة الوطنية ، وأن الطريق الوحيد لحسم المعارك الوطنية هو الاعتماد على سواعد الجماهير .

ولا شك أن مصطفى كامل كان يدرك ذلك كله ويعمل في إطاره ، لأن الحركة الوطنية المصرية استمرت وتصاعدت بعد الاتفاق بين الإنجليز والفرنسيين ، وبعد أن أدار الخديوي عباس حلمي الثاني ظهره لها ، ولو كانت تعتمد على الفرنسيين أو الخديوي أساسا لانهارت بمجرد تخلي هذه أو ذاك .

وقد عبر مصطفى كامل عن وعيه بهذه المسألة قائلاً : " إن المعتمد على أوربا واقف على هاوية عميقة القرار . " (اللواء عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ م) .

لقاء في العالم الآخر :

بين عرابي وسعد ومصطفى كامل :

(مقال نادر للأستاذ عباس محمود العقاد يدافع فيه عن أحمد عرابي في مقال نشرته مجلة الاثنين ١٩٥٣ كتب الأستاذ عباس محمود العقاد مقال على صفحتين تصور فيه لقاءاً تم في سماء الدنيا بين ثلاثة من زعماء مصر البارزين هم أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول التقوا وتحدثوا عن الأسباب لدخول الاحتلال الإنجليزي إلى مصر كان مصطفى كامل ثائرا وقد اتجه باللوم إلى الزعيم أحمد عرابي فحمّله مسئولية دخول الإنجليز إلى مصر بسبب خطأه في تقدير مسئولية ما يفعل لكن الزعيم سعد زغلول دافع عن أحمد عرابي قائلا :

إن المؤامرة كانت مديرة لاحتلال مصر سواء أخطأ عرابي أم أصاب ، وذلك بسبب أطماع بريطانيا في أراضى الخلافة العثمانية ، وضرب مثلا بالبلقان والبوسنة وغيرها فيما يلي نص المقال المكتوب بالطريقة القصصية التي ربما كانت الأولى والأخيرة التي يستعملها العقاد المفكر والفيلسوف والشاعر والأديب في مقال في مجلة أسبوعية : تلاقى زعماء مصر الثلاثة عند سماء الدنيا في لحظة واحدة كأنهم كانوا على موعد من قبل وانطلقوا معا في سؤال واحد كأنهم ثلاثة أجهزة من أجهزة الإذاعة فتحت في وقت واحد : " ما بالنا جميعاً هنا في هذه اللحظة ؟ لابد من أحداث في مصر جذبت أرواحنا إلى سماء الدنيا .. "

قال شيخهم الكبير أحمد عرابي : " لعله خير " .

قال أصغرهم سناً مصطفى كامل : إن أحداث السر لا تصل إلى هذه السماء فإن لم تكن أحداث مصر اليوم خيراً عاجلا فهي لا محالة خير منتظر عما قريب " .

ولاحظ شيخهم سعد زغلول أن مصطفى يوجه الكلام إلى عرابي وهو لا يوليه وجهه فقال له : " مالك يا مصطفى معرضاً عن شيخنا الكبير ؟

فصاح مصطفى كالمستغرب أو المستنكر : شيخنا الكبير ؟ إني لا أنسى له غلطته الكبرى فلولاه لما كان الاحتلال.

فابتسم عرابي متلطفاً وراح يقول كأنه يحدث نفسه وهل تنسى نفسك يا فتاي قضيتك الكبرى وإنك لولا الاحتلال لما كنت أنت ؟

فضحك سعد ضحكته المعروفة وهتف بكلمته التي تعود أن يهتف بها عند الاستحسان: عفارم شيخنا القديم هذه دفة مليحة من قائد عسكري .

قال عرابي : ولم لا تقول : من طالب أزهري ..

قال سعد : نعم أنك كدت أن تدخل الأزهر وانك نشأت نشأة الطلاب الأزهريين في مقتبل الصبا ولو دخلته لذكرتك بالنشأة الأزهرية ولم أذكرك بالقيادة العسكرية.

ثم التفت إلى مصطفى كامل قائلا : إن شيخنا لم يكن له ذنب في الاحتلال ولو كان الإنجليز صادقين في تعاملهم مع الثورة العرابية لاحتلال مصر لصح أن يلام عليها ولكنهم كانوا يلفقون المعاذير ويختلقون العلل ومن كان يلفق ويختلق ففي وسعه أن ينتحل ما يشاء من الأسباب وأن يتسلل إلينا من كل باب ..

وغلبت سعداً سليقة الفكاهة والحوار فقال لمصطفى كامل : وهل تنسى أنت يا مصطفى أنهم تعللوا بدعوتك بزيادة جنودهم خمسة آلاف جندي في القلعة والعباسية وقصر النيل ؟ .. كلا .. كلا لا حيلة لشيخنا فيما نواه المحتلون و...

" من كان يخلق ما يقول فخيلتى فيه قليلة "

وشيء واحد لا يجوز الشك فيه : إن شيخنا لم يخن وطنه ولكنه رجل خانه الحظ وخانه الصحاب وكانوا يطعنونه من وراء ظهره ويرسلون الأولاد ليقودوا الجيش المعيز في الصحراء فله العذر وعليهم الملام .

فأسرع مصطفى كامل يجيب سعداً في لهجة يغامرها الجد ولا تخلو من المزاح " لا حرج أن تدفع عن الشيخ أيها العرابى القديم ، فهل تدفع عن نفسك أيضاً ما يقال ويعاد ؟

فتطلع إليه سعد طويلا وقال : " أتراني سمعت منك جيداً يا مصطفى ؟ .. أتقول أدفع عن نفسي ؟ أدفع عن نفسي ماذا ؟ وممن أتلقى التهمة التي تدعوني إلى الدفاع ؟

قال مصطفى : لا عليك ولا علينا " فنحن هنا في ساحة الخلود لا يضيرنا ما يقال " ولن ينصب لنا ميزان في هذه الساحة غير ميزان الحساب .. إنهم يأخذون عليك أنك قبلت الوزارة ، ويأخذون عليك أنك فاوضت المحتلين في قضية البلاد .. فأدركه سعد قائلا : مهلا يا صاحبي مهلا .. إن الجريمة التي تستوجب الدفاع هي أن تتخلى عن حكم بلادك لينفرد بحكمها المغيرون عليها ، وأن المفاوضة مساومة في الحق إذا كان الحق كله في يديك ولكنك إذا فاوضت لتأخذ لا لتعطى فلا مساومة ولا تفريط .

وقد تحرم المفاوضة كما يحرم القتال نفسه في ميدان الحرب إذا كانت الخسارة فيها حتما على المفاوضين .

وعاودت سعداً سليقة الحوار والفكاهة مرة أخرى قال : " وهل نسيت يا صاحبي أنك رحبت بدخولي سلك الوزراء ، وكتبت ترجو أن يكون ذلك تغييرا للسياسة الاحتلالية الماضية وإتباعا لسياسة جديدة قاضية لأعضاء المناصب لمستحقيها وتشريف كفاءة الأكفاء ؟ ..

وقبل أن يجيب مصطفى مضى سعد يقول : " وكيف تدفع عن نفسك أنت ما يقال وما يعاد يا أبا درويش ؟

فقال مصطفى محتداً وهو يردد هذا السؤال : " أدفع عن نفسي ؟ أدفع عن نفسي ؟ ماذا أدفع ومن ذا الذي يلجئني إلى الدفاع ؟ "

فذهب سعد يلطف من حدته وجعل يقول : " إنه خطأ وليس بجناية ، وانك لم تسمع هذا منى لأول مرة ، فهو رأى قديم فاتحتك به غير مرة ..

أولا تذكر انك جعلت المبدأ الأول ببرنامجك أن تطلب الاستقلال تحت السيادة العثمانية؟ ألم نناقشك كثيراً في هذا المبدأ الذي قررته وصممت عليه ؟

فانتفض مصطفى كمن أصابته الذكرى في موطن حساس من حماسته ونخوته ، وراح يجيب سعداً سؤالا بسؤال فقال : " وهل لا تذكر أنت أننا كنا نقول لك وأنت تناقشنا في برنامجنا إن السيادة العثمانية هي الحجة الشرعية التي تواجه بها السيطرة الفعلية " ..

قال سعد : " بلى أذكر ذلك وأذكر معه أن نسبة البلاد إلى السيادة العثمانية كانت تعرضها للضياع ولا تحميها من الأطماع " ، وهل جارت فرنسا على بلاد المغرب وطمعت في سوريا ولبنان إلا لأنها مشمولة بالسيادة العثمانية ؟ ، وهل يفت الروس على البلقان وبلاد الجركس إلا لأنها مشمولة بالسيادة العثمانية ؟ ، وهل زحفت النمسا على البشناق، وايطاليا على طرابلس وألمانيا على طريق بغداد إلا لتلك السيادة العثمانية ؟، وهل أذاعوا بين أبناء تلك الأمم فتنة الشقاق إلا لأنهم جعلوها مسألة عصبية مذهبية لا مسألة عقيدة وطنية ؟

لا عليك ولا علينا كما قلت آنفا يا أبا كامل ، فإنما هي دقة بدقة ، وإنما هو انتقاد خاطىء لا انتقاد جناية . وشكراً لك لأنك أعدت البنية صفحة من سجل حياتنا ومجالس حوارنا وجدالنا في العالم الأرضي المهجور . وقد تطيب العودة إليه من حين إلى حين .

فأعرب عرابي ضحكا وتردد بين أن يتكلم أو يكتفي بالإشارة لأنه لم يعلم كيف يكون موقع كلامه في نفس العرابى الناشىء سعد زغلول ، ثم اكتفى بأن قال : " رحم الله جمال الدين " .

فكرر سعد دعوته ، وأحب أن يعرف في أي مقام يطلب رحمته فسأل إعرابياً : " وفيم تطلب الرحمة الإلهية للمصلح الكبير ؟ إنه يستحق الرحمة والنعمة لكثير ..

قال عرابي: " إنه كان يسمعك تجادل وتناضل وأنت دون العشرين فتعجبه منك هذه المعارضة القوية، ويثنى عليك ويشهد لك أنك أذكى من رأى من شباب المصريين ".

فقال سعد : علمت الساعة فيم كان منك الضحك والتردد .. نعم كان رحمة الله يقول هذا ولا يلبث أن يتبعه بدعابة من دعاباته الأبوية.. كان يقوله ثم يقول: ويا شقاء أمة أذكى من فيها أنت " ..فلا أدرى أهو ثناء أم هجاء؟.

وإنهم لكذلك إذ اقبل عليهم جمال الدين كما تقبل الأرواح في السماء كلما ذكرها الذاكرون في الأحياء .
ولمحه مصطفى أول لامح فعرفه، وإن لم يكن قد رآه في عالم الدنيا وتلقاه مرحبا : " يسرني أن أراك يا إمام المشرق ورائد النهضة والإصلاح في الوطنية والعربية".
وتلقاه جمال الدين بمثل ترحيبه وتلقيبه.
ثم قال وهو يخاطب سعداً : " بل ثناء ومعه دعابة من دعابات الآباء للأبناء " .
ثم قال وهو يخاطب أحمد عرابي: إنهم يحصون عليك أخطاءك ولا تحصى عليهم أمثالها لأنهم نهضوا بالدعوة ولم يصطدموا بالعمل ، وسينصفك التاريخ إن لم يكن قد أنصفك إلى الآن، ولقد ثارت كل أمة حية حول البحر الأبيض خلال القرن التاسع عشر فلو لم تكن ثورتك على احتمال جميع العواقب لحسب التاريخ أمة مصر في عداد الأموات " .
وأقبل التاريخ كما أقبلت روح جمال الدين حين سمع اسمه يذكر في عالم الخلود، فبشرهم جميعاً أنه قد أنصفهم وسينصفهم أجمعين ، وقال لهم : إن الذين يحصون عليكم أخطاءكم كمن يروى سيرة رجل مع معلميه ومربيه فيروى عن أحدهم أنه حرمه أطايب الطعام .
ويقول عن آخر : إنه خال بينه وبين موارد العلوم ويقول عن ثالث أنه ألبسه أقصر الثياب فلا يسر عن أحد بالملام قبل أن يعلم متى كان ذلك وكيف كان فقد تكون أطايب الطعام سماً في سن الرضاع وقد تكون العلوم والحكم هراء في سن الصبا ، وقد تكون أقصر الثياب أصلح من الثياب الطوال في ميدان الرياضة والسباق ، وإنكم لكذلك فيما يحسبونه عليكم من الأخطاء ، وإن لم يكن أحد من أبناء الأرض ولا من أرواح السماء معصوما من الأخطاء بغير إحصاء . وكما سبقت ألسنة الزعماء إلى سؤال واحد حين تلاقوا في سماء الدنيا ، أجمعت ألسنتهم على سؤال واحد للتاريخ حين قضى بينهم قضاءه الحكيم فصاحوا به سائلين : " ومصر ما مصيرها ؟ إن صوابنا وخطأنا أهون ما نباليه إذا حسن المصير وصلحت في أمتنا عاقبة الأمور .

قال التاريخ متراجعاً : "عن الأمس يسأل التاريخ وعن الغد يسأل علام الغيوب ، ولكنني أنظر إلى الماضي فلا أجفل من المستقبل ، فلن تضيع أمه يتولاها رجال وأبطال ، على تعاقب العهود والأجيال .

من أقواله المأثورة :

هذه أقوال مصطفى كامل زعيم مصر الوطنى ، أقوال توزن بالذهب ، أقوال تعتبر جواهر القول في الفعل والعمل والوطنية ، أقوال لا نستطيع إلا أن نقف أمامها للتأمل إحتراماً وإجلالاً ، ولنقف أمام مجموعة مختارة من هذه الجوار الثمينة في الوطنية المصرية ، وفي العشق الوطني ، وفي الإخلاص الاجتماعي :ومنها :

- لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .
- أحراراً في أوطاننا، كرماءً مع ضيوفنا .
- الأمل هو دليل الحياة والطريق إلى الحرية .
- لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس .
- إني أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة .
- إن الأمة التي لا تأكل مما تزرع وتلبس مما تصنع أمة محكومة عليها بالتبعية والفناء وأن من يتهاون في حق من حقوق دينه وأمته ولو مرة واحدة يعش أبد الدهر مزلزل العقيدة سقيم الوجدان .
- بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك حبي وجناني فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر.

وفـــاته :

عاش مصطفى كامل ٣ أشهر مريرة من الصراع مع المرض وكان وهو على ســرير المرض قبل وفاته بخمسة أيام قد أرسل برقية احتجاج قوية ضد تصــريحات أطلقهــا السيد ادوارد طبري في مجلس العموم البريطاني اتهم فيها المصريين بعــدم الأهليــة للحكم الذاتي ٠

توفى في العاشر من فبراير عام ١٩٠٨ وهو يبلغ من العمر ٣٤ عاماً ، حيــث كــان مريضاً بمرض صدري ، وفى حياته القصيرة وضع أفكاراً أنتجت مشروعات وطنية ما تزال حية حتى يومنا هذا ...

وقد زاره الخديوي عباس حلمي الثاني وأخذ يهون عليه فطلب من الزعيم أن يرعــى الحزب الوطني لأنه أمل مصر فطمأنه الخديوي ٠

وزاره أمير الشعراء أحمد شوقي فقال له سوف ترثيني يا شوقي ... ؟

ورثاه شوقي بعد وفاته قائلاً:

المشـــــــرقان عليك ينتحبان ... فأصبعهــــما في مأتم والدانى
يتساءلون أبا لســـــلال قضيت ... أم بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أن مـــــوتك بالحجا ... والجد والإقـــــــدام والعرفان
دقات قلبي المـــــرء قائلة له ... أن الحـــــــياة دقائق وثواني
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنســــان عمر ثاني
ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معـــــالم الجثمان
فهششت لي حتى كأنك عائدي ... وأنا الذي هــــــد السقام كياني
وجعلت تسألني الرثاء فكاهة ... من أدمعي وســـــرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لخاطري ... لنظمت فيك يتيـــــمة الأزمان

هكذا كانت الحياة القصيرة في عدد السنين الطويلة جداً في الكفاح الوطني وفي التنوير الوطني والعلمي والسياسي والثقافي والقانوني لرائد كبير من رواد التنوير والحركة الوطنية في مصر الزعيم مصطفى كامل ...

فالحياة بالفعل لا تقاس بعدد سنوات العمر ، وإنما تقاس بالأفعال والإنجازات ، وما أنجزه مصطفى كامل في ٣٤ سنة هي كل عمره لم يستطع مصري واحد أن ينجزه في عمره ولو وصل لمائة سنة ...

رحمه الله رحمة واسعة ، وجعله الله في جنات النعيم ، نظير ما قدمه لبلده ووطنه وشعبه ...

سيد شحم

نائب رئيس تحرير جريدة الجمهورية

أستاذ الجيل

أحمد لطفى السيد

بقلم الكاتب : منصور شاهين

استهلال :

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أيدها وباركها رائد الحركة التنويرية وواحد من أهم مثقفى مصر ، ورجل سياسى قدير من كبار رجال السياسة فى ذلك الوقت هو أحمد لطفي السيد ، ومما يروى أنه عندما ألغت الثورة الملكية وتم إعلان الجمهورية أرسل جمال عبد الناصر إلى فيلسوف الجيل يعرض عليه باسم مجلس قيادة الثورة أن يتولى منصب رئاسة الجمهورية .. لكن الفيلسوف العجوز (٨١ سنة فى ذلك الوقت) قال للبكباشى الشاب (٣٤ سنة) جمال عبد الناصر : " إن الذين أرسوا قواعد النظام الجديد هم أولى الناس بإدارته " .. وأرسل رسالة إلى جمال عبد الناصر يقول فيها: " أنت أوّل مصرى يحكم مصر من أيام قمبيز " ..

كان هذا الفيلسوف فليسوفاً وطنياً من طراز نادر من رجال مصر ..

وعندما توفى فى الخامس من مارس ١٩٦٣ كان قد أكمل عامه الواحد والتسعين ، وخرجت جماهير الشعب الحاشدة فى جنازته الكبيرة ..

أكد أحمد لطفى السيد بفكره وعلمه على أن يسطر حياته ليكون مع الصفوة فى سجلات القرن العشرين وسطور التاريخ عن جدارة واستحقاق ، إنه رائد حركة التنوير أحمد لطفى السيد صاحب العبارة الشهيرة " اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .. ومصر للمصريين ..!

حياته ونشأته :

نشأ أحمد لطفى السيد فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها إلا مصر وطناً ، وتعتز بمصريتها .

ولد فى١٥يناير سنة ١٨٧٢ فى قرية برقين التابعة لمركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية . وهى قرية صغيرة كان عدد سكانها فى ذلك الوقت لا يتعدى مائة فرد وكان يطلق عليها اسم النزلة ، وأهل هذه القرية من الزراع الماهرين ، الذين يشهد لهم بالجد والنشاط والاستقامة .

كان والده " السيد باشا أبو على " عمدة قرية برقين مثل والده على أبو سيد أحمد الذى كان حافظاً للقرآن الكريم كله . ومعروفاً بشخصيته القوية المهيبة ، وقوة شكيمته ، وعدالته فى معاملته ، وعطفه على أهل قريته .

وعندما بلغ أحمد لطفى السيد الرابعة من عمره ، التحق بكتّاب القرية ، وكان لصاحبته " الشيخة فاطمة " الفضل فى تنشئته التنشئة الأولى حيث مكث فى الكتاب ستّ سنوات تعلم فيها القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن كله .

عندما بلغ أحمد لطفى السيد العاشرة من عمره ، أتم حفظ القرآن الكريم ، فكانت مكافأة والده له هى شراء مهرة من بادية الشام ، فكان يركبها ويتنزه بها ...

ويحكى عن هذه المُهرة قصة ظريفة ، فذات يوم امتطى المهرة وذهب إلى العزبة ، وبينما هو سائر بها على طريق السكة الحديد فاجأه القطار ، فوثب من فوقها وتركها وحدها فتركته مسرعة وعادت إلى القرية وحدها ، فذعر أهله وصاحت القرية ، وظن

منهم حتى شاهد أهل القرية السائق يشير إليهم بمنديل أبيض ، فاطمأن قلبهم عليه ، وأخبرهم السائق بما حدث .

أراد والده أن يرسله للدراسة بالأزهر الشريف ، وحدث أن زار إبراهيم باشا أدهم مدير محافظة الدقهلية سابقاً ، والده ورأى أحمد لطفى السيد وحادثه واختبره وأعجب به اعجاباً شديداً وسأل والده عن تعليمه ، فأخبره بأنه يريد أن يلحقه بالأزهر ، إلا أن إبراهيم باشا أشار عليه أن يبعث به إلى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى محافظة الدقهلية ، وكان أمين سامى باشا ناظراً لها ، وكان معروفاً عنه الدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى أى تقصير يبدو من أى تلميذ ومع ذلك كان الجميع يحبه ويحترمه .

التحق أحمد لطفى السيد لنبوغه بالسنة الثانية مباشرة بمدرسة المنصورة الابتدائية القسم الداخلى سنة ١٨٨٢م ، وبدأ فى الاختلاط بزملائه التلاميذ بالمدرسة ، وقد شعر فى البداية بشىء من الخوف والقلق ، لأنهم كانوا يضحكون عليه حينما كان ينطق القاف جاف مثل أهل قريته، كانت روح الجندية هى السائدة فى المدرسة فى ذلك الوقت ، حيث كان التلاميذ يخرجون فى طوابير يوم الجمعة يطوفون شوارع المدينة ، ثم يعودون إلى عنابر إقامتهم بالمدرسة مرة أخرى ، كانت عيشة المدرسة عيشة شظف وخشونة .

كانوا فى وجبة الفطور يقدمون إلى كل تلميذ رغيفاً فقط ، وعليه أن يشترى من جيبه الخاص مايقتات به من جبن أو حلاوة .

وكان العدس أو الفول هو وجبة الغذاء والعشاء ، وفى بعض الأيام من الأسبوع كانوا يقدمون لهم شيئاً من اللحم والفاكهة .

عندما جاء والده لزيارته كعادته يوم الجمعة ، أبدى له لطفى السيد تعبه وضيقه من المدرسة قائلاً : " أنا غير مبسوط وأخشى أن أنسى القرآن الكريم الذى حفظته فيعاقبنى الله على ذلك ، وقد قال تعالى : " وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى " ابتسم والده قائلاً : " أنت تنسى القرآن لماذا "، ونصحه بأن يقرأ كل يوم

جزءاً منه ، وأن يظل فى المدرسة كما هو ، وبالفعل مكث بالمدرسة بعد أن حببه فيها مدرس اللغة العربية "سيد أفندى محمد" الذى كان يشتهر بالقدوة والتفوق فى تعليمه واحتضانه للتلاميذ ، حتى نبغ على يديه لطفى السيد فى اللغة العربية وأتقنها .

أمضى لطفى السيد ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية حتى أتم التعليم الابتدائى فى ١٨٨٥م ، ولم تكن شهادة الابتدائية أو البكالوريا قد وجدتا بعد ، بل كان الانتقال من مرحلة إلى أخرى بالنجاح فى امتحان المدرسة . وكان لمدرسة المنصورة فرقة تجهيزية واحدة ، سافر أحمد لطفى السيد للالتحاق بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ، وعند التحاقه بالمدرسة التى قابل فيها زميله وصديقه عبد العزيز فهمى وأصبحا فى عنبر واحد بالمدرسة ، حيث كانت هناك مناظرة ومناقشة فى النحو بين الطلبة ، واتفق رأى عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد ضد الآخرين ، ومنذ تلك الليلة أصبحا صديقين مقربين من بعضهما البعض ، وفى مدرسة الخديوية عرف لطفى السيد عيشة الترف بالنسبة لعيشته فى مدرسة المنصورة ، حيث الطعام فى الخديوية بيضاً ولحماً وفاكهة وحلوى ، رغم تساوي مصروفاتها مع مصروفات مدرسة المنصورة .

وكانت هناك مدرسة فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز ، وهى مدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف . كان طلبة المهندسخانة يختلفون عن غيرهم من طلاب المدارس بزيهم العسكرى الكامل ، ويحملون إلى جانبهم سيوفاً ، فكانوا يشيعون بمظهرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الآخرين وبخاصة الغرباء . وكان مما يؤثر فى نفس لطفى السيد حوادث الفتوات خاصة عندما كان يشاهد المعارك الدامية بين الفتوات بعضهم البعض .

مكث أحمد لطفى السيد فى أول حضوره إلى القاهرة ثلاثة أشهر لا يخرج فيها من المدرسة الخديوية خوفاً مما يسمعه من زملائه الطلبة عن حوادث الفتوات . كانت المدرسة الخديوية تجرى كل شهر اختباراً لتلاميذها ، فرغب تلاميذ البكالوريا فى أن تعفيهم المدرسة من الاختبار الشهرى لينصرفوا إلى المذاكرة لامتحان نهاية العام ،

وأجتمع رأيهم على أن يتقدموا إلى وزير المعارف على باشا مبارك بطلب لإعفـاءهم من هذا الامتحان ، وتم اختيار لطفى السيد للذهاب لمقابلته ، وكان من عـادة علـى باشا مبارك أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم إليه من الطلبة فى حاجة يريدها ، ولا يجيبه إلا إذا أجابه إجابة صحيحة فيما يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية ، وعندما مَثُلَ أحمد لطفى السيد بين يديه طلب منه أن يقف أمام السـبورة يبرهن له على النظرية الهندسية التى أعطاها له ، فبرهن له عليها ، وسرعلى مبارك بتفوق أحمد لطفى السيد ، وقد كان على مبارك أباً للتلاميذ ، محبـاً لهـم ، عطوفـاً عليهم . وكثيراً ماكان يختلط بالطلبة فى وقت الفراغ ، ويفسح لهم منزله للزيـارة ، حيث كان يسكن فى الحلمية الجديدة بشارع " نور الظلام " ، وكان هذا الأمر مقصوراً على أهل العلم وطلابه. كان لطفى السيد متفوقاً فى العلوم العربيـة والرياضـيات ، ولفت ذلك نظر صابر باشا صبرى وأحمد كمال بك أعضاء اللجنة الشفوية لامتحـان الرياضيات فنصحاه بدراسة الهندسة فى المهندس خانة ، إلا أنـه التحـق بمدرسـة الحقوق بعد أن حصل على شهادة الدراسة الثانوية عام ١٨٨٩ م ، وفى ذلك الوقـت كان الطلبة يدرسون فيها إلى جانب العلوم القانونية ، علوماً أدبية كاللغة العربيـة ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعـروض والقـوافى ، وتفسـير القرآن وآداب البحث والمناظرة والخطابة ، والمنطق ، كانت مدة الدراسة بها خمس سنوات ...وكان من بين أساتذتها وكيلها " عمر لطفى بك " ويدرس للطلبة قـانون العقوبات وأيضا الشيخ حسونه النواوى الذى تولى مشيخة الأزهر بعد ذلك .

انتقل أحمد لطفى السيد إلى سكن جديد فى حارة عمر شاة بالسيدة زينب وهى نفـس الحارة التى كان يسكن بها الشيخ حسونه النواوى ، الذى كان يفتح بيته لكل الطلبة ، ومنهم أحمد لطفى السيد ، وكان كثيراً ما يرسل إليه ليقرأ له درس الفقه الذى كـان يلقيه فى الأزهر ، وفى مدرسة الحقوق عرف لطفى السيد الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل، وكانا مع الشيخ عبد الكريم سليمان فى لجنة امتحان العلوم العربية ، ومما يذكر أنه فى لجنة امتحان السنة الثالثة طلب من الطلاب أن يكتبوا موضوعاً عن

(حق الحكومة فى معاقبة الجانى) فتناول لطفى السيد الموضوع من جميع نواحيه ، فكتب المذاهب الأربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى قانون العقوبات ، متناولاً كل مذهب منها بالنقد . شجع الشيخ محمد عبده أحمد لطفى على إنشاء مجلة التشريع مع المغفور لهم إسماعيل صدقى باشا وإسماعيل الحكيم بك ، وعبد الهادى الجندى بك ، وعبد الخالق ثروت باشا ، ومحمود عبد الغفار وعمل لطفى وهو طالب فى مدرسة الحقوق بالصحافة ، حيث عمل فى جريدة المؤيد ، وكان يقوم بترجمة تلغرافاتها الخارجية .

وكان أحمد لطفى السيد هو أول من نادى بأن تكون مصر للمصريين .. وهو أول من فتح الجامعة لتعليم البنات المصريات، هو صاحب دعوة تعريب التعليم ،على يده تخرج عدد كبير من السياسيين والمفكرين ...

هو إذن تاريخ عظيم لرجل ولد فى القرن التاسع عشر وأثرى بأعماله وإنجازاته القرن العشرين ، تعلم فى كُتاب الشيخة فاطمة ثم ألتحق بمدرسة المنصورة الابتدائية ، ثم مدرسة الخديوية بالقاهرة ،ثم مدرسة الحقوق وحصل منها على الليسانس سنة ١٨٩٤ ، عين كاتباً فى النيابة بالقاهرة ، ثم سكرتيراً للنائب العمومى ، ثم منتدباً للنيابة فى بنى سويف ، كوّن جمعية سرية لمكافحة الاحتلال سنة ١٨٩٦ التقى بمحمد فريد ومصطفى كامل ، أوفده الخديوى عباس حلمى إلى سويسرا ليحصل على الجنسية السويسرية حتى يتسنى له إصدار صحيفة تقاوم الاحتلال لا تملك الحكومة والاحتلال الانجليزى إغلاقها .

وفى سويسرا التقى بالشيخ محمد عبده ، ثم عاد لطفى بعد ذلك إلى نيابة الفيوم فنيابة ميت غمر فنيابة المنيا ، وفى ١٩٠٥ استقال من النيابة ،ثم عمل بالمحاماه ، وفى ١٩٠٧ عمل بالتحرير فى " الجريدة " وبعد ظهور الجريد ببضعة أشهر تألف حزب الأمة أقدم الأحزاب المصرية وأختير لطفى السيد سكرتيراً عاماً له . وفى سنة ١٩١٥ عاد إلى الوظائف الحكومية حيث عُين رئيساً لنيابة بنى سويف ، ثم مديراً لدار الكتب ، ثم وكيلاً للجامعة المصرية القديمة ، وفى سنة ١٩٢٥ عُين مديراً لها

وفى سنة ١٩٢٨ عُين وزيراً للمعارف حتى سنة ١٩٢٩ ، كما أنــه شــغل منصــب الوزير فى ٣ وزارات فى سنة ١٩٤٥ ، وتم انتخابه رئيساً لمجمع اللغة العربية حتى توفى سنة ١٩٦٣ حيث خلفه د. طه حسين.

وكان لطفى السيد أول المشاركين فى الوفد المصرى فى المفاوضات مع انجلترا عــام ١٩١٤ – ١٩١٨ ، اشترك مع سعد زغلول فى تأسيس الوفد المصرى سنة١٩١٩ ، وعندما دب الخلاف بين أعضاء الوفد اعتزل لطفى السيد السياسة، فجــاء اعتزالــه مكسباً للحياة الثقافية والفكرية ، حيث استكمل مشوار حياته فى دار الكتب والجامعــة المصرية ووزارة المعارف ومجمع اللغة العربية .

وتذكر الوثائق أنه فى صيف ١٨٩٢ سافر لطفى السيد إلى استانبول، وكان لا يزال طالباً فى الحقوق، وهناك التقى بإسماعيل صدقى باشا ، وعندما كان الخديو عبــاس حلمى فى زيارة للعاصمة العثمانية، كان لطفى وإسماعيل ، يمثلان الطلبة المصــريين فى الاحتفال به، وذات يوم أثناء تنزه إسماعيل صدقى ولطفى ، أخذ إسماعيل صدقي يتساءل : أين ميزانية الدولة ؟! وينتقد بطء الإصلاح ، فى هذه اللحظة كــان يســير خلفهما جاسوس عثمانى دون أن يشعرا به فأبلغ رؤساءه بما تحدث به صدقى باشا ، ثم مرت الأيام وأثناء ذهاب صدقى باشا ولطفــى الســيد فــى نزهــة أخــرى : تــم استدعاؤهما لمقابلة أمين بك ، الذى كان يعمل سفيراً هنــاك لأن رجالــه أبلغــوه أن مصرياً يتحدث ضد الباب العالى وضد الحكومة ، فما كان مــن الســفير إلا أن أبلــغ إسماعيل صدقى بضرورة انهاء رحلته ، وبالفعل عاد إلى مصر فوراً تاركــاً صــديقه لطفى السيد هناك فى استانبول وحيداً ، حيث قابل جمال الدين الأفغانى وتتلمذ أيضــاً على يديه .

وفى صيف ١٨٩٣ ، أثناء مرور لطفى بأحد مقاهى الاستانة وجد سعد زغلول باشا ، والشيخ على يوسف ، وحفنى بك ناصف ، وقد تأهبّوا لزيارة جمال الــدين الأفغــانى فصحبهم إلى منزله .

فى اليوم التالى طلب لطفى السيد من سعد باشا أن يتوسط له عند جمال الدين الأفغانى ليتتلمذ على يديه ، ووافق الأفغانى فلازمه لطفى طوال فترة إقامته فى استانبول .
بعد أن أتم لطفى السيد على دراسته القانونية ليسانس الحقوق عام ١٨٩٤م تم تعيينه هو وزملاءه كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر . كَون لطفى السيد وأصدقاؤه جمعية مكونة من عبد العزيز فهمى ، وأحمد طلعت رئيس النيابة ومحمد عبد اللطيف وهو دكتور صيدلى بطنطا ، تمثل هدف هذه الجمعية السرية فى مقاومة الاحتلال .
التقى لطفى بمصطفى كامل الذى واجهه قائلا بأن الخديوى عباس يعلم كل شىء عن الجمعية السرية التى أنشأها هو وأصدقاؤه لمحاربة الاحتلال، وطلب منه أن يشترك معهم فى تأسيس حزب وطنى برئاسة الخديوى . ووافق لطفى ، وبعد مقابلة الخديوى عباس ، اجتمع الجميع فى منزل محمد فريد وقاموا بتأسيس الحزب الوطنى كجمعية سرية يرأسها الخديوى ، وأعضاؤها مصطفى كامل ، محمد فريد سعيد الشيمى ، وكان لهم أسماء مستعارة يتم تناولها فيما بينهم .

(أعماله بالسياسة)

وكان الخديوى قد أسقط وزارة مصطفى باشا وعين فخرى باشا رئيساً للوزارة فى محاولة منه لاستخدام سلطته الشرعية دون حاجة إلى معرفة رأى الحكومة الانجليزية إلا أن اللورد كرومر رفض الاعتراف بهذه الوزارة الجديدة التى لم يكن يعرف عنها شيئاً ، وذهب إلى عابدين ليعترض على تعيين فخرى باشا ، مُظهراً للخديوى أن إصراره على رأيه يجعل الأمر خطيراً ، وأعطاه تلغراف من ناظر الخارجية الإنجليزية يؤيد قول اللورد كرومر...
وهنا نعرف أن الخديوى عباس قد أسقط وزارة مصطفى باشا فى يناير ١٨٩٣م ، وعين فخرى باشا رئيساً للوزارة وأراد بذلك أن يحقق سلطته الشرعية . فعل ذلك دون علم اللورد كرومر ، وهنا امتنع كرومر بالاعتراف بالوزارة الجديدة ، قبل أن

يعرف رأى الحكومة الإنجليزية ، وانتهى الأمر بأن عدل الخديوى عن تعيين فخرى باشا رئيساً للوزارة ، وعين رياض باشا رئيساً للوزارة بدلاً منه .

رد لطفى على تقرير اللورد كرومر :

كان على أثر استقالة اللورد كرومر ، أن نشر تقريراً عن أرائه وأفكاره وما قام به من أعمال فى مصر ، وأشار فى تقريره بشكل سلبى للغاية إلى طبيعة المصريين وأخلاقهم وأفكارهم ، كما تناول ميولهم نحو الجامعة الإسلامية التى كانت تجول فى خواطر بعضهم فى ذلك الحين . قام أحمد لطفى السيد فى مايو ١٩٠٧ .

ركز تقرير كرومر على بيان مسألتين هامتين : -

أولها : أن أفكار المصريين عقيمة وغير منتجة إلى حد يصعب منه معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية ، وأقام كرومر على ذلك دليلا ، هو أن أفكارهم بعيدة عن تطبيق قاعدة [أن من يبغ المطلب يبغ الوسيلة] لأن بعضهم يظهر رضاه عن نتائج الاحتلال دون أن يكون راضياً عن الاحتلال نفسه وأن أحدهم طلب قاضياً إنجليزياً للفصل فى قضية . وُجد الاحتلال الإنجليزى فى مصر لإطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوى والمحافظة على مصالح الدول الأوروبية ، ثم تدرجت العلة إلى إصلاح شئون الأمة المصرية وإعدادها لتحكم نفسها بنفسها .

أما وقد رأى المصرى رأى العين أن الاحتلال لم يثبت له بالحسن أن علة وجوده فى مصر هى تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الإحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال فى مصر أن للاحتلال مقصداً خفياً غير ما يقول الساسة الإنجليز .

فهل يكون المصرى غير منتج إذا بنى فكره على الأعمال المشاهدة من خير وشرّ، ومن هذا أعلن لطفي السيد " يرى القارىء أن عدم صحة الفكر المصرى فى الإنتاج لم تأت من طبيعة له ولا من غرض ملازم له ، بل أتت من إمكان الحكم على مقاصد إنجليزية من الاحتلال" .

ثانيها : فيما يتعلق بإنشاء الجامعة الإسلامية :
تجول فكرة الوحدة الإسلامية أحيانا بفكر وخواطر الناس البعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر بشيء من التدقيق فى الأمور العامة ، هذه الفكرة تظهر وتختفى تبعاً للحوادث ، فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر ، أو يبعد ميعاد استقلالها ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات الدول التى استقلت، واستنتجوا من ذلك أن مصر دولة إسلامية وهذا ذنبها ، وأن أوروبا لا تساعد فى الشرق إلا الأمم غير المسلمة ٠ فتمنى بعضهم لو توحد المسلمون ٠

الخروج على الباب العالى :

بعد ظهور صحيفة الجريدة ببضعة أشهر تألف حزب الأمة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ٠ تضمن منهاجه عدة مبادىء على رأسها المطالبة بالاستقلال التام، وحينما أعلن الحزب هذه المبادىء كان الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد من المعترضين على مبدأ الاستقلال التام ، واتهم الحزب بالخروج على الدولة العثمانية صاحبة السيادة الرسمية على مصر فى ذلك الحين ، فرد عليه بأن الحزب يقول الاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل ، وأن هناك فرق بين التمام والكمال يظهر فى قوله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى " فسكت الشيخ على يوسف بهذه الحجة ٠ مع العلم بأن الاستقلال الكامل أشمل من الاستقلال التام ٠
وقد تم اختيار محمود سليمان باشا رئيساً لهذا الحزب ، وحسن عبد الرازق باشا، وعلى شعراوى باشا وكيلين له وتم اختيار أحمد لطفى السيد سكرتيراً عاماً، ورددت بعض الصحف أن الاستقلال التام للحزب ماهو إلا زريعة للتشنيع والخروج على الباب العالى " أى سب الخديو والخروج عن الولاء له " لأن الباب العالى فى ذلك الوقت كان صاحب السيادة على مصر ، وقدم هنا محمود باشا وحسن عبد الرازق باشا إلى رئيس الحكومة مشروعاً بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات ٠ فقدمت الحكومة مشروعاً أقل هو الذى تم تنفيذه ٠

إنتخاب لطفى السيد لمجلس المديرية :

فى عام ١٩٠٨ رشح لطفى السيد نفسه فى انتخابات مجلس مديرية الدقهلية ، ولم ينجح ، ثم أعاد ترشيح نفسه مرة أخرى فى الانتخابات التالية سنة ١٩١١ ونجح فيها إلا أنه تم الطعن بأن لطفى السيد ليس مقيما فى برقين بالدقهلية بلدته وألغت محكمة الزقازيق نتيجة الانتخابات • وكان يقال فى ذلك الوقت أن الخديوى كان أكثر ميلاً لخروج لطفى السيد من الانتخابات لذلك وافق على الطعن بعدم إقامته فى قرية برقين بالدقهلية • يقول لطفى السيد : " فى ذات يوم خاطبنى بالتليفون عبد الله وهبى باشا ودعانى إلى الشاى معه فى منزله فذهبت ، وعندما وصلت إلى منزله وجدت عنده جاد بك مصطفى الطاعن فى انتخابى ، فتحادثنا سوياً فى شئون الانتخاب ، فقال – رحمه الله – إن صداقتى لأبيك ، وتقديرى لك يجعلانى أتنازل عن الطعن بشرط أن تأتى أنت ووالدك وشكرى باشا المدير للغذاء عندى فى قريتى " صدفة " يوم الجمعة المقبل " •

قانون المطبوعات :

فى عام ١٩٠٩ أرادت الحكومة بعث قانون المطبوعات الذى كان قد صدر إبان الثورة العرابية، وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأى ، فتم شن حملة ضارية ضد هذا القانون فى الصحافة ، وفشلت هذه الحملة ، وفى صيف هذا العام سافر لطفى السيد إلى أوروبا للعلاج ومقابلة وزير الخارجية البريطانى من أجل إلغاء قانون المطبوعات الجائر ، ولكن لم يفلح لطفى السيد فى مقابلته وفشلت الرحلة.

مد امتياز قناة السويس :

فى نفس السنة ١٩٠٩ أرادت شركة قناة السويس أن تمد امتيازها أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة إلى الحكومة المصرية ...

وكان المستشار المالى الإنجليزى يميل إلى هذه الفكرة وكذلك بطرس باشا غالى... فتحدث لطفى السيد فى ذلك الوقت مع حسين رشدى، وسعد زغلول باشا وقرر أن يذهب الى المستشار المالى الإنجليزى ، وقدَّمَ اعتراضاً على هذه الفكرة، طالباً من المستشار الإنجليزى عرض هذا الاعتراض على الجمعية العمومية التى كانت هيئة نيابية فى ذلك الوقت ، إلا أنه لم تتم الموافقة على طلبه ، ولم ييأس لطفى السيد فذهب إلى منزل رئيس الوزراء فى الفجالة وقابله وطلب منه عرض مسألة مد الامتياز على الجمعية العمومية فرفض رئيس الوزراء وأجابه قائلاً : " أما تنزل من السحاب لنكون معاً على الأرض؟! وخرج لطفى حزيناً من منزل رئيس الوزراء .

ومر الوقت ومرت الأيام وتم استدعاء لطفى إلى مبنى وزارة الخارجية ليجرى حديثاً مع وزير الخارجية فى ذلك الوقت ، وكان ذلك هو الحديث الصحفى الوحيد الذى أجراه لطفى السيد مع وزير ورئيس وزراء طوال مدة اشتغاله بالصحافة. وعندما دخل لطفى السيد على بطرس باشا وجد عنده فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية فبادر بطرس باشا بالحديث إلى لطفى قائلاً : "هأنذا أجيب طلبكم وأحيل الأمر إلى الجمعية العمومية تقضى فيه بما تشاء".

كانت " الجريدة " هى أول من نشر هذا الخبر ، وقد عرض الموضوع على الجمعية العمومية، فقررت رفضه. بعد ذلك فى سنة ١٩١٠، وأثناء تواجد لطفى السيد فى منزل على شعراوى باشا، ومعه فتحى زغلول باشا، وإبراهيم الهلباوى بك ، دخل بطرس باشا غالى عليهم بدون موعد مسبق مع صاحب المنزل، لأنه كان صديقاً لشعراوى باشا، عندما وجد الجميع مجتمعين نظر إليهم بدهشة قائلاً : " علام تتآمرون أيها الأوغاد ؟ " قال ذلك مازحاً ...

فرد عليه الهلباوى قائلاً : " نحن نتآمر على الحكومة ، لأننا نريد إثارة البلاد طلباً للدستور "

فسأله شعراوى باشاً قائلاً : " من أين جئت يابطرس باشا ؟ "

أجاب بطرس باشا "كنت أتنزه فى الجزيرة ماشياً "

وعندما دُهش شعراوى باشا ولامه على سيره بدون حراسة ، رد بطرس باشا غـالى قائلاً " معك الحق ، لأنى تلقيت منذ أيام مكتوبا يهددنى فيه كاتبوه بالقتل ..!"

وبالفعل قتل بطرس باشا بعد هذا الحديث بأيام ..!

لم يكن الخديوى عباس حلمى راضياً عن " الجريدة " وطلب حلها سنة ١٩١٠، كـان من الأمير حسين كامل رئيس مجلس الشورى وقت ذاك ، إلا أن استدعى محمود باشا سليمان ، وعلى شعراوى باشا ولطفى السيد وطالبهم بعدم رفع دعوى على الخديوى الذى حل الجريدة ، فرد لطفى السيد قائلاً : " ياأفندينا إن الخديوى هو الـذى رفـع دعوى لحل شركة الجريدة " وما كاد لطفى ينهى حديثه حتى دخل بطرس باشا غـالى رئيس الحكومة وطلب حل هذه المشكلة بهدوء ودون إثارة مشاكل ، مع العلـم بـأن صحيفة الجريدة كانت تقدم خدمة وطنية وتقوم برسالة ثقافية للشباب المتعلم ٠

أصدقاء لطفى السيد ٠

جمعت لطفى السيد صداقات بكثير من المواطنين منهم على سبيل المثال حسن عاصم باشا ، الذى عمل مع لطفى السيد فى النيابة العمومية وكان فى ذلـك الوقـت يعمـل بالمحاماه ثم عمل رئيساً للديوان الخديوى ، وكان ثابت المبادىء ، وشديد التمسـك بنهج الاستقامة ٠ كان عاصم باشا أسمر اللون ، قصير القامـة ، جـذاب الطلعـة ، جهورى الصوت يميل ملبسه دائما إلى السواد على طراز واحد، وكان وقراً فى ملبسه وفى مجلسه وقد اشتغل عاصم باشا رئيساً لنيابة الإسكندرية ثم نيابة طنطا ثم محاميا عاماً ٠

كما كان عاصم باشا صديقاً لمصطفى كامل باشا ــ وكلنا يعلم من هو مصطفى كامـل باشا ــ الذى كان شعاره الوطنية وقد تمثل ذلك فى يوم وفاته فى المظاهرة التى لـم تعرف لها فى ذلك الزمان مثيلاً٠ لأن مصطفى كامل مثالاً للوطنيـة والشـجاعة فـى مقاومته للاحتلال والمطالبة باستقلال البلاد ٠

وصديقاً لقاسم أمين الذى كان باحثاً فى المسائل الاجتماعية ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة وكتب كتاباً عن حرية المرأة وآخر عن المرأة الجديدة.

رحلاته إلى الخارج :

فى رحلة إلى فرنسا :

قال لطفىعن ليون : " إن ليون مهد الجد والعمل ، موطن الحرير وكثير من أصناف المصنوعات الفرنسية ، وأن أهم ما لفت نظرى فى هذه المدينة هذه المرة أن هذه المدينة تتخللها حدائق كثيرة فى معظم ميادينها.. بعضها صغير .. وإن كان وارف الظل ، نافعاً ليكون ملعباً للأطفال وبعضها كبيراً جداً كالروضة الكبرى ولم أر على باب كل حديقة بواباً يطالبنى بدفع الرسوم مثل ما كان يقف بواب حديقة الأزبكية يطالب الغنى والفقير والصغير والكبير بدفع رسوم الدخول .

ذهاب لطفى السيد إلى المدينة المنورة :

فى سنة ١٩١١ وقبل الحرب التركية الإيطالية فى ليبيا سافر لطفى السيد إلى المدينة المنورة ويقول لطفى السيد هنا : " وإن نسيت لم أنس وقفتى فى مكتبى لوداع ولدى إذ وقف كلاهما على كرسى ليستطيعا عناقى من غير كلفة " .

ومازال يقول لطفى السيد : " لا أريد الحديث عن زيارتى للمدينة المنورة ، ولا أريد أن أخوض فى وصف الحرم النبوى والحجرة الشريفة ، ولا أنقل حرفاً من العادات فأقول وأنقل ما شعرت به نفسى فى مقام الرسول عليه الصلاة والسلام فأقول : متى خرج المسافر من " تبوك " مستقبلاً الحجاز ، موجهاً وجهه إلى المدينة ، موطن الهجرة ، ومهبط الوحى ، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، تنفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها إلى طبيعة الأرض التى يمر فيها من تبوك إلى مدائن صالح ، إلى المدينة المنورة سهول قليلة محدبة ، وجبال كثيرة ، مختلف ألوانها ، لا ترى عليها شجراً قائماً ، ولا نباتات ، ولا طائراً ، ولا شيئاً إلا الفضاء والسكون نجد فيها جبالاً

حمراء وسمراء وزرقاء ضارية إلى الخضرة كلها موحشة لا يؤنسها إلا محطة السكة الحديد على مسافات متباعدة ٠

إن تجردت عن جمال الطبيعة المعروف لدينا ، والمصطلح عليه بيننا كجنان دمشق ، أو مزارع سهل البقاع فى لبنان ، بقى لها من الطبيعة جلالهـا ، ولا شـك فـى أن الجمال قد يكون له فى النفس ما يفضل أثر الجمال٠تعطيك هـذه الطبيعـة الجـرداء المهيبة أكبر الصعوبات التى لاقاها النبى محمد صلى الله عليه وسلم عند القيام بمهام الرسالة فإذا وصلت إلى مدخل المدينة ، تكتنفها الجبال ، ولاحظت على الشـمال دار عثمان بن عفان ، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة تحت جبل أحد ، على مقربة من المكان الذى لقى فيه مصرعه ونال الشهادة ، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المقامة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث يقول الزائر : " رأينا النـور من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء إلى السماء ٠ لم نزد لك النـور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نوراً لا يحتاج فى انبعاثه إلى هواء يحرك ذراته وينقلها ، إنه نور الهدى ٠

دخلنا الحرم لأول مرة من باب السلام فى زحام الزائرين من مختلف الأجناس ومختلف اللغات يتحدثون ، دخلنا الفناء الرحب ، فما هى إلا نظرة ، إلى مانحن فيه ، والقلـب يمتلىء هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل الجبين عرقاً من الوقوف أمام مقام من لا يطاوله فى مجده مطاول ، ولا يضارعه فى مقامه من بنـى البشر فكلهم لديه سواء ٠ فالذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ومـاأنزل عليـه يرونه بحق سيد الخلق على الإطلاق " ٠

لطفى وسعد والخديوى :

فى سنة ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه حسين رشدى باشـا الذى ذهب إليه لطفى السيد طالباً منه تبديل العلم العثمـانى بعلـم مصـرى يرفعـه المصريون على سفنهم وبواخرهم ومصالحهم الحكومية ، رد عليه حسين رشدى باشا

بأن هذا سابق لأوانه ، كما طالب لطفى رشدى باشا بما يفكر فيه من أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأن يتم تنصيب الخديوى ملكاً عليها مع ضرورة إبلاغ كل من الخديوى والمعتمد البريطانى – اللورد كتشنر فى ذلك الوقت بذلك بعد يومين قام رشدى باشا باستدعاء أحمد لطفى السيد ، وأبلغه بأن الخديوى مسرور بفكرته ، وبأن اللورد كتشنر قد رفضها . ذهب لطفى السيد بنفسه إلى اللورد كتشنر يحدثه فى ذلك الأمر ولكن اللورد كتشنر رد على لطفى السيد قائلا : " لقد بسطنا يدنا لتركيا ، فبصقت عليها وولت وجهها اتجاه دولة ألمانيا ، ولو أنها قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيراً تجاه مصر وتجاه تركيا .. ومع هذا فإنى لا أجد الوقت مناسب لقبول فكرتك هذه فى ذلك الوقت " .

رجع لطفى السيد مرة ثانية إلى رشدى باشا ملحاً فرد عليه قائلاً : " بأن الخديوى يرى أن يؤلف وفداً من عدلى باشا ، سعد باشا ولطفى السيد للذهاب إلى لندن للسعى إلى تحقيق الاستقلال ، والتحدث مع الحكومة الإنجليزية والرأى العام الإنجليزى . وتم الاجتماع فى بيت سعد باشا زغلول لمناقشة الفكرة ، وأخذ لطفى السيد فى إنشاء حملة تحت عنوان " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " . امتدت هذه الأحداث أسابيع ، فى أثنائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والأعيان بجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى الحرب ، وكانوا يشترون الأسلحة ويرسلونها للجيش التركى فى طرابلس .

فى أوائل ١٩١٤ طلب محمد سعيد باشا من لطفى أن يطلب مقابلة الخديوى للحديث مرة أخرى عن الاستقلال ، فكانت إجابة لطفى السيد : " إذا كان الخديوى يريد أن يتفضل بلقائى فليدعنى هو إلى ذلك " .

وفى إحدى الاجتماعات التشريعية قال الخديوى عباس لوالد أحمد لطفى السيد :
" أحب أن أرى معك لطفى بسراى القبة يوم السبت " .

استجاب والد لطفى لدعوة الخديوى عباس وسُرّ بها ، وطلب من ولده أن يصحبه إلى سراى القبة ، وبالفعل ذهب لطفى السيد مع والده ، فأحسن الخديوى استقبالهم ،

وقال للطفى : " أنا مسرور لحضورك ، والأستاذ جرين كلمنى عنك كثيراً ... والأستاذ جرين هو المحامى الذى قدم مذكرة ضد الخاصة الخديوية فى قضية شركة الجريدة من قبل ، ثم تكلم الخديوى عباس عن وزارة محمد سعيد باشا ، وكان يريد تغييرها ، وسأل لطفى عن رأيه فى الرجال الذين يصلحون للوزارة الجديدة ، فذكر له أسماء عديدة منها : سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى وعدلى ، وثروت ، ثم خرج الخديوى معهم وودعهم على باب السراى قائلا للطفى : " كده إنت عرفت الطريق تعال بعد كدة كل يوم سبت...

وهنا رد لطفى : " لا مولاى ماشأن الكاتب والاتصال بالباب العالى والسلطات... ! "٠

فرد الخديوى قائلا : " إذن أنت لا تريد أن تأتى إلى السراى مرة أخرى !! "

وابتسم لطفى السيد قائلاً : " الواجب يامولاى أن أجىء كلما دعيت .. " وهنا نادى الخديوى سكرتيره الخاص وأمره بأن يوجه الدعوة إلى لطفى السيد كل يوم جمعة ليحضر يوم السبت من كل أسبوع .. وكذلك كان التنفيذ ٠

رغب الخديوى عباس أن يقوم بزيارة إلى مديريات الوجه البحرى ٠ فدعا عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الملكى لطفى السيد قائلاً له : إن سمو الخديوى يحب فى سفره إلى مديريات الوجه البحرى أن يزور والدك فى السنبلاوين ، فاذهب لتستقبله أنت هناك " ٠

وبالفعل قام الخديوى بزيارة الوجه البحرى وزيارة السنبلاوين وتم استقباله هناك من قبل العمد والأعيان ، وسر والد أحمد لطفى السيد بهذه الزيارة ، وقال لطفى : " لقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الأعلى الذى يأتلف مع مشرق الإنسان فى هذا الزمان ، وصرنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية ، أو يعطل استعمال الحرية المدنية ، فى غير الحدود المتفق عليها ، وأصبحنا كذلك نرى أن الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة تشرف الأمة وهى حكومة الدستور " ٠

لهذا نهضنا نحن نهضة مباركة ، وكان الهدف الأساسى هو ذلك التجمع الذى يتكون من خمسة أصدقاء هم : سعد زغلول باشا ، عبد العزيز فهمى ، على فهمى ، على شعراوى ، محمد محمود ، لطفى السيد ، الجميع يفكر فى كيفية الاستفادة من المبادىء الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .. فى ذلك الوقت .. تلك المبادىء الحرة التى تنص فى جملتها على أن كل أمة مهما صغرت لها الحق فى اختيار مصيرها ، وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض إرادتها وحريتها .

وفى نوفمبر ١٩١٨ بدأ تأليف الوفد المصرى واستقال أحمد لطفى السيد من دار الكتب المصرية التى كان يعمل بها ، وأخذ الجميع يعمل على ماجاء فى مذكرات عبد العزيز فهمى باشا ، التى تعد صفحات هامة للثورة الوطنية فى مصر لا غنى لقارىء تاريخ مصر عن الاطلاع عليها وقراءتها .

جرت حوادث كثيرة أثناء تأليف الوفد المصرى المسافر إلى لندن وهنا يقول لطفى السيد : " بعد أن نفى سعد زغلول ، محمد محمود ، إسماعيل صدقى ، حمد الباسل ، قامت البلاد فى ثورة عارمة فى أوائل ١٩١٩ ، وكانت هذه الثورة من الخطر بحيث لم نكن نتوقعها ، حتى لقد قامت فى مديرية المنيا (محافظة المنيا) جمهورية برئاسة محمود بك عبد الرازق الذى كان يعمل طبيباً ، وقطعت السكك الحديدية بينها وبين القاهرة ، وكذلك تم قيام جمهوريات فى الوجه البحرى مثلا قامت فى مديرية الغربية جمهورية زفتى برياسة أحمد يوسف الجندى .

وقيل أن الوفديين هم سبب قيام هذه الثورات ، مع العلم بأن الوفديين لم يكونوا سبباً فى قيام هذه الجمهوريات التى قامت فى تلك المديريات ، وأن الوفد برىء منها وأن تبعتها تقع على السلطة العسكرية التى نفت أربعة من رجال الوفد المصرى بلا ذنب أتوا للمطالبة بحرية بلادهم ، ثم قوبلت المظاهرات بالسلاح وإطلاق النار على المتظاهرين وقتل الكثير فى تلك المظاهرات ، فغضب الأهالى لقتل أبنائهم ، وقاموا بهذه الحركة وإعلان الجمهوريات فى تلك المديريات المختلفة ، وتم تقديم النصح إلى

حسين رشدى باشا أو عدلى باشا يكن للقيام بتأليف وزارة تعمل على ترضية الأمة حتى تخمد الثورة وتهدأ البلاد " .

التقى أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى برجال السلطة العسكرية للبحث عن حل ، وتم إبلاغهما بأن الإنجليز سيقومون بحملة لتفتيش بيوت أعضاء الوفد الباقين ، وأنه سيتم القبض عليهم ، ومصادرة أملاكهم وقتلهم بالرصاص .

وبعد العلم بهذا الخبر المشين عاد عبد العزيز فهمى إلى منزله بمصر الجديدة وذهب لطفى السيد إلى منزله بالمطرية وأحرقا كل أوراقه السياسية كلها ، ومن بينها يوميات الوفد التى لم تخل صحيفة من كتابة موضوعات عنها . وبعد حرق الأوراق جلس لطفى فى مكتبه ينتظر التفتيش والقبض عليه ... إلا أن ذلك لم يحدث ، وفى هذه الفترة تم تعيين المارشال اللنبى معتمداً بريطانياً وأمر بوقف الثورة القائمة ، وعودة السكينة والسلام إلى البلاد . وأرسل إليه الوفد تقريراً شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها إلى تصرف السلطة العسكرية العنيف ، ونصح بتنصيب واحد من هؤلاء ، رشدى باشا ، أو عدلى باشا ، أو ثروت باشا رئيساً للحكومة ، والإفراج عن الأربعة الذين تم نفيهم وأن تعيش البلاد فترة الهدوء المطلوبة .

على أثر هذا التقرير ووصوله إلى اللنبى : تم استدعاء لطفى السيد وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ، للمناقشة والوصول إلى حلول سريعة ، وتم تأليف الوزارة برئاسة حسين رشدى باشا ، وبالفعل صدر الأمر بالإفراج عن المنفيين وتمت الموافقة على السفر إلى لندن على باخرة عسكرية إنجليزية ، وذهب الجميع إلى مالطة ، وتجمعوا هناك ، مع سعد باشا ومحمد محمود وصدقى باشا ، حمد الباسل ، حتى إذا ماوصل الجميع إلى مرسيليا ، حتى جاءهم تلغراف يفيد بموافقة مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة على إعلان الحماية البريطانية على مصر ، فكانت صدمة الوفد المصرى قوية فى هذا الذى نادى بحرية الشعوب ، وأعلن مبادئه التى قوبلت فى العالم كله بالغبطة والإعجاب ، وبخاصة عند الشعوب الضعيفة المهضومة .

ذهب الجميع إلى باريس من أجل مؤتمر السلام الذى أغلق أبوابه أمام الوفد المصرى ، وقوبل أعضاء الوفد بصورة سيئة ووقع الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن على رئاسة المفاوضات ، وانتقل الأمر إلى خصومه ، واعتزل لطفى السيد هنا السياسة ، وعرض عليه الرجوع لرئاسة دار الكتب المصرية ، وبالفعل استلم العمل فى دار الكتب المصرية مرة أخرى ، وترجم لطفى السيد مؤلفات أرسطو .

يقول لطفى السيد فى مذكراته : " ذكرت أن الملك فؤاد قال لى إن الحكومة عازمة على إنشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا ، وعلى هذا الوعد عقد مجلس إدارة الجامعة فى ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ اجتماعاً لتسليم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف العمومية ، وكتبنا بذلك عقداً وقَع عليه أحمد ذكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة .

وتم التنازل عن الجامعة المصرية لوزارة المعارف المصرية بمقتضى وثيقة تنازل فى ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ م .

فى ٧ فبراير ١٩٢٨ احتفلت الجامعة بوضع حجر الأساس لمبانيها الحالية بحضور جلاله الملك فؤاد الأول . وكان هذا اليوم هو يوم مشهود فى تاريخ مصر فقد أقيم الاحتفال الكبير فى المكان الجديد بالجيزة مكانها الحالى ودعى إليه علية القوم من الأمراء ورجال الدين ، وبعد أن وصل الملك فؤاد ، وقف وزير المعارف العمومية فى ذلك الحين على باشا وألقى خطبة حياً فيها الحاضرين ودعا جلالة الملك لوضع حجر الأساس بيده ، وألقى لطفى السيد كلمة كمدير للجامعة سجل فيها المراحل التى مَرَّ بها التعليم فى مصر وهى ثلاث مراحل : الأولى دور الدعاية ، والثانية دور البدء فى التنفيذ ، والثالثة هو دور الانتهاء ، الأولى بدأت فى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ حيث اجتمع نخبة من أهل العلم فى منزل سعد باشا زغلول واتفقواعلى إنشاء الجامعة وأقبل الناس على التبرع للجامعة ، والثانية دور التمهيد فكانت بمحاضرات الثقافة العامة التى كان يشرف عليها رئيس الجامعه وإرسال البعثات العلمية ، أما دور التمام والانتهاء فكان بنقل الجامعة القديمة إلى الجامعة الجديدة ، وقد بلغ عدد الطلبة فى

سنة ١٩٢٨ " ٢٣٤١" طالباً ، وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك إلى أن وصل ما وصل إليه الآن فى القرن الحادى والعشرين .

كيف دخل لطفى السيد الوزارة ؟ :

عندما أسند الملك فؤاد الأول إلى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونيو سنة ١٩٢٨ دعا لطفى السيد إلى الانضمام لهذة الوزارة ، إلا أن لطفى فضل العمل كمدير للجامعة بعيداً عن السياسة ومشاكلها، فما كان من محمد محمود باشا إلا أن رد عليه قائلاً: أتتركنى وحدى يا لطفى وأنا أعول عليك أموراً كثيرة ، وعند ذلك وافق لطفى وكان من حسن حظه أن تولى وزارة المعارف وهى الوزارة التى تتفق وميوله الشخصية وتتيح له تقديم خدماته للأمة بصدق وأمانة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، وهذا هو الطريق إلى الحرية والاستقلال ، لأن التعليم هو الأساس الذى يبنى عليه تحقيق الأهداف القومية .

كان لطفى يرى أن العلم ضرورى لتقدمنا بل أنه ضرورة هامة لحياتنا الحاضرة والمستقبلة وأنه السلاح الوحيد للانتصار فى معترك الحياة للفرد، وأنه السبيل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام المدنية الحديثة. كما رأى أن تربية الأخلاق هى أساس قوة الأمم .

وأعلن أنه إذا كان جوستاف لوبون العالم الفرنسى قد قال : " إن الرومانيين فى زمن انحطاطهم كانوا أشد ذكاءً من أجدادهم الأشداء ، لكنهم فقدوا الخواص الأخلاقية كالصبر والعزيمة والثبات والاستعداد لتضحية النفس فى سبيل الغاية والاحتفاظ باحترام القوانين ، " فإن تلك الخواص الأخلاقية هى سر عظمة أبنائنا نحن المصريين الأولين . إن وزارة المعارف فى حين إسنادها إلى لطفى السيد كانت مركزية فقام بالاهتمام بتطبيق اللامركزية ، وقسم العمل فيها .

لم يستمر لطفى السيد كثيراً وزيراً للمعارف لأن وزارة محمد محمود باشا لم تستمر سوى خمسة عشر شهراً عاد بعدها لطفى السيد إلى الجامعة للعمل بين زملائه لأنه

ألف العمل بين الأساتذة والطلبة فى الجامعة ، ورأى أن العمل الجامعى قوامه حريـة العمل والبعد عن التأثيرات الحكومية والبيئات السياسية المختلفة ...
فلقد حرص لطفى منذ توليه منصب مدير الجامعة على أن تكون الجامعة بعيدة عـن التأثيرات ، وأن يكون استقلالها محل الاحترام والقداسة ...
ولكن فى مارس سنة ١٩٣٢ حدث أن قامت وزارة المعارف بنقل الدكتور طه حسين من عمادته لكلية (الأداب) إلى إحدى الوظائف بديوان عام الوزارة دون استشـارة الجامعة، فغضب لطفى السيد من هذا التصرف وذهب إلى رئيس الـوزراء إسـماعيل صدقى باشا، وشرح له الموقف الذى يتنافى مع التقاليد الجامعية وأبلغه أن الجامعة لا يمكنها الأستغناء عن د . طه حسين ، واقترح احتراماً لرأى الوزير حلمى عيسـى باشا أن يرجع الدكتور طه حسين أستاذاً بكلية الآداب ولـيس عميـداً لهـا ، إلا أن اقتراحه قوبل بالرفض ، وهنا قدم لطفى السيد استقالته كمدير للجامعة وهذا هو نص الاستقالة :
هليوبولس فى ٩ مارس سنة ١٩٣٢
" حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية "
سيدى الوزير :
أتشرف بإخبار معاليكم أنى أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف ، لأن هذا الأستاذ لا يستطيع فيما أعلم أن يعوض الآن وعلى الأقل ، لا من جهة الدروس التى يلقيها على الطلبـة وفـى الأدب العربـى ومحاضـراته العامـة للجمهور ، ولا من جهة هذه البيئة التى خلقها حوله وبث فيها روح البحـث الأدبـى وهدى إلى طرائقه ، ثم أسفت لأن الدكتور طه حسين أستاذ فى كلية الآداب تنفيذاً لعقد تم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف وعلى الأخص لأن نقله على هـذه الصـورة بدون موافقة الجامعة ولا باستشارتها كما جرت عليه التقاليد منذ نشأة الجامعة . كل ذلك يذهب بالسكينة والاطمئنان الضروريين لإجراء الأبحاث العلمية ، وهذا بلا شـك أمر غير مألوف قصدت منه خدمة الجامعة .

ومن أجل ذلك ذهبت إلى دولة رئيس الوزراء واستعنته على هذا الحادث الجامعى الخطير واقترحت على دولته تلافياً لضرر من ناحية واحتراماً لقرار الوزير من ناحية أخرى أن يرجع الدكتور طه حسين إلى الجامعة استاذاً لا عميداً ، وخصوصاً أنه كان قد ألح علىَّ من قبل أن يترك العمادة ويظل استاذاً أفضل له ، أرجو أن تقبل دولة الرئيس هذا الاقتراح بقبول حسن . ولكن لم يتم قبول الاقتراح ، ومن حيث أننى لا أستطيع أن أقر الوزارة على هذا التصرف الذى أخشى أن يكون سُنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية .

أتشرف بأن أقدم إلى معاليكم استقالتى من وظيفتى ، أرجو قبولها كما أرجو أن تقبلوا شكرى على ما أبديتم من حسن المجاملة الشخصية مدة اشتراكنا فى العمل وأن تتقبلوا فائق الاحترام .

أحمد لطفى السيد

ولقد قبلت وزارة المعارف استقالة لطفى السيد على الفور ، وظل بعيداً عن الجامعة حتى إبريل سنة ١٩٣٥ حين جاء الهلالى باشا وزيراً للمعارف فى وزارة محمد نسيم باشا الثانية وطلب من لطفى العودة للجامعة مرة أخرى ، وفى ذلك الحين طلب لطفى تعدل قانون الجامعة وليُنص فيه صراحة على عدم نقل أى أستاذ إلا بعد موافقة مجلس الجامعة . وبالفعل وافق نسيم باشا الهلالى وضم إلى الجامعة كلية التجارة وكلية الهندسة وكلية الزراعة وكلية الطب البيطرى ، وظل لطفى السيد مديراً للجامعة حتى سنة ١٩٣٧ ، حيث تم تكليفه وزير دولة مرتين فى وزارة محمد محمود باشا الكبرى ، ثم فى وزارة محمد محمود باشا مرة أخرى بعد أن تم إجراء الانتخابات البرلمانية ، ثم عين وزيراً للداخلية بضعة أشهر ، ثم ظهر أن المصلحة السياسية تقضى بإشراك الهيئة المصرية فى الوزارة فعرض لطفى السيد هذا الأمر على خشبة باشا وخرج من الوزارة وقد زاره الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف ،

الذى طلب منه الرجوع للجامعة ، ولكن لطفى السيد اعتذر له ولكنه ألح عليه فاضطر لطفى السيد للعودة للجامعة بالشروط الآتية :

- أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة لأن ذلك كان يؤدى إلى المشاكل ويؤدى إلى فقدان الإخاء بالجامعة وبين الطلبة وهذا من أسوأ الأسباب التى تضر التربية الجامعية بين الطلبة .

فتم الموافقة على طلبات لطفى السيد ، وبالفعل رجع مديراً للجامعة مرة ثالثة لكن لم يمض قليل حتى علم لطفى السيد بعد أن أخبره أحد الوزراء بأن الطلبة متصلون بوزارة الأحرار الدستوريين فقدم استقالته لمحمد محمود باشا الذى اعتذر إلى لطفى السيد قائلاً : أنه لا يعلم عن ذلك شيئاً وأنه سوف يصدر أمراً مشدداً بعدم اتصال الطلبة بالوزراء لأغراض سياسية ، فبقى فى الجامعة حتى سنة ١٩٤١ حتى عرض عليه حسن سرى باشا أن يكون عضواً فى مجلس الشيوخ فقبل ذلك لأنه أحس بأنه فى حاجة إلى الراحة من العمل فى الجامعة بعد أن قدم لها الكثير وهى جامعة أهلية ، إلى أن أصبحت الجامعة الجديدة طوال زمناً طويلاً ، ثم تولى لطفى السيد بعد ذلك رئاسة مجمع اللغة العربية ، وظل فيه مع رجال أحبوه وأحبهم بين رجال اللغة والعلم والأدب .

إنجازات أحمد لطفى السيد

ومن أهم إنجازاته :

- أنه كان أحد العاملين على إنشاء المجمع اللغوى المصرى ١٩١٦ ، واختير كاتب سره وتولى رئاسته خلفاً لرئيسه الأول الدكتور محمد توفيق رفعت باشا ١٩٤٥ وظل رئيساً له حتى وفاته ، اختاره المجمع العلمى العراقى بعد إنشائه عضواً مراسلاً له .
- اشترك فى العديد من لجان المجمع : لجنة الأدب ، الحضارة ، اللهجات والنصوص القديمة وغيرها .

-اقترح جمع المصطلحات الفنية للعمال فى المصانع والتجــار والفلاحــين وغيــرهم ووضعها فى معجم بعد صياغتها .

-أثناء عمله مديراً لدار الكتب المصرية نقل مترجماً إلى العربية العديد مــن أصــول الفكر الفلسفى اليونانى ، ترجم كتب أرسطو : " علم الطبيعة" و" السياســة " " الكون والفساد " ، " الأخلاق " .

-جُمعت مقالاته فى " صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية " و" المنتخبات " جزئين و " تأملات فى الفسلفة والأدب والسياسة والاجتماع" .

-مقالاته عن الحرية ومنها : معنى الحرية " و " الحرية الشخصــية " ، " الحريــة والأحزاب " ، " الحرية وحقوق الأمة " ، " حرية التعلم ، " حرية القضاء " ، " حريــة الصحافة " .

-عند رئاسته للجامعة ، جمع بين العلم والثقافة والموقف الوطنى :

عام ١٩٢٥ – ١٩٢٨ / ١٩٣٠ – ١٩٣٢ / ١٩٣٥ – ١٩٣٧/ ١٩٣٨ – ١٩٤١

- وأثناء رئاسته للجامعة وافق على قبول الفتيات المصريات كطالبات بالجامعــة ، ففى عام ١٩٢٨ حصلت أول دفعة من الفتيات على شهادة البكالوريا ولجأن إليه رغبة منهن فى الالتحاق بالجامعة ، وتم قبول الطالبات لأول مرة فى الجامعة المصرية عام ١٩٢٩ (ســـــهير القلماوى / أمينة سعيد/ فاطمة سالم / فاطمة فهمى – آداب) ، (نعيمة الايوبى – حقوق) ، وتخرجن عام ١٩٣٢ .

- لم تدخل البنات الكليات العلمية إلا عام ١٩٤٠ فى عهده أيضاً حيث كان دخولهن مقصوراً على كليتى الأداب والحقوق.

- صاحب مواقف مشهودة وحرة ووطنية فى سبيل الحفاظ على اســتقلال الجامعــة وكرامة اساتذتها وطلابها ، وتتضح تلك المواقف من استقالته من منصبه عدة مرات (نقل طه حسين ، اقتحام البوليس للحرم الجامعة/ عنــدما علــم باتصــال الطلبــة بالوزراء لأغراض سياسية) .

تقديراً لخدماته :

- منحته جامعة فؤاد الأول درجة الدكتوراه الفخرية فى الفلسفة (إبريل ١٩٤١) .
- حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (١٩٥٨) .

المراجع :

١ – د. فاطمة بدوى ، رجال صنعوا تاريخ أمة .

٢ – أحمد فتحى زغلول ، حسن باشا عبد الرازق ولطفى السيد .

٣ – عباس العقاد : عرفت لطفى السيد وسعد زغلول ، مقالات بجريدة السيف والناس ١٩٤٦ .

٤ – عبد الخالق سالم ، لطفى السيد وعبد الناصر .

٥ – أحمد لطفى السيد ، مقالات من جريدة الحياة .

الكاتب والمخرج

منصور شاهين

طلعت حرب
رائد التنوير الاقتصادي

بقلم

ليلى عبد الحميد البرجي
كاتبة صحفية

استهلال :

هو بحق أحد بناة الاقتصاد المصري الحديث، وهو أحد أبناء ثورة ١٩١٩ الذين رأوا أن مستقبل الوطن لا ينهض إلا بالحرية و الاستقلال و الاقتصاد الوطني الذي على أكتافه تقوم الأمة القوية القادرة على صياغة قراراها بوحي من مصلحتها الخالصة ومن أبنائها ورخائها .

من هنا كان عمله الدائب من أجل استكمال أركان هذا الاقتصاد بالمصانع والبنوك وشركة الطيران و البواخر و النسيج حتى السينما التى رأى فيها ضمير الأمة وروحها والمعبرة عن أحلامها و أمانيها، ولابد أن تصادفه فى سبيل ذلك عشرات الصعاب والمشاكل من استعمار جاسم على أرض الوطن الذى ولا شك يرى أن الاقتصاد الوطنى هو أول مسمار يدق فى نعشه، لذا كان عليه أن يحارب طلعت حرب ومشروعاته ، كذلك رأى فيه القصر و أعوانه وكبار الملاك والإقطاعيين قطعا لطريق

استغلالهم لثروات الشعب و الـوطن ، إن طلعـت حـرب نموذجـاً للـوطنى الحـر والاقتصادى ..... الذى يرى أن الاقتصاد هو عماد كل شئ وهو البداية و الاسـتمرار وهو فرص العمل و آلة الإنتاج .

لهذا فإن طلعت حرب هو القدوة التى يسجلها هـذا الكتـاب ، و يقـدمها للشـباب ، ولكل أبناء الشعب المصرى ، ليعرف الجميع أن مصر " ولادة " تستطيع دائماً أن تقدم أبناءها ليشقوا الصفوف إلى الأمام ، ليبنون حضارتها و يصنعون مسـتقبلها، وهـو واحد من رجال كبار أنجبتهم مصر فى مختلف نواحى الحياة سواء أكانـت سياسـية وتعليمية وحربية وهندسية وعلمية وطبية وفنية واقتصادية يقف بينهم شامخاً محمد حسن طلعت حرب .

طلعت حرب ... الاقتصاد قبل السياسة:

سجل طلعت حرب اسمه فى تاريخ مصر من أوسع أبوابه بتأسيسه لبنك مصر ، حيث وضع بعبقرية اقتصادية نادرة الاقتصاد المصرى على بداية المسار الصحيح فى وقت كان فيه الأجانب يحتلون مصر بالكامل من أرضها إلى نيلها ، ومن لقمة خبزها إلـى جلابية أبنائها .

نقل الرجل مصر – خلال العشرينيات والثلاثينيات و الأربعينيـات – مـن الاقتصـاد الفردى إلى الاقتصاد الذى تديره شركات مساهمة و إلى المشروعات المثليـة التـى يملكها الوطنيون و يديرونها و يوجهونها وجه الصالح الوطنى المصرى العام ، ومن الورش الصناعية الصغيرة إلى مصانع المحلة الكبرى للغزل و النسيج التـى تشـغل مدينة بكاملها، ومن المشروعات المعزول كل منها عـن الآخـر إلـى المشـروعات المتكاملة أفقياً ورأسياً .

ولد محمد طلعت بن حسن محمد حرب فى (٢٨ من رجب ١٢٨٤ هـ – ٢٥ نوفمبر ١٨٦٧ م) بقصر الشوق فى حى الجمالية بالقاهرة .

يعود أصل أبيه إلى قرية ميت (أبو على) بمحافظة الشرقية شمال شرق القـاهرة، وكان والده من موظفى السكة الحديد ولم يكن على درجة من الثراء أو الغنى ويبـدو أن المصاعب المالية التى واجهها الأب انعكست فيما بعد على آراء الابن الاقتصادية ونوعية المشاريع الاقتصادية التى كان يرى فيها خلاصا لمواطنيه وبلده .

أنهى طلعت حرب تعليمه الثانوى بمدرسة التوفيقية بالقاهرة ، ثم التحق فى (ذى القعدة ١٣٠٢ هـ - أغسطس ١٨٨٥ م) بمدرسة الحقوق و الإدارة التـى أنشـأها الخديوى إسماعيل فى نفس العام الذى ولد فيه طلعت حرب .

تخرج طلعت حرب سنة (١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ م) و اشـتغل مترجمـا بالقسـم القضائى ((بالدائرة السنية)) وهى الجهة التى كانت تدير الأملاك الخديوية يملكهـا ويديرها و يسيطر عليها الأجانب ، وقد كتب مصطفى كامل فى جريدة الأهرام فى (٨ من جمادى الأول ١٣٢٣ هـ - ١٠ يوليو ١٩٠٥ م) يهنئ طلعت حرب بهذا رغم ما بينهما من خلافات فى الرأى .

وفى عام (١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م) قرر طلعت حرب إنشاء شركة مالية سـماها ((شركة التعاون المالى)) كانت تقوم بالأعمال المصرفية الصـغيرة التـى تتناسـب ومقدرتها المالية ، و أهم ما قامت به الشركة هو تقـديمها الكثيـر مـن القـروض لأصحاب الأعمال الصغيرة فى القاهرة عندما كان الإفلاس يتهددها ، وأوكـل طلعـت حرب إلى صديقه د. فؤاد سلطان مهمة إدارتها و تفرغ لما هو أكبر من هذه الشركة ، وهو حملة الدعوة إلى تأسيس شركة مساهمة كبرى لبنك مصر!

كان الأجانب – الذين كانت مصر تمتلئ بهم بعد أن قدموا إليها مع بداية تولى محمـد على حكم مصر – هم وحدهم الذين خاضوا تجربة تأسيس و إنشاء بنوك فى مصـر منذ مجئ محمد على ، وفقاً لنظام الاحتكار السائد و الذى لم يسمح بظهـور ثـروات كبيرة بين المصريين .

والطريف أن محمد على نفسه حين واتته فكرة إنشاء بنك لم يجد أمامه من يطمئن إليه سوى اثنين من ((الخواجات)) اليونانيين وعهد إليهما بإنشاء البنك على أساس مشاركة الحكومة المصرية معهما .

وبعد أن تولى الخديوى إسماعيل حكم مصر أصدر يوم (١٢ من ربيع الآخر ١٢٩٦ هـ - ٤ أبريل ١٨٧٩ م) قرار بتعيين وزيرين أجنبيين فى الحكومة التى يرأسها نوبار باشا ، الأول : فرنسى للأشغال - الثانى : إنجليزى للمالية ! ، وزاد هذا القرار من غليان الناس وتذمرهم، حيث ازدادت الديون و اجتاح الإفلاس الجميع .

وفى يوم (٢٢ من ربيع الآخر ١٢٩٦ هـ - ١٤ ابريل ١٨٧٩ م) جرى اجتماع حضره كبار الأعيان والتجار، و كان الهدف من ذلك الاجتماع هو إيجاد محاولة لتخليص الوطن من سيطرة الأجانب على الأموال المصرية ومن أسر الديون المالية على مصر خلال ٢٨ عاماً ، وفى سبيل ذلك فكروا فى افتتاح بنك وطنى برأسمال قدره ١٤ مليون من الجنيهات تُجمع من سائر أفراد الأمة ،، ومن هذا الاجتماع تولدت فكرة إنشاء ((بنك وطنى)) للمرة الأولى وذلك قبل عامين اثنين من الاحتلال الإنجليزى لمصر .

وسرعان ما تدهورت الأمور فى مصر إلى أن تم خلع الخديوى إسماعيل من عرش مصر ، وحل محله ابنه توفيق فى (٧ من رجب ١٢٩٦هـ - ٢٦ يونيو ١٨٧٩م) و بلغت ديون مصر حوالى مائة مليون جنيه .

ثم وقعت مصر - التى كانت تحت السيادة العثمانية - تحت الاحتلال الإنجليزى بعد هزيمة عرابى (١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م) ومع بوادر الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا فى (٧ من ذى القعدة ١٣٣٢ هـ - ٢٧ سبتمبر ١٩١٤ م) إنهاء السيادة العثمانية على مصر ، ووضعتها تحت الحماية البريطانية

وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى سيطر الأجانب على جميع البنوك فى مصر، كما أن الحكومة المصرية أودعت أموالها لدى البنك الأهلى بفائدة ١,٥ % مع علمها بأن البنك يرسل هذه الأموال إلى الخارج و بلغ الرأسمال الأجنبى فى عام

(١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م) حوالى ٩١ % من مجموعة الأموال التى تستغل فى الشركات المساهمة التى تزاول نشاطها فى مصر .

وفى ظل هذا الحال كان صوت طلعت حرب هو الصوت الاقتصادى الذى رأى أن السبيل لتحرير اقتصاد مصر هو إنشاء بنك مصرى برؤوس أموال مصرية صرفة ، وأخذ يطوف القرى و النجوع داعياً لإنشاء بنك مصر ، و لكنه قوبل بالسخرية والاستهزاء فى أحيان كثيرة إلا أنه لم ييأس .

وبخطوات هادئة وواثقة ظل طلعت حرب يدعو للمشروع ، وحين سمع بذلك المستشار المالى الإنجليزى استدعاه لمقابلته وقال له هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكاً ؟ إنها صناعة الأجانب وحدهم ، بل إنه نصحه بأن يشرك الأجانب فى أى بنك يفكر فى إنشائه حتى يعطى المصريين شعوراً بالثقة فى هذا البنك ! .. لكن طلعت حرب رد عليه بثقة : لقد قررت أن يكون هذا البنك مصريا مائة فى المائة .

يقول طلعت حرب عما ينوى أن يقوم به بنك مصر : إنه سيشجع المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم ، ويساعد على إيجاد الشركات المالية و التجارية و الصناعية و الزراعية وشركات النقل بالبر و البحر وشركات التأمين بأنواعها كما يعمل على أن يكون لمصر صوت مسموع فى شئونها المالية و يدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها .

وكانت أول شركة قام بنك مصر بتأسيسها هى ((مطبعة مصر)) برأسمال قدره ٥ آلاف جنيه وتدرج رأسمالها إلى أن أصبح ٥٠ ألف جنيه ، ثم شركة ((مصر للغزل و النسيج)) فى (صفر ١٣٤٦ هـ - أغسطس ١٩٢٧ م) بالمحلة الكبرى وبدأت برأسمال قدره ٣٠٠ ألف جنيه ، حتى وصل إلى مليون جنيه عام (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) .

وقرر طلعت حرب أن يمد نشاطه خارج العاصمة فبعد إنشاء بنك مصر بعام واحد تم افتتاح فرع بالإسكندرية وفى عام (١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م) كان البنك يفتتح فروعاً له فى أهم الأحياء التجارية بالقاهرة .

كانت إحدى أمانى طلعت حرب هى إنشاء فرع لبنك مصر فى فلسطين وسرعان ما تحولت الأمنية إلى مشروع جاد قابل للتنفيذ ، ولكن لم يتحقق بسبب تهديد اليهود المصريين – ساعتها – بسحب أموالهم المودعة فى بنك مصر حين سمعوا بعزم طلعت حرب إنشاء بنك مصرى فلسطينى فى فلسطين .

وإذا كان طلعت حرب فشل فى إنشاء فرع لبنك مصرى فى فلسطين فإن النجاح حالفه فى الشام ،حيث أنشأ بنك مصر سوريا لبنان الذى افتتح فعلا فى (شعبان ١٣٤٨ هـ - يناير ١٩٣٠ م)

وكان لبنك مصر وجود فى المملكة العربية السعودية ، حيث ساهم فى إقامة فنادق فى مكة وجدة و تمهيد الطرق بين مكة وجدة وإقامة نظام للبرق ، وتوفير سيارات الأجرة لنقل الحجاج براً ... إلا أن أهم ما قام به كان تثبيت سعر الريال السعودى لحماية الحجاج من جشع الصيارفة ، و ذلك بعد أن اتفق طلعت حرب مع الملك عبد العزيز آل سعود على ذلك .

دخل طلعت حرب من خلال الشركات والمصانع التى أخذ يشيدها ويقيمها كل بيت مصرى وبغير منافس أصبح زعيما اقتصاديا و إن ظل حريصا على أن يكون دائما بعيدا عن السياسة و خصوماتها وعن الأحزاب و صراعاتها .

فى الأسابيع القليلة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية بدأت بوادر أزمة فى بنك مصر، حيث تكالب عشرات الألوف من المودعين على سحب أموالهم وودائعهم من البنك ، بل إن الغريب فى الأمر هو مسارعة صندوق توفير البريد الحكومى إلى سحب كافة ودائعه من بنك مصر وحده بالرغم من أن ودائعه فى البنك الأهلى كانت أضعاف أضعاف ما كان موجودا فى بنك مصر ! .

ذهب طلعت حرب لمقابلة وزير المالية المصرى يحثه على إيقاف سحب ودائع صندوق توفير الحكومى لكن الوزير رفض الطلب – بإيعاز من على ماهر الناقم على طلعت حرب بسبب منحه مصطفى النحاس قرضا بعد أن انقصت الحكومة معاشه – وطلب إليه أن يتنحى عن إدارة البنك مقابل إنقاذ البنك من أزمته .

وبالفعل قدم طلعت حرب استقالته التى فوجئ بها الرأى العام المصرى وآثر الإبقـاء على تاريخه عن إدارة البنك الذى أنشأه ورأسه و يؤكد سكرتيره الشخصى أن العبارة الوحيدة التى خرجت من فمه وهو يغالب دموعه كانت : لقد مت ولم أدفن !! .. و نقل بعض المقربين منه قوله عندما ترك بنك مصر : الحمد لله .. فليبـق بنـك مصـر ، وليذهب ألف طلعت حرب .

طلعت حرب الأديب :

بالرغم من شهرته كاقتصادى بارع فإن طلعت حرب كان أديباً بدأ حياته بتأليف الكتب كما اشتغل بالصحافة حينا آخر ، وكانت له آثار صحفية و أدبية بارزة ثم شغلته عن الأدب الاهتمامات الاقتصادية ، وقد ظل أسلوبه متأثرا بحياته الأدبية ، و يظهر ذلـك واضحا فى أسلوب كتابة تقارير بنك مصر وفى أحاديثه ومقالاته ومحاضراته .

وله كتاب (تاريخ دول العرب و الإسلام) صدرت طبعته الأولى عام ١٨٩٧ م وطبعته الثانية عام ١٩٠٥ م وموضوع الكتاب هو تاريخ العرب قبل الإسـلام إلـى عصـر الخلفاء الراشدين، وأشار فى مقدمة الطبعة الأولى إلى ما يراه من أهمية فى كتابـه التاريخ للنهوض بالأمم .

أما كتابه الثانى فقد أصده عام ١٨٩٩ م وهو بعنوان (تربية المرأة والحجاب) كتبه رداً على كتاب (تحرير المرأة) الذى أصدره قاسم أمين فى السنة ذاتها ، و الكتـاب ينتقد رأى قاسم أمين فيما يدعو إليه، حيث دافع طلعت حرب عن الحجاب و أوغل فى الدفاع عنه بادئاً بمأثورات تنسب إلى السيدة فاطمة الزهراء و الإمـام علـى والـى الحسن بن على و تكلم عن التربية ووجوبها .

وله كتاب (فصل الخطاب فى المرأة والحجاب) أصدره عام ١٩٠١ رداً على الكتاب الثانى لقاسم أمين (المرأة الجديدة) وركز فى هذا الكتاب على أقوال الشيخ محمـد عبده عن المرأة ودورها وعلى ردود رشـيد رضا فى مجلة (المنار) على كتـاب قاسم أمين .

ومن الملاحظ أن طلعت حرب الذى دافع عن حجاب المرأة انفـتح فـى مشـروعاته الاقتصادية الوطنية لعمل المرأة بكثـافة نسبية واضحة و ذلك من العشرينات ومـا بعدها .

وقد توفى طلعت حرب يوم (٢ من رجب ١٣٦٠ هـ - ٢١ أغسطس ١٩٤١ م)

طلعت حرب ... كيف يرونه :

تحت عنوان (زعيم الغلابة) يقول : محمد الشافعى

هناك حكمة تؤكد على أن كل من يريد أن يكون مؤثراً أو فاعلاً فعليه أن يسلك أحـد طريقين فإما أن يتغلغل ببطء و إصرار مثل نقاط الماء الصغيرة التـى تنـزل علـى الصخر برتابة و انتظام حتى تكسره ... أما الطريق الثانى فهو الإتيان بعمـل صـادم وكبير لينفجر مثل القنبلة ... وللحق فإن الطريق الأول يمتلك قدرات أكبر على النجاح والاستمرارية ... وربما لذلك اختار الزعيم الوطنى الكبير طلعت حرب أن ينتهج هذا المنهج مما مكن لبصماته و إنجازاته أن تسكن قلوب ووجدانات الغالبية العظمى مـن الشعب، ومما جعل منه نموذجا رائداً وعظيما فى كيفية مواجهة الأعداء عن طريـق بناء الذات و تقوية القدرات الوطنية .

وينتمى محمد طلعت إلى محافظة الشرقية التى تمثل إحدى قلاع الوطنية المصـرية، حيث ولد فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٧ بمنطقة قصر الشوق فى حى الجمالية وفى رحـاب مسجد الحسين، وكان والده موظفا بمصلحة السكك الحديدية الحكومية و ينتمى إلـى عائلة حرب بناحية ميت (أبو على) من قرى منيا القمح بالشرقية كما كانت والدتـه تنتسب إلى عائلة صقر من كفر محمد أحمد التابعة لمنيا القمح أيضا ، وقد حفظ طلعت حرب القرآن فى طفولته، ثم التحق بمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة ، ثم التحـق بمدرسة الحقوق الخديوية فى أغسطس ١٨٨٥ م وحصل على شهادة الحقـوق فـى ١٨٨٩م بما يعنى أنه قد استقبل فى شبابه الباكر ثورة عرابى ضد الخـديوى وضـد الإنجليز الذين احتلوا مصر فى ١٨٨٢ م ، وقد ساعد هذا على تأجيج الحس الوطنى

داخل طلعت حرب مثل كل الشباب المصرى فى ذلك الوقت، وقد بدأ حياتــه العمليــة مترجما بقلم القضايا بالدائرة المدنية ، ثم أصبح رئيسا لإدارة المحاسبات، ثم مــديراً لمكتب المنازعات خلفا للزعيم الوطنى محمد فريد وذلك فى عام ١٨٩١ م ، ثم تدرج فى السلك الوظيفى حتى أصبح مديرا لقلم القضايا، وفى عام ١٩٠٥ م انتقل ليعمــل مديراً لشركة كوم أمبو بمركزها الرئيسى بالقاهرة كما أسندت له فى نفــس الوقــت إدارة الشركة العقارية المصرية التى عمل على تمصيرها حتى أصبحت غالبية أسهمها فى يد المصريين وكانت هذه الشركة بداية ثورة طلعت حرب لتمصير الاقتصاد ليمتلك القدرة على مقاومة الإنجليز وقد اتجه طلعت حرب إلى دراسة العلوم الاقتصادية، كما عكف على النهل من العلوم والآداب فدرس اللغة الفرنسية وأتقنها وتواصل مع كافــة التيارات العلمية و الثقافية وامتزج بالكثير من أقطابها .

وقد كان طلعت حرب متعدد المواهب ولولا إخلاصه وتفرغه لدعم ومســاندة ثورتــه الاقتصادية لأصبح واحداً من كبار المفكرين و الكتاب العرب حيث بدأ حياته بتــأليف الكتب خاصة وهو يمتلك الموهبة والأسلوب الجميل والفكــر القــوى، وقــد اشــتغل بالصحافة وكانت له آثار صحفية و أدبية بارزة كما كانت له معاركه الفكرية الكبيــرة والمؤثرة، حيث خالف اجتهادات قاسم أمين فى قضية تحرير المرأة، حيث كان طلعت حرب محافظا فى أفكاره ويقدس تقاليد الآباء والأجداد مع ميل إلى التجديد و الاقتباس من كل ما يفيد وينفع من مخترعات الأوروبيين و أفكارهم .

فى عام ١٩٠٧ كتب مقالاً على صفحات (الجريدة) قال فيه: (نطلب الاستقلال العام ونطلب أن تكون مصر للمصريين) وهذه أمنية كل مصرى ولكن مــا لنــا لا نعمــل للوصول إليها ؟ وهل يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا زاحم طبيبنا الطبيــب الأوروبــى ومهندسنا المهندس الأوروبى و التاجر منا التاجر الأجنبى و الصــانع منــا الصــانع الأوروبى وماذا يكون حالنا ولا (كبريته) يمكننا صنعها نوقد بهــا نارنــا ولا إبــرة لنخيط بها ملبسنا ولا فابريقة تنسج بها غزلنا ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية فما بالنا عن كل ذلك لا تهون ولا نفكر فيما يجب علينا عمله

تمهيدا لاستقلالنا إن كنا له حقيقة طالبين وفيه راغبين ... و أرى البنـوك ومحـلات التجارة و الشركات ملأى بالأجانب وشبابنا إن لم يستخدموا فى الحكومة لا يبرحـون القهاوى والمحلات العامة و أرى المصري هنا ابعد ما يكون عن تأسـيس شـركات زراعة و صناعية و غيرها وأرى المصري يقترض المال بالربا ولا يرغب فـى تأسيس بنك يفك مضايقته ومضايقة أخيه وقت الحاجة، فالمال هـو (أي) كـل الأعمال فى هذا العصر وتوأم كل ملك) .

وإذا نظرنا إلى ما كتبه طلعت حرب فى مطلع القرن العشرين لوجدنا أنه (مانفيستو) يحدد بدقة شديدة كل الآليات المطلوبة لأحداث ثورة حقيقية تحافظ على هوية الوطن و ثوابت الأمة و نعتقد أننا ما زلنا فى أشد الحاجة لتطبيق(روشتة) طلعت حرب خاصة وأنه كان يتعامل مع السياسة على أنها عمل وإنشاء ويرفض التعامل معها من منطلق أنها مظاهرات و هتاف كما كان يؤمن بأن الاستقلال الاقتصادى هو الأساس الحقيقي للاستقلال السياسي انطلاقا من المثل الشعبي الذي يقول (إذا أردت أن يكون قـرارك من رأسك فلابد و أن يكون رغيفك من فأسك وكان طلعت حرب يؤكد بأن الاسـتقلال يأتى بالأساس عن طريق مداخن المصانع و لـيس أفـواه المـدافع و أن البنـوك و الشركات تحرس حرية مصر أكثر مما تحرسها القلاع الحربية و بالطبع فإنه يقصـد البنوك التى تعمل لصالح غالبية الشعب و ليست البنوك التى يسرقها أصحاب السلطة والسلطان من الساسة ورجال الأعمال .

وقبل أن نبحر فى ثورة طلعت حرب الاقتصادية نتوقف قليلا عنـد إنجـازه الفكـري والأدبي، حيث كان – كما ذكرنا – يقف فى الصف الأول مـن المحـافظين و يتسـم باستقامة عالية وروح قوية و إرادة عنيدة وهمة غلابة و باختصار فقد خلق ليكـون زعيما ، كما كان من الكتاب الواقعيين ومصلحا له رؤية واضـحة تسـتهدف دومـا المصالح العليا للوطن وقد بدأ حياته الفكرية بالكتابة فى الصحف ثم كتب كتابه الأول ((كلمة حق عن الإسلام والدولة العثمانية)) ثم كتاب ((تربية المرأة و الحجـاب)) وذلك رداً على كتاب ((تحرير المرأة)) لقاسم أمين الذي صدر علم ١٨٩٨ م ثم ألف

كتاب ((فصل الخطاب فى المرأة و الحجاب)) رداً على كتاب قاســـم أمين الثاني ((المرأة الجديدة)) وقد أكد طلعت حرب على أن خصومته الفكرية مع قاسم أمين لم تكن على قضية التحرير الأدبي للنساء، و إنما كان تتمركز حول مخاطر هذه الطفـــرة الطارئة التى لا مبرر لها فى حياة نسائنا وما وراء هذه الطفرة من شر قـــد يســـتغله الدخلاء لتحقيق مصالح مادية ومعنوية ، وكان يؤكد على أن ((الحرية التـــى تقتـــل العصمة شر من الحجاب)) وفى عام ١٩١١ م قدم طلعت حـــرب رؤيتـــه الفكريـــة واجتهاداته النظرية عن كيفية إحداث ثورته الثقافية وذلك من خلال كتابـــه ((عـــلاج مصر الاقتصادي و إنشاء بنك للمصريين)) .

وفى عام ١٩١٢م قدم طلعت حرب كتابه ((قناة السويس و ذلك لتفنيد دعاوى إنجلترا و فرنسا لتمديد عقد احتكار القناة لمدة ٤٠ سنة أخرى بعد الـــ ٩٩ سنة التى تنتهي فى عام ١٩٦٨ م وقد نجحت حملة طلعت حرب فى القضـــاء علـــى هـــذا المخطـــط الاستعماري فى مهده .

وقد كان طلعت حرب ميالا – بشكل واع – للفلاحين و الغلابة ويـــدافع عـــنهم فعنـــد تصفية الدائرة السنية سعى إلى بيع الأراضي إلى الفلاحين الذين يزرعونها ونجح فى ذلك، مما يؤكد نزعته الاشتراكية التى لم يسع أبدا إلى قولبتها فـــى قوالـــب ســـابقة التجهيز ولكنها كانت اشتراكية تنبع من الأرض المصرية .

بعد أن أعلن طلعت حرب عن فكرته فى ضرورة إنشاء بنك للمصريين انعقد (المؤتمر الوطني) عام ١٩١١ م للنظر فى مشكلات مصر الاجتماعية وقرر المجتمعون تنفيـــذ فكرة حرب فى إنشاء بنك مصر وقد تعطلت عملية إنشاء البنك بسبب الحرب العالمية الأولى .

وعندما انتهت الحرب دون أن تحصل مصر على استقلالها السياسي انفجـــرت ثـــورة ١٩ بقيادة سعد زغلول و أثناء الثورة دعا طلعت حرب أبناء مصر إلى الكفـــاح ضـــد سيطرة الأجانب الاقتصادية على المقدرات المصرية وتنفيذ فكرة إنشاء بنـــك مصـــر وينجح طلعت حرب فى إنشاء البنك علم ١٩٢٠ م حيث تم الاحتفال بتأسيسه مســـاء

الجمعة ٧ مايو ١٩٢٠ م فى دار الأوبرا السلطانية و ذلك برأس مال ١٨٠ ألف جنيه وتم تحديد قيمة السهم بأربعة جنيهات مصرية وفى نهاية عامه الأول ارتفع رأس مال البنك إلى ١٧٥ ألف جنيه ثم إلى نصف مليون جنيه عام ١٩٢٥ ثم إلى مليون جنيه عام ١٩٣٢ وقد بدأ بنك مصر فى ركن متواضع من أركان شارع الشيخ أبى السباع ، وقد كان طلعت حرب شخصية شديدة الحيوية و الديناميكية ينهض مبكراً ويبدأ العمل فى السادسة صباحا ويصدر التعليمات إلى رجاله وظل يعمل لمدة خمس سنوات لمدة ١٥ ساعة يوميا وبدون مقابل ، وقد استفاد طلعت حرب كثيراً عندما ارتبط فى بداية حياته بعلاقة وثيقة مع عمر باشا سلطان، مما أكسبه الكثير من الخبرات الاقتصادية والإدارية وفى اتصاله بالحركة الوطنية أيام الخديوي عباس حلمي الثاني ، ولذلك فقد كان ينظر إلى المال كخدمة عامة يساعد فى الحفاظ على الثروة الوطنية و تصنيع البلاد وقد أكد ذلك فى خطبة افتتاح بنك مصر، حيث ذهب إلى أنه ليس بنكا تجاريا حيث إن مهمته الأساسية هي إدخال التصنيع إلى مصر و تشجيع التجارة وقبل أن ينشئ بنك مصر أنشأ مع صديقه فؤاد الحجازي محلا للبقالة حتى يشجع المصريين على التجارة ورغم انتقادات المحيطين به إلا أن التجربة نجحت وشجعت الكثيرين على خوض مجال التجارة وقد تنازل بعد ذلك على المحل لبعض المصريين ، وقد كان شعاره الوحيد (من حسب كسب) وقد كتب عنه جاك بيرك (إن ميزته الأولى كانت فى إدراكه للقوة الكامنة و الإمكانات الهائلة التى لم تستغل بعد عند مواطنيه) وهذا كلام صادق تماما حيث دأب الاحتلال الإنجليزي على ترويج أن الشعب المصري لا يعرف إلا الزراعة و أنه لا يجيد الأعمال الاقتصادية أو الصناعية وقد أثبت طلعت حرب فساد وخطأ هذه المقولات حيث ساهم بنك مصر فى تجميع أموال المصريين التى ادخروها خلال الحرب العالمية الأولى والتي كانت حائرة عاطلة بعد ارتفاع أسعار العقارات ، وقد قام بنك مصر برسالته الوطنية فى تنمية الودائع علاوة على أرباحه التى استثمرها فى إنشاء أكثر من عشرين شركة مصرية ومع تأسيس البنك رفض طلعت حرب رئاسة بنك مصر وترك المنصب لأحمد مدحت باشا يكن و اكتفى هو

بمنصب نائب الرئيس والعضو المنتدب وقد استدعى الخبير الألماني (فـون أنـار) لوضع النظم الداخلية للبنك وفى نفس الوقت أرسل بعثات من شباب مصر إلى إنجلترا وسويسرا وألمانيا للتدريب العملي على العمل المصرفي وقد عاد جميـع المصـريين ليعملوا فى بنك مصر ، وسريعا ما انتقل بنك مصر من مقره المتواضع إلـى مقـره الحالي فى شارع محمد فريد وسريعا ما انتشرت فروع البنك لتصل إلـى ٣٧ وحـدة مصرفية فى عام ١٩٣٨ ، وقد اهتم طلعت حرب بالمظهر الخارجي لمنشآت بنك مصر فجعل جميع مباني البنك ذات نمط معماري واحد ، وقد استطاع بنك مصر وشـركاته امتصاص جزء كبير من البطالة، حيث زادت ودائع البنك مقارنة بكل البنوك الأجنبية العاملة فى مصر مما أنهى مقولة الاستعمار والتي كانـت تـردد فـى ذلـك الوقـت (المصري لا يعرف إلا الاستدانة) حيث استطاع بنك مصر تحفيز الادخـار لـدى كـل المصريين حتى الأطفال بعد أن وزع البنك حصالات على تلاميذ المدارس الابتدائية ثم يأخذ ما فيها ويفتح للأطفال دفاتر توفير بالبنك .. كما كان طلعت حرب يراعى دائمـا البعد الأخلاقي فى معاملاته وتعاملاته حيث أصدر قراراً بعدم تمويل بنك مصـر لأيـة مشروعات تسئ إلى الخلق العام ، وكرامة الإنسان .. كما حرص البنك على مساعدة صغار الصناع والحرفيين للصمود أمام سيطرة المنتجات الإنجليزيـة علـى السـوق المصرية ومنافستها وكما شجع البنك قيام شركات المقاولات المصرية ودعمها ماليـا بكسر احتكار الأجانب لهذه المشروعات، حيث كـان الأجانـب يقرضـون الفلاحـين والجمعيات التعاونية بضمان الأرض فإن عجزوا عن السداد يتم الاستيلاء على الأرض المرهونة وقد استطاع طلعت حرب أن يتصدى لهذه السياسة الاستعمارية ليتم الحفاظ على ثروة مصر من الأرض الزراعية ، وقد طلب البنك من الحكومة المصرية إنشاء البنك العقاري المصري ليتولى عمليات الدعم للنشاط الزراعي فى جميع أنحاء مصر .
بعد عامين فقط من إنشاء بنك مصر، قام طلعت حرب بإنشاء أول مطبعـة مصـرية برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه وذلك ليـدعم الفكـر و الأدب ويقـوى المقاومـة الوطنية، حيث كان يؤكد على أهمية أن تكون القراءة فى أيدينا وليس فى يد الأجنبي

... وبعد إنشاء المطبعة توالت الشركات المصرية التى ينشئها البنك مثل شركة مصر للنقل البرى التى قامت بشراء أول حافلات لنقل الركاب والتي ظهرت فى فيلم (الوردة البيضاء) للموسيقار محمد عبد الوهاب ، كما قامت الشركة بشراء الشاحنات الكبيرة لنقل البضائع من الموانئ كما أنشأ البنك شركة مصر للنقل النهري، ثم شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى واستقدم طلعت حرب خبراء هذه الصناعة من بلجيكا وأرسل بعثات العمال والفنيين للتدريب فى الخارج .. كما أقام مصنعا لحلج القطن فى بنى سويف .. و أنشأ البنك مخازن (شون) لجمع القطن فى كل محافظات مصر .

وتواصلت عطاءات طلعت حرب فأنشأ شركات مصر للملاحة البحرية ومصر لأعمال الأسمنت المسلح ومصر للصباغة ومصر للمناجم والمحاجر ومصر لتجارة وتصنيع الزيوت ومصر للمستحضرات الطبية ومصر للألبان والتغذية ومصر للكيماويات ومصر للفنادق ومصر للتأمين ، كما أنشأ طلعت حرب شركة بيع المصنوعات المصرية لتنافس الشركات الأجنبية بنزايون – صيدناوى .. الخ .

وقد سعى طلعت حرب لإنشاء شركة مصر للطيران أول شركة طيران فى الشرق الأوسط برأس مال ٢٠ ألف جنيه وبعد عشرة أشهر زاد رأس المال إلى ٧٥ ألف جنيه وقد بدأت الشركة بطائرتين من طراز (دراجون موت) ذات المحركين تسع كل منها لثمانية ركاب وكان أول خط من القاهرة إلى الإسكندرية ثم مرسى مطروح ، وكان الخط الثاني من القاهرة إلى أسوان وفى عام ١٩٣٤ بدأ أول خط خارجي للشركة من القاهرة إلى القدس .

كان طلعت حرب يؤمن بأن تجديد الاقتصاد فى مصر فى بلد زراعي متخلف لن يتم إلا إذا ازدهرت الثقافة واستنارت

و إيمانا منه بضرورة تدعيم الثقافة والفنون ونشر الوعي قام بتأسيس شركة مصر للتمثيل والسينما (أستوديو مصر) لإنتاج أفلام مصرية لفنانين مصريين مثل أم كلثوم – عبد الوهاب وغيرهما وقد أنتج أستوديو مصر فيلما قصيراً لمدة عشر دقائق للإعلان عن المنتجات المصرية ، كما أنتج نشرة أخبار أسبوعية عن الأحداث في

مصر يتم عرضها في دور العرض قبل بداية أي فيلم وقام أستوديو مصر بإرسال البعثات الفنية من المصريين إلى أوروبا لتعلم فنون التصوير والإخراج و الديكور والمكياج فسافر أحمد بدرخان – موريس كساب (إخراج) – حسن مراد – محمد عبد العظيم (تصوير) – مصطفي والى (صوت) – ولى الدين سامح (ديكور) – نيازى مصطفي (مونتاج) وتم تعيين الفنان أحمد سالم مديراً لأستوديو مصر وقد أكد طلعت حرب على أهمية السينما وخطورة دورها عندما قال (إننا نعمل بقوة اعتقاديه وهى أن السينما صرح عصري للتعليم لا غنى لمصر عن استخدامه في إرشاد سواد الناس).

لم تنتج شركة أستوديو مصر أفلاما في البداية ولكنها أنشأت معامل استعان بها المنتجون الأوائل مثل يوسف وهبى (فيلم زينب عام ١٩٣٠) – آسيا (فيلم وخز الضمير عام ١٩٣١) – عزيزة أمير (فيلم كفرى عن خطيئتك عام ١٩٣٣) .

وقد أنتج أستوديو مصر ما بين عامي ١٩٣٨ – ١٩٥٦ مجموعة من الأفلام بلغت ٥٧ فيلما أولها وداد لأم كلثوم و أهمها (سلامة في خير – لاشين – العزيمة – سى عمر – غرام وانتقام – السوق السوداء – فاطمة – لحن الخلود) و بعد أن أنشأ طلعت حرب مطبعة مصر و أستوديو مصر أنشأ أيضا مسرح الأزبكية (المسرح القومي) الذي ظل لوقت طويل أهم مسارح القاهرة و أرقاها ، ومن خلال هذه الثلاثية (المطبعة – الأستوديو – المسرح) اكتملت سيمفونية الفنون والثقافة التي آمن بها طلعت حرب و التي حقق من خلالها هدفين كبيرين الأول أنه ساهم في تنوير العقل والذوق والوجدان في مصر مما ساعد على خلق مناخ سليم لحركة اقتصادية جديدة، والثاني أنه أدرك القيمة الاقتصادية للثقافة و آمن بأن الثقافة هي صناعة رابحة من الدرجة الأولى ، وقد استطاع طلعت حرب أن يفجر ثورة اقتصادية شاملة من أكثر من عشرين شركة وطنية انبثقت عن بنك مصر الذي كان مولده البداية الحقيقية للرأسمالية الوطنية المصرية التى قادها طلعت حرب ومعه أحمد مدحت يكن باشا – يوسف أصلان قطاوى باشا – عبد العظيم المصري بك – عبد الحميد السيوفي – د. فؤاد سلطان – إسكندر مسيحه – عباس بسيونى الخطيب و كلهم مؤسسو بنك

مصر ، كما ساهمت السيدة هدى شعراوى بشراء ٥٠٠ سهم ، وقد أثبت بنك مصر أن في مصر عقولا اقتصادية كبيرة و أن بها أموالاً كثيرة كانت تحتاج إلى من يوجهها الوجهة الصحيحة كما أثبت خطأ المقولة التي كانت تقول إن مصر بلد زراعي فقط .

وقد غنى سيد درويش لبنك مصر فقال :

المصري أولى بقرش المصري	يفضل في أيده ما يتبعزقشى
هما بمالهم وإحنا بروحنا	دى إيد لوحدها متصقفشى

ولم تتوقف إنجازات طلعت حرب عند حدود مصر ، و لكنها امتدت إلى الدول العربية ليحقق على أرض الواقع فكرة (الوحدة العربية) حيث امتدت أعمال طلعت حرب إلى سوريا – لبنان – السودان – السعودية من خلال إنشاء فروع لبنك مصر وشركاته كما قام برصف الطريق بين جدة ومكة لأول مرة بعد أن كان ترابيا ، وقد كان بيته في حي العباسية صالوناً يجمع كل الشخصيات العربية وكان يدعو إلى تقييم تجربة بنك مصر في كل الدول العربية .

وقد كان طلعت حرب في كل خطواته حريصًا على تأكيد الهوية الوطنية المصرية، حيث دعا الحكومة إلى إنشاء بنك صناعي يتولى مهمة تمويل الصناعات الوطنية بقروض طويلة الأجل.

ووسط هذه النجاحات الكبيرة في عالم الاقتصاد ظل طلعت حرب صاحب المزاج الأدبي الرفيع وصاحب الشخصية الفنية المتميزة كما ظل صاحب قلم خصب متأنق ومتذوق فني رفيع يدافع عن الثقافة الوطنية في كافة المجالات، حيث نجح في أن يجعل اللغة العربية لغة الأعمال المالية .

وكان من الطبيعي أن تثير نجاحات طلعت حرب أحقاد و غضب المستعمر الإنجليزي والحكومات العميلة له فاستغلوا الهزة الاقتصادية العالمية التي حدثت في منتصف عام ١٩٣٩ بعد بداية الحرب العالمية الثانية وتآمروا على بنك مصر فسحبت الحكومة ودائعها من بنك مصر خلال عشرة أيام فقط مما أصاب البنك بهزة كبيرة جعلت طلعت

حرب يطلب الاقتراض من البنك الأهلي و لكن المحافظ الإنجليزي للبنك رفـض هـذا الطلب فتأكد طلعت حرب بأن المؤامرة على بنك مصر تستهدفه شخصيا خاصة بعد أن رفض حسين سرى وزير المالية في حكومة على ماهر مساعدة بنك مصر، بل اشترط تعيين مسئول آخر عن البنك مع تعهد البنك بعدم تأسيس شركات جديدة و أمام هـذا الوضع المتأزم قدم طلعت حرب استقالته في يوم ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ وعندما رفـض أعضاء مجلس إدارة البنك الاستقالة قال لهم: (لقد مت ولم أدفن ... فليبق بنك مصر و ليذهب ألف طلعت حرب) .. و قد عاش طلعت حرب بعد استقالته بعامين ثم توفي في ١٣ أغسطس ١٩٤١ بعد رحلة عطاء كبيرة في مقاومة الاحتكار الأجنبي ، رحل وترك أربع بنات هن خديجه – هدى – فاطمة – عائشة و الأهم أنه ترك مجموعة من العبر والدروس فما أحوجنا الآن إلى (استنساخ) طلعت حرب روحا وفكـرا لـيعلم ويتعلم كل من يعمل في عالم المال و الاقتصاد أن البنوك تقام لخدمة الناس و لـيس لسرقتهم ، و أن المصانع والشركات تنشأ للحفاظ على هويـة الـوطن و ثرواتـه ، وأن الثقافة هي عقل وروح الاقتصاد وبدونه يتحول هذا الاقتصاد إلى آلـة بغيضـة تسحق الوطن والمواطن ، و أن الاستقلال الاقتصادي هو البداية الحقيقية و الأساسية للاستقلال السياسي .

وفي النهاية فإن طلعت حرب هو (الوصفة السحرية) و (الروشتة) التـي نحتـاج إليها في الوقت الراهن لكي نجعل من استقلالنا الاقتصادي والسياسـي أمـراً واقعـاً وليس حبرًا على ورق .

يقول عنه الدكتور ... زكريا سليمان بيومي:

(طلعت حرب بين ضرورات الإعجاب وعلامات التعجب)

مع أن طلعت حرب واحد من المصريين البارزين الذين سطروا دورهم بـأحرف مـن عرق وجهد استحق معها وبها كل هذا الإعجاب ، واستحق أكثر من ذلك لكونه ينتمي لطبقة اجتماعية بسيطة أثبتت من خلاله أنها قادرة على أن تفرز كوادر تفرض دورها

وتنتزع الإعجاب بها فكراً و تطبيقاً ، و إنها قادرة كذلك على الإسهام في حل الكثير من قضايا المجتمع التي قد تستعصى على أغلب القادرين إلا أن التأخر في إحياء ذكرى هذا الرجل العظيم والتنويه بأعماله حتى يمر ست وستون عاما فيدرك الجميع دوره ، و يسعى الجميع بشكل مكثف إلى تعويض هذا التأخير فهذا أمر مثير التساؤل والعجب .

فبعد طول سنين من الاحتفاء بمن أريد لهم أن يكونوا نجوماً ممن تصنعهم أو تصطنعهم ظروف كل عصر ، وبرغم أن طلعت حرب تأبى أعماله أن تجعله يتوارى عن عين وذهن كل مصري أو منصف من خلال بنك مصر ببنائه الشامخ وشركاته المتعددة والشارع الذي أصبح باسمه بعد أن كان باسم قائد فرنسي لجيش محمد على وهو سليمان باشا ، وتمثال في أحد ميادين مصر الأرستقراطية وهو ابن الطبقة البسيطة إلا أن طلعت حرب ظل متوارياً عن أذهان حتى الكثير من المثقفين هذه السنين الطويلة حتى نزل الإلهام فجأة فاهتم الجميع بذكراه ، ولم يقطع هذه الوحشة لسيرة الرجل سوى ما كتبه الأستاذ / طارق البشرى عنه في دار الهلال ، والزعيم الوطني فتحي رضوان ابن محافظة الشرقية مثله الذي شاركه في أفكاره لفترة محدودة وهو الزعيم أحمد حسين والزعيم إبراهيم شكري حين أسسوا مشروع القرش في الثلاثينيات من القرن الماضي ثم اندرجوا كلية في الميدان السياسي ، وكاتب أجنبي هو أريك أفيز ، ورابع هو رشاد كامل الذي اعتبر طلعت حرب ضميرا لوطنه مصر .

ولا شك أن تفسير اهتمام وسائل الإعلام مؤخرًا من إذاعة و تليفزيون ومراكز بحث وصحف بطلعت حرب وهو أمرٌ يستحقه ما تمليه المرحلة الحالية في تاريخ مصر من ظروف التحول الرأسمالي وعجز الدولة عن حل الكثير من مشكلات ترتبت على هذا التحول من الفقر والبطالة وغير ذلك ، فطرح نموذج كطلعت حرب أمام الكثير من رجال الأعمال الذين ينتمون في أغلبهم إلى الجذور الاجتماعية البسيطة التي خرج منها طلعت حرب قد يشكل دافعاً إيجابيًا لدفع بعضهم للعب دور مماثل يسهم في حل

مشكلات مصر ، كما يفتح هذا النموذج الذي قدمه طلعت حرب الطموح لكثير من أبناء الطبقة الفقيرة ليخوضوا تجربة العمل الاقتصادي بعيدًا عن الاندراج أو الانحدار في دوائر ووظائف الدولة فيريحوا أنفسهم ويريحوا غيرهم .

فالجذور الاجتماعية التي ينتمي إليها طلعت حرب سواء في بيئة والده في ريف الشرقية أو في موطن ولادته في حي شعبي هو حي الجمالية في القاهرة كانت دافعًا لنشاطه الاقتصادي بعيدًا عن دور الدولة الأمر الذي يفسر اهتمام أغلب المنتمين إلى البورجوازية المصرية وهم أصحاب رؤوس الأموال به كنموذج .

كما أن هذه الجذور الاجتماعية هي التي حددت توجه طلعت حرب الفكري و نشاطه السياسي ، فعلى الرغم من تخرجه من كلية الحقوق عام ١٨٨٩م إلا أنه كان قريبًا من تيار الحزب الوطني الذي تزعمه مصطفي كامل والذي كان يدعو إلى الارتباط بالدولة العثمانية كرمز للخلافة الإسلامية وهو اتجاه السواد الأعظم لشعب مصر ، واتخاذه موقفا مخالفا لموقف العلمانيين ممن يسمون بدعاة التنوير من أمثال أحمد لطفي السيد وقاسم أمين وسعد زغلول ، فعارض قاسم أمين في الدعوة لتحرير المرأة بشكل مطلق وفجائي ، و أصدر في هذا الصدد كتابًا بعنوان " فصل الخطاب في المرأة والحجاب " ولعل ذلك من أسباب التأخر أو الإهمال في إحياء ذكراه .

و لعبت الجذور الاجتماعية دورها في اهتمام طلعت حرب بالبعد الأخلاقي فبعد إنشائه بنك مصر ١٩٢٠م أصدر قراراً بعدم تمويل البنك لآية مشروعات تسيء إلي الخلق العام و كرامة الإنسان لكنه مع ذلك كان أكثر استنارة من الكوادر التي تجمد فكرها عند حدود معينة حول فهم القيم الأخلاقية فانشأ شركة للتمثيل والسينما (استديو مصر) ووظفها في الإعلان عن المنتجات المصرية لشركات البنك وأرسل العديد من البعثات في مجال الإخراج والتصوير والديكور والمكياج و غيرها كما فتح المجال لعمل المرأة في العديد من المنشات الاقتصادية و القضية الأهم في حياة هذا المصري العظيم أنه تلقى تعليمه في البداية في التعليم الشعبي أو الأهلي الذي لم يكن ينال أي قدر من الاهتمام بعد أن صادر محمد علي مصدر الإنفاق عليه و هو

الأوقاف فبدأ تعليمه في الكتاب حيث تعلم القران الكريم و مبادئ اللغة العربية و لم يتعلم في مدارس أجنبية أو مدارس خاصة ثم واصل تعليمه في مدرسة التوفيقية ثم كلية الحقوق بعد أن أظهر تفوقاً علي أبناء هذه المدارس مؤكداً أن الحرية التي كان ينعم بها التعليم الأهلي الفقير كانت كفيلة بأن توجد مبدعين يفوقون أبناء التعليم المحاصر بالنظام الهادف إلى تخريج حرفيين في نهاية المطاف حتى و لو علت درجاتهم و تزينت ألقابهم من الطب و الهندسة و الصيدلة و غيرها.

ومن العلامات البارزة التي تستوجب الانتباه و الإعجاب في حياة هذا المصري النموذج أنه اقترب لفترة زمنية بكل من الزعيم الوطني محمد فريد و الأمير عمر طوسون بشكل كان له إسهامه في توجيهه ,فقد أدرك من خلال علاقته بمحمد فريد الذي ضحي بكل ما يملك في سبيل الدفاع عن القضية الوطنية أن العمل من أجل الوطن يفرض أن يكون غاية نبيلة يعيش الانسان لها لا أن يعيش بها, وأن هذه الغاية تستوجب التضحية من أجلها و الترفيع عن اتباع سياسة نفعية وتحقيق مكاسب ذاتية و تعلم من الأمير عمر طوسون أن السياسة عمل و إنشاء وإنتاج و ليست مجرد هتافات و مظاهرات ,و أن الطريق إلي استقلال الوطن يكون عبر دخان المصانع أولا قبل فوهات المدافع, و قد علق البعض علي إدراك طلعت حرب و تطبيقه لهذا المعني بالمثل الشعبي :"إذا أردت أن يكون رغيفك من فاسك" ولهذا انصبت جهود طلعت حرب الاقتصادية علي الطبقة الفقيرة التي ينتمي إليها , و بدأ تطبيق ذلك بنفسه قبل إنشائه لبنك مصر حين أنشأ محلا للبقالة بمشاركة أحد أبناء طبقته وهو فؤاد الحجازي.

وهناك محطة أخرى في حياة ونشاط طلعت حرب يجب الوقوف عندها تتمثل في تزامن نجاح فكرته في إنشاء بنك مصر ١٩٢٠ م أي في أعقاب ثورة شعب مصر ١٩١٩ م و التي تركزت علي تحقيق قدر من العدل الاجتماعي إلي جانب أو من أجل إخراج المحتل الإنجليزي .

وحين حوصرت أهداف هذه الثورة في الميدان السياسي و ركــز السياســيون علــى مسألة خروج المحتل و أغفلت الجانب الاجتماعي و الاقتصادي و قامت جماعــات شيوعية وأخرى إسلامية لتنادي بهذا البعد جاءت مشروعات طلعت حــرب ,التــي حظيت بتأييد هذه التيارات و كذلك بتأييد كبار الملاك والرأسماليين,.

لتقدم نموذج تطبيقيا لتحقيق قدر من العدل الاجتماعي في وقت انزوت فيه أغلب نداءات أصحاب هذه الأيديولوجيات في الإطار النظري.

بقي أن نشير إلى جانب هام في حياة هذا الرجل المصري و هو تأليفــه لكتــاب "تاريخ دول العرب و الإسلام " الذي استعرض فيه فترة تاريخيــة انتهــت لعصــر الخلفاء الراشدين , لكن الأبرز في ذلك هو تركيز الرجل علي جانــب هــام وهــو أن الوعي بالتاريخ وكتابته يعد من أبرز ملامح النهوض بالأمم والشعوب .

رحم الله طلعت حرب ورحم الله كل من يسعى لإبرازه كنموذج مصري ينافس نجــوم الاستهلاك والهلاك ، وأكثر الله من أمثاله في زماننا وفي كل زمان .

مقال بعنوان العولمة الاقتصادية.

كتب محمد المصري (طلعت حرب ظاهرة لا تتكرر مثل أم كلثوم. ربمــا تســتطيع أن تقول أن الزمن والوقت وطبيعة الحياة والظروف والتحديات واستراتيجية الاقتصــاد ذاتها حالت و ستحول دون تكرار تجربة طلعت حرب آخر فى الوقــت الحــالي فهــل يمكننا تكرار تجربة أم كلثوم جديدة ؟ السؤال لا يحتمل سوى إجابة واحدة وهى لا ..)

هذا ما يقوله محمد المصري رجل الأعمال المصري ورئيس الاتحاد العــام للغرف التجارية والذي يرى أن طلعت حرب ظهر في وقت كانت مصر فعلا تحتــاج إلى مثله وهو كان لديه القدرة والذكاء الكافي لإيجاد كيانات مصرية من لا شئ رغــم الاستعمار وحاليا ورغم أن الظروف أكثر اعتدالا عن أيام الاستعمار غير أنها ليســت مهيأة كما يظن البعض لتحول مثل تحول طلعت حرب خاصة فى ظل الاقتصاد المحلي

الأجنبي المشترك الذي أصبح من أهم ضروريات السوق والتنمية و أصبح سياسة دولة بحالها تنتهجه فى كل أمور اقتصادياتها .
وإذا كان طلعت حرب كما يقول المصري استطاع أن يحقق تجربة ناجحة اجتماعيا واقتصاديا من خلال مشروعاته العظيمة فإن هناك رجال أعمال مصريين ساروا على نهجه و فعلوا مثله لكنهم لم ولن يستطيعوا تحقيق التجربة بنفس الطريقة لأن ماهية التحقيق لم تعد موجودة وهى التحول إلى المصرية فى كل شئ فالاقتصاد حالياً أصبح مصريا لا نقاش ومصر توجهه كما تشاء سواء فى منح امتيازات لمستثمرين أجانب أو مناطق صناعية غير أنه فى النهاية اقتصاد مصري أما قديما فلم يكن الاقتصاد مصريا بل كان أجنبياً وحررته فكرة طلعت حرب التي سارت بالتوازي مع التحرير من الاستعمار .

شخصية فريدة

وعلى جانب آخر يرى المهندس شريف سامي حفيد طلعت حرب أن جده كان شخصا عبقريا لا أحد يملك ما امتلكه من مقومات على كل المستويات سواء الشخصية أو العلمية أو الثقافية التي لن تجتمع فى شخص آخر ليقلده أو يحاكى تجربته و لذلك فلن يظهر طلعت حرب جديد .
ويؤكد المهندس شريف سامي على أن فكرة استنساخ طلعت حرب آخر تبدو هزلية فى وقتنا الحالي وخاصة بعد أن تمكن التحول الرأسمالي من قيادة الاقتصاد المصري نحو العالمية والرأسمالية الصريحة لا الشعبية التي كان يريدها طلعت حرب و سعى إلى تحقيق جوانبها فكل رجل أعمال حاليا يسعى للتربح والكسب دون النظر فى طبيعة العمل إذا كان شعبيا أو وطنياً أو حتى أجنبياً .
أما على جانب الشخصية فقد امتلك طلعت حرب الشخصية الوطنية الاقتصادية القيادية المقنعة فى وقت واحد وهو الآخر الذي لا يمتلكه أي رجل آخر مثله أو بمعنى أوضح غياب مفاهيم و أسس كثيرة سواء على الجانب التنموي أو الجانب الوطني أو

المستقبل الاقتصادي للعالم ساوى بين الجميع و قضى على كل ما كان يأمل به ويحلم به طلعت حرب .

ويعود شريف سامي حفيد طلعت حرب ليدلل على قوله بـأن جده شخصية نادرة حيث يقول: أنه استمر لمدة ٥ سنوات يعمل لمدة ١٥ ساعة فى اليوم فى بنك مصـر دون الحصول على أجر متسائلا هل يقبل رجل أعمال هذا فى الوقت الحالي ؟

مقاييس عصرنا :

الدكتور صلاح الدسوقى أستاذ التاريخ الحديث يقول أنه من الصعب أن تحكـم علـى تجربة طلعت حرب بمقاييس عصرنا الحالي و إنما بمقاييس عصره...

ففي بداية العشرينيات كانت مصر دولة زراعية وكانت مساحة الرقعة الزراعية فـى هذا الوقت ٥ ملايين فدان وكان توزيعها كالآتي الملك يملك مليون فـدان والأجانـب مليونا والباشوات المصريون مليون فدان والباقي ٢ مليون موزعة على فقراء الشعب البالغ عددهم ٧ ملايين فرد وكانت الثروة الزراعية مملوكة للأجانب وكـان المنـتج الرئيسي هو القطن وكان يتم التعامل عليه شراء وبيعا من خلال البورصة التي يسيطر عليها الأجانب ...

أما بالنسبة للبنوك فكان عددها ٢٦ بنكا منها ١٢ بنكا مسجلين كشـركات مصـرية بمساهمات أجنبية بجانب ١٤ بنكا من بنوك أجنبية بالكامل ...

ويعود صلاح الدسوقى ليؤكد أن كل هذه الأمور مجمعة ساهمت فـى نجـاح تجربـة طلعت حرب وإيجاد شخص ستظل ذكراه دائما غير أن فكرة استنساخ طلعـت حـرب جديد لن تتكرر لأمور كثيرة ملخصها أن النشأة وزمن الظهور و كذلك الكيفية التـي ظهر بها طلعت حرب تختلف تماما عن الوقت الحالي فهو رجل وضع أمامه تمصـير الاقتصاد ونجح فى الوصول له بخطط مدروسة ...

أما الآن فالاقتصاد المصري يتجه نحو العكس تماماً ومن دبلوماسيات واستراتيجيات دولة لا يعارضها أحد .

كتبت ... ريم عبد المعز مقال فى جريدة العالم اليوم بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/٦ بعنوان

المشاركون فى احتفالية مرور ١٤٠ عاما على ميلاده ويؤكدون التوسع الحالي فـى الخصخصة انقلاب على مشروع طلعت حرب ....

طلعت حرب اقتصادي مصري كان يؤمن بأن مداخن المصانع تمتلـك القـدرة علـى التغيير أكثر مما تمتلكه فوهات المدافع ...

ولذلك استطاع تفجير ثورة حقيقية أكدت على أن من يريد أن يصبح قراره من رأسه فعليه أولاً أن ينتج رغيفه من فأسه ولذلك نجحت ثورة طلعـت حـرب فـى تفجيـر الاقتصاد المصري رغم وجود الاحتلال البريطاني والإقطاع والرأسمالية كتـب عنـه المستشرق الفرنسي جاك بيرك إن ميزته الأولى كانـت فـى إدراك القـوة الكامنـة والإمكانات الهائلة التي لم تستغل بعد عند مواطنيه .

وإذا كان هذا هو رأي المفكرين الأجانب فلا شك أننا بحاجة لاستلهام الـدروس مـن تجربة طلعت حرب ومحاولة إيجاد مشروع شامل لنهضة مصر وهو ما جـاء علـى لسان المشاركين فى الندوة التي نظمها مؤخراً مركز طلعت حرب الثقـافي للاحتفـال بالذكرى المائة والأربعين لميلاد رائد الاقتصاد المصري طلعت حرب والذين أكدوا أن مصر بحاجة لاستلهام الدروس من تجربة طلعت حرب والتي حاول فيها إرساء قـدم المصريين فى اقتصاد بلادهم مشيرين إلى أن مصر تعيش الآن عصر الثورة المضادة لمبادئ طلعت حرب حيث التوسع الشديد فى الخصخصة وسيطرة الأجانب على نسبة كبيرة من اقتصاد البلاد .

إنجازات الرائد طلعت حرب في إنشاء الشـركات المصـرية نستعرض منها .....

أهم ما كتب عن إنجازات طلعت حرب هو ما سجله الكاتب الأمريكي أريك داجتر فى دراسته الرائدة عن تجربة بنك مصر ١٩٢٠ – ١٩٤١ ...

وذكر الكاتب الأمريكي في دراسته المذكورة : بالتفصيل : أسماء الشـركات وتـاريخ إنشائها ومن بين كل شركات بنك مصر لم تبرز شركة بمثل بروز شركة مصر للغـزل والنسيج بالمحلة الكبرى بمديرية الغربية وقد تضمنت لوحة شرف إنجـازات طلعـت حرب ومنها : بنك مصر ١٩٢٠ . مطبعة مصر ١٩٢٣ . شركة مصر لصناعة الورق ١٩٢٣ . شركة مصر لحلج الأقطان ١٩٢٤ . شركة مصر للنقل والملاحة ١٩٢٥ . أستوديو مصر ١٩٢٥ . شركة مصر للغزل والنسيج ١٩٢٧ . شركة مصر لمصـايد الأسماك ١٩٢٧ . شركة مصر للكتان ١٩٢٧ . بنك مصر سوريا و لبنـان ١٩٢٩ . شركة مصر للطيران ١٩٣٢ . شركة بيع المصنوعات المصرية ١٩٣٢ . شركة مصر للتأمين ١٩٣٤ . شركة مصر للملاحة ١٩٣٤ . شركة مصر لصناعة و دبغ الجلـود ١٩٣٤ . شركة مصر للسياحة ١٩٣٤. شركة مصر للغزل و النسيج الرفيع ١٩٣٧. شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح ١٩٣٨ . شركة مصر للصباغ البيضاء١٩٣٨ . شركة مصر للمناجم و المحاجر ١٩٣٨ . شركة مصر لصناعة و تجـارة الزيـوت ١٩٣٨ . شركة مصر لصناعة الدخان ١٩٣٨ . شركة مصر للمستحضرات الطبيـة ١٩٣٨ . شركة مصر العقارية المصرية ١٩٥٧ . **في صباح الخير العدد ٢٧٠٩ الصادر في ٤ ديسمبر٢٠٠٧ .**

يقول زين إبراهيم مقال تحت عنوان :

طلعت حرب أمة في فرد و برنامج بلا حزب

إن طلعت حرب كان مثقفا وذا عقلية قانونية و يكتب فـي الاقتصـاد و السياسـة والتاريخ مثلما يكتب في الأدب والاجتماع وكان يؤمن بأن الفكر والثقافـة والفـن روائد لا تنفصل عن الاقتصاد فهي تؤكد علي الهوية الوطنية و كان يؤمن أيضا بأنه لا يمكن تجديد الاقتصاد إلا بازدهار الثقافة استنارة للعقول لهذا لم يكن غريب

أن يؤلف العديد من الكتب في مجالات التاريخ والاجتماع والدين وتمكن فيما بعد من تطبيق أفكاره التي بدأت بإنشاء بنك مصر ثم مطبعة مصر مرورا "بتأسيس مصر للطيران و مصر للغزل و النسيج و انتهاء بتأسيس شركة مصر للتمثيل والسينما واستديو مصر" وبهذا اكتملت منظومة الفنون والثقافة والاقتصاد التي ساهم طلعت حرب في إرسالها .

أكد د.شريف سامي حفيد طلعت حرب على أن الاقتصادى الكبير كان ملكا لأسرة اكبر تضم كل المصريين الوطنين المخلصين لوطنهم بمن فيهم المصريون البسطاء وهو واحد من أبناء مصر الذين يريدون لها خيرا" و تقدمها مهما كانت الظروف المحيطة بها و تسلح في سبيل ذلك برؤية علمية واستراتيجية واضحة المعالم دفعته لتحقيق ما يريد دون أن يعني بتحقيق مكاسب شخصية أو مجد شخصي و كان من أبرز ملامحه في تجربته العملية ثلاثة أشياء مهمة :

أولها عدم قبول الأمر الواقع الذي كان سائدًا و يسيطر عليه الأجانب على حساب المصريين أبناء الوطن الحقيقيين في كل المجالات و الصناعات.

وثانيها الميل للانتماء الشرقي لوطن دون تعصب .

ثالثا : التنبيه لأهمية التكامل الاقتصادي المصري العربي مبكرا" و الإيمان بأن مصر لايمكن أن تبتعد عن الكيان العربي فعلا لا قولا .

متحف طلعت حرب :

أما د.أحمد زيدان مستشار التطوير ببنك مصر فقد شارك في الاحتفال بذكرى ميلاد طلعت حرب ممثلا لرئيسي البنك .قال : إننا نعتز جميعا بدوره المهم .

عاش طلعت حرب في كنف أمه و أبيه حتى أخر يوم في حياتهم و لقد تزوج طلعت حرب مرة واحدة في حياته ورغم وفاة زوجته قبل عام ١٩٢٠ إلا أنه لم يتزوج غيرها و عاش وحيدًا مخلصًا لذكراها مكرسا الفائض من وقته لرعاية شئون بناته انجب طلعت حرب أربع بنات وولدا واحدا و لقد توفي و لده في حياته و كان اسمه

حسن على اسم وا لده أما بناته فكن أربعا تزوجن في حياته من شخصيات أسهمت بدور كبير في العمل الوطني و الاجتماعي.

فلقد تزوجت فاطمة كبرى بناته المستشار عبد الوهاب عزت كما تزوجت خديجة الابنة الثانية من الدكتور محمد سامي هو من أشهر أطباء مصر في الثلاثينيات أما عائشة ثالثة بناته فقد تزوجت من عبده برهام نور الذي أصبح بعد ذلك سكرتير عام لبنك مصر أما ابنته الصغرى هدي فتزوجت من محمد رشدي الاقتصادي المصري الكبير الذي حمل رسالة صهره و تدرج في عمله فى بنك مصر حتى أصبح رئيسا لمجلس إدارة البنك و هكذا كانت شخصية محمد طلعت حرب مزيجا بين شخصية أصحاب الأعمال الذي لا يغرقون بالخيال و شخصية أصحاب الأحلام و الإلهام.

لقد كان طلعت حرب بجانب استغراق كل وقته في إدارة بنك مصر و شركاته وإرهاق أعصابه بمثل هذا العمل الشاق المتواصل كان يميل بطبعه إلى مناصرة الآداب والفنون.

فقد شيد دار التمثيل العربي بحديقة الازبكية وشجع المسرحيات المصرية والعربية والغنائية فبلغ المسرح في عهده و بفضله مكانة مرموقة. وكان يقرب إليه النابهين من الكتاب و الأدباء و الشعراء و كان لماحاً ذكيا يخشى فتنة الغرور على نفسه.

أنشأ محمد طلعت حرب العديد من الشركات والمشروعات التي ولا يزال البعض منها منارات إقتصادية شامخة في جسد الاقتصاد المصري ومنها :

١- أنشأ بنك مصر سنة ١٩٢٠ .

٢- مطبعة مصر ١٩٢٢ .

٣- شركة مصر لصناعة الورق ١٩٢٣ .

٤- شركة مصر لحلج الأقطان ١٩٢٤ .

٥- شركة مصر للنقل والملاحة ١٩٢٥ .

٦- استوديو مصر ١٩٢٥ .

٧- شركة مصر للغزل والنسيج ١٩٢٧ .

٨- شركة مصر لمصايد الأسماك ١٩٢٧ .

٩- شركة مصر لنسيج الحرير ١٩٢٧ .

١٠- شركة مصر للكتان ١٩٢٧ .

١١- بنك مصر - سوريا - لبنان ١٩٢٩ .

١٢- شركة مصر لتصدير القطن ١٩٣٠ .

١٣- شركة مصر للطيران ١٩٣٢ .

١٤- شركة بيع المصنوعات المصرية ١٩٣٢ .

١٥- شركة مصر للتأمين ١٩٣٤ .

١٦- شركة مصر للملاحة ١٩٣٤ .

١٧- شركة مصر لصناعة ودبغ الجلود ١٩٣٤ .

١٨- شركة مصر للسياحة ١٩٣٤ .

١٩- شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع ١٩٣٧ .

٢٠- شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح ١٩٣٨ .

٢١- شركة مصر لصباغ البيضاء ١٩٣٨ .

٢٢- شركة مصر للمناجم والمحاجر ١٩٣٨ .

٢٣- شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت ١٩٣٨ .

٢٤- شركة مصر لصناعة الدخان ١٩٣٨ .

٢٥- شركة مصر للمستحضرات الطبية ١٩٤٠ .

٢٦- شركة مصر الشركة العقارية المصرية ١٩٥٧ .

* هكذا كانت تلك الشركات والمشروعات الصناعية والتجارية هي الاعمدة التي قامت عليها الاقتصاد المصري وهي بداية الثورة الصناعية المصرية بالمعني الحقيقي .

* ولقد رحل عن دنيانا محمد طلعت حرب في أغسطس عام ١٩٤١ في أثنـــاء زيارته لأحد أصدقائه "بالعنانيه" بدمياط ولقد نقل جثمانه إلي القاهرة وخرجت

جنازته من منزله بالعباسية وسار بها العديد من المسئولين والمواطنين حتى أودع جثمانه في مقبرته بمدافن الغفير رحمه الله .

يقول عبد الله نور الدين وهبه أخصائي معلومات مكتبة القاهرة الكبرى إذا كانت العبقرية هي كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعاني التي تدق على الألباب فإنه عبقري من الدرجة الأولى وإذا كان تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال , فإنه صاحب تاريخ اقتصادي كبير , وإذا كانت الوطنية هي حب الوطن والتفاني في العمل من أجله فهو وطني بالفطرة , إنه رجل خلع عنه العبء الباهظ والعمل الدائم وظهر الجد البالغ فباعد بينه وبين البسمة الحقيقية , يعجبه الصدق في القول والإخلاص في العمل

يكره التفرنج والمتفرنجين يميل بطبعه إلي ما هو كل عربي يقول عن نفسه أنه إنسان كغيره من البشر يخطئ ويصيب فإن أخطأ فله حسن نيته شفيع . وإن أصاب فذلك فضل من الله .

إنه عبقري الاقتصاد ورائد النهضة الاقتصادية المصري محمد طلعت حرب باشا. ولد محمد طلعت حرب في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٧ بشارع قصر الشوق بحي الجمالية بالقاهرة من أبوين كريمين فكان أبوه من عائلة حرب بناحية ميت أبو علي من أعمال الزقازيق, وكانت أمه من عائله صقر من ناحية كفر محمد أحمد بمركز منيا القمح بمديرية الشرقية

* ترجع عائلة حرب في الأساس إلى أصول بدوية وحسبما يقولُ مؤرخ الأعلام والأنساب العربية خير الدين الذركلي فإن العائلة تنحدر من قبيلة حرب التي كانت تعيش بين مكة و المدينة في بلاد الحجاز .
* و طلعت حرب هو الابن البكر لوالده ، حيث أنجب من بعده ولدين هما عبد العزيز و محمود إلى جانب بنت واحدة و لقد عاشت الأسرة في تكاتف خاصة وأن رب الأسرة كان متديناً ، و لقد ورث طلعت حرب هذا التدين و أحب المحافظة على التقاليد و التراث .

* عاش محمد طلعت حرب بالقاهرة في كنف والده الذي كـان يعمـل موظفـاً بمصلحة السكة الحديد و بعد أن حفظ القـرآن الكـريم التحـق بالمدرسـة الابتدائية ثم المدرسة الثانوية حتى حصل على شهادة البكالوريـا بتفـوق . فالتحق بمدرسة الحقوق و كانت حينذاك تكاد تكون مقصـورة علـى أولاد الذوات ، يتخرج منها الوزراء و القضاء ، و ربما نظر طلبة مدرسة الحقوق إلى طالب مثل طلعت حرب نظرة استخفاف و قالوا فيما بينهم ما الذي جـاء بهذا إلى مدرسة الحقوق ؟ وأحس طلعت حرب بهذا فـآل علـى نفسـه ان يتحداهم و يسبقهم .
* و بالفعل تخرج محمد طلعت حرب من مدرسة الحقوق عام ١٨٨٩ فاختارته الدائرة السنية تقديراً لذكائه و لإجادته اللغة الأجنبية مديراً لأقلام قضاياها ، خلفاً لمحمد بك فريد الذي خلف مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني .
* و لقد اهتم طلعت حرب بالشئون الاقتصادية فلم يلبث أن عين سـنة ١٩٠٩ مديراً لشركة كوم أمبو للسكر ، و قد اشتهر لما عرف به من سداد الـرأي بالحجة في شئون المال و أحيلت عليه فـي الوقـت ذاتـه إدارة الشـركة العقارية، حيث تدرب على الأعمال المالية على يد خبراء ماهرين .
* استمر طلعت حرب في هذه الشركة حتى مصرها و أصـبحت غالبيـة رأس مالها في أيدي المصريين أما شركة كوم أمبو فقد تنحى عن إدارتها في سنة ١٩٠٩ ثم عاد إليها عضواً بمجلس إدارتها إلى سنة ١٩٣٦ حيث اسـتقال لعدم إمكانه التفرغ لها .
* استعان به بعض أصدقائه من كبار الـزراع فـي تنظـيم و إدارة أملاكهـم الزراعية الواسـعة فنجح نجاحاً كبيرا ، مارس لحسابه بعض الأعمـال التجارية .
* عندما تولى الخديوي سعيد شئون البلاد لجأ إلى الاستدانة من بيوت المـال الأجنبية و مات وعلى مصر ما يزيد على ١١ مليونا من الجنيهات ثم جـاء

بعده الخديوي اسماعيل و أسرف في الاستدانة حتى بلغت ديون مصر في عهده ٦٨ مليوناً و عندما احتل الانجليز مصر أصبحت كل خيرات البلد بين الأجانب يتصرفون فيها كيفما يشاءون .

* فرأى طلعت حرب بوازع من وطنيته أن أموال مصر يجب أن تبقى للمصريين فأسس سنة ١٩٠٨ مع بعض زملائه شركة التعاون المالي و أصدر سنة ١٩١٠ دعماً لفكرته كتاب ((علاج مصر الاقتصادي)) كشف فيها عن علل مصر وأدويتها و أخذ على عاتقه أن يحطم الاحتكار الأجنبي لشئون المال و الصناعة .
* في سنة ١٩٢٠ أنشأ بنك مصر و حرص على أن يكون البنك مصرياً خالصاً ، فنص على أن تكون أسهمه للمصريين فقط و بدأ بداية متواضعة حيث كان رأسماله ٨٠,٠٠٠ جنيه مصري حيث لم يلبث أن ارتفع إلى مليونين و راح ينشئ الشركات و المشروعات و يدعم الصناعات المصرية و يحررها من سيطرة الأجانب و هكذا وضع طلعت حرب حجر الأساس في النهضة الصناعية والتجارية في مصر .
* لم تقتصر جهود محمد طلعت حرب على خدمة الاقتصاد المصري وحده بل امتدت إلى خدمة البلاد العربية الشقيقة ، فقد كان أول من عمل لتحقيق الوحدة العربية لما قام به من زيارات للبلاد العربية باحثاً و دارساً و بما أنشأه من بنوك في سوريا ولبنان باسم (بنك مصر – سوريا – لبنان) ، و بما يسري لحجاج بيت الله الحرام من إعداد بواخر مصرية و إقامة فنادق ممتازة في الأراضي المقدسة وسك عملة سعودية لتثبيت أسعار النقد هناك و إيفاد بعوث من الفنيين للبحث والاستقصاء.
* فقد كان بنك مصر قدوة حسنة نهج نهجه كثير من البلاد العربية الأخرى وسار على منواله كثير من المصريين ، فتأسست بنوك و شركات مختلفة هنا و هناك واسترد المصريون و العرب ثقتهم بأنفسهم و كان هذا التطور

العجيب في الوعي المصري و العربي على السواء و كانت الثروة الاقتصادية و الاجتماعية التي قادها محمد طلعت حرب بحزم و جد و مهارة و إيمان .

كتاب أعلام النهضة الحديثة : طلعت حرب(١٨٧٥ – ١٩٤١) للأستاذ صالح جودت (الكتاب . ج ٧ (١٩٤٩) ص ٤٠٣ – ٤٠٩)

يتكلم فيها عن طلعت حرب من ١٨٧٥ إلى ١٩٤١

الفصل الأول:

صاحبت طلعت حرب أربعة أعوام / وهى فترة تبدو قصيرة فى عمر الأيام والناس ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لهذه الصحبة ، فقد كانت هذه الأعوام الأربعة أزخر الفترات بالأحداث فى عمر طلعت حرب ، إذ رأيته لأول مرة وهو فى أوج مجده ، فرأيت فيه طلعت حرب الاقتصادي ، ثم كانت أيام محنته ، فرأيت فيه طلعت حرب الرجل ، ثم كانت أيام هدوئه التى انتهت بلقاء وجه ربه.

وقد كانت أيام الهدوء هذه أجمل أيامي فى صحبته ، لأن الرجل كان قد فرغ من الجهاد ، و قضى عاماً و بعض العام فى عزلة صوفية هادئة ، يقص على ذكريات حياته ، وهو شئ لم يظفر به إلا الأقلون ، وهو – أيضا – ما يجعلني أزعم لنفسي أنني مستطيع الكتابة عن طلعت حرب كتابة العارف الواثق .

على أنني لا أحاول اليوم أن أترجم لحياته ، فإن الترجمة له عمل ضخم يستغرقني فى إنجازه أزمنة ومجلدات ، و إنما أقصر محاولة اليوم على سرد بعض الوقائع الرقيقة التى يستطيع منها القارئ أن يستشف حقيقة هذا الرجل الذي كان له أثر بالغ فى الحياة المصرية الراهنة فقد أنشأ تسعاً و عشرين مؤسسة صناعية ضخمة فى عشرين سنة و علمنا أن القصة التى لقننا الاستعمار إياها إذ نحن صغار وهى أن مصر بلد زراعى لا يصلح للصناعة إنما كانت أكذوبة من أكبر أكاذيب التاريخ .

أفئدة من الناس :

ذهب طلعت حرب فى رحلة إلى المملكة العربية السعودية بدعوة من جلالة الملك عبد العزيز فحج البيت ثم عاد وفى جعبته عدة مشروعات ضخمة عرف الناس منها مشروع تنقية مياة عين زبيدة و مشروع إنارة مكة و المدينة و مشروع تعبيد الطرق أما ما لم يعرفوه فهو أجل و أسمى .

قال لى رحمة الله : أتذكر الآية الكريمة " ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " قلت اذكرها قال فما تفسيرها ؟ قلت : عند المفسرين إن إبراهيم قد توجه إلى ربه يقول له : إن قومى قد نزلوا فى بلاد صحراوية مجدبة لا زرع فيها ولا ضرع فاجعل الناس يا رب يحجون البيت حتى يأتوا معهم بالخيرات و يوزعونها على قومى المعدمين . قال : ما أحسب أن هذا صحيح ، و إنما أفسرها كما يلى : إن إبراهيم لم يقل لربه : " فاجعل الناس تهوى إليهم " و إنما قال : " فاجعل أفئدة من الناس " و الفؤاد معناه الذكاء فمعنى هذا الدعاء أن إبراهيم قد سأل ربه أن يسوق لقومه رؤوس ذكية تكشف لهم عن الخيرات المستخفية فى هذا البلد و أفسر هذا الدعاء بأن أرض البلاد المقدسة غنية بمعادنها التى تحتاج إلى رؤوس ذكية تستخرجها من بواطن التربة .

ومن الأسف أن الظروف لم تكن مواتية لطلعت حرب فيما اعتزم فقد اعتزل ميدان الجهاد قبل أن تتم رسالته فى الأرض المقدسة و لكن ألا ترون أن حلمه قد تحقق وأن تفسيره كان تفسيراً صادقاً فلم تمض على هذه الرحلة غير أعوام معدودات حتى هوت أفئدة من الناس – هم الأميركيون – إلى الأراضى المقدسة فكشفت عن ثروتها الضخمة من البترول ؟

بين عاهلين :

و تجرني هذه القصة إلى قصة أخرى هي أن طلعت حرب أراد يوماً أن يزور المملكة العربية السعودية و كانت بينها و بين مصر فى ذلك العهد جفوة معروفة فذهب

يستأذن ساكن الجنان الملك الراحل فؤاد الأول فى السفر فقال له الملك : أو ترضى يا طلعت باشا أن تذهب لزيارة ملك بينه وبينى جفوة ؟

ولم يسافر طلعت حرب فى ذلك العام و فى العام التالى تلقى دعوة رسمية من جلالة الملك عبد العزيز لزيارة بيت الله فأعاد طلعت حرب الكرة و قابل الملك فؤاد وقال له : إننى مدعو يا مولاى لزيارة بيت الله فى هذه المرة فأجاب فؤاد العظيم ما دام الأمر كذلك فعلى بركة الله و نسألك الفاتحة .

فلما وصل طلعت حرب إلى هناك إلتقى الملك عبد العزيز وإذ بالعاهل العربى يفاتح طلعت حرب فى أمر هذه الجفوة و يقسم له أنه يحب مصر و يحب الملك فؤاد و يجله ويكبره و أنه مستعد لأن يفعل المستحيل فى سبيل ترضية الملك فؤاد وإزالة هذه الفجوة و لو كان ثمن هذه الترضية دم أعز أبنائه .

وعاد طلعت حرب فحمل هذه الرسالة بأمانة إلى الملك فؤاد الذى تأثر قلبه لما سمع وما لبث جلالته أن وكل لرئيس الحكومة فى ذلك العهد – وهو رفعت على ماهر باشا – أمر إزالة هذه الجفوة على الفور و هكذا عادت المياه إلى مجاريها بين العاهلين والأمتين دون أن يعرف أحد دور طلعت حرب فى هذا العمل العظيم .

سحر الكنافة :

وتلك القصة بدورها تجرنى إلى قصة ثالثة هى أن طلعت حرب كان يمقت الحزبية والاشتغال بالحزبية و كان يحظر على موظفى البنك و شركاته – كبارهم وصغارهم – الاتصال بالأحزاب ، فإن اقدم أحدهم على ذلك كان نصيبه الخروج من عمله و كان يقول ومن دخل باب السياسة خرج من باب البنك لأنه كان يرى أن الاشتغال بالسياسة معناه الاشتراك فى المناورات الحزبية التى لا تجدى على البلد شيئاً .

أما السياسة الخالصة البعيدة عن الحزبيات و العصبيات فقد كان لطلعت حرب فيها أدوار كبيرة منها قصة إصلاح ذات البين التى رويتها ومنها أنه – فى عهد شبابه – كان يرى إنه لا سبيل إلى صلاح حال مصر إلا إذا تكتلت فيها الجهود و تكاتف

الزعماء وتساندوا للخير العام و كانت هناك عهدئذ معركة حامية بين الزعيم مصطفى كامل و أنصاره وبين الإمام محمد عبده و أنصاره و أراد طلعت حرب أن يصلح بين الرجلين و الجماعتين ليتضافروا على خدمة البلد . فدعا الرجلين إلى مأدبة غداء فى بيته – وكانت مائدته رحمة الله مستديرة لا يشعر أحد من الجالسين إليها بأنه دون الآخر – ودعا معهما جماعة أهل الرأي و انتهت الألوان الأولى من الطعام و بقى دور الكنافة فرأى طلعت حرب أن الفرصة قد سنحت وقال قبل أن نمس هذه الكنافة أحب أن أقول إن سحرها مستمد من تماسك شعيراتها فهلا صنعنا هذا بأنفسنا فتماسكنا وصافحنا ونسينا ما مضى ؟ فهب مصطفى كامل مغضبًا وقال : هذا مستحيل فإن العمائم هي سر نكبة هذا البلد و غضب الأستاذ الإمام ورد عليه و احتدمت معركة الكلام وقاموا جميعا فانصرفوا وبقيت الكنافة كما هي لم تمسها يد ، و شعيراتها المتماسكة تنعى من طهاها!

وطنية العمل :

ولعل القراء لا يعرفون أن لكل شركة من شركات هذا البنك فى إنشائها قصة قومية رائعة ولا يتسع المجال هنا لسرد تسع وعشرين قصة و إنما أنا اقص واحدة منها على سبيل المثال تلك هى قصة شركة مصر لحلج الأقطان .

كيف أنشئت هذه الشركة ؟

كان ببلده مغاغة محلج واحد للقطن يملكه رجل من الأجانب المتغطرسين ولما كان المحلج وحيداً فى منطقة واسعة تزرع القطن فإنه كان يدر على صاحبه أرباحاً طائلة وحدث ذات يوم أن جاء أحد أعيان المدينة بأقطانه إلى هذا المحلج وانتظر يوماً وأياماً دون أن تحلج فدخل إلى صاحب المحلج يسأله سر هذا وهو شيخ وقور فدفعه إلى الخارج و سلط عليه كلباً كبيراً كاسراً فهم الكلب بالشيخ و أوقعه على الأرض ومزق ثيابه .

وثار أهل المدينة لما حدث و غضبوا لشيخهم الوقور و اتصلوا بطلعت حرب فرووا له الأمر فأوفد من فوره الدكتور فؤاد سلطان بك إلى مغاغة ، حيث جلس فى مقهى معروف بالمدينة و جمع حوله أعيان المنطقة و أخرج قلماً و قرطاساً وقال لهم : أجيبوا عن هذا الحادث جواباً عملياً بكم يكتتب كل منكم لإنشاء محلج مصرى فى هذه المدينة .

وتتابعت الأرقام فى لحظات حتى بلغت عدة آلاف أنشئ بها أول محلج مصرى فى القطر و تهافت عليه المزارعون و بقى محلج الأجنبى لا يجد لوزة واحدة يدير عليها آلاته ! و تتابع بعد ذلك إنشاء محالج شركة مصر لحلج الأقطان فى كل عاصمة من عواصم القطر .

هذه هى الوطنية ، وطنية العمل لا وطنية القول ، وطنية البناء لا وطنية الهدم .

مخالفات رائعة :

ليت الرقابة لم تفرض على ما تنشره الصحف عند ما وقعت محنة بنك مصر فى مطلع الحرب الأخيرة إذن لعرف الناس حقيقة ما حدث ولم تذهب الظنون إلى ما ذهبت إليه من النيل من قدر الرجل والشك فى نزاهته فإن ما حدث لم يكن يمس نزاهة طلعت حرب مثقال ذرة و إنما مرجع هذه الأزمة سياسة رأى طلعت حرب أنها المثلى فى الإنشاء ورأى غيره غير ذلك وساء الحظ بقيام الحرب ، فبدت أخطاء هذه السياسة – وهى قليلة – وطغت فى أذهان بعض الناس على حسناتها وهى كثيرة .

قال طلعت كرب فى خطبة من خطبه المأثورة : إن ركب الحضارة الصناعية قد فاتنا طويلاً و ليس هناك سبيل للحاق به إلا السرعة ... السرعة ... السرعة ... و نحن نعلم أننا لن نسلم فى هذا السبيل من أخطاء السرعة و لكن حسناتها أعظم من أخطائها ألف مرة وقال فى خطبة أخرى : إننا سنستغل الائتمان فى الإنشاء وسنستعين على تنفيذ مشروعاتنا بالودائع وقال فى خطبة ثالثة : إن هذا البنك شركاته لا تؤلف عدة مشروعات و إنما هى كلها مشروع واحد .

هذه العبارات الثلاث هى خلاصة الموقف كله ، وفيها ينطوى سـر الأزمـة أخطـاء السرعة و استعمال الودائع فى إنشاء المشروعات (و الأصل فى الودائع أن لا تستغل على هذا الوجه لأنها تحت الطلب فى أى وقت) واعتبار أمـوال كـل شـركة ملكـاً للشركات كلها ، أى للمشروع العظيم كله .
فهناك بعض مخالفات للنظم الاقتصادية المعروفة و لكن طلعت حرب كان أميناً إذ أعلن هذه المخالفات مقدماً فى خطبه المتوالية ، لأنها السبيل الوحيد إلى الإنشاء ولولا هذه المخالفات – إذا صحت تسميتها كذلك – لما كان من المستطاع إنشاء تسع وعشرين شركة فى عشرين عاماً .
ولكى يستطيع القارئ أن يحكم للرجل أو عليه ، أقول : أكان من الخير أن يلجأ طلعت حرب إلى هذه المخالفات وهى السبيل الوحيد لإنشاء هذه الأعمال العظيمـة أم كـان الأفضل أن يلجأ إليها فلا ينشئ شيئا من هذه الشركات ؟
وسواء أكان هذا أم ذاك ، فما لا شك فيه أن زعيماً من زعماء مصر لم يخدم مصـر كما خدمها طلعت حرب .
بعنا الإصطبل
وكان الرجل يمقت الميسر ولا يطيق أن يضع يده فى يد رجل مقامر و كان إذا عرف أن موظفاً من موظفى البنك يقامر بادر بفصله على الفور لأنه كان يعتقـد – وهـذا صحيح – أن الرجل الذى يقامر مستعد دائما لأن يلعب بآخر ورقة فى يده ولو كانـت هذه الورقة شرفه ، فالمقامر لا يجوز أن يكون أهلاً لأى ثقة ولا يؤتمن على مال .
ومن الحوادث الطريفة فى هذا الصدد أن المرض اشتد بطلعت حرب فى عـام ١٩٣٨ فسافر إلى ألمانيا ليستشفى فى مصح جبلى بالغابة السوداء ، وبينما هو راقـد فـى مخدعه هناك ، يقلب بعض الصحف المصرية قرأ نبأ عابراً عن جواد فاز فى السباق وجاء فى النبأ أن هذا الجواد من إصطبل فلان وفلان هذا شخصية كبيرة فى مصـر ، وهو فى هذا الوقت ذاته مدير لإحدى شركات بنك مصر .

وما كاد طلعت حرب يقرأ النبأ حتى امتقع وجهه ونادى أحد مرافقيه فأملى عليه برقية وطلب إليه أن يرسلها إلى مدير الشركة صاحب ((الإصطبل)) والجواد السابق على الفور .

أما هذه البرقية فنصها : ((بيعوا جيادكم أو قدموا استقالتكم منتظر الرد بالتلغراف – طلعت حرب)) .

وفى مساء اليوم ذاته تلقى طلعت باشا من مدير الشـــركة المذكورة البرقية التالية : ((بعنا الإصطبل)) .

فنان و أديب

أستطيع أن أقول : إن من لم يصاحب طلعت حرب فى أواخر أيامه لـم يعرفـه حـق المعرفة فقد فرغ الرجل من جهاده الذى كان يأكل كل وقته ولا يترك له ساعة للراحة فلما اعتزل العمل و أخلد إلى الراحة تجلت شخصية طلعت حرب الأديب الفنان فقد كان يجمع حوله أصدقاءه والمقربين إليه فى أمسيات ممتعة ولا أزال أذكر أننى شهدت فى بيت طلعت حرب أجمل ليالى أسمهان .

وكان أسلوبه فى الكتابة فريداً فى جماله وكان ذواقة فى اختيار الألفاظ لا يحب كلمـة خشنة وكان يكره بعض الكلمات مثل ((قط)) و ((فحسب)) فـإذا عرضـت عليـه مذكرة فى أي شأن وبها كلمة كهذه الكلمات مزق المذكرة على الفور وقال لكاتبهـا : اذهب وتعلم جمال الأسلوب .

وكانت بينه وبين أمير الشعراء صداقة ترجع إلى عهدهما فى مدرسـة الحقـوق ثـم توثقت مع الأيام ، وكان طلعت حرب يحفظ أكثر شعر شوقي ، كما كان شوقي يبادلـه وفاء بوفاء وقد نظم فيه وفى أعماله أكثر من شوقيه .

أما مكتبه طلعت حرب – وهى الآن مكتبة الأميرة فريال بمصر الجديدة – فهـي مـن أندر المكتبات فى مصر ، وتتناول كل فرع من فروع الحياة ، من نحو وصرف وشعر وبيان وقصص واقتصاد وزراعة وتجارة وسياسة واجتماع وفلسفة ، وقد كان لـي

شرف تنسيقها فى بعض الأيام وكان رحمه الله يزورني وأنا مضطلع بهذه المهمة ، ويحدثني وأحدثه ، فأعرف من أمره أنه قرأ كل كتاب فيها .
ولا يفوتني فى نهاية هذا الحديث أن أذكر أنه فى أواخر أيامه كلفني بإعداد مشروع نشر بعض الكتب القديمة ومنها ديوان المرحوم حفني ناصف – وكان له صديقاً صدوقاً – وكتب بنفسه مقدمة ممتعة لهذا الديوان ، بيد أن المنية عاجلته فلم يتم هذا العمل الأدبي العظيم . رحم الله طلعت حرب ، إنه كان دنيا عريضة من الأدب .
الفصل الثاني : دولة طلعت حرب
كان طلعت حرب ، يتمنى أن يتسلم مقاليد الأمور في مصر ، و أن تتاح له فرصة تغيير أوضاع بلاده ، ابتداء بالشؤون الاقتصادية و المالية ، و انتهاء بشئون الفكر والثقافة والحياة الاجتماعية فقد كان له في كل هذه الأمور آراء ، و كانت له إلى جانب هذه الآراء في كل جانب من جوانب حياة المصريين ، نظرة شاملة ، تستند إلى ماضى البلاد ، و تقاليدها وتراثها الروحي . و لا تدع هذه النظرة ، ناحية مهما صغرت . كان لطلعت حرب برنامج سياسي شامل ، و لو طلب منه أحد أصدقائه الحميمين الذين لهم عليه دالة ، أن يفرغ إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة ، ليضع برنامج حزب ، على خلاف برامج الأحزاب التي كانت قائمة وقتذاك ، لما وجد في ذلك أدنى صعوبة .
نعم ، كان في وسع طلعت حرب أن يضع برنامج حزب ، و خطة عمل لهذا الحزب ، وكان سيجد لذة و متعة في أن يشرف على أجهزة الدعاية في هذا الحزب ، و أن يتولى توجيه – ان لم يكن تحرير – صحيفة الحزب .
ولكن طلعت حرب ، كان سياسياً نافذ البصيرة لذلك رد نفسه عن أن تستهلكه السياسة الحزبية . أدرك أنه على مواهبه التنظيمية ، و اطلاعه الواسع على شئون مصر ، و على صلته الوثيقة بكثير من كبار الرجال ، فضلاً عن قدرته القلمية التي تضعه في الصف الأول من كتاب أمته .. أدرك انه مع كل هذه المواهب ، لا يستطيع أن يحقق نجاحاً ما ، إذا ما خاض المعركة الحزبية و أنه إذا نجح فيها ، فلن يكون نجاحه إلا

نجاحاً في الظاهر ، سيكون به واحداً من هؤلاء الزعماء الذين ينقم – بينه وبين نفسه – على أساليبهم ، و على إهمالهم للجوهرى الرئيسي من حاجيات مصر .
لذلك قرر طلعت حرب أن يكون سياسياً من طراز جديد ، و أن يطرق ميدان السياسة لا من أبوابه التقليدية و لا من أبوابه الخلفية ، بل انه يشق لنفسه طريقاً جديداً لم تدب عليه الأقدام .
و قد كان ...
اختار طريق المال و الاقتصاد ، حيث يستطيع أن ينفرد و يمتاز ، و بدأ بالبنك ، ولكنه لم يكن البنك وحده ليشبع أطماعه الروحية ، و لا يحقق الخطة التي وضعها ، ليهيمن –ما استطاع – على حياة المصريين ، ليخرجهم مما هم فيه .
كان لابد أن يكون لبنك مصر ، على جوانبه الأربعة :
اليمين و اليسار ، و الأمام و الخلف ، أجنحة يبسط بها سلطانه الروحي والمادي على نواح لم تطلها يد البنك .
فكانت الشركات .
و لكيلا تظن أني ألقي القول على عواهنه ، أدعوك لأن تتأمل هذا الاتساع في الميدان الذي اختارت شركات بنك مصر العمل فيه .
قد يكون مفهوماً و طبيعياً أن يتجه بنك مصر ، و هو بنك بلد زراعي ، يلعب فيه القطن الدور الرئيسي ، في الاقتصاد و الاجتماع ، إلى القطن و تصنيعه في الأدوار المختلفة : من نقل و حلج و غزل و نسج وصباغة وتصدير وتجارة ، هذا ميدان طبيعي .
وقد تكون دار لطباعة دفاتر ومطبوعات البنك الكثيرة خطوة طبيعية أيضا ، بل قد لا تكون نشاطا يستأهل الوقوف أمامه ، فما أيسر أن يشترى البنك مطبعة كبرت أو صغرت .
و لكن ما شأن بنك مصر بالتمثيل إن فهمنا اهتمامه بالسينما باعتبارها صناعة وباعتبار حاجة البنك وشركاته والنشاط التجاري والصناعي كله إلى الدعاية ثم ما

شأن بنك مصر بالفنادق والسياحة والفنادق فى البلاد العربية وما مدى احتمال بنك ناشئ كبنك مصر لتكاليف شركات الملاحة البحرية وشركات الطيران وهو نشاط يؤود الدول و يهبط كاهلها و لكنها دولة طلعت حرب لا تكف عن مغازلة خياله ومداعبة خاطره وهو يستجيب لهذا الغزل و يضعف و سيلبى دواعيه و يخف لتحمل ضرائبه أنه حقا هيام .

لقد مر بنا قول طلعت حرب وهو يتحدث عن شركات بنك مصر ، إذ قال :

((وقد وفقنا الله فى ذلك فكان لنا فى هذه الفترة القصيرة – فترة الخمسة عشر عاما – أن ركز البنك فى السهل والجبل ، وفى الشرق والغرب وعلى الماء ومتن الهواء ، علم البلاد ... يخفق تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات بنك مصر ... بل باسم مصر كلها أو بعضها بعد أن طال احتجابه بين الظلام عهداً طويلاً)) .

وهذا كلام رئيس دولة . لا رئيس بنك .

وإن خالجك شك فى طبيعة النبرة التى يتكلم بها طلعت حرب عن الشركات فاستمع إلى هذا الكلام :

((لعلكم لاحظتم ونحن نسرد لكم شركات مصر أن هذه الشركات تكون حلقات متصلة بعضها ببعض ، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا)) .

((فالمطبعة والمكتبة والشركة المساهمة لصنع الورق حلقة)) .

((وللقطن حلقة تتمثل فى الحلج والنقل والتصدير والتأمين والغزل والنسج)) .

((ويتصل أيضا بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان)) .

((ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر ، والنقل فى البحر والنقل فى الجو)) .

((كما اتصل بهذه الحلقة مسألة السياحة)) .

((ومن اتصالنا بالبحر نشأت حلقة أخرى هى " حلقة السمك " وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف)) .

((ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات وتتبع كل ما تهم اذاعته ونعنى بها حلقة السينما والدعاية ، ثم إن لهذه الشركات التى مر ذكرها منتجات طيبة يصح بل يجب

أن تكون فى متناول جميع المصريين وغيرهم ففكر بعض " كبار المصريين " فى ذلك واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة " بيع المصنوعات)) .

الفصل الثالث : هموم وأشواق روحية

وإذا كانت هناك شهادة بأن طلعت حرب عظيم و بأنه كان زعيما موهوبا فهذه الشهادة مستفادة من أقواله عن العقلية المصرية والشخصية المصرية ، وهو مشغول بالأرقام والحساب و بالانتاج والتصدير وبالصناعة والزراعة كان خليقا ألا يفطن إلى هذه الدقائق الروحية و إن فطن إليه لم يعن بالتعبير عنها ، و إن عرفها لم يصل فى تعبيره إلى أغوار المشكلة و أعماقها ، فقد كرس نفسه لعمل له بدوره مشكلاته وهذا العمل جدير بأن يستأثر بانتباهه ..

ولكن العمل فى ميدان الحساب و الاقتصاد والمصارف والشركات كان ظاهر شخصية طلعت حرب أما باطنه فهو ارتباط عميق ووثيق بمصر بوصفها رسالة وموطن حضارة ووعاء ثقافة ثم باعتبارها أمانة ووديعة لديه .

قال يوما وهو يتحدث إلى طلبة مصريين فى فرنسا :

" نريد عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة ، نريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا نسعى إلى أن نربطه بماضينا كما نسعى أن نقوده و نسيره إلى مستقبل حسن ، والمستقبل وإن يكن بيد الله إلا أنه إلى درجة ما ، بين القوم ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" .

وقد أبدأ القول فى هذا المعنى و أعاد فقال :

" خذوا اليابانيين مثلا تروا أنهم اقتبسوا من أمم الغرب أشهى ثمرات العلوم والفنون ، غير أن عقليتهم بقيت يابانية وثقافتهم ثقافة يابانية مشتركة مع الأمم الغربية فى الأصول الثابتة من راس مال البشرية العقلى العام ، ولكنها عقلية مستقلة وثقافة مستقلة و إذا وجدت مثل هذه العقلية الممتازة فى أقلية ممتازة هى ذخر التقدم فى كل

عصر ، وفى كل بلد فإن ضوءها يمتد كضوء الفنار على سـواد المجمـوع فتصـبغ عقلية الأغلبية بصبغتها متخذة الجامعة وسيلتها ، و الجامعة سائقة المدارس " .

الفصل الرابع : ثلاث مدن

بدأ طلعت حرب بوصف المدن الثلاثة كل على حدة ثم أخذ يفيض فى المعانى القريبة إلى قلبه و التى تملأ عليه نفسه من روحية أولا واقتصادية ثانياً .

كانت زيارته للمحلة الكبرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ وبمناسب افتتاح فرع بنـك مصر بها فحيا أهلها بقوله أن مدينتكم أولى المدن المصرية جميعا بفرع لبنك مصـر بها لماذا؟ ، ثم أجاب على سؤال نفسه ليصف لهم مدينتهم وصفا لـم يفكـروا فيـه وإن فكروا عجزوا عن الاتيان ببعضه قال :

الآن مدينتكم جمعت بما يحيط بها من خضرة سندسية وما يتخللها من أبنيـة فخمـة عالية بين جمال الطبيعة الريفية وجمال العمارة فى المدن الناشئة .

أم لأنها مدينة قديمة قد نجهل اسمها الجغرافى عند قدماء المصريين وإن كنا لا نجهل أن منطقتكم هذه منذ أن تكونت الدلتا عروس الوجه البحرى فى الحضارة والعرفـان والعمران؟ أم لأن منطقتكم هذه كما امتزجت بمدينة قدماء المصريين امتزجت أيضـا بمدينة العرب التى اتخذها المصريون مدينة لهم وصقلوها بميزتهم الخاصة بفطـرتهم وذكائهم وذوقهم ؟ وبعد إذ فرغ من هذه المقدمة راح يلقى محاضرة عـن خصـائص مدينة المحلة ومزاياها ليقول كل ما يريد أن يقوله فى شئون التحول من الزراعة إلى الصناعة ومن عيوب مجتمعنا الزراعى الراكد ومن عيوب صناعتنا البدائية ومـن أن التقدم الصناعى لا يحتم أن يتوافر فى الدولة المواد الخام ومـواد الوقـود فالمهمـة والتنظيم و الإدارة تعوض الدول عما ينقصها من أسباب التطور والتغيير .

فالمحلة الكبرى – من وجهة النظر هذه – مدينة تستحق الإكبار و الإعزاز لأن فيهـا لونا من التوازن الاقتصادى والاجتماعى الذى يرجو أن يسود فى المجتمع المصـرى فهى نموذج المدينة المصرية التى يتناسق فيها الانتاج الزراعى مع الانتاج الصناعى

والتى ترينا ((كيف تتحرك المدينة من سكونها المحدود وسط الحقول إلـى المدينـة العامرة بالصنائع ، تتحرك الأيدى العاملة فيها كما يتحرك النحل فى خلاياه)) .
فالمحلة – بريئة إذن – من عيب تشكو منه المدن المصرية .
وقد كانت المحلة دوما مركزا نشيطا حيا لذلك فمن فضائلها أنها حفظت تقاليد الأجداد وسهرت عليها والدليل على ذلك ما قاله كلوت بك فى كتابه عن مصر من أن المحلة كانت وسطا صناعيا عظيما وأنها كانت واحدة من ١٥ وسطا للغزل والنسيج تنسج مليونى قطعة قماش .
ثم جاء دور دمشق ، التى زارها فى ٧ يولية سنة ١٩٢٥ وقد مر بنا ما قالـه فـى خطبته فى دار المجمع العلمى العربى من أن لدمشق منزلة خاصة فهو يشعر حين تطأ قدماه أرضها كأنه يطأ أرضا مقدسة لأن للمدن القديمة التى عاشت الأجيال الطويلة فى ظلمات التاريخ ثم اندثرت روحا يحس بها من جاس خلال الأطلال وناجى الآثار فما بالك بمن يجول فى المدن القديمة القائمة ؟ أليس فى تغلبها على تصاريف الزمان ومقاومتها حدثان الأيام ما يدعو إلى الإعجاب بها أيما إعجاب بل أليس لها روح قد تختلف عن روح المدن البائدة و لكنها روح يحس بها الزائر الغريب إذا مر بأرضها ؟ كأن أرواح سكانها الأقدمين والأقربين يهمسون فى أذن الإنسان ، لا يغرنك فيما تراه من أخيك الإنسان فكم دالت دول فى هذا المكان و تقلبت عليها حوادث الزمان ، فأصبحت فى خبر كان و بقى هو حيث يكون ... و إن فى هذا العبرة لقوم يعتبرون .
ولم تقنعه هذه الخاطرة الأدبية الطريفة والمناسبة تماما لقوم اجتمعوا فى مجمع علمى وفى دمشق مدينة البلاغة العربية الحديثة ، فأردفها بقوله :
ولمدينة دمشق روح يشعر بها القادم لأول مرة فى حياته فهى مدينة ربما يكون قد بنى فوق أرضها أول حائط بناه الإنسان بعد الطوفان ، وربما يكون بناها (دماشق) ابن قانى أحد أحفاد سام بن نوح ، أو بناها سواه قبل ميلاد إبراهيم الخليل فهى مدينة يناطح تاريخها أقدم المدن فى الشرق ، وإذا قلنا الشرق فقد عنينا اقدم قارة مأهولة بالسكان سطع من أرجائها نور المدنيات القديمة على العالم الحديث ، ثم حدث أهل

دمشق عن تاريخ دمشق الإسلامية ، دمشق عاصمة الأمويين ودمشق التى بنى لهـا الوليد بن عبد الملك الجامع الأموى الذى لا يزال من أعظم الجوامع وأفخمهـا علـى الإطلاق ودمشق الصحابة والعلماء والشعراء .

وفى نفس السنة سافر طلعت حرب إلى باريس فأقامت له الجمعية المصـرية هنـاك احتفالا فى الثالث والعشرين من سبتمبر وعلى الرغم من أن المحتفلين ليسوا من أهل باريس و لكنهم من الذين قصدوها طالبين للعلم ، و أغلب الظن أنهم أحبوها و لـذلك فهم يحبون الذي يحسن الحديث عنها ومن ثم فلابد أن يكون كلام طلعت حرب عنهـا الذي يشبه الغزل فى حسناء قد أسكرهم وهز أعطافهم قال : باريس كانت وسـتكون دائما أجمل مدينة غربية تجذب إليها السائحين بجمال آثارها وحسن هندامها و فسيح شوارعها و عديد مبانيها و تنسيق غاباتها و نهر سينها ينساب فى وداعة و هـدوء فيمس ماؤه جدران الكنائس الكاتدرائية ، والقصور التاريخية ومعاهد العلوم والفنون ويمر تحت الجسور و ينتقل من حي رشيق إلى أرشق حتى ينتهي إلـى الضـواحي الغناء وكأنه قد ثمل بمسه جدران الآثار وحيطان الديار فيتغنى إلـى مصـبه يـذكر الماضي الجليل والحاضر الجميل و إذا كان هذا شعرا فاسمع هذا الكلام عن مسـارح باريس تعجب أن يصدر عن رجل درس القانون ، وانقطع الاقتصاد و شغلته شـواغل المصارف والحسابات فقد قال : (المسارح فى باريس) يرجع عهدها إلى مـا قبـل موليير وفيها الروايات قد انتحى فيها المؤلفون نواحي مختلفة من الوصف والخيـال والحقيقة والواقع و تصوير الشعور والنفسيات الحائرة والطبائع البشرية على الناطق أغنى المسارح قدرة على تصوير الإنسانية فى اسمي عواطفها الراقية وفـى تحليـل عيوبها على غير إيذاء للنفوس .

ثم يتكلم عن دروب اللهو الأخرى فى باريس فلا يقول هذا الكلام المكرر المعاد الذى لا شك أن الآذان تمجه والذى لا يقوم معوجا ولا يهدى ضالا ولا يعدو أن يكون فرصـة لإظهار بلاغة المتحدثين وتقواهم وشدة ورعهم قال طلعت حرب :

لما كنت غير واعظ ولا أحب أن أكون واعظا لأنى أعلم أن وعظى سيذهب صرخة فى واد فإن كل ما أرجو أن يدخلها بحذر من يدخلها (أى نوادى باريس وكباريهاتهـا) والغرز كما ترجم لفظ كباريه .

وفسر نفسه بقوله : نعم إنه يكون من الشاق على الطالب الأجنبى أن يضـغط علـى شبابه ويقاوم فى هذا الوسط الجذاب الخلاعة المحيطة به وإنى لا أستطيع أن أقسـو على الشباب فأتجاهل طبيعته و أنكر حقه فى اللهو و إنشراح النفس والحبور ولكـن هناك لهو و لهو كما يقول أهل هذه البلاد .

و بعد أن وصل طلعت حرب إلى هذا الوضع كان من حقه أن يتحدث عن باريس العلم فقال : إن باريس العلم ، هى باريس السوربون و أن السوربون يطلق علـى كليـة الآداب والعلوم كما قد يطلق على معهدين ملاصقين لهما روحا وجسدا هما كوليج دى فرانس ، ومدرسة الوثائق القديمة ، وهى معاهد تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس ، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتد النور إلى كلية الحقوق ، ومن علومها الوضعية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعى يمتد ضياء آخر إلى كلية الطب ومنها جميعـا يشرق نور الجامعة الكبرى إلى بقية الجامعات فى الأقـاليم و يـنعكس إلـى قبـاب الأكاديميات الشهيرة فى سرايها فوق نهر السنين .

وهذه السطور القليلة التى كتبها طلعت حرب ، ثم ألقاها على أبنائنا فى فرنسا ١٩٢٥ تبدو هينة لأنها تورد معلومات بسيطة و قليلة عن السوربون وكلياته وعن دوره ثـم دور المعاهد الملحقة ثم دور الجامعات جميعا فى فرنسا و لكنى أرى أن كتابـة هـذه السطور شاقة إذ ليس فى الوسع أن تذكر هذه الحقائق القليلة بهذه البسـاطة إلا إذا كنت تعلمها وتعلم غيرها مما يتصل بها علما واضحا بينا ثم أن تستخلص مـن هـذه المعلومات مدلولاتها الفكرية والروحية بهذا الإيجاز ، و أن تؤديها بهذه الإبانة فيـدل دلالة على ملكة بيانية أصيلة وفريدة معا .

الإرشاد القومي عند طلعت حرب :

طلعت حرب رجل حريص على أن يقدم نفسه إلى الناس فى إطار من الوقـار بغيـر إلحاح ولا مبالغة فى التحدث عن علمه أو الإشادة بفضله و لكنه كان يعلم شدة حاجته كزعيم سياسي يتخفى فى ثوب اقتصادي إلى الدعاية و لست أشك لحظة فى أن الناس الذين سمعوا طلعت حرب فى الليلتين المتعاقبتين ، قد بهرهم أسلوب طلعـت حـرب الرصين ولغته العالية الرفيعة وعلمه بشئون السينما كما أسعدهم هذا الخيال الممتـع اللذيذ ، خيال أن يتوافر لهم ، جهاز سينما إخباري تثقيفي تعليمي تسجيلي دعائي وقد بقى قول الشاعر: " فليسعد النطق أن لم يسـعد الحـال ".شـعاراً جمـيلاً ومتجـدداً للمحرومين فى كل زمان ومكان ... فالخطاب حقق لطلعت حرب نفعا كبيرا إذ أطلـع الناس على علمه وعلى أدبه وعلى طموحه وعلى ما يعتزمه لبلده فى حقل السـينما من مشروعات بعيدة المدى عظيمة الأثر بالغة القيمة .

على أنه إلى جانب هذه المصلحة المباشرة والشخصية فقد حقق الخطاب مصلحة لبنك مصر وشركاته خيرا لأن الخطاب كشف للناس ما يشغل بال القائم على هذا البنك وتلك الشركات من أفكار وما يساوره من آمال وما يعده لبلده من أعمال .

على أن الحافظ الرئيسي و الأصيل وراء هذا الخطاب هو أنه ينفس عما تمتلـئ بـه نفس طلعت حرب من الرغبة المتأججـة ، لما لا نستطيع أن نسميه إلا بلفظي (الإرشاد القومي) وقد يحسن أن نقف هنا قليلا لنميز بين ثلاثة أنواع من النشاط ، يدخل فى ميدان الدعوة ويختلط بعضه ببعض عند الناس مع أن لكـل منهـا هدفـه ووسيلته ، وعقليته و أسلوبه وهى :

أولاً : الدعاية .

ثانياً : الإعلام .

ثالثاً : الإرشاد القومى .

كل أولئك دعاية و توجيه و إعلام وإرشاد وتوعية وتثقيف ولكن الدعايـة هـى أولا وقبل كل شئ إبراز الحسن من عمل الدولة أو الشركة أو المؤسسة أو الجماعـة أو

الحزب والمبالغة فى إظهاره ثم هى ستر للعيب والإسراف فى التغطية عليه وإنكاره واتهام القائلين به أو المشيرين إليه بسوء الغرض ثم هى كشق عورات العدو الحقيقية والمبالغة فى مداها و الإلحاح فى ذكرها والعودة إلى ذلك والمثابرة عليه ، ثم خلق ما لا يوجد من العيوب وإنكار كل خير للعدو وصرف الأنظار عن أفعاله وشغله بما يمنعه من التحدث عنها .

أما الإرشاد القومى فنشاطه يوجه أولا وقبل كل شئ إلى أبناء الوطن فى الداخل وهو لا يعنى الدعاية وحدها بأهدافه التى حددناها وعددناها وإنما يعنى إلى جانب أهداف الدعاية السياسية الوطنية أو الحزبية الداخلية هدفا قوميا يمتزج فيه التعليم بالإعلام والثقافة القومية بالتوجيه فهو لا يدعى أنه محايد بحيث يقتصر عمله على وضع المعلومات والأنباء المجردة تحت نظر أو سمع من يوجه إليه الإعلام كما لا يبغى أن يلوى أذهان الناس ليتلقوا ما يريد أن يلقنهم إياه لأنه إلى جانب هذه الغاية التى قد تحتاج إليها الدولة تبقى حاجتها إلى الإرشاد القومى وهى رفع مستوى الذوق عند المواطنين وتزويدهم بمعلومات عن وطنهم ، وتاريخهم وثقافتهم وفنونهم ، وأمجادهم وأبطالهم ، وعن صلات بلادهم بالذين حولهم وبالعالم كله وتهيئتهم للبذل والتضحية والابتكار والخلق والتعلم والمجازفة واستثارة أفضل صفاتهم و أخلاقهم كل ذلك بالعمل الفنى من مقال وكتاب وصورة ومعرض ورحلة وشريط و اسطوانة ومناظرة ومحاضرة ومتحف ، فالإرشاد القومي ليس عدو الثقافة فلا هو يمسخها ولا يزيفها ولا هو عدو للجيد أو الأصيل أو الصادق أو الجميل أو الرقيق ، بل إن هذا كله هدفه ووسيلته معاً ، وقد كانت حاجة بلادنا إلى هذا الإرشاد القومي شديدة فى جميع أدوار حياتها الحديثة وقد بقى مرفقا مهجوراً ومهملاً ، و لكن طلعت حرب بوصفه مؤسس دولة كما قلت وكررت كان شديد الإحساس بالحاجة إلى إقامة هذا المرفق والاهتمام به والإنفاق عليه و السهر على تجديده و توسيعه ولقد عبر عن هذا الشعور بأحسن أسلوب وأوضحه فى خطاب يومي ٢٩ ، ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧ م ، وسنوجز هذا

الخطاب وننتقل مع فقراته التى تمثل كل فقرة منها جانبا حيويا من جوانب الإرشـــاد القومي فى أعلى صوره و أوسع آفاقه :

بدأ طلعت حرب بأنه كان يتمنى أن يعرض على ضيوفه بدلا من الأشـــرطة القصـــيرة رواية مصرية ، مصرية فى موضوعها وفى أشخاصها وفى مناظرها وفى صـــناعتها ومجرد التشوق إلى رواية سينمائية مصرية علامة على إحساس قومي وفني صـــحي وسليم ولكنه اعترف بأن إخراج رواية عموما ومصرية خصوصا أمـــر فـــوق طاقـــة الشركة وقدرتها فى المرحلة التى كانت تمر بها سنة ١٩٢٧ ، العام الذي ألقى عيـــه خطابه .

ثم تحدث عن اختراع السينما سنة ١٨٩٥ ، وما للرواية السينمائية من أثر فى جذب المشاهدين وبما تدفعه شركات السينما من أجل إنتاج روايات عظيمة من جهد ومـــال وما تلتزمه من نظام وتخصص ، وقد بالغ فى تناول تفاصيل لم يكن بحاجة إليها لولا رغبته فى الإدلال بعلمه فى أمور يبدو أنه بعيد عنها فقال مثلاً : فبالإشـــارة وحـــدها الإشارة باليد وخصوصا الإشارة بالعين يتفاضل الممثلون الماهرون بعضهم عن بعض ولست أدرى ما المقصود بالإشارة بالعين التى يتفاضل بها الممثلـــون بعضـــهم عـــن بعض عند طلعت حرب ، ولكنها عبارة تدل على مدى اهتمام طلعت حرب بهذا اللـــون من الإنتاج . وخرج من هذا إلى تقرير حقيقي لا يعارضه فيه أحد إذ قال : فالســـينما أكبر اختراع عصري صادف هوى فى النفوس فأصبح قوة جذابة من قوى العصـــر ، وسيبقى كذلك مع توالى العصور سيما و أن التحسينات المتوقعة له فوق ما يتصوره العقل .

وقد كان كلام طلعت حرب صحيحا وكانت توقعاته صادقة وصائبة . ثم تحـــدث عـــن خطر السينما على الأخلاق لعرضها صورا منحطة من الناس كما ظهرت على الشاشة الجرائم وكيف تدبر والجنايات وكيف ترتكب وشغله كذلك ما يتعرض له أطفالنا مـــن خطر مشاهدة هذه الروايات وقال إن الامتيازات الأجنبية قد تحول دون إصدار تشريع يمنع هؤلاء من ارتياد الأفلام الضارة .

ثم عاد يتحدث عن الأمل الذي يساوره فى إنتاج روايــة مصــرية ســينمائية يمكــن عرضها فى مصر والبلاد الشرقية المجاورة ، فقد كان إلى هذا التاريخ لا يستعمل لفظ البلاد العربية ثم تحدث عن مصنع للسينما فى مصر وذكر التفاصيل الفنيــة المكونــة لهذا المصنع من تصوير وتحميض وآلات لوضع العناوين (وآلات ومعــدات أخــرى يطول أمر بيانها) و أعلن عن المتاعب التى عاناها فى تكــوين (جماعــة الفنيــين اللازمة لأعمال المصنع حتى انتهينا منذ عامين إلى استخدام جماعــة مــن الفنيــين الأوربيين القادرين) ثم تساءل بقوله : وجد المصنع ووجد العمال فماذا نصــنع بــه وبهم ؟ ... ثم تحدث عن سينما الدعاية السياسية و أطال فى الحديث عــن الأفــلام التعليمية وعن أن السينما سلاح عصري للتعليم لا غنى لمصر عن اســتخدامه فــى إرشاد سواد الناس إلى ما يراد إرشادهم إليه ، حتى تزول الأمية وفى تعلــيم الطلبــة والتلاميذ فى مدارسهم أسوة بالدول الأجنبية الراقية وفى إفــادة الخاصــة بتعــريفهم أشياء قد لا يعرفونها قبل أن يروها فوق اللوحة البيضاء .

وبهذه الكلمات لخص رسالة السينما فى رأيه ولخص مفهومه للإرشاد القومي . هذه هي وظيفة السينما عند طلعت حرب وهى وظيفة المسرح عنده فطلعت حرب أســس شركة التمثيل والسينما معا و أقام مسرح الأزبكية وكان ثاني مسرح بنــى خصيصــا للتمثيل بعد مسرح الأوبرا ، فمسارح العاصمة الأخرى كلها أو أكثرها على الأقل لــم تبنى لهذه الوظيفة .

وفي الأوان نقول : إن طلعت حرب باشاً ، ليس من رواد التنوير فقط ، بل هو رائــد للتنوير في مجال صعب للغاية ألا وهو التنوير الإقتصادي ، حيث أن بــه حساســية شديدة ، ولكن طلعت حرب كان نموذجا للتنوير الاقتصادي الحقيقي من الشعب وإلــى الشعب بدون أستغلال ، وبدون جشع ، ولكن تنوير بالحب والعمل والإنتاج ...

الكاتبة الصحفية : ليلى البرجي

هدى شعراوى
والنضال المصرى

إعــداد

نجوى فــؤاد

نائب رئيس تحرير جريدة الجمهورية

استهلال :

قد يحسب من يحسب.. أنها واحدة من النساء المناضلات من أجـل حقـوق المـرأة فحسب ! لكن.. من يتأملُ تاريخ هذه المرأة جيداً.. يؤمن أنها واحدة من المناضـلين المصريين، الذين يعدون على أصابع اليدين فى سبيل حرية الـوطن، والتحـرر مـن جبروت الاحتلال ! وفى سبيل ذلك سلكت جميع السبل، بدءًا من البرقيات والخطابـات والاجتماعات والندوات والمؤتمرات الداخلية والخارجية، وانتهاءً بالمظاهرات والكتابة الثائرة فى الصحف والمجلات .

عاشت هدى شعراوى فترةً صاخبةً فى تـاريخ مصـر، مليئـةً بالأحـداث، زاخـرةً بالتضحيات فى سبيل الحرية، فكانت أحد الأضلاع الهامة فى دعاوى التحرر الـوطنى مما كان يمكّن من وضعها فى مصاف الزعماء السياسيين- لولا أنها امرأة عاشت فى زمن اليشمك والنقاب، والاحتماء خلف الستائر والأبواب المغلقة، واعتبـار المكـان الوحيد للمرأة هو بيتها.

إن جنازة هدى شعراوى، وما كتب عنها فى الصحف والمجلات بعد وفاتها، ليؤكد هذه الحقيقة.. إنها مناضلة ثورية قوية العزم والشكيمة، ناضلت فى ميدانين معاً فجعلتهما ميدانًا واحدًا لا يتجزأ.

الأول: هو حرية الوطن وتخلصه من نير الاحتلال والعبودية...

والثانى: هو حرية المرأة وتخلصها من استبداد وسيطرة العادات والتقاليد البالية والمفاهيم العتيقة التى تحولُ دون تقدم المجتمعِ.

صحيح أن تلك المرأة التى ولدت بالمنيا عام ١٨٧٩ كانت ربيبة القصور.. فهى من أسرة ثرية رائدها محمد سلطان باشا.. الضابط الكبير بالجيش- إلا أن ذلك لم يبعدها أبداً عن إدراك حاجات الشعب وآماله فى الحرية والتطور؛ وأهلتها لذلك ثقافتها العالية ومعرفتها للغات التركية والفرنسية، والاطلاع الواسع، إضافة إلى حفظ القرآن الكريم منذ صغرها، وتعلّم قواعد النحو والأدب والشعر والموسيقى وقراءة كتب التراث.

عندما نادت بالتخلص من البرقع الذى كان تراثاً مهماً.. كانت تنادى بالتخلص من فظاعة الظلمة التى كانت تغرق فيها بنات جنسها، وقد حاربت الأمية التى غطّت الريف المصرى وامتدت إلى المدينة، كما سعت من أجل فتح باب التعليم الثانوى للفتيات، ووجهت كل جهودها لتحقيق أمل فتح الجامعة المصرية التى كان يدعو لإنشائها الزعيم مصطفى كامل، وأيدت دعوة قاسم أمين لحرية المرأة المصرية ونهضتها.

وبنفس القدر من الاهتمام.. حاربت هدى الزواج المبكر والطلاق وتعدد الزوجات وبيت الطاعة، والبغاء، والمسكرات والمخدرات، وأرست قواعد جديدة للخدمة الشعبية، ودعت إلى مشروع لدعم وتشجيع الفنانين المصريين.

ولم يقتصر نضال هدى شعراوى داخل حدود مصر فقط، بل اتسع ليمتد إلى الشرق كله، فكانت دائمة التأكيد على أن: " أولئك الذين يعلنون أنهم المدافعون عن الحق والحرية هم أنفسهم الذين ينهالون ضرباً على تلك الشعوب العربية اليوم بوحشية شديدة كى يؤمنوا النصر لأنفسهم !! ".

وفى سبيل نشر دعوتها.. أسست هدى شعراوى مجلة (المصرية) لتكون منيراً حـــراً لنشر مادعت إليه من آراء وأفكار فصدرت باللغة الفرنسية أولاً عام ١٩٢٥ثم دعمتها بمجلة (المصريةً) باللغة العربية .

ولكى نتبين ملامح نضال السيدة (هدى شعراوى).. لا بد من أن نوضح ملامح الفترة التى بدأت فيها العمل الوطنى- وهى فترة زعامة المناضل المصرى (سعد زغلـــول) زعيم الحركة الثورية وزعيم ثورة ١٩١٩ وما بعدها .

لكن.. لابد من توضيح حقيقة هامة، وهى أن هذه الفترة لم تأت أبداً من فراغ، لكنها امتداد طبيعى لثورة الزعيم المناضل (أحمد عرابى)، وما اتفق عليه فى زمنـــه مـــن حركة توقيع التوكيلات من فئات الشعب المختلفة، لاختياره ممثلاً شرعياً لهم، وقائـــداً لحركة مقاومة الاحتلال الإنجليزى لمصر.

وقد امتدت حركة التوكيلات بعد ذلك مع ثورة (سعد زغلول) وهى الحركة التى أظهرت العديد من الزعماء السياسيين الذين قادوا حركة النضال ضد الاحتلال، ومـــن بيـــنهم (هدى شعراوى) ..

حركة النضال الوطنى
وظهور شخصية هدى شعراوى

عرفت التوكيلات مع حركة النضال الوطنى بقيادة (أحمد عرابى). الذى بدأ الـــدعوة للعمل الوطنى الموحد حين أنشأ جمعية سرية فى الجيش عام ١٨٧٦، وكانت تضـــم عدداً لا بأس به من الضباط الذين حرموا من الترقيات التى كان يتمتع بهـــا الأتـــراك والشراكسة. ولم تكن تلك فقط بالطبع هى أسباب الثورة- لكن الأسباب المعروفة من استبداد الخديوى وحرمان الشعب ومعاناته، وهذه هى الدعامة الأولى لشعبية عرابى وزملائه .

كانت المحاولة الثورية الأولى لعرابى فى أول فبراير ١٨٨١ بتقديم أول عريضة من الجيش للخديوى، وقد نجحت المحاولة وقبلت العريضة.

من هنا انطلق عرابى للدعوة إلى العمل الوطنى الموحد تحت لواء الحزب الوطنى، الذى انضمت له عناصر وطنية من الجيش، إلى جانب العناصر المدنية الأخرى .

كان انضمام الثائر (عبد الله نديم) إلى حركة عرابى.. بداية لانطلاق الثورة حين أشار على عرابى بإصدار منشور تحدد فيه الأهداف السياسية للحركة، وأناب النديم الزعيم أحمد عرابى بالإعراب عن الأمة عن طريق التوقيع على توكيل.

وكانت تلك هى البداية لانطلاق حركة التوقيع على التوكيلات فى الأشهر الأولى من عام ١٩١٩ والتى انطلقت مع ثورة (سعد زغلول).

انتهت حركة عرابى نهاية قاسية بالهجوم الإنجليزى على مصر فى ١١ يوليو ١٨٨٢، وضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى، وانتهت بهزيمة مفجعة تم فيها تسليم مدينة القاهرة.

ومن الإنصاف أن نذكر أن (عرابى) استمر يناضل ومعه نحو ١٠ آلاف جندى، انضم إليهم عدد من المتطوعين فارتفع العدد إلى ١٠٠ ألف جندى ومتطوع من الرجال والنساء، مصممون على القتال حتى اللحظة الأخيرة التى دخل بعدها الإنجليز إلى القاهرة مباشرة، وتم تحديد إقامة عرابى فى بيته حتى وفاته .

ثم كان (مصطفى كامل) القائد السياسى الشاب.. الركيزة الثانية بعد ثورة عرابى، وقد رأى أن المسألة المصرية مسألة دولية تقتضى- نظراً لأهمية مصر- الاهتمام الدولى، كما رأى أن الإعلام يلعب دوراً هاماً فى شرح القضية المصرية ضد الاحتلال البريطانى.

لقد وضع (مصطفى كامل) برنامجاً واضحاً لحزبه يعتمد على عقد الصلات مع رجال السياسة وذوى الرأى الحر من النواب والشيوخ والصحفيين الأجانب، والاتصال بالجاليات الأجنبية المقيمة فى مصر لتوعيتها بآثار الاحتلال الإنجليزى، إضافة إلى دعوة بعض كبار الشخصيات الأوربية المهمة لزيارة مصر ومعرفة ما يجرى بها.

وكان إيمانه شديداً بأهمية الإدلاء بالأحاديث الصحفية لمراسلى الصحف ووكالات الأنباء فى كل بلد يزوره، بالإضافة إلى الصحافة ونشر المقالات بالصحف المصرية، ثم أسس جريدة (اللواء) عام ١٩٠٠ لتكون منبراً حراً للحركة الوطنية مع صحيفتين باللغة الإنجليزية والفرنسية بنفس الاسم.

قضى (مصطفى كامل) ١٨ عاماً يدعو لمقاومة الاحتلال- ليس بالسلاح فقط؛ بل أيضا بالعلم كقوة يحتمى بها ضد أعداء الوطن. من هنا دعا إلى مشروع الجامعة المصرية. وتأسست وفق دعوته لجنة تأسيس الجامعة بعد تكوين لجنة اكتتاب وطنى لإنشائها عام ١٩٠٦ فى بيت (سعد زغلول)، واختير سعد وكيلاً للرئيس (مصطفى كامل)، و (قاسم أمين) سكرتيراً.

لقد دعا (مصطفى كامل) إلى إقامة حزب حقيقى بشكل نظامى ولائحة ولجنة إدارة لخدمة البلاد ومقاومة الاحتلال، فطالب المواطنين بضم الصفوف من أجل الدستور والاستقلال، وتجمَّع المواطنون من كل حدب وصوب يقدمون التوكيلات للزعيم مصطفى كامل.

وكان أحد الذين وقفوا منذ اللحظة الأولى إلى جانب مصطفى كامل.. صديقه الوفى (عمر سلطان باشا).. الأخ الأصغر (لهدى هانم شعراوى) ربيب البيت الذى شهد من قبل وقوف عميده سلطان باشا (والد هدى وعمر) إلى جانب صديقه عرابى.

لكن يد المنون امتدت إلى قلب الزعيم الشاب، قبل أن يحقق أحلامه وأحلام مصر وعمره (٣٤ عاماً) لكن حركة التحرر الوطنى لم تتوقف واستمر النضال الوطنى فى ظل حركة نضوج هائلة.

بداية مسيرة

حياة هدى شعراوى

لقد كانت بداية عملها الاجتماعى هى جمع التبرعات لإنشاء (مبـرة) تعلـيم البنـات وتعليم واجبات الأمومة والعناية بصحة الطفل والتدبير المنزلى، ثم جمعت التبرعـات لإقامة الجامعة الأهلية التى دعا إليها مصطفى كامل وتوفى قبل افتتاحها.

وقد ارتبطت مسيرة هدى ارتباطاً وثيقاً بأسلوب مصطفى كامل وزعامته، فقد جعلـت منه مثلها الأعلى فخاضت الحقل الاجتماعى، وكان أول ما يشغلها هـو كيـف ترفـع مستوى المرأة المصرية لتساهم فى بناء وتحرر وطنها، فكانت بذلك زعيمة سياسـية أكثر منها مصلحة اجتماعية، وبسببها لم تكن لجنة الوفد النسائية أبداً ظلاً للجنة الوفد المركزية، بل كان لها رأيها الحر النابع من إرادتها القوية وموقفهـا الواضـح ضـد المستعمر الإنجليزى.

قيام أول حركة نسائية سياسية

بقيادة هدى شعراوى

كانت قمة نضوج حركة التحرر الوطنى الشعبى فى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وكثرت تحركات العمال والنقابات التى قادت الشارع المصرى إلى الاعتصامات وتفجير طاقات الشعب نحو التحرر من الاستعمار البريطانى. وبعد أن انتصـر الحلفـاء فـى الحرب العالمية الأولى.. ظهرت المعاهدات السرية ومن بينها (وعـد بلفـور) الـذى أعطى فلسطين كدولة قومية لليهود.

واستمر الاحتلال الإنجليزى رغم دعاوى الحرية التى أطلقها الإنجليز أثناء الحـرب، وظهرت حقيقة الحلفاء بتدعيم الاحتلال وإعلان الحماية البريطانيـة علـى مصـر،

وتفويض المندوب السامى فى حرية إدارة الاقتصاد المصرى كيفما شاء.. فـازدادت الديون وسادت الأمية.

من هنا انطلقت حركة الزعيم سعد زغلول الذى كان أحـد المشـاركين فـى الثـورة العرابية، والذى اعـتقل أثناء الثورة وخسـر وظيفته، ثم زاول المحاماة وتعرض للسجن .

كان أمل كل الشعوب المستعمرة فى ذلك الوقت هو الوصول لمؤتمر (باريس) وطلـب الاستقلال ، ومن بينها شعب مصر الذى وجد فى هذا المؤتمر فرصة لتحقيـق آمالـه وأمانيه فى الاستقلال التام والتخلص من الاحتلال البريطانى . ومن أوائل من بـادروا بالدعوة لتشكيل وفد مصرى للمشاركة فى المؤتمرالأمير عمر طوسون، وسعد زغلول باشا، وعدلى يكن باشا، وعلى شعراوى باشا " زوج هدى شعراوى "، ومحمد محمود باشا وغيرهم ...

التقى أولئك الزعماء لاختيار أعضاء الوفد من بين أعضاء الجمعية التشريعية المشكلة بمقتضى القانون الصادر فى أول يوليو ١٩١٣ والتى ظلت قائمة حتى نهاية الحـرب العالمية الأولى. تشكل الوفد برئاسة سعد باشا زغلول، وكانت مبادرة على شـعراوى باشا بتقديم كافة نفقات الوفد المادية. وفور إعلان الهدنة فى ١١ نـوفمبر ١٩١٨ ، ذهب الوفد لمقابلة المعتمد البريطانى لعرض مطالبهم المتمثلة فى استقلال مصر التام عن بريطانيا ورفع الأحكام العرفية وإلغاء مراقبـة الصـحف والمطبوعـات ، إلا أن المعتمد البريطانى رفض هذه المطالب .

وهنا كان لا بد من تضافر الجهود، فاقترح سعد السفر إلى لنـدن لعـرض القضـية المصرية هناك ، فما كان سلطات الاحتلال البريطانى إلا أن اعتقلـت سـعد ورفاقـه (محمد محمود) ، (ومحمد الباسل)، (وإسماعيل صدقى)، وتم نفيهم إلـى جزيـرة (مالطة) .

وفى ذلك اليوم أعلنت هدى شعراوى عن قيام أول حركة نسائية سياسية فى مصر من خلال دعوتها إلى تشكيل لجنة نسائية وفدية تضع كل قواها تحت تصــرف الثــورة، وتحت تصرف سعد .

جنة الوفد النسائية

انتخبت هدى شعراوى رئيسة للجنة الوفد النسائية بأغلبية الأصوات، وكان من أبــرز مهام اللجنة: المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تامــاً... فانهالــت برقيــات التأييــد، والتوكيلات من المواطنات.

بدأت اللجنة أعمالها بخطوة سياسية واضحة، فقد وجهت خطاباً مفتوحاً فــى غايــة القوة لأعضاء لجنة (ملنر) التى وصلت مصر للتحقيق فى قضــية الثــورة الشــعبية المصرية عام ١٩١٩. وكانت لهجة الخطاب الذى كتبته هدى شعراوى تؤكــد ثــورة الشعب بسبب سوء الإدارة البريطانية التى تمهد الطريق لضم مصر نهائياً لبريطانيــا من أجل ضمان استمرار تحقيق المصالح البريطانية. فتقول فى بعض منه: " وعلــى ذلك نكون قد سرقنا فى ظلام الليل، فى الوقت الذى أمكن إنجلترا فيــه أن تفــاوض الدول الأخرى على ضحايا مماثلة " ثم تؤكد على أنه إذا أرادت انجلترا أن تحافظ على سمعتها وشرفها وتكسب احترامنا وصداقتنا، فعليها أن تقوم بتنفيــذ وعودهــا التــى قطعتها فتقرر فى الحال محو الحماية وإبطالها، وتعلن استقلال مصر".

ثم تصل فى النهاية إلى حقيقة مؤكدة إذا رفضت بريطانيا ذلك وهى صاحبة الجــيش والأسطول والطائرات ، فتقول : " ولكننا سنحتج ونتكلم وسنحارب بلا ســلاح حتــى نروى أرض آبائنا بدمائنا " . هكذا كانت لجنة السيدات تجتمع بصفة مستمرة وهــى موقنة بأن الجهاد المنظم هو السبيل الوحيد للاستقلال .

حرصت هدى شعراوى منذ اللحظة الأولى التى انتخبت فيها رئيسة للجنــة علــى أن توجه بيان احتجاج إلى الشعب المصرى، وبيان آخر إلى العالم المتمدن..تحتج فيــه

على بلاغ "ملنر" الأخير ضد كرامة الشعب، وعلى الأعمال الاستبدادية ضد الزعماء المصريين بنفيهم، كما تحتج فيه على المعاملة السيئة للنساء فى مظاهراتهن الوطنية وتؤكد فيه على ضرورة استقلال مصر التام. وفى نفس الوقت أرسلت اللجنة برقية احتجاج إلى رئيس الوزراء ضد إطلاق الرصاص نحو المتظاهرين، واعتداء الجنود على الأهالى، وضد تشديدِ الأحكام العرفية فى طنطا.

اجتماعات دائمة

استمرت اجتماعات لجنة المرأة واستمرت برقيات الاحتجاج التى ترسلها إلى رئيس الوزراء وإلى سعد زغلول ولجنة الوفد المركزية، وإلى الصحف.. تعبيراً عن رفض استمرار الأحكام العرفية، ومصادرة الحريات الشخصية، وتعذيب المعتقلين واستمرار احتجازهم، وتعطيل الدستور ، واعتراضاً على وضع القوانين والأنظمة المختلفة بدون عرضها على الأمة ...

وكانت تلك البرقيات سبباً فى أن يصدر الاحتلال قراراً باعتبار اجتماع الهيئات النيابية المصرية أو أعضائها جريمة تستوجب محاكمة أصحابها أمام المحاكم العسكرية الإنجليزية!

ولقد نادت هدى شعراوى ــ بوضوح تام ــ من خلال لجنة المرأة بالاستقلال التام وبطلان الحماية، واحتجت على ما لحق بالبلاد وأبنائها على يد الإنجليز من صنوف الاعتداء على الأرواح والأموال والحريات على ما قام به الوفد المصرى من جهاد فى سبيل الاستقلال .

الإضراب العام

نتيجة للأحوال المتردية التي عانت منها البلاد ، وخاصة مايتعلق بنفى واعتقال زعماء الأمة وعلى رأسهم الزعيم سعد زغلول ، تم إعلان إضراب صباح ١٠ مارس عام ١٩١٩ امتدَّ لجميع الموظفين والعمال والطلبة، واستمر مدة طويلة مما دفع

السلطة المصرية إلى تهديد المضربين بالفصل والعقاب إذا لم يكفوا عــن إضــرابهم واجتمع أعضاء الوفد مع رئيسه الذى ينوب عن سعد زغلول وقرروا مقابلة مندوبين عن السلطة الإنجليزية بفندق (سافواى) الذى سيطر عليه الإنجليز .

هدى شعراوى

وثـــورة ١٩١٩

انتشر نبأ اعتقال سعد زغلول واجتاح المدن والقرى واتسعت المظاهرات لتشمل كــل أبناء الشعب المصرى... ولأول مرة.. تخرج المرأة المصرية لتشارك فى المظاهرات، وعلى رأسها (هدى شعراوى) التى سارت هى ونساء مصر، مع الأطفال إلى جانــب الرجال....

واندفعت الجماهير المصرية فى ثورة عارمة بعد أن صبرت طويلاً على جرائم الحرب وتحملت آثارها فى سبيل الحصول على الاستقلال وهتفت بأعلى صوتها :

ـــ " عاشت الحرية، تحيا مصر، يحيا سعد "...

ورد الانجليز على هذه الثورة بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، ممـــا أدى إلـــى اختناق واستشهاد الكثير منهم ومن بينهم العديد من النساء ...

وراح الجنود البريطانيون ينتهكــون حرمـــات البيـــوت، ويعتـــدون علـــى الأفـــراد والممتلكات، وزاد على ذلك أن هددت بريطانيا بإعدام كل من يقطع خطوط المواصلات أو يخرج إلى الشارع متظاهراً وفقاً للأحكام العرفية التي أعلنتها !!

لكن كل ذلك لم يفت فى عضد الجماهير المصرية التى اجتاحت مراكز الشرطة وقامت بالاستيلاء على كل ما فيها من سلاح، مما دفع بالسلطة الإنجليزيـــة المحتلـــة إلـــى استخدام الطائرات والبواخر النيلية لإيصال المؤن والإمدادات إلى قواتها فى الجهـــات المعزولة .

هدى شعراوى

وقيادة أول مظاهرة ٢٢ مارس ١٩١٩

لقد جاهدت الحكومة البريطانية لتُدخل اليأس إلى قلوب المصريين، فعينت الجنرال (اللنبى) مندوباً سامياً بعد نشوب الثورة بنحو أسبوع، بدلاً من السير (وينجت). وكان أول عمل قام به (اللنبى) بعد قدومه إلى مصر هو دعوة أغنيائها ورموز عائلاتها لدراسة أسباب الثورة. وبعد أيام استدعى الوفد وطلب من أعضائه تقريرًا عن أسباب الثورة تم تقديمه بعد أربعة أيام. لكن الثورة لم تتوقف بل ازدادت اشتعالاً، خاصة بعد المنشور الذى وزعه السلطان مطالباً بوقف المظاهرات مما أدى الى اتخاذ قرار بسفر الوفد المصرى حيث يشاء، وإطلاق سعد زغلول ورفاقه من الاعتقال. عم الفرح كل أرجاء مصر وخرجت النساء بقيادة هدى شعراوى ينادين " تحيا مصر " .

إلى سيشل

حين عاد سعد على رأس الوفد المصرى وجد الانقسام بين صفوف قادة الثورة، فمنهم من انكفأ على نفسه، ومنهم من انضم لصف (عدلى يكن) الذى دعمه الإنجليز- حتى أنه وجه إلى (عدلى باشا) اتهامًا مباشراً بالخيانة فى خطبة ألقاها فى ١٩ يونيو ١٩٢١ وبأنه يمثل المصالح الإنجليزية لا المصرية، وطالب فى خطبته بالاستقلال التام أو الموت، وطالب بإسقاط حكومة عدلى وبالتظاهر ضدها.

هنا قام الاحتلال بنفى سعد إلى (سيشل) بعد محاصرة بيته مع خمسة من أصحابه فى أواخر ١٩٢١ ونقل منها إلى جبل طارق.

قامت مصر ثانية وراء سعد، فاجتاحت المظاهرات الصاخبة البلاد ، وردَّ الإنجليز بطريقة وحشية وهمجية بالرصاص، وسقط عشرات الشهداء برصاص الغدر والخيانة.

وهنا أرسلت هدى شعراوى كتاباً إلى رئيس الوزراء (عدلى باشا يكن) تؤكد فيه على عدم تعضيد الوزارة لما سلكته من عدم رفع الأحكام العرفية ومنع التجمهـر، ومـن الرقابة على الصحف ،وعدم نشر ما يرسل إلى الجرائد ، مما ينافى تصريحات الوزارة ، كما تؤكد فيه على استقلال مصر والسودان، وعدم الاستعداد لانتخاب وفد مصـرى سمى بدون وكيل الأمة.

المقاطـعة

وفى نفس الوقت أرسلت هدى الشعراوى والسيدات احتجاجًا إلى المارشال (اللنبـى) بسبب نفى سعد ورفاقه، وما يقارب التحذير من تأليف حكومة لا يرضى بها الشـعب، من تبعات الإجراءات القمعية المتخذة ضد الثورة. وفى ٢٠ ينـاير ١٩٢٢ اجتمعـت السيدات وأعلنّ إيمانهن القوى بمستقبل بلدهن وطالبن بإلغاء الحماية الباطلة التـى أُعلنت على مصر عام ١٩١٤ الأحكام العرفية، كما طالبن بعودة سعد وزملائـه مـن منفاهم.

أعلنت السيدات المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزى، وقمن بنشر الدعوة للمقاطعـة فى كل أنحاء مصر، والتعامل فقط مع كل ما هو وطنى وخاصة الصناعات الوطنيـة ، مما نتج عنه سقوط وزارة (عدلى يكن باشا) وتشكيل وزارة (عبـد الخـالق ثـروت باشا).

لم يكن الوفد راضياً كل الرضا عن هذه الوزارة ، أما هدى شعراوى فقد دعت أعضاء لجنتها إلى عقد عدة اجتماعات لدراسة أوضاع البلاد، وأصدرن بيانـاً حـددن فيـه موقفهن، فطالبن الوزارة بالعمل " لمصلحة البلاد أو التخلى عن كراسـيها إن كانـت عاجزة عن القيام بتمام الواجب لمن يمكنهم العمل لمصلحة البلاد ".

لقد بقيت الأحكام العرفية هي السائدة فى البلاد، وأغلقت الصحف وصودرت الحريات وحوكم بعض رجال الوفد (كمرقص حنـا)، (واصـف غـالى) و (علـوى الجـزار)

وغيرهم... وأخذ الوفد بتجميع أوراقه ثانية، وأصدر بياناً تلو الآخر يحض فيه الأمة على بذل ما فى طاقتها لإعادة سعد.

وجاء الرد باستقالة حكومة ثروت باشا، وفى اليوم التالى جاءت وزارة (نسيم باشـا) التى حاولت التقرب من الوفد، بإظهار العداء لعدلى يكن وثروت، وأعلنت مهامها التى تمثلت فى تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ، ورغم موقف (سعد زغلول) الواضح من تأييد هذة الوزارة - إلا أن هدى كان لهـا موقـف آخر.. فأصدرت بيانا تتهم فيه وزارة(نسيم باشا) بالتفريط فى حق الـبلاد، ونشـرته بالصحف. فما كان من سعد باشا إلا أن كتب لها رسالة فى١٨ نوفمبر ١٩٢٣ شـرح لها فيها وجهة نظره فى وزارة نسيم، ثم جاء خبر الإفراج عن (سعد) ليشـكل فتحـاً جديداً فى تاريخ الحركة الوطنية ، وكان مرضه الشديد وموقف الشعب منه هما مـن الأسباب الرئيسية لإطلاق سراحه ، وبعد مرور ثلاثة أشهر صدر قانون (التضمينات) وفيه إلغاء لقانون الطوارئ أعقبه الأمل فى خروج المناضلين السياسيين من السجن.

رئاسة الوزارة

نشطت المساعى بين القصر وسعد وفاز الوفد فى الانتخابات النيابية بمائة وتسـعين مقعد من أصل ٢١٤، ثم قام سعد باشا بتشكيل الوزارة، ولم يطل ذلك خاصـة حـين علت حوله أصوات عتاب شديدة لقبوله السلطة، ووصلت إلى حد التشكيك فيه، ممـا أدى إلى استقالته ليصبح بعد فترة وجيزة رئيساً لمجلس النواب.

وفى عهد رئاسته لمجلس النواب صدرت قوانين جديدة، وألغيـت أخـرى، وحـدثت إصلاحات هامة مسَّت قوت صغار الموظفين، مثل إلغاء السخرة ، وتمهيـد الطـرق، ودراسة وحل مشكلة العمال، وغير ذلك من مطالب الإصلاح الاجتماعى.

موقف هدى شعراوى

من المؤتمرات الدولية

شاركت هدى فى العديد من المؤتمرات الدولية ورسمت صورة قوية للمرأة المصرية ، حيث أكدت من خلال هذه المؤتمرات علىأن تخلف المرأة المصرية جاء نتيجة الاحتلال الأجنبى، على احترام الإسلام للمرأة، وعلى أن الصورة الحقيقية للمرأة المصرية هى تلك التى ظهرت فى ثورة ١٩١٩.

لقد ركزت هدى شعراوى فى المؤتمرات التى شاركت فيهاعلى أن المرأة المصرية- لكى تصبح مساوية للرجل- لابد وأن يكون هناك اهتمام بتعليمها ، وإصلاح العادات البالية المتعلقة بالزواج والطلاق.

لقد كانت هدى شعراوى أول امرأة عربية تقف فى المحافل الدولية، وتتكلم بلغة فرنسية قوية ، وقد أسقطت البرقع عن وجهها ، وبدت امرأة مثقفة وخطيبة مفوهة أوضحت للعالم أجمع أن هناك حركة تحرر وطنى عظيمة أفرزت حركة نسائية متطورة وقادرة على فهم واقعها والدفع به نحو العلم والتحرر.

بدأت تلك المؤتمرات بمؤتمر روما عام ١٩٢٣، ثم النمسا عام ١٩٢٥، ثم مؤتمر باريس عام ١٩٢٦ والذى شاركت فيه ٤٢ دولة وعدد لا بأس به من رجال السياسة والفكر والمجتمع..وفيه لاحظت هدى شعراوى عدم وجود العلم المصرى، فأبدت أسفها فى خطبتها بقولها: " إن مصر كانت ولا تزال مهد السلام والاعتراف بحقوق المرأة " ، فذكر وزير المعارف الفرنسى الذى كان يرأس جلسة الافتتاح أن مصر هى أول مناهل الحضارة وأوضح قوة الروابط التى تربطها بفرنسا ، ولم تخرج هدى من القاعة إلا وقد رفع العلم المصرى فى ظل التصفيق الحار وكان هذا المؤتمر هو بداية عضوية هدى فى اللجنة التنفيذية للاتحاد النسائى الدولى، وانتخابها أيضا عضواً بلجنة السلام الدولى.

واصلت هدى شعراوى رسالتها فزارت أمريكا، ووجهت خطاباً فى يوليو ١٩٢٧ حول حركة التحرر التى قادها (قاسم أمين)، وتعدد الزوجات، وعمل المرأة ومساواتها بالرجل فى التعليم العالى، وضرورة إنشاء مدارس للبنات.

ومن أبرز المؤتمرات التى حضرتها هدى شعراوى مؤتمر أمستردام عام ١٩٢٧ ، ومؤتمر السلام بألمانيا ١٩٢٩ ، وفيه كانت هدى شعراوى هى المرأة الوحيدة التى حضرت من أفريقيا، وطالبت بألا يكون السلام سلاماً أوربياً فقط- بل سلاماً عالمياً.

ثم جاء مؤتمر استانبول عام ١٩٣٥ ليكون أول مؤتمر عالمى يعقد فى دولة إسلامية كانت حتى وقت قريب رمزاً للتخلف بنظر الغرب. وقد شاركت فيه وفود نسائية من عدة دول عربية وإسلامية وأوربية، وفى هذا المؤتمر ألقت (هدى شعراوى) خطبة قوية باللغة التركية السليمة (لأصولها التركية)، وطالبت بالسلام المبنى على احترام حقوق الشعوب. وطالبت نيابة عن الوفد المصرى بأن يعقد المؤتمر المقبل فى مصر.

وكان من نتائج هذا المؤتمر انتخاب هدى شعراوى نائبة لرئيس الاتحاد النسائى الدولى بأغلبية الأصوات، وبذلك تكون أول عربية مسلمة وأول شرقية تنال هذا اللقب الدولى.

كان هذا المؤتمر نقطة تحول كبيرة فى حياة هدى شعراوى، حيث التقت مع (كمال أتاتورك) رئيس الجمهورية التركية فى حفل عشاء دعا إليه كافة النساء المشاركات فى المؤتمر، وتعرفت على رؤيته فى أن المشاعر الشعبية التى لا تتطابق مع المثل الأعلى الوطنى والاجتماعى.. لا بد من أن يتجاوزها قادة الرأى والنضال مهما كانت قوتها، فيوجهوا الرأى العام – لا أن يتبعوه.

من هنا اختلفت هدى شعراوى مع الشاعرين الكبيرين (حافظ) و (شوقى)، لأنهما لم يملكا الشجاعة الكافية لمناصرة (قاسم أمين) محرر المرأة علناً رغم ايمانهما العميق بصحة ما نادى به.

ظهر حماس (هدى شعراوى) لتركيا وأتاتورك بوضوح فى كل ما نشر عن تركيا وعن المؤتمر فى مجلة (المصرية) باللغتين الفرنسية والعربية والتى كانت مجالاً للتعبير

عن الآراء الحرة وسبيلا لنقل وقائع اللقاءات الدولية والعربية، إلى جانب دورها في إذكاء روح الثورة والنهضة الاجتماعية والثقافية والفكرية.

هدى شعراوى وقضية فلسطين

فوضت جمعيات الاتحاد النسائى العربى هدى شعراوى للدفاع باسمها عن قضية فلسطين أمام المحافل الدولية، استتبع ذلك حدوث صدام كبير بين هدى شعراوى وبين ممثلى الصهيونية فى مؤتمر استانبول ، حيث حاولت هدى شعراوى إقناع أعضاء مكتب الاتحاد النسائى الدولى باقتراحها العطف على عرب فلسطين وإقرار عدم مشروعية هجرة اليهود إلا أن الكثرة اليهودية فى المؤتمر أسرعت إلى المطالبة بفتح باب الهجرة على مصراعيه إلى هذا البلد!! فقدمت هدى شعراوى استقالتها من عضوية الاتحاد الدولى، وانتهى الأمر برفض استقالتها ورفض الاقتراحات من الجانبين.

نيران الحرب

كان ذلك المؤتمر هو آخر مؤتمر تشارك فيه هدى شعراوى قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية التى أوقفت نشاط الاتحاد النسائى الدولى، وأدت إلى حل الجمعيات النسائية فى بلاد كثيرة، وحُرمت النساء عن غيرها من ممارسة حقوقهن السياسية، ونتج عنها تشريد وسجن زعيمات ومناضلات وقتل بعضهن فى معسكرات الاعتقال!
وضعت قضية فلسطين على قمة أولويات أول مؤتمر دولى عقد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو مؤتمر سويسرا عام ١٩٤٥. وقد تقدم الوفد العربى برئاسة هدى شعراوى بطلب إدراج قضية اللاجئين الفلسطينيين ضمن أعمال المؤتمر بناء على ذلك التفويض الذى قدمته عضوات المؤتمر النسائى العربى لها من قبل .

فى المؤتمر تم رفع أو استبعاد الطلب الذى قدمته (هدى شعراوى) على أساس أنه يتناول موضوعًا سياسيًا!! ، لكن المؤتمر من جهة أخرى وافق على طلب الوفد اليونانى بالاعتراض على المعاملة غير الإنسانية التى يتعرض لها الأطفال المشردين. هنا طرح الوفد المصرى تساؤلاً جوهريًا هو: هل للمؤتمر مبدآن أحدهما للشعوب الأوربية والآخر لباقى الشعوب؟! وضجت القاعة بالتصفيق حين طرحت (سيزا نبراوى) نائبة هدى شعراوى ذلك السؤال وتحول الرأى فى المؤتمر لصالح مطلب وفد مصر.

وفاة هدى شعراوى

توفيت هدى بعد هذا المؤتمر بحوالى عام واحد (عام ١٩٤٧) وتقديرًا لها ولما قدمته خلال عملها فى المحيط الدولى.. ظل كرسى عضويتها يحمل اسم (جمعية الاتحاد النسائى المصرى) سنوات عديدة. وقد انتخبت زميلتها الوفية (سيزا نبراوى) كعضوة ثم وكيلة ، وظلت تشغل هذا المنصب المركز حتى عام ١٩٥٢، ثم بعدها (ناهد سرى)، وقد سارت مناضلات مصر على خطى هدى شعراوى فاكتسبن احترام وتقدير المجتمع الدولى.

نجوى فؤاد

رائد الفكر القانونى
عبد الرزاق السنهورى

بقلـــــم

مستشار/ سامى زين الدين

أأرضى أن أنام على فراشى
ونوم المسلمين على قتاد
وأهنأ فى النعيم برغد عيشٍ
وقومى شتتوا فى كل واد
فلا نعمت نفوس فى صفاء
إذا نسيت نفوساً فى الصفاد

عبد الرزاق السنهورى

نشأتــــه :

ولد عبد الرزاق السنهورى فى مدينة الإسكندرية، في يوم الحادي عشر مــن شــهر أغسطس من عام ١٨٩٥م ، حيث فتح عينيه على رؤية البحر اللانهــائى والســماء تحتضنه فى نهاية الكون وكأنها بالون ضخم يلامس بزرقته زرقة البحر ويختلط بهــا من جهة، ومن جهة أخرى يضرب الموج الأزرق بزبده الأبيض الشــاطىء الرملــى

الأصفر فى تناسق وتمازج لونى بديع يسر البصر ويبعث النشوة والنشاط ويثير الفكر ويحفز التأمل .

ومن خلال الصورة الرائعة استمتع الصغير برؤيــة مبــانى الاســكندرية وزخارفهــا ونقوشها البديعة وشاهد مسارحها وقلاعها اليونانية والرومانيــة الممزوجــة بــالفن القبطى المصرى المتداخل بالعمارة الإسلامية النادرة.

فى هذا المناخ المثير نشأ الصغير عبدالرزاق السنهورى، لكن القدر اختطــف والــده وهو فى سن الخامسة ليصبح يتيماً وهو مازال طفلاً صغيراً ، يستكشف الحيــاة مــن حوله ولا يعى بعد ما هو الموت .

تأثر الصغيرُ كثيراً بفقد والده، لكن والدته لم تستســلم لأحزانهــا بفــراق زوجهــا، فاحتضنت صغيرها وبثت فى وجدانه روح القوة والصبر وفكرة السعى إلــى النجــاح والتقدم والازدهار.

ذهب إلى الكتَّاب، وهناك بدأت انطلاقته الصغرى فحفظ القرآن بمنتهى السرعة لدرجة أن شيخه بالكتَّاب تعجَّب من قوة استيعابه التى تفوق أقرانه بعشرات المرات .

أتم الطفل حفظه للقرآن فى الكتَّاب، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية وعلــى شــواطىء الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط نشأ الفتى المصرى الأسمر الأصــيل فــى شوارع المدينة التاريخية الرائعة وتعلَّم من أهلها الحب والخيــر والجمــال فــأحبهم وأحبوه .

تعوَّد الفتى منذ الصغر أن يجلس عند الغروب على شاطىء البحر ليشــاهد قــرص الشمس الأحمر ينسدل رويداً رويداً فى مياه البحر الزرقاء حتى يختفى ويقبــل الليــل فيعود إلى المنزل، وقد امتلأت روحه بالجمال والحب وزخر عقله بالعديد من آيات الله فى خلقه وما أصبغه على الطبيعة من ألوان تسرُّ الناظرين .

كان الفتى بذكائه الفطرى ودراسته المتأنية وتأملاته اليومية يرى أن ما ينغص علــى البشر حياتهم فى خلافاتهم اليومية التى يشاهدها ويسمعها فى شــوارع الإســكندرية

المزدحمة، وفى أسواقها المكتظة بالباعة والمشترين هوكيفية تعاملهم معاً، حتى أنهم لايشعرون بجمال الطبيعة حولهم ولايحسون بنظامها البديع ولا قوانينها الصارمة .

عشق الفتى النظام، فرتب حياته بين الذهاب صباحاً إلى المدرسة والعودة إلى المنزل للغداء، ثم الانصراف إلى واجباته المدرسية ليؤديها على أكمل وجه، لينطلق بعد ذلك حاملاً أحد كتبه الأدبية الجميلة التى كان يعشقها، ليجلس إلى شاطىء البحر يغـوص فى كتابه مستمتعاً بقراءته حتى تبدأ الشمس الغاربة فى الاحمـرار، ويقـل ضـوؤها وتلتهب أطرافها فيضع الفتى الكتاب إلى جواره وينظرُ إليها متأملاً وكأنهـا صـديقته يودّعها قبل أن تغوصَ فى مياه البحر ممنياً نفسه برؤيتها فى الغد القريب، وعنـدما تختفى آخر خيوط الضوء ويبدو البحر موحشاً فى الظلام يحمل الفتى كتابه عائداً إلى منزله متفكراً يمزج داخل عقله الصغير ما قرأه على ما شـاهده ليسـتخلص العبـرة والحكمة من بديع خلق الله، ومن روائع الفكر والأدب مما خطه كبار ومفكرو عصـره من المصريين والأجانب .

وعندما شبَّ الفتى وتخرَّج من المدرسة الثانوية بتفوق عظيم حتى كان ترتيبه الثانى على القطر المصرى.

فكَر أن يكتفى بالثانوية العامة ويعملَ فى وظيفة، وفعلاً التحق للعمل بوزارة الماليـة وعمل بها لكنه لم ينس حلم عمره، فالتحق بمدرسة {الحقوق الخديوية الإنجليزيـة بالقاهرة } إلى جانب الوظيفة .

وإلى جانب عمله ودراسته كان يقضى كل ما تبقى له من وقت فى القراءة وأعجـب وتأثَّر كثيراً بكتاب {الأغانى- الأمانى – العقد الفريد- ديوان المتنبى}واجتهد حتى نال ليسانس الحقوق باللغة الإنجليزية عام ١٩١٧، وكان ترتيبه الأول على أقرانه .

تأثَّر بالزعيم مصطفى كامل، وسيطرت عليه فكرة الجامعة الإسلامية، وأراد أن ينفذها فى مصر لكنه لم يستطع لتحكُّم الاستعمار الإنجليزى فى البلاد فى ذلك الوقت .

عُين وكيلاً للنيابة العامة فى مدينة المنصورة ، وأثناء عمله فى النيابة شـارك فـى ثورة ١٩١٩ العظيمة التى أشعلت نار الوطنية فى قلوب المصريين.

عندما علمت سلطات الاحتلال بمشاركته فى الثورة وانضمامه للثوريين عاقبته وتـــم نقله من المنصورة إلى أسيوط .
عام ١٩٢٠ انتقل للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى وقضى بها عام كامل حتـــى سافرإلى فرنسا فى بعثة علمية لدراسة القانون فى جامعة {ليون}، ومن هناك بـــدأت تتبلور أفكاره الخاصة وتتجمع داخله القراءات والخبرات بل والثقافة الإسلامية التـــى ترسخت بداخله وبدأ يحولها إلى منهج إسلامى قانونى ينتهجه فى حياته فبـــدأ يأخـــذ موقف الناقد للمنبهرين بالحضارة الغربية .

* الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهورى:

الأب الروحى والتاريخى للتشريعات العربية و رجل القانون المصرى، بل أهم وأشهر فقهاء القانون وعلمائه العرب .
كان واحداً من عظماء زعماء الإصلاح فى القرن العشـــرين، فجعـــل فكـــره وحياتـــه مشروعاً لنهضة الإسلام بالشرق ونهضة الشرق بالإسلام .
كان هذا الرجل عظيماً فى القانون والتشـــريع والقضـــاء والفقـــه الإســـلامى والأدب والثقافة، بل وكان عبقريًا فى التخطيط، حيث إنه خطط لمشروعه منذ كان شاباً فـــى العشرينيات فى فرنسا .
وكان منهج السنهورى فى إحياء الشريعة الإسلامية هو النهضـــة العامـــة للشـــرق الإسلامى، ولقد قاده القانون إلى ضرورة تأسيس هذه النهضة الشرقية العامة علـــى الشريعة الإسلامية، فكانت مخططاته ودراساته وأراؤه تدور حـــول بعـــث الشـــريعة الإسلامية .
أنجز خلال وجوده فى فرنسا رسالة للدكتوراة عن{ القيود التعاقدية على حرية العمل فى القضاء الإنجليزى } ونال عنها درجة أحسن رسالة دكتوراه فى فرنسا .

السنهورى والخلافة الإسلامية:

أثناء وجود السنهورى فى فرنسا ألغيت الخلافة الإسلامية، فشعر كشاب مصرى مسلم مفكر بمحنة الأمة الإسلامية بسبب انهيار الخلافة، كتب مؤلفاً ضخماً يوضح فيه الأسس العلمية ويرسم الخطط العملية والخطوات التدريجية، لإعادة وحدة أمتنا ومجدها ولكى تصبح الخلافة الإسلامية منظمة دولية تضم الدول الإسلامية وعلى رأسها وطنه الحبيب مصر، فأنجز رسالة أخرى للدكتوراه عن{ فقه الخلافة وتطورها لتصبح هيئة أمم شرقية } رغم عدم تكليفه بها وتحذير أساتذته له من صعوبة المناخ الأوربى السياسى المعادى لفكرتها.

كان لإلغاء الخلافة الإسلامية بتركيا عام١٩٢٤ م دوى هائل فى مصر وخارجها، قامت على إثره معارك سياسية وفكرية هدفت إلى إعادتها مرة ثانية .

قام الأزهر بحملات كبيرة تنادى ببحث مسألة الخلافة وردَّدت الصحف أن الملك فؤاد ملك مصر آنذاك هو أصلح مخلوق للخلافة .

كان هناك تيار آخر ذاع سيطه يهاجم الخلافة ويدعو إلى عدم قيامها، والذى تزعَّمه الشيخ على عبد الرزاق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة، وذلك بإصدار كتاب الإسلام وأصول الحكم فى أبريل ١٩٢٥ م ، الذى أثبت فيه أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الإسلام، وهى مسألة دنيوية لاتمت للإسلام بصلة، فلم يردْ نص قرآنى ينص على الخلافة ولاحديث نبوى ينادى بالخلافة، وقال فى كتابه أن التاريخ يبين أن الخلافة كانت نكبة على الإسلام والمسلمين وهى ينبوع شر وفساد .

وهاجم فكرة أن يكون هناك خليفة للمسلمين ورفضها تماماً.

لكن الدكتور السنهورى هاجم كتاب الشيخ على عبد الرزاق وفكره ، وكان من المعارضين له، وهاجم تأثر الشيخ على عبد الرزاق بالمناهج العلمانية المستقاة من الغرب المستعمر، لأن السنهورى كان يطالب بوحدة كلمة العرب، وكان يرى ألا وحدة للعرب إلا بالإسلام وبالتالى لن تتوحد كلمة المسلمين إلا بوجود خليفة يجمعهم.

كان حلم الدكتور السنهورى هو نهضة الشرق الأوسط فاتخذ من القانون منهجاً ومن الإسلام غايةً لتحقيق حلمه .

كانت مخططاته وآراؤه حول ضرورة تحقيق الشريعة الإسلامية بالمفهوم الجديد والدراسات المقارنة الحديثة ليعود بالشريعة الإسلامية إلى أوج مجدها لكن فى ثوب جديد وتكون الشريعة الإسلامية هى المرجع للقوانين الخاصة والعامة، بل وأيضاً الدولية .

إن ما نادى به الدكتور السنهورى منذ أكثر من نصف قرن لنهضة الشرق الأوسط هو ما ننادى به اليوم بل نصرخ من أجله من ضرورة تجديد الخطاب الدينى ليكون زادنا ووقودنا نحو الإنطلاق إلى العالمية راكبين صهوة العلم المدججه بسلاح الدين ، وذلك بعد تحريره من قيود الخوف والرجعية والخرافة تحمى ظهورنا حضارات عريقة فرعونية رومانية قبطية بابلية أشورية كنعانية عربية إسلامية.

قال السنهورى عن الرابطة الإسلامية:

إن الرابطة الإسلامية يجب أن تفهم بمعنى المدينة الإسلامية وبالطبع أساس هذه المدينة هو الشريعة الإسلامية وهى الصيغة الحضارية للنهضة الشرقية .

فتح السنهورى باب الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، بل إنه جعل من بعث الشريعة الإسلامية مشروعاً وحلماً لحياته .

حدَّد السنهورى الهدف من دعوته بأنه استدعاء الشريعة الإسلامية لا لتوضع فى متحف القيم، وإنما يستدعيها لتكون المرجعية الحاكمة للقوانين العصرية، وتكون هى البديل للقوانين الوافدة من الغرب الاستعمارى .

كما عمل السنهورى على إثبات رقى الشريعة على النظم القانونية الأخرى حتى بمقاييس الحاضر، وهذا فضلاً عن أنها تمثل تاريخًا لهذه الأمة {الأمة الإسلامية}.

بهذا المنهج فكر السنهورى منذ بدء حياته، فكانت دراساته العليا فى ميادين وقضايا الشريعة الإسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى .

عُين بعد عودته من فرنسا سنة ١٩٢٦ م مدرساً للقانون المدنى بكلية الحقوق بالجامعة المصرية .

شارك السنهورى فى المعارك السياسية والفكرية التى كانت تموج بها الحياة فى مصر من قبل الثورة، وكان قريباً من كل تيارات التغير والإصلاح رغم عدم انضمامه لحزب أو تنظيم .

فى المؤتمر الدولي بمدينة لاهاى والذي خصص للقانون الدولى عام ١٩٣٢ م تحدَّث السنهورى عن الرسالة التى كتبت فى : { التعسف فى استعمال الحقوق فى الفقه الإسلامى } وهى الرسالة التى أبرزت ميزة كبيرة من مميزات الفكر الإسلامى، حيث إنها لفتت أنظار فقهاء القانون الغربى إلى الشريعة الإسلامية واعتمادهم لها كمنظومة عالمية متميزة .

عزم السنهورى على ترجمة هذه الرسالة للعربية لتكون نموذجاً يُحتذى به فى الدراسات التى تقدم نظريات حول مبادىء الشريعة الإسلامية .

السنهورى وفصل المعاملات عن العقائد:

دعى السنهورى إلى تجديد المفهوم القانونى الفقهى على أساس عقلى وفصل المعاملات عن العقائد .

يقول السنهورى :

لاشك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأت بأحكام تتناقض مع العقل فى زمنه أو توقع إمكان تناقضها فى المستقبل، بل إنه نظر إلى إمكان تطور العقل فأوجد فى الأحكام التى أتى بها مرونة وجعلها صالحة لكل زمن تطبق فيه .

منهج السنهورى فى إحياء الشريعة الإسلامية:

* يرتكز على الأسس التالية :

١- اعتماد منهج المقارنة بين الشريعة الإسلامية وبين المنظومات القانونية الأخرى:

فلقد أفاض السنهورى فى الحديث عن مخطط مدروس لمنهج حديث لدراسة الشريعة الإسلامية والتركيز على أهمية المنهج المقارن بين الشريعة الإسلامية والمنظومات القانونية الأخرى كعامل أساسى من عوامل بعث هذه الشريعة وفتح باب الاجتهاد فيها .

فالشريعة الإسلامية هى الأرقى والأنفع والأوفى إذا ما قورنت بالمنظومات القانونية الأخرى، وذلك فضلاً عن أنها هى تاريخ أمتنا ومظهر عظمتها وتاريخها، وهى أيضاً شرط من شروط الاستقلال .

٢- تبويب الشريعة فى شكل حديث يلبى احتياجات العصر:

دعا السنهورى إلى تبويب الشريعة الإسلامية فى هذه الدراسات الإحيائية، التبويب الذى يضيف إليها، ويساعد على إبراز مميزاتها، فضلا عما فى ذلك من تيسير على العقل المعاصر أن يجد فى هذه الشريعة حاجات الواقع الجديد بما فيه من تركيب وتعقيد لم يشهدهما الواقع القديم الذى سادت فيه الشريعة الإسلامية .

٣- تجديد الجانب القانونى الفقهى على أساس عقلى:

ولأن السنهورى كان يتحدث عن تجديد الجانب الفقهى، فقه المعاملات فى الشريعة الإسلامية، لأن هذا الجانب هو العام لكل الأمة على اختلاف عقائدها الدينية، وهو الذى تقوم عليه المدنية الإسلامية، التى هى ميراث حلال لكل شعوب الشرق، فلقد نبه على أن هذا الجانب قد اعتمد الإسلام فيه على العقل، فالمعاملات معقولة الحكم والعلل وهى تبتغى تحقيق المصالح .

نبّه السنهورى على مقام العقل من الشريعة الإسلامية، فالعقل يكــون هــو السائد فى فقه المعاملات .

٤- ضبط مفهوم مرونة الشريعة الإسلامية:

السنهورى باشا يضبط موضوع المرونة ضبطاً موضوعياً ومتوازيــاً علــى النحو الذى لا يدع مجالاً للبس ولا الإبهام، فمبــادىء الشــريعة الإســلامية وقواعدها ثوابت لا تعرض لها مرونة، بينما المبادىء المستنبطة من هــذه المبادىء هى التى تمثل المرونة .

* التمييز بين الجوانب العقائدية والعبادية وبين الجوانب المدنية العامة:

يتوقف السنهورى عند محطات تاريخية هامة هى :

١ــ مؤتمر لاهاى واعتماد الشريعة مصدراً للقانون الدولى .

٢ــ العيد الخمسينى للمحاكم الأهلية وإعادة المرجعية الشرعية للقوانين .

* يرى السنهورى أن الأساس الذىيجب أن يبنى عليــه إحيــاء الشــريعة الإسلامية هو :

أ- تمييز الاعتقاد الدينى البحت عن الشريعة باعتبارها قانوناً لتنظيم العلاقات بين البشر .

ب- فى نطاق الفقه يؤخذ الجزء الخاص بالقانون، ويستخرج منه القواعــد العامة للشريعة الإسلامية وهى قواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان فتعتبــر هذه القواعد هى أصول الشريعة .

ج- القواعد لا تتغير لكن تطبيقها يتغير من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد ومن قوم إلى آخرين .

٥- رأى السنهورى فى الربا قال :

الذى أفكر فيه الآن هو الربا، ولاشك فى أن من قواعد النظــام الاقتصــادى الآن وجود رؤوس الأموال، وهذه لا تتهيأ إلا إذا تقرر مبدأ الفائدة المعتدلــة

الذى يحكمها ويقرها العقل والمنطق والمصلحة الاقتصادية المعاصرة للدولة، وبالتالى نحرم فقط الفائدة العالية الفاحشة باعتبار أنها هى وحدها ما حرمته الشرائع السماوية .

وهذا هو ما فعله السنهورى فى معظم التشريعات التى وضعها فيما بعد فى القانون المدنى المصرى .

٦- أسس السنهورى جمعية الشبان المصريين، واصطدم مع الحكومة حتى فصلته من الجامعة لأسباب سياسية عام ١٩٣٤ م .

- هكذا حدد الدكتور السنهورى منهجه فى إحياء الشريعة الاسلامية من زمن طويل عرف الرجل طريقه وحدد هدفه وحاول قدر استطاعته تحقيق هذا الهدف ونجح كثيرًا أو أخفق قليلاً....

- فهل سار أحد بعده على دربه... ؟

- وهل استقينا منه لنرسم طريقًا أومنهجًا أخر جديد... ؟

- هل من جديد لتجديد الخطاب الدينى لإحياء الشريعة الاسلامية أم أننا نعود إلى الخلف إلى الوراء إلى ما قبل الدكتور السنهورى بقرون سيرًا عكس الاتجاه... ؟

السنهورى فى العراق والبلاد العربية:

بعد أن عقد العراق مع إنجلترا معاهدة "الاستقلال" سنة ١٩٣٠م رأت حكومته أن تدعم هذا الاستقلال السياسي بتجديد وتنظيم القانون المدني، فدعت الحكومة العراقية الدكتور "عبد الرزاق السنهوري" إلى بغداد، وكلفته بإقامة هذا البناء.

سافر إلى العراق عام ١٩٣٥ بدعوة من حكومتها، وهناك أنشأ كلية للحقوق وأصدر مجلة للقضاء، ووضع مشروعًا للقانون المدنى للدولة، ووضع عدداً من المؤلفات القانونية لطلاب العراق .

ولقد وجد السنهوري نفسه أكثر قربًا -في بغداد- من تحقيق حلمه في أسلمة القانون المدني- منه في القاهرة -، وذلك لأن صلة القوانين العراقية بالفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية كانت قائمة ووثيقة، وذلك عن طريق: مجلة الأحكام العدلية - العثمانية - التي قننت فيها الدولة العثمانية فقه المذهب الحنفي منذ سنة ١٨٦٩م، وذلك على النقيض من مصر، التي حرمها استقلالها عن الدولة العثمانية من تطبيق "المجلة"، فلما جاء الاستعمار الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، ومن قبله النفوذ الأجنبي- المتمثل في المحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة- منذ سنة١٨٧٥م استغل الاستعمار "غيبة التقنين" و "فراغ الصياغات القانونية الحديثة"، وملأ "الفراغ" بقانون مدني مأخوذ عن قانون نابليون الفرنسى.

وجد السنهوري - فى بغداد- القوانين العراقية ذات مرجعية إسلامية غالبًا، فكان طريقه إلى تحقيق حلمه في أسلمة القانون المدني أكثر تمهيدًا عنه في مصر وهو ينقح قانونها المدنى.

فى بغداد- وخلال العام الدراسي ١٩٣٥/١٩٣٦م، والذي اضطر في نهايته للعودة إلى مصر بسبب وفاة والدته.

في هذا العام أنشأ كلية الحقوق، وتولى عمادتها، ثم أصدر مجلة القضاء على أسس جديدة، كما ألف كتابين لطلاب الحقوق ... ودرّس لهم أصول القانون، ومقارنة مجلة "الأحكام العدلية" مع القوانين المدنية الحديثة.

فتح باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي من جديد، وليضيف إلى هذا الفقه ثراء القوانين الغربية فى الصياغة والتقنين .

وفوق كل ذلك وقبله وضع المنهج الذي سيصوغ -على هدي منه- القانون المدني العراقي الجديد.

هذا المنهج يجعل من هذا القانون خالص الإسلامية إلى حد كبير.

- مصادره -كما حددها السنهوري- هي:

ـ مجلة الأحكام العدلية العثمانية، وفيها تقنين الفقه الحنفي.

ـ وكتاب مرشد الحيران لمحمد قدري باشا، وفيه تقنين لفقه المذهب الحنفي، أكثر تقدمًا ودقة من تقنين مجلة الأحكام العدلية.

ـ والقانون المدني المصري الذي رفع فيه السنهوري درجة الأسلمة- والذي جعله- بالنسبة لمشروع القانون العراقي مصدرًا في الصياغة المضبوطة والتقنين الحديث.. وباب المقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين الغربية.

ـ وكنوز الفقه الإسلامي بمذاهبه المختلفة، التي أبحر فيها السنهوري باشا، واغترف منها، ووازن بين اجتهاداتها، وهو يصوغ للعراق قانونه المدني الجديد..

لذلك كانت التجربة العراقية في الإنجازات القانونية للسنهوري من أغنى تجارب حياته، ومن أكثر التجارب التي اقتربت به من تحقيق حلمه في أسلمة القانون. ولقد عاود السنهوري الانقطاع لهذا العمل عامي ١٩٤٣م و ١٩٤٤م، وحمل مع مهمة وضع القانون العراقي مهمة وضع القانون السوري - بنفس المنهاج-، وأكمل بناء هذين الصرحين بعد اضطراره للعودة إلى مصر أواخر سنة ١٩٤٤م . ومنذ اللحظة الأولى كان منهاج السنهوري واضحًا ومعلناً، فالهدف هو قانون مدني إسلامي المرجعية والنظريات والمبادئ، لا يأخذ من القوانين الغربية إلا فن الصياغة فقط لا غير .

لذلك فقد أعلن -في دراسته البغدادية- [من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدني العراقي] -سنة ١٩٣٦م أن الشريعة الإسلامية هي الأصالة القانونية لهذه الأمة، عبر تاريخها المديد...، وأن هذه الشريعة هي الاستقلال القانوني لحاضرنا ومستقبلنا، وأنها هي النور الذي يضيء للأمة الطريق ... ،

بينما الأخذ عن القوانين الغربية فيه قطع لصلات الأمة بجذورها المدنية والحضارية يدعها تتسول فتات موائد الآخرين.
كذلك عاد السنهوري- في هذه الدراسة البغدادية- لينبه العراقيين إلى ما سبق ونبه إليه المصريين من صلاحية الشريعة الإسلامية- حتى بحالتها الراهنة وقبل النهضة التي كان يدعو إليها- صلاحيتها لتكون المصدر والمرجعية للقانون الحديث.

* ما تحتاجه الشريعة الإسلامية من القوانين الغربية:

ولقد كان السنهوري نصيرًا للدراسات الفقهية والقانونية المقارنة، وليس داعية للانغلاق على الشريعة الإسلامية وحدها، بل لقد كان مؤمنًا بأن الدراسات المقارنة بين الشريعة الإسلامية والمنظومات القانونية الأخرى هي السبيل لتجديد دراساتنا لشريعتنا، والسبيل لاكتشاف عظمتها أيضًا.
لكنه نبه على أن ما نحتاجه من القوانين الغربية -في تجديدنا للشريعة الإسلامية- هي فنون الصياغة والتقنين.
أما روح الشريعة وتميز توجهاتها ونظرياتها ومبادئها وقواعدها فهي أمور لا يجوز التفريط في شيء منها ونحن ننفتح على هذه المنظومات القانونية الغربية. من الخطر "تهجين" الشريعة الإسلامية، وتحويلها عن جوهرها وتميزها، بدعوى التجديد والتطوير، ذلك لأن ما نحتاجه لتجديدها هو -فقط- أشكال الصياغة وفنون التقنين.

* يؤكد السنهوري على هذه الحقيقة فيقول:

"وإذا كنا نقول بالاستفادة- دون تحفظ- من التقنينات الغربية فمن ناحية الشكل والصياغة؛ أما في المادة والموضوع نتحفَّظ كثيرًا في هذا القول."
كما لفت السنهوري الأنظار- وهو مقدم على وضع القانون المدني العراقي- إلى أنه - في فنون الصياغة والتقنين- قد قرر أن يعتمد على تراثنا العربي والإسلامي الحديث

في هذا الميدان، فلدينا من نماذج الصياغة والتقنين لشريعتنا وفقه معاملاتها نموذجان حديثان :

١ــ مجلة الأحكام العدلية العثمانية ...

عن فن الصياغة فيها قال السنهوري:

" أما الصياغة التشريعية للمجلة فلا ننكر أنها متقدمة بالنسبة لزمنها، سواء في أصلها التركي، أو في ترجمتها العربية " .

ولعل للفقه الإسلامي الذي أخذت منه الفضل الأكبر في ذلك، ولا نجحد فضل واضعي المجلة؛ فإن عملهم ينم عن علم غزير بالفقه الإسلامي، وقدرة واسعة على الصياغة التشريعية.

٢ ــ "مرشد الحيران" للقانوني الفقيه الفذ محمد قدري باشا ..

وهو المصدر الثاني الذي اختاره السنهوري مرجعًا في تقنين القانون المدني العراقي-، وعن مستوى الصياغة الحديثة والمضبوطة فيه يقول السنهوري وهو بصدد الحديث عن صياغته لنظرية الالتزامات:

"وقد أحسن صاحب "مرشد الحيران" كل الإحسان بصياغته لهذه النظرية مستخلصًا إياها من أحكام الشريعة الإسلامية، فقد استطاع أن يجاري الفقه الحديث في ترتيبه وتنسيقه من حيث الشكل، متخذًا مادته من الشريعة الإسلامية نفسها، فأمكنه بذلك أن يثبت -عملياً- صلاحية الشريعة للصياغة التشريعية وللتطبيق العملى " ..

فحتى في الصياغة والتقنين -الذي دعا السنهوري للاستفادة من ثراء القوانين الغربية فيه لم يكن الرجل يشعر -كفقيه وقانوني مسلم- بالدونية فيه.. فلقد أدرك -وهو الخبير في الشريعة الإسلامية- كيف أنها هي التي يسَّرت للفقهاء العثمانيين مستوى الصياغة والتقنين اللذين جاءت عليهما مجلة الأحكام العدلية؟...
وكيف ضرب قدري باشا -في كتبه التي قنن فيها فقه المذهب الحنفي- المثل الذي يحتذى في هذا الميدان؟ وذلك عندما صاغ الفقه الإسلامي صياغة حديثة في التقنين والترتيب والتنسيق، فأثبت عمليًا ثراء شريعتنا وفقهنا في الشكل كما في المضمون .

* فوائد وإضافات التجربة العراقية لمشروع السنهورى فى إحياء الشريعة:

وإذا كانت "التجربة العراقية" -في حياة السنهوري ومشروعه لأسلمة القانون- قد أضافت إلى هذا الرجل العظيم العديد من الإضافات.. فلقد كان في مقدمة هذه الإضافات:

ـ تبحُّره أكثر من ذي قبل في مصادر الفقه الإسلامي بمذاهبه المختلفة، وذلك عندما لم يقف عند "المجلة" و"مرشد الحيران" وحدهما، وإنما غاص في بحار الفقه الإسلامي ليقارن ويوازن، كي يصل إلى النص الإسلامى الكامل ، والذي يلبى- فى ذات الوقت- حاجات المجتمع العراقى.

وانطلاقه نحو أسلمة القانون المدني في مجتمع لم تتغرب قوانينه من قبل، فلقد كانت مجلة الأحكام العدلية هي قانون العراق، الأمر الذي رفع عن السنهوري الضغوط والقيود غير الإسلامية -من مثل القوانين الفرنسية التي كانت تحول بينه وبين درجات الأسلمة التي يريدها للقانون المدني في مصر مثلاً -، انفتحت الأبواب في العراق أمام السنهوري ليجعل من قانونه المدني -في الإسلامية-على درجة أعلى مما حدث في القانون المدني المصري، حتى لقد اعتبر عمله في القانون المدني المصري.

خطوة كبرى على طريق أسلمة القانون، بينما مثل عمله في القانون المدني العراقـي -ثم السوري.. والليبي.. والكويتي- خطوات أرقى وأبعـد علـى طريـق الأسـلمة للقانون...

فكان أن تطلع -بعد ذلك- إلى "القانون المدني العربي "الواحد... والكامل الإسلامية، والذي يمثل حلم حياته في هذا الميدان .

- كذلك تميزت الحقبة العراقية- في التجربة القانونية للسنهوري- بالمنـاخ الفقهـي "الذي عمل فيه هذا الفقيه العظيم.. فلقد ذهب السنهوري إلى العراق البلد الذي عاش فيه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ذلك الذي أنجز في الفقه الإسلامي أعظم ممـا أنجز فقيه من الفقهاء في أية حضارة من الحضارات..

ذهب السنهوري إلى العراق... عراق أبى حنيفة.. فاستدعى الإمام الأعظم، واستظل بأعلامه، ليبعث في الأمة روح العزة والاعتزاز بتراثها الفقهي، وليدعوها إلى مواصلة المسيرة التي بدأها هؤلاء الأسلاف العظام.

في هذا المناخ العبق بعظمة الإبداع الإسلامي في الفقه والقانون، عمل السـنهوري على وضع قانون مدني يكون الصورة العصرية لهذه الأصالة الإسلامية .

لقد اعتبر السنهوري - بحق- أن وضعه للقانون المدني العراقي الجديد انطلاقًا مـن الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها هو بمثابة "عهد جديد" في مسيرته القانونية، على درب مشروع حياته لأسلمة القانون الأسلمة الكاملة، وذلك بعد الأسلمة الجزئية التـي أنجزها في القانون المدني المصري.

واعتبر السنهوري ذلك "عهدًا جديدًا" في مسيرة قانون الأمة، لا العراق وحده، لأنـه أراد للقانون العراقي -الإسلامي المرجعية- أن يكون النموذج الذي تحتذيه الأمة فى مستقبلها القانونى .

وإذا كانت المهمة التي مثلت حياة السنهوري باشـا -وهـي أسـلمة القـانون فـي المجتمعات الشرقية- لا تزال واحدة من المهام الكبرى لشـعوب الشـرق، ولليقظـة الإسلامية المعاصرة، فإن المنهاج الذي طبقه السنهوري لعملية الأسلمة هـذه -فـي التجربة العراقية... ثم السورية.. والكويتية- جدير بأن يكون موضع الاهتمام والتأمل والدرس من كل العاملين والداعين إلى أسلمة القانون....

فهو ليس مجرد "خطاب داعية"، وإنما هو "منهاج خبير" تجاوز الفكر النظـري إلـى حيث وضع في الممارسة والتطبيق، فأثمر قانونًا عصريًا يلبـي احتياجـات الواقـع المعاصر، مع الالتزام بنظريات ومبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية، والتـراث الغنـى لفقه المعاملات فى الإسلام .

وإذا كان السنهوري قد أفاض في الحديث عن فلسفته في هذا المنهاج- مما سـيجده القارئ في إسلامياته-. وإذا كنا قد ضَمَّنَّا "إسلامياته" نماذج عديـدة لتطبيقـات هـذا المنهاج، وثمراته التي استوت، قانونًا إسلاميًا عصريًا. فإن الرجل قد أوجز معالم هـذا المنهاج في استخلاص مواد القانون المدني العراقي، ذي المرجعية الإسلامية، عندما قال في ذلك الأمر:

" وقد استخلصتها من مقابلة أحكام النموذج -(الذي صاغه هو) بأحكام مجلة الأحكام العدلية، ونصوص كتاب "مرشد الحيران"، وأحكام الشريعة الإسلامية -بوجه عام- في كل مذاهبها، وفي أقوال كل مذهب، فخرجت بذلك نصـوص النمـوذج علـى أحكـام الشريعة الإسلامية بقدر الإمكان " .

صنع السنهوري ذلك ..

وأنجزالسنهورى هذه الإسلامية - في القانون العراقي ثم الكويتي- وهو يتطلع إلـى تعميم هذه الأسلمة للقانون في وطن العروبة وعالم الإسلام.

" ذلك أن للبلاد العربية جميعها تراثًا مشتركًا هو الفقه الإسلامي، وعندي أن الشريعة الإسلامية مصدر خصب يمدنا بكثير من الأحكام القانونية التي تتماشى مع أحدث المبادئ و أرقى النظريات " .

لقد جربت ذلك بنفسي عند وضع مشروع القانون المدني في العراق، وإني عظيم الإيمان بإمكان توحيد قانون الالتزامات والعقود لجميع البلاد العربية على أساس مشترك من الفقه الإسلامى " .

فالقانون الواحد هو – برأي السنهوري باشا– أساس الثقافة الواحدة، التي هي أساس المدنية المتميزة، وسبيل وحدة شعوب الشرق، التي لا تجتمع على شيء إلا على الإسلام، وشريعة الإسلام .

ـ عودته إلى مصر

- عين بعد عودته من العراق ١٩٣٧ م عميداً لكلية الحقوق.
- ورأس وفد مصر فى المؤتمر الدولى للقانون المقارن فى لاهاى .
- أسندت له وزارة العدل المصرية مشروع القانون المدنى الجديد للبلاد، فاستطاع إنجاز المشروع ورفض الحصول على أى مكافأة.
- أُجبر على ترك التدريس بالجامعة مرة أخرى عام ١٩٣٧ فاتجه إلى القضاء .
- عمل قاضياً بالمحكمة المختلطة بالمنصورة، ثم وكيلاً لوزارة العدل .
- عمل السنهورى بعد ذلك مستشاراً، ثم وكيلاً لوزارة المعارف العمومية إلى أن أبعد عنها لأسباب سياسية عام١٩٤٢ م.
- وجد عبد الرزاق السنهورى نفسه مضطراً للعمل بالمحاماة رغم عدم حبه لمهنة المحاماة .

- عاد السنهورى للعراق مرةً ثانية عام١٩٤٣ م لاستكمال مشروع القانون المدنى الجديد الخاص بها .لكن بسبب ضغوط الحكومة المصرية الوفدية على الحكومة العراقية، اضطر للسفر إلى دمشق وبدأ فى وضع مشروع قـانون مدنى لها .

- لكن... أعيد مرة أخرى لمصر بسبب ضغوط الحكومة المصرية .

- وضع أثناء وجوده فى دمشق أول مخطط لإنشاء أول اتحاد عربى سـنة ١٩٤٤م قبل قيام جامعة الدول العربية، ووضع مشروع معهـد الدراسـات العربية العليا الذى تأجل تنفيذه حتى عام ١٩٥٢ م فى إطار جامعة الـدول العربية .

- تولى وزارة المعارف العمومية فى أكثر من وزارة من عام ١٩٤٣ م إلى عـام ١٩٤٩ م وقـام أثناءهـا بتأسـيس جـامعتى فـاروق الأول {الإسكندرية}الحالية وجامعة محمد على .

- ألقى الدكتور السنهورى خطاباً فى مؤتمر فلسطين بلنـدن عـام ١٩٤٦م موضحاً وجهة نظر الوفد المصرى فى تقسيم فلسطين ، بعـد أن فنـد رأى نخبة الخبراء .

مؤتمر فلسطين :

* خطاب معالى عبد الرزاق السنهورى باشا {المملكة المصرية}:

أتشرف أن أقدم لكم وجهة نظر الوفد المصرى فيما يختص بتقرير لجنة الخبراء ولقد رؤى أنه من الأفضل تحضير هذا الخطاب قبل إلقائه نظراً لمعرفتى المحدودة باللغـة الإنجليزية وحتى تظهر وجهة نظر الوفد المصرى فى هذه المسألة الدقيقة الخطيـرة من الوضوح بدرجة لا لبس فيها ولا غموض .

وقبل أن أخوض فى الموضوع أحب أن أعرب أولاً عن تقديرى لحسن النية التى بدت فى الخطب الرائعة التى ألقاها مستر آتلى ومستر بيفن ومستر هول فى الاجتماعـات

الافتتاحية لهذا المؤتمر، ولقد كنت أستشعر أثناء استماعى لكم أن سر نبوغ هـؤلاء الساسة القادرين إنما هو ميلهم الطبيعى إلى الإخلاص والصراحة، وقد أوضح مستر بيفن رغبته فى أن يقدم كل وفد بمفرده وجهة نظره الخاصة وليس أن نقدم بياناً منا كجبهة متحدة واستجابة لهذه الرغبة أقدم بيانى هذا .

يمكن تلخيص رأى لجنة الخبراء فى ثلاث نقط:

١- تقسيم فلسطين إلى أربعة مناطق :

*منطقة عربية

*منطقة يهودية

*منطقة القدس

*منطقة النقب

يكون لكل قسم هيئة تشريعية لها الحق فى التشريعات الخاصة بالمسائل المحلية وهيئة تنفيذية لتنفيذ قوانينها، ولا يبقى للحكومة إلا ما يختص بالدفاع والعلاقات الخارجية والجمارك والمكوس وتنفيذ القوانين والنظم التى تشمل البوليس والمحاكم وعدداً محدوداً من المسائل الهامة التى تهم فلسطين عموماً .

أما الاختصاصات التنفيذية والتشريعية للحكومة فيمارسها المندوب السامى ويساعده مجلس تنفيذى معين .

٢- يكون للحكومات الإقليمية الحق فى التحديد العددى والتعيين الوصفى للأشخاص الذين يستوطنون أراضيها، مما يمكن من دخول مئة ألف يهودى مهاجراً إلى فلسطين، كما يسمح باستمرار الهجرة كذلك تلغى النظم الخاصة بانتقال الأراضى، ومن حق حكومة العرب الإقليمية أن تقبل أو ترفض بيع الأراضى داخل حدودها لليهود، أما المساحة الخاصة بإقليم اليهود فستكون أكثر من المساحة التى يسمح لليهود الآن بابتياع الأراضى فيها .

٣- يترك هذا المشروع المجال مفتوحاً فى المستقبل لاطراد التقدم السلمى والتطور الدستورى نحو التجزئه واشتراك ممثلى المقاطعتين فى إدارة الحكومة المركزية قد ينتهى إلى درجة عالية من الرقى .

** ورأى السنهورى فيما سبق يتلخص فى:

١- إذا قبلنا تقسيم فلسطين ورضينا بإقامة حكومة يهودية مستقلة نكون قد حققنا البرنامج الصهيونى .

٢- إن مثل هذه الدولة اليهودية ستهدد البلاد العربية المجاورة لها تهديداً خطيراً، وتكون بمثابة قاعدة تمكّن اليهود من اجتياح كل العالم العربى فى الشرق.

٣- لايمكننا أن نقر بشكل ما تقسيم فلسطين أو إقامة دولة يهودية بشكل أو بآخر، كما لن نقف موقفاً سلبياً حتى يصبح الخطر اليهودى للعالم خطراً واقعياً .

* إن مخاوفنا مخاوف حقيقية وليست وهمية .

** أما بالنسبة لنقطة شراء الأراضى فنحن نرى أن ملكية اليهود للأراضى تزيد على ملكية العرب لها بمقدار خمسة وعشرين مرةً ,وأيضاً فلسطين لا توجد بها أراض تتسع ليهود جدد .

لذلك فإن التقسيم المقترح لابد أن يرفض رفضاً قاطعاً.

ـ ثم عاد إلى الوطن، حيث عُين عضواً بمجمع اللغة العربية فى مصر ١٩٤٦ م .

ـ عُين السنهورى رئيساً لمجلس الدولة المصرى عام ١٩٤٩ م , وأحدث أكبر تطوير تنظيمى وإدارى للمجلس فى تاريخه .

ـ وأيضاً أصدر أول مجلة للمجلس وتحوّل المجلس فى عهده للحريات واستمر فيه إلى ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

ـ كما شارك فى وضع الدستور المصرى بعد إلغاء دستور ١٩٢٣م .

ـ سافر إلى ليبيا بعد استقلالها، حيث وضع لها قانونها المدنى الذى صدر عام ١٩٥٣ م دون مقابل .

ـ حدث صدام بين الدكتور السنهورى وبين الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤ م.

ـ أقيل بسبب هذا الصدام من مجلس الدولة، فاعتزل الحياة الغامة حتى وفاته عام ١٩٧١م.

ـ استطاع أثناء عزلته إنجاز عدد من المؤلفات القانونية الهامة، كما وضع المقدمات الدستورية لكل من مصر وليبيا والسودان والكويت والإمارات العربية المتحدة، ولم تسمح له السلطات المصرية بالسفر خلال هذه الفترة إلا مرة واحدة تلبية لدعوة أمير الكويت عام ١٩٦٠ م لوضع دستور الكويت .

* من أقوال السنهورى عن الكويت :

الناس بطبيعتهم في الكويت تتمشى مع التقدم ,فتبدع ما يلائمها من النظم ولو عن طريق الارتجال، فتسبق المشروع إلى شق الطريق الذى تسير فيه والحياة فى هذا البلد المتوثب لاتقف جامدة وإنما تتخلف عنها النظم، ومن العجب أن البلاد الأخرى تسير نظمها أمام حضارتها فترتقى الحضارة بارتقاء النظم، بينما الكويت على النقيض من ذلك فتسير حضارتها أمام نظامها، وقد ارتقت الحضارة فيها ولم ترتق النظم. فبينما تقوم فى البلاد الأخرى نظم متقدمة وحضارة متخلفة. لكن فى الكويت الحضارة متقدمة والنظم متخلفة، ومزج السنهورى بين الواقع والقانون والشريعة ليخرج منهم منهجاً يحى به الشريعة الإسلامية فى ذلك الوقت.

* بعض أعمال السنهورى :

- وضع مشروعات القوانين والدساتير :

*القانون المدنى المصرى ومذكراته الإيضاحية وشروحه {الوسيط}و{الوجيز}.

* القانون المدنى العراقى ومذكرته الإيضاحية.

* القانون المدنى السورى ومذكرته الإيضاحية وقانون البينات بما فيه من قواعد الإثبات الموضوعية والإجرائية .

* دستور دولة الكويت وقوانينها : التجارى والجنائى والإجراءات الجنائية والمرافعات وقانون الشركات وقوانين عقود المقاولة والوكالة وهى التى جمعت فيما بعد فى القانون المدنى,حيث وضع للكويت ثمانية وثلاثين قانونًا فى فترة لا تتجاوز السنة والنصف .

* القانون المدنى الليبى ومذكرته الإيضاحية.

* دستور السودان.

* دستور دولة الإمارات العربية المتحدة .

ـ للسنهورى أثار فكرية أخرى بغير اللغة العربية ، ولعل أن من أهمها تلك الأبحاث التى قدمها عن الشريعة الإسلامية فى المؤتمرات الدولية للقانون المقارن بالإضافة إلى الأبحاث والدراسات والمذكرات والتقارير التى ألفها ونشرها خارج مصر ولم يتم حصرها بعد .

حصاد فكر السنهوري :

ترك لنا الدكتور السنهورى العديد من الأقوال التى تبين رؤيته للحياة والحب والشجاعة والفضيلة والإرادة والتضحية والسعادة وأحلام الشباب وأحلام الكهولة وواقع الحياة يقول:

* من أقوال السنهورى :

ـ الحياة تافهة إذا ما خلت من مثل أعلى:

- علمتنى الحياة أننى ما حرصت على بلوغ شىء فبلغته، إلا وأكــون بعــد بلوغه قد زهدته .

ـ كنت صبياً صغيراً أعيش فى أسرة مستورة الحال، تهيــأت لهــا أســباب العيش فى شىء من الطمأنينة والدعة ,ولــم تتهيــأ لهــا أســباب الثــراء ...فتطلعت إلى تخفيض مستوى المعيشة إلى أقل مما كانت فيه فأراد الله أن أبلغ شيئاً من الرضا . وإذا بى أذهد مما فى يدى.

ـ حتى أننى أرى البيت الذى أسكنه شيئاً عادياً لا يشقى ولا يريح رغم أننى كنت أتمنى أن أصل إلى مثله فى مقتبل حياتى، وكذلك لا أرى المــال الــذى كسبته, وكنت أحسب أنه يحقق شيئاً من السعادة، فوجدت المال شيئاً تافهاً لا يؤخر ولا يقدم ...ولا أرى الجاه الذى بلغتــه، وكنت أنظر إلى مثله فى غيرى فأتوق إليه إلا شيئاً فارغاً لا ينقص ولا يزيد .

ـ فعلمت من هذا أن الحياة تافهة ما لم يرسم الإنسان لنفسه هــدفاً ســامياً يسعى لتحقيقه، هدفاً يعلو عن المادة ويبقى على الزمن , إذا ما حقق شــيئاً منه طابت نفسه وطلب المزيد .

* **يقول الدكتور السنهورى:**

- علمتنى الحياة أن الناس فى درجة هابطة من الخسة ودرجة عالية مــن الســمو، ينطوون على الشر والخير ويهبطون بقدر ما يرتفعون .

- عرفت وأنا شاب فى العشرين من عمرى شاباً فى سنى، وقامت بيننا أواصر الــود والصداقة ثم تنكّر لى الصديق وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط فى الخلق ودناءة فى الطبع، ثم ما لبث هذا الصديق فى ظروف أخرى أن صفى معدنه وســمت نفسه، فتقدم فى ميدان الجهاد وبذل روحه فداءً لوطنه ومات شهيداً، فتعلمت من هذا أن الناس ليسوا ملائكة، والعاقل من عرف الناس على حالهم لا يزهد فى الصديق وإن

بدا شره ولا يقطع مابينه وبين الناس لجرح لا يلبس أن يندمل أو لعارض لا يلبس أن يزول .

- علمتنى الحياة أن حظوظ الناس متفاوتة ...وهم فى الواقع متقاربون فى الشقاء والسعادة لكل فرد من الناس له من الحظ مايسعده ومن الهم ما يشقيه .

- عرفت رجلاً كثير العيال رقيق الحال لايشك من ينظر إليه فى أنه ضيق بحظه فى الدنيا فهو لايكاد يفيق من الهموم ....علمت بعد ذلك أن الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذى توحى به حاله، فهو قد ألف ضيق العيش وعوَّد نفسه عليه، حتى إذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من الزمن كان تقديره لها كبيراً وفرحه بها عظيماًوذاق بها السعادة كما ذاق من قبلها الشقاء.

- علمت من ثقة أن أحد ملوك المال فى مصر وهو رجل من أقوى الرجال فى بلده، ومن أعرضهم جاهاً وأوسعهم نفوذاً، وقد عرف بالسيطرة على أقدار الحكومات حتى أنه ليسقط واحدة ويقيم أخرى .

- هذا الرجل كثيراً ما يخلو إلى نفسه لينسى سوء حظه وليبتعد بشقائه عن عيون الناس ،حتى أنه ليتسلل من سريره فى جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكى .

- عرفت سيدة كانت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله ،فآمنت بعد كل ذلك أن الناس سواسية فى الشقاء والسعادة على خلاف ما يبدو من تفاوتهم فى ذلك، وأن فى الأرض عدلاً بين الناس أكثر مما يظن الناس .

- علمتنى الحياة أن نجاحى فيها رهن إيمانى بنفسى وإيمان الناس بى .

- كانت ثقتى بنفسى تدفعنى إلى العمل، وكانت ثقة الناس بى تجعلنى أطمئن إلى نتيجة عملى، وهذا القدر المتوازن من ثقة الإنسان بنفسه وثقة الناس به لابد منه لنجاحه فى الحياة فإذا زادت ثقته بنفسه عن هذا القدر كان ذلك غروراً يضلله عن الحقائق، وإن جاوز اعتماده على ثقة الناس به هذا القدر، بحيث أصبح لا يعمل إلا برأى الناس، ولا ينزل إلا عند هواهم كان ذلك ضعفاً واضطراباً يورثان انقياداً و استسلاماً .

ـ تابعت فى نفسى ومن حولى هذا التوازن فأدركت أنه ضرورى فى كثيرا من الصفات الأخرى وهو ضرورى فى الواقعية وفى الخيال، فإن زادت الواقعية عن الحد الواجب كان ذلك جموداً وضيقاً فى الأفق، وإن زاد الخيال كان ذلك ميوعا وإغراقاً فى البعد عن الحقائق، وهو ضرورى فى المادية والروحية، فإن زادت المادية كان ذلك بلادة وتنكرٍ للقيم العليا فى الحياة، وإن زادت الروحية كذلك عجز عن مواجهة الحياة فى حقائقها المادية وهو ضرورى فى الاختلاط بين الناس والانطواء على النفس، وإلا كان الإمعان فى الاختلاط بالناس إهدارًا للشخصية، وكان الإغراق فى الانطواء على النفس عزلة ضارة، ومع ذلك لابد من التسليم بصعوبة أن يجمع الإنسان فى نفسه هذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن.

ـ الأمر الجوهرى هو أن يعرف الإنسان كيف يستطيع أن يتخفف من الإفراط فى صفة أو التفريط فى أخرى .

- علمتنى الحياة أن الغفلة عن المستقبل هى أهم أسباب الراحة، وما تعبت لشىء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل،، لعل الموت هو الحقيقة الأولى التى لا يتطرق إليها الشك فهو المستقبل المحتم .

ـ ومن نعم الله على الإنسان أن جعله قادراً عل التغافل عن هذه الحقيقة وإلا ظل قلقاً حاذراً لا يفكر إلا فى الموت .

- علمتنى الحياة أن النعمة لا أعرف قيمتها إلا عندما تزول .

- علمتنى الحياة أن تتسع أطماعى، فلا أعرف أين أقف ثم يتعثر بى الحظ فأرضى بالقليل .

- علمتنى الحياة أن أتعلم منها كل يوم، ولن أنقطع عن التعلم حتى تنقضى الحياة ومن يدرى ...إذ أنا عشت ماذا سأتعلم منها غدا.

ـ أبحث عن الحقائق فى أعماق الصدور لاعلى أطراف الشفاه .

ـ الحب الصحيح يصعب تحديده وغاية ما يقال فيه أنه يحتل من القلب ما كانت تحتله الأنانية الأثره من قبل تستطيع أن تحب نفسك وغيرك، فإذا أردت أن تحب غيرك حباً صحيحاً فأنزل نفسك دونه .

ـ إن الحب والكبرياء فوق ما يحتمله قلب المحب غير المحبوب، فهو يتعذب بحبه ويشقى بكبريائه، يكتم الدمع إلا فى خلوته .

ـ من الشجاعة أن تحتقر نقيصة ولو اطمأن إليها الجميع، إذا ثقل عليك أن تنفرد بفضيلة فى وسط الرذائل فليخفف عليك أنك ستكون قدوة لغيرك فى تلك الفضيلة.

ـ الفضيلة هى قيود يتقيد بها الإنسان من وحى الضمير، فإذا اضطررت وأنت مقيد بقيود الفضيلة أن تناوىء الرذيلة ففك هذه القيود عنك، فإنه من الفضيلة أن تقابل الرذيلة بالرذيلة .

- إن للفضيلة جمالاً.

ـ من المتعذر أن نعيش فى الدنيا سعداء، فلنعش فيها أقوياء، ولنستمد قوتنا من الفضيلة بقدر ما نستطيع.

ـ كلما أزيد تفكيراً فى هذه الدنيا أزداد شفقة على الناس، أحب حياة أكون فيها قوة تعمل ويحس بها من يحيط بها، وأحب حياة العواطف والشعور، وأحب فوق كل هذا أن أصل إلى الحقيقة، لذلك أحب من العواطف ما كان له أساس من الحقيقة، وأحب المجد ما يتفق مع الحقيقة، ولكنى أشعر بأن هناك مرحلة واسعة يجب أن أقطعها قبل أن أصل إلى أقرب مما أفكر فيه .

ـ يحتاج الإنسان إلى كثير من الإرادة حتى يملك جماح شهوة من شهوات نفسه، وحتى يردها إلى ما يريد أن يكون عليه من حلم وقت الغضب أو هدوء وعدم مبالاة وقت انشغال الفكر واضطرابه ..لكن من أرضى نفسه على أن يملك هذه القوة استطاع أن يذلل كثيراً من الصعاب .

ـ إن التضحية هى أن يؤثر حبيبه على نفسه ويضحيها فى سبيله عن طيب خاطر.

ـ التضحية جميلة على أن تكون شخصية من يضحى نفسه بارزة فى تلك التضحية لا أحب تلك التضحية الفاترة المتواضعة يقدم عليها من تصغر لديه نفسه فتضحى بها..

بل أحب تلك التضحية التى يرى من يقدم عليها أنها جديرة بنفسه وأن نفسه جديرة بها . وتلك هى تضحية من يموت فداء لمبدئه .

ـ السعادة التى يستمدها الإنسان من خارج نفسه، من حب أو مجد أو مال سعادة دنيوية لها آفة .

ـ أما السعادة التى يستمدها من داخل نفسه : شعوره بطهارة قلبه وبتأدية واجبه وبأنه جزء من كل، سيرجع إليه، فهذه لمحة من السعادة التى وعدت بها الكتب المقدسة .

* من أقوال السنهورى وهو فى الأربعين من عمره :

ـ ما أقصر الحياة! .. لكأننى بالأمس شاباً غارقاً فى أحلام الشباب لا أكاد أفيق منها .

ـ هل ترانى أفيق من أحلام الشباب العذبة لأقع فى أحلام الكهولة الصاخبة المضطربة اللهم وفقنى فيما بقى لى من حياة .

* من أقوال السنهورى وهو فى الواحد والأربعين من عمره :

ـ كنت من عشرة أعوام أجيش بالعواطف المتدفقة، وكنت ممعناً فى أحلام الحب والشباب، كنت أستمد المجد من الخيال .

ـ أما اليوم فعواطفى قاربت النضوب والجفاف، وقد هجرت الخيال إلى الحقيقة، وأصبحت لا أرى المجد إلا فى أن أكون نافعاً، نافعاً لنفسى، ونافعاً لأهلى، ونافعاً لبلدى، بل ونافعاً للناس .

الخاتمة :

ـ بعد صدام الدكتور السنهورى مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر اعتزل الحياة العامة، فعكف على كتابة مؤلفه القانونى الأشهر والأبرزمن بين مؤلفاته فى مصر، وهو الوسيط فى القانون المدنى، والذى انتهى من آخر جزء فيه عام ١٩٦٩ م .

ـ وبعد أن أتم وسيطه وضع القلم وأحس أنه قد أدى ما عليه، وهنا بدأ الوهن يصيب جسده والمرض يتسرب إلى أعضائه ودخل فى صراع مع المرض حتى توفى في يوم الحادي والعشرين من شهر يوليوعام ١٩٧١ م:- بعد رحلة طويلة مع الحياة استمرت ٧٦ عاماً...

- رحم الله الدكتور السنهورى رائد الفكر القانونى والأب الروحى والتاريخى لفقهاء القانون العرب رحمه الله صبياً نابغاً شاباً ألمعياً ثورياً مفكراً كهلاً عظيماً شيخاً مبجلاً منتجاً- أبدع طوال حياته ـ كرائد قانوني مفوه ـ واجتهد وجاهد لرفعة شأن وطنه مصر العربية الإسلامية .

* ولنا أحبائى القراء فى الدكتور السنهورى أسوة حسنة:

ـ فلنجعل منه نبراساً يضىء لنا طريق المستقبل.

ـ ولنأخذ من حياته واجتهاده العبرة ونحى فكره العظيم للانطلاق لمستقبل أفضل لمصرنا العزيزة..

ـ ولا ننسى أن الدكتور السنهورى أول من نادى بأن نأخذ من تراثنا وجذورنا الإسلامية قاعدة نمزجها بحاضرنا ونصقلها بالعلم والقراءة والثقافة لنبتكر لأنفسنا منهجاً جديداً يتفق مع ثقافتنا الشرقية لننطلق به إلى مستقبل علمى مشرق يكون زخراً للأجيال القادمة .

ـ ونحب أن نقول لشبابنا الواعد لا تنظروا إلى الوراء حرروا عقولكم من الخرافات ...

ـ اكسروا يا شباب قيود التخلف والرجعية ..

ـ حكِّموا العقل والمنطق والمصلحة العامة ...كما نادى بهم رائدنا العظيم، وابحثوا فى الماضى والحاضر عما يساعدكم على اقتحام المستقبل ...

ـ لا تقفوا مكتوفى الأيدى أمام رؤية الأجداد ورغبتهم العارمة فى تسيير الأمور، بل خذوا منهم ومن أفكارهم ما يصلح لخوض مستقبلكم مستعينين فى ذلك بمعيار العقل والمنطق والمصلحة .

ـ يا شبابنا الطامح اعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبداً ....واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً، كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام .

ـ افصلوا بين الاعتقاد الدينى البحت وبين العلم الذى ينظم حياة الناس من حولكم ..

ـ لا تجعلوا الماضى يسحبكم إلى الخلف، بل اجعلوه قوة دفع إلى الأمام ... كونوا أقوياء بدينكم وعلمكم .

ـ اقرأ..كانت أول كلمات الله إلى البشر، فاقرأوا حتى تعلموا مالا تعلمون..انطلقوا إلى الأمام إلى المستقبل .

لقد عشنا لحظات قليلة مع رائد من رواد التنوير الشرعي والديني والقانوني والوطني ، رائد عمل بالفكر ، ومارس بالقضاء ، وأسهم بالتعليم ، في تنوير البلاد والعباد ، بكل ثقة ، وبكل عزيمة وبكل قوة ، ليس في مصر وحدها ، بل في مختلف أنحاء العالم العربي . فهو تارة في العراق ، وهو تارة أخرى في الكويت ، وفي مرة ثالثة نجده يقدم التشريعات في سوريا ، ومرة رابعة يقوم بواجباته القانونية والتشريعية في ليبيا ، يقدم خدماته للأمة العربية واسلامية بدفاعه عن فلسطين واستقلال فلسطين في المحافل والمؤتمرات الدولية ، يدافع عن القضية الفلسطينية ، ويدعو للخلافة الإسلامية ، ويدعو لتطبيق الشريعة اسلامية لأنها صالحة لكل زمان ومكان ، يدعو وينور بلا هوادة ، ونلاحظ أن أغلب أعماله في البلاد العربية تطوعية بلا أجر ، لأن هذا هو قدره ، وهذا هو مجاله التنويري ، رحمه الله رحمة واسعة لما قدمه من تنوير فقهي وقانوني وسياسي ، ولم لا ؟؟!! فهو رائد عربي للتنوير بعيداً عن العصبيات القطرية ..

مستشار سامى زين الدين

عباس محمود العقاد
عملاق الفكر والأدب

بقلم

عبد الرزاق محمد عبد المنعم خليف

استهلال :

من هو العقاد ؟!

(١٣٠٦- ١٣٨٣هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٤م)

عباس بن محمود بن ابراهيم بن مصطفى العقاد : إمام فى الأدب مصرى ، من أعظم الأدباء والمبدعين . جذوره من دمياط ، ثم انتقلت عائلته إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى " عقادة " الحرير . فعرف بالعقاد . وأقام أبوه " صرافاً " فى إسنا فتزوج بكردية من أسوان . وولد عباس فى أسوان وتعلم فى مدرستها الابتدائية وشغف بالمطالعة . وعمل موظفاً بالسكة الحديدية وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلما فى بعض المدارس الأهلية. وتفرغ للكتابة فى الصحف والتأليف ، وأقبل الناس على ما يكتبه وينشره.

تعلم الانجيزية فى صباه وأجادها ثم ألم بالألمانية والفرنسية وظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ...

ولقد قام بتأليف ٨٣ كتاباً طوال نصف قرن من الزمان ، فى أنواع مختلفة من الأدب الرفيع ، منها كتاب " عن الله " و " عبقرية محمد " و " عبقرية خالد " و " عبقرية عمر " و " عبقرية على " و " عبقرية الصديق " و" رجعة أبى العلاء " و " الفصول " و " مراجعات فى الأدب والفنون " و " ساعات بين الكتب " و " ابن الرومى " و " أبو نواس " و " سارة " و " سعد زغلول " و " المرأة فى القرآن " و " هتلر " و " إبليس " و " مجمع الأحياء " و " الصديقة بنت الصديق " و " عرائس وشياطين " و " مايقال عن الاسلام " و " التفكير فريضة اسلامية " و " أعاصير المغرب " و " المطالعات " و " الشذور " و " ديوان العقاد " وكلها مطبوعة ومتداولة . وصدر له بعد وفاته كتاب سماه ناشره " أنا . بقلم عباس محمود العقاد " . وكان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة " دمشق والقاهرة وبغداد " شعره جيد . متميزاً بالتحلل من قواعد اللغة وأساليب الفصحى. وكان أجش الصوت . فى قامته طول ، نعت من أجله بالعملاق ، توفى بالقاهرة ودفن بأسوان .

وهو الذي يقول :

إذا شيعونى يوم تقضى منيتى

وقالوا أراح اللهُ ذاك المعذباَ

فلا تحملونى صامتين إلى الثرَى

فإنى أخافُ اللحدَ أن يتهيباَ

وغنوا فإن الموتَ كأسٌ شهيةٌ

ومازال يحلو أن يغنى ويشرباَ

وما النعشُ إلا مهدٌ بنى الردى

فلا تحزنوا فيه الوليد المغيباَ

ولا تذكرونى بالبكاءِ وإنما

أعيدوا على سمعى القصيدَ فأطرباَ

إضاءة :

فى تاريخِ الأدب العربى الحديث يعلو اسم الأستاذُ عباس محمود العقاد كقامةٍ شامخةٍ لكاتب صنع نفسه بالجد والجهاد ثم وظف هذا الشموخ من أجلِ خدمة أمته فى مجالاتِ الفكرِ والسياسةِ والشعرِ والفلسفةِ .. فاغتنىَ وأغنى من حوله الحياة .

طاقةٌ من الحممِ والبراكين والثورات والحروبِ اسمها العقادُ .. لهيبٌ بارقٌ وفوراتٌ جامحات ونوازعُ مضطربة متناقضة سكنت نفسه السخيةَ الأديبةَ وكأنها فى مأواها الآمنِ ..

وكان عطاءُ ضخماً استمر طولَ العمرِ .. وكان العمرُ رسالةً ومسئوليةً لا تعطلها العقباتُ أو الأخطارُ .

فإلى ذكراه المضيئة تحية وعرفان .

* العقاد – النشأة – والعصر:

ولد الأستاذُ عباس محمود العقاد عملاقُ الأدبُ العربىِّ وابن أسوان الشهير سنة ١٨٨٩م ووصل إلى القاهرةِ فى السنواتِ الأولىِ من هذا القرن ليتركَ مدينةَ الشمسِ ومدينةَ نشأته وصباه ويُلقى بنفسه فى خضمِّ الثقافةِ والسياسةِ والفكرِ فيصبحُ علامةً راسخةً فى تاريخِ الفكرِ والأدب العربى ، وشخصيةً إنسانية متعددةَ القدراتِ شاسعةَ الآفاقِ .. فهو الكاتبُ الجبارُ كما أطلق عليه ..

وهو في الوقت نفسه : رجلُ السياسةِ والأديب العتيق وهو الشاعرُ المجددُ والفيلسوفُ الذى يؤمنُ بالروحِ والمؤرخُ الإسلامى صاحبُ العبقرياتِ .

وقد تأثرالعقادُ ببيئته .. فأسوان – كما يقولُ – بلدةٌ خالدةٌ بل مخلدة لأن معالمَ الخلودِ في الهياكل مستعارةٌ من محاجرها فهي كالزمنِ تهبُ الخالدينَ مادةَ الخلودِ

ولم يكن العقد متسلحاً من أسلحةِ الحياةِ التي يحتمي فيها الناسُ عادةً ولم يجدْ في حياته الطويلة نوعاً واحداً من أنواعِ الحمايةِ والطمأنينةِ .. ففي الوقتِ الذي يحملُ فيه الشبانُ شهادات عدة لم ينل العقادُ سوى شهادته الابتدائية . ولم يُولدْ في أسرة غنية توفرُ لهُ أقل ضرورات الحياةِ أو أبسطها واضطرَّ إلى الانقطاعِ عن التعليم للعملِ بجنيهات قليلةٍ في الوظائفِ المتواضعةِ .

فإذا تخيلنا العقادَ وهو يشقُّ طريقَ العلمِ والأدبِ والصحافةِ بغير صاحبٍ يؤازرهُ أو قريبٍ يعاونهُ أو شهادةٍ علميةٍ تسنده لعرفنا أى جهدٍ تطلبه بروز العقادِ على مسرحِ الفكرِ فضلاً عما تعرَّض له من مرضٍ استطاع العقادُ أن يحيله إلى عامل إيجابي لحياة من العزلة الخلاقة أتاح العقادُ لنفسه بها أن يعتكفَ في صومعةِ القراءةِ والدرس وأن تتمكنَ في نفسه خصائصُ التأملِ في الحقائقِ والتعمقِ في الأفكار .. فقد لزمت العقادَ عادةُ المطالعةِ منذ عهدِ الحداثةِ حتى صارت حياته حياة مكتبية محضة وقد أبى على نفسهِ أن يشوبها بما يخرجه من تلك الوحدة .. فتيسر له أن يعتصرَ زبدةَ الفكرِ من أصفى منابعه .

ولعل أثرَ الصرامةِ والجدَّ كمنهاج للحياة يبرز في وضوحٍ في أدبِ العقادِ فالفكرةُ عنده لها أصالتها من المنطقِ ، والجملةُ بنيانٌ مرصوصٌ ، والكلمةُ في الموقعِ الذي يكفل لها الجلال فأدبه صورةٌ صادقةٌ لسيرته ، وهو فيما يكتبُ كأنما ينقل لنا مشاهدَ صحيحةَ من حياته العقليةِ والنفسيةِ في صومعة مكتبية أولاها كل تقديس وكان من دلائل جبروته أن لم يرضَ السير في طريقٍ ممهد .. فهو بين معاصريه طرازٌ وحده ، مجدد بالدعوةِ يجهرُ بها مُجدد بالنقدِ يدأب فيه مُجدد بالنماذجِ يقدمها ، وهو في جملةِ أدبه صاحبُ مباداة وخلقٍ وابتداعٍ في كافةِ المجالاتِ التي أولاها اهتمامه وعكف عليها بالدرسِ والإنتاجِ الغزيرِ .

* التيارات الرئيسية التى اتسم بها العصر:

فى بدايةِ هذا القرن ومن خلال تناقضات ضخمة بدأت تعملُ فى مصرَ تياراتٌ متعـددةٌ كان يجمعُ بين هذه التيارات الرغبةُ العارمةُ فى الخروجِ من اليأسِ إلى الأملِ وتخطى هزيمة الثورة العرابية واحتلال مصر ، ولنقف قليلا أمام بعض هذه التيارات الرئيسية لعلنا بذلك نستطيعُ أن نعرفَ المناخَ الفكرىَّ فى هذه المرحلـةِ وهـى بدايـةُ القـرنِ العشرين وهذه الرحلةُ التى حملت المقدماتِ المباشرةَ لثورةِ ١٩١٩م التى بـرز بهـا العقادُ وساهم فى قيادتها الفكرية .

كان هناك تيارٌ يدعو إلى تجديدِ التراث العربىِّ الإسلامىِّ حتى يتلاءم مع روحِ القـرنِ العشرين وحضارةِ القرنِ العشرين وكان زعيمُ هذا التيارِ ومنبعه الأكبر هـو الشـيخُ محمد عبده .

كان محمدُ عبده يريد أن يخرجَ المصريون عموما من التخلفِ الحضارى الكبيرِ ومـن اليأس المر الذى كان يسيطرُ عليهم نتيجة لهذا التخلف .

والتيارُ الثانى الذى كان قائماً فى هذه الفترة أيضا كان تياراً يمثله مصطفى كامل وهو تيارٌ سياسىٌّ بالدرجةِ الأولى ، حيث كانت خطبُ مصطفى كامل وعمله السياسى بمثابةِ الشعر الرومانسى والروح الحماسية للتغنى بمصرَ وإعادة الثقة إلى قلوبِ المصريينَ فى بلادهم كما مثّل مصطفى كامل فى بداية هذا القرنِ التيار الوطنى الإسلامى الـذى يعتبرُ الرابطةَ الإسلامية رابطةً سياسيةً .

وكان هناك تيارٌ ثالث يمثله أبناء الأعيان من أصحاب الثروات وهؤلاء فى معظمهـم قد تعلموا فى أوروبا وعادوا إلى مصر يحملون فى رؤوسهم فكـرة عصـرية عـن القومية والوطنية ، إن المسألةَ عندهم ليست مسألة دين ولا مسألة عنصـر ولكنهـا بالتحديد مسألة مصالح مشتركة بين الناسِ وهذه المصالح المشتركة هى الأساسُ فى فكرةِ الوطنية وفكرة القومية .

وكان زعيمُ هذا التيار لطفى السيد يؤمن بالإصلاح الهادئ وبالتدريج وبرفع شعار " مصر للمصريين" ثم تيار رابع هو تيار المهاجرين من الشام إلى مصر وهذا التيارُ لم يكنْ مثل التيارات السابقة من حيثُ انه يعد أثراً من آثار فشل الثورة العرابية وإنما ولدته ظروف أخرى هى ظروفُ الثورة ضد الحكم العثمانى الذى كان مسيطراً على الشامِ وغيرها وقد روَّج معظمُ هؤلاء للاتجاهاتِ العلميةِ الغربية مثل نظرية التطور عند داروين ، والدعوات التحررية الأخرى عند روسو وفولتير، وغيرهم من كتاب أوروبا ومن ألمع أصحاب هذا التيار يعقوب صروف وشبلى شميل وفرح أنطون ، فارس نمر .

وقد بدأ العقادُ الكتابة سنة ١٩٠٧ تقريباً وكان عمره آنذاك حوالى ١٨ سنة وهكذا يكون قد بدأ خطواته الفكرية الأولى فى قلبِ فترةٍ مليئةٍ بالحركةِ والحيويةِ والاتجاهات المتعددة ..فترة مثيرة للحيرة والارتباك .

ولم يجد العقادُ فى هذه التيارات تياراً واحداً يرتبطُ به ارتباطاً كاملاً نهائياً وظل يعيشُ فى هذا المناخِ الفكرى متردداً على هذه التياراتِ يتأثرُ بها دونَ أن يذوب فى أى واحدٍ منها أو يستسلمَ استسلاماً نهائياً له.

ويقول العقادُ معبراً عن هذه الفترةِ:

" كنتُ من فريقِ الشبانِ الذين نفروا من الأحزابِ منذ اللحظة الأولى فلم يكنْ لى حزبٌ أتعصبُ له وأنتمى إليه .. ولم تكنْ لى صحيفةٌ أتشيع لسياستها ومنهجا فى كتابتها.. ولكننى كنت أفضلُ "الجريدةَ" فى جانبِ الثقافةِ، وأفضلُ "اللواءَ" فى شدته على الاحتلالِ والوزارةِ (أقرأ "المؤيدَ" لمقالاته الشرعيةِ والإسلاميةِ) .

وأعتقد أن الخطةَ المثلى هى خطةُ مصرَ للمصريين تمييزاً لها عن خطة المحافظة على السيادةِ العثمانيةِ".

* العقاد سياسيا :

جذبت المعركةُ السياسيةُ العقادَ حيث كان محبا للنضالِ بطبعه فكان من الطبيعى أن يندفعَ إلى حلبة النزالِ فانبرى يقاتلُ قتال الفارسِ المغوار وهو على كثرة ممارسته للمعاركِ ظل طوال عمره على منهجٍ واحدٍ فى الحربِ: منهجِ الفارسِ القديمِ فهو فى القتالِ يؤثر النزالَ وحيداً غير معتمدٍ على الشركةِ فى حربٍ شاملةٍ.

والعقادُ حين أيد ثورة ١٩١٩م وحزبها الوفد كان يعبر فى كتاباته عن عقيدةٍ وطنية اعتقدها لا عن حزبيةٍ وهو من أجل ذلك لم ينضمْ إلى الحزبِ الوفدى ولا إلى غيره من الأحزاب.

ولقد ارتبط العقادُ منذ اللحظة الأولى بالثورةِ وكان وقتها فى الثلاثين من عمره واشترك العقادُ فى العملِ الثورى. ومن أعمال العقاد ذات الدلالة فى هذه الفترةِ أنه كان يكتبُ منشوراتِ جماعة اليد السوداء إحدى الجماعاتِ السريةِ الرئيسيةِ أثناء الثورة ومن مواقفه الشهيرةِ تصحيحهُ لبيان لجنة ملنر التى جاءت لمحاولةِ البحث عن وسيلةٍ للخروجِ من المأزقِ بالنسبة لإنجلترا فقد أصدرت اللجنه بياناً جاء فى ترجمته العربية: "أن اللجنةَ ترغبُ رغبةً صادقةً أن تمكن الأمةَ المصريةَ من صرف كل مجهوداتها إلى ترقيةِ شئون البلاد تحت أنظمة دستورية.

وسارع العقادُ إلى تصحيحِ الترجمةِ فالعبارةُ الصحيحةُ التى قصد الإنجليزُ إخفاءها كانت " تحت أنظمةِ حُكمٍ ذاتىٍّ " ولم تكن تحت أنظمةٍ دستوريةٍ وكان الفرقُ بين العبارتين كبيراً جداً فى نظر الوطنيين ، حيث كان الوطنيون يريدون الاستقلال والدستور.

ويذكرُ التاريخُ للعقادِ وقفته فى الثالثِ والعشرين من يوليــو ســنة ١٩٣٠م يتحــدى الجالس على العرش أحمد فؤاد الذى أبى إلا أن يحاولَ للمرة الثالثة أن يفرضَ علــى البلاد حكمه التعسفى زاعماً لنفسه أنه يحكم بالحق الإلهى فارتفعت من العقاد تحت قبة البرلمان صيحته المشهورة: "أن الأمة على أستعداد لأن تسحق أكبر رأس فى الــبلاد يخون الدستورَ ولا يصونه" وقد كان التفكيرُ فى الانتقامِ من العقادِ وارد بأى شكل من الاشكال فى ذلك الحين .

وقد سمع العقادُ تحذيراً من أحد كبار الوفد "حذار يا أستاذ" فأجــــــاب العقادُ باسما : " أيغنى الحذر من القدر".. فقال له " إنى أرد لك ما أعلم ما لم أظن، إن مقالاتك تراجع فى الدوائر مراجعةً خاصةً وإنهم ينتظرون يوما معينا ربما كتبت فيه ما يساعد علــى تأييد التهمة ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة.. وفــى اليوم الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٠م ساعة الأصيل وهو بالمنزل وحده ناولــه ضابطٌ شاب دعوةَ النائب العمومى للحضورِ إلى مكتبهِ فى الساعةِ العاشرةِ من صباحِ اليوم التالى واستمرَّ الحبسُ الاحتياطى لمدة أربعةِ أشهر حيث صدر الحكم بحبسه لمدة تسعة أشهر أبقته فى محبسه حتى يوليو سنة ١٩٣١م فى " سجن مصر العمومى ذلك البناء القاتم اللون القائم قرب القلعة فى قرة ميدان أو الميدان الأســود" وقــد خــرج عباس العقاد من السجن متوجها إلى قبر سعد زغلول مجددا العهد بمتابعــة النضــال حيث قال :

وكنت جنين السجن تسعــة أشهــر   فها أنا ذا فى ساحة الخلد أولد ؟؟

عداتى وصحبى لا اختلاف كليهمــو   سيعهد فى كل كما كان يعهد ؟؟

وقد اتسمت كتابات العقاد فى هذه الفترة بالدفاعِ عن الشعب ضد سلطة القصر ، وبالتجديد فى الشعرِ العربى والثورة على القديمِ بل لعله كان من أنصار تحرير المرأة فقد كتب العقادُ فى الفصولِ عام ١٩٢٢ يقول :

" أين هو الرجل الذى يفهم الحريةَ وهو يسكنُ إلى شريكتة فى الحياة مستعبدة ، وأين هو الرجلُ الذى ينعم بثمرةِ الحريةِ وهو وليد أم مقيدة ؟ وأين هو الرجل الذى تحيـا نفسه وقد مات منها الجانب الذى خلقت المرأة لتحييه.. إنه العقاد الذى يتحدثون عنه فى أساطير الأولين "٠

وقد عارَض العقادُ أيضا ، رغم ما عُرف عنه من مناهضةٍ للشيوعية٠ عارض الملكيةَ الكبيرةَ للأرض وتعاطفَ مع الاتجاه الاشتراكى كما يفهمه ومن ذلك المقال الذى علّق فيه على ترجمةٍ فتحى زغلول شقيق سعد زغلول على كتاب جوستاف لويـون الـذى يهاجم فيه الاشتراكية ويقولُ العقادُ فى هذا : " على أن دعاة المساواة لم يشطوا فـى مذهبهم ولا قالوا أن الناس طبعوا على غرار واحد فى العقل والفضـل وهـل تـرى دعوتهم إلى تساوى الناس فى الحقوقِ أمام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم.. كل ما يعنى الداعى إلى المساواة ذلك العامـل الفقير أن يكونَ متساويا مع سائر الناس فى الأمن على حياته " ٠

وقبل عام ١٩٣٦م كان العقادُ قد اختلف مع الوفد بسبب الموقف من وزارة نسيم باشا التى رأى فيها الوفدُ خطوة من أجل عودته للحكمِ وناوأها العقاد لتسلطها وتلكؤها فى استعادةِ الدستور ثم فاز الاحتلالُ بمعاهدة ١٩٣٦ م التى جعلت وجوده شـرعيا وزاد تفاقم الأزمة أيضا انشقاقُ حزب الوفد نفسه من الداخل وخروج من أسـموا أنفسـهم بالسعديين سنة ١٩٣٧م وارتباط العقاد بهم كاحتجاج على أخطاء الوفد فى الحُكم ٠

وقد انعكس هذا الوضع على موقف العقادِ الفكرى من الناحيةِ السياسية والعملية وإن انطلق يكتبُ وينتجُ بحماسة لم تتوقفْ حتى مات ٠

ويمكن تلخيص هذه الفترة فى حياة العقاد الفكرية بأنه أصبحَ من غلاة الليبراليين وقد أصبح يقيسُ بها كل مذهبٍ فكرى وكان من نتيجة ذلك موقفه المعادى المعروف مـن الماركسية والوجودية ٠

ويذهبُ البعضُ - وهو منهم - أنه كان من المدافعينَ عن الاشتراكيةِ ومن ذلك ماكتبه فى مجلةِ الهلال عام ١٩٥١م بعنوان " لو أصبحت مصر اشتراكية "

* ويقول العقاد فى هذا المقال الهام :

" لو أخذت مصر بنظام الضرائب التصاعدية ونظام التعاون فى الريف والحاضرة فلا خوف عليها من دعوة طائشة أو مذهب هدام " .. ويقول أيضاً : (إذا أصبحت مصرُ اشتراكيةً فأصلح الاشتراكيات لها أن تتوسطَ ولا تندفعَ من الشطط فى جانبٍ من الجانبين ، فليس من مصلحة مصرَ أن تستولى الحكومات على مرافقها وأن تدارَ الأعمال العامة كما تدار أعمال المكاتب والدواوين وليس من مصلحة مصرَ أن تغفلَ عن مجرى الأمور فى العصر كله وفى العالم بأسرهِ وأن تبقىَ هذا التفاوت الشاسع بين أغنيائها وفقرائها الزراعيين ومن أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب الأيدى العاملة) .

* العقاد .. مفكراً

كان الإيمانُ بالفرد فى عصر التكتلات البشرية التى تلتهم فى طريقها رغبات الفرد محوراً أساسياً من محاور فكر العقاد .

وقال العقادُ : إن المجتمع ليس سوى مجموع الأفراد وأن رعايةَ الأفرادِ هى خيرُ وسيلةٍ لبناء المجتمع السليم .

ويعرض العقادُ لنظرية الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل عن الفرد فيبسطها فى وضوح على صفحات كتابه عن القرن العشرين ، حيث يقول : (إنه من اللازمِ أن يحمى الفردِ من طغيان الجماعة كما يحمى من المخاوف التى تساوره فى قرارةِ

وجدانه .. ولابد من فسح المجالِ للأفذاذ الموهوبين كالشعراءِ والفنانين الذين لا يظفرون بالتأييدِ من أصحاب التقاليد) .

وكتب العقادُ مرة فى الرسالة القديمةِ سنة ١٩٤٣م يقول : يأخذ بعضُ الناسِ بالقولِ القائل إن الفردَ نتيجةٌ منفعلةٌ وليس بسببٍ فاعل فى الحوادثِ التاريخيةِ وأن العظيم لا ينبغُ فى أمة إلا إذا تمهدت له دواعى الظهور من تكوين تلك الأمة .. وهذا مذهبٌ مبالغٌ فيه جنح إليه الاشتراكيون على الخصوصِ لأنهم يردون العوامل كلها إلى المجتمعِ وعناصر تكوينه ومعيشة أبنائه ، ولكنهم مهما يبالغوا فى هذا فلن يستطيعوا أن يزعموا أن العظماءَ والصغراءَ سواء وأن النوابغ لا يقدرون على عمل يعجز عنه المحرومونَ من النبوغِ .

ولعل هذا الإيمانَ بالفرد نفسه نتيجةٌ مباشرةٌ وطبيعيةٌ لعصامية العقاد وإيمانه بنفسه وبالقدرات الخارقة للفرد أن يجتازَ الحواجزَ ويشق لنفسه طريقاً فى دنيا الفكر والحياة .

والعقادُ المولعُ بالفرديةِ .. والذى تتمثلُ فيه المشاعرُ الجياشةُ الفياضةُ لا غرابة فى اختصاصه بكتابة التراجم ، بل هى أصلحُ الأعمال وأكثرها ملاءمة لطبيعته الحساسة المتفتحة على عوالمِ الفكرِ والشعورِ . وقد ورد فى مقدمة كتابه عن محمد عبده مايشير إلى هذه الحقيقة – يقول العقادُ : (هذا تمهيد نفتح به هذه السيرة العطرة لنبسطها على مانتحراه من سيرِ العظماءِ جميعاً صورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن ومواقع الأمكنة وأرقام السنين . بمقدار ما تمثلهُ لنا من ملامحِ الصورةِ ومعالم الحياة التى تصورها وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده إلى وفاته ، فالذى نتحراه منه أن يكون عضواً من أعضاء قوة حية قبل أن نتحراه جزءاً من فترات التاريخ أو جزءاً من الخريطة الجغرافية) .

وقد اتبع فى أسلوب كتابته عن العبقريات وأهمها " عبقرية محمد ، وحياة المسيح ، وعبقرية عمر ، وعبقرية عثمان بن عفان ، وعبقرية خالد ، وغيرها من تراجم عن سعد زغلول والمهاتما غاندى وشكسبير ، وبرنارد شو ، وابن الرومى .. وغيرهم من القادةِ والأعلام أن يسلكَ نهجاً غير النهج الطبيعى المعهود من سردِ مراحل الحياة والكشف عن أهم الأحداث فهو حين يرسمُ الشخصيةَ التاريخيةَ يكوّنُ فى شأنها فكرةً أساسيةً وهى محورُ تلك الشخصيةِ ومدار سلوكها فى الحياة وأثرها فى البيئة .

وقد عاش العقادُ أكثر أيامه على الأرضِ داخل بيته فى مصرَ الجديدةِ ولكنه طاف بمجالات الفكر المختلفة وتطاحن وهو فى غرفته مع أعظم المشاكل وأخطرها ودخل فى معارك لا حصر لها .

فالعقاد قد اتخذ لنفسه فى المرأة نظرية لا يحيد عنها وإنما ظل يسعى تباعا على مرِّ الأيام إلى تعميقها .. وإذ تتلخص نظريته تجاه المرأة والرجل بشكلٍ عام إلى أنَّ الرجلَ مخلوقٌ مستقلٌ وأن المرأةَ مخلوقٌ تابعٌ ، ومن هذه الفكرة تتفرعٌ سائرُ الأحكام والنتائج التى يقدم لها سنداً من علم الحياة وعلم الأجنة وأنماط السلوك العضوى والوجدانى والعقلى ونتاج القرائح والفنون .

وأيا كان خطأ هذا الرأى أو صوابه فقد جاهر العقادُ به ، ودفاعهُ عنه ليس قاصراً على صفحات ولكن فى كتاب " هذه الشجرة " الذى تناول رأيه فى المرأة على هذا النحو فكان مثلاً للشجاعةِ الفكريةِ نحتاجها فى كلّ الأحوالِ .

والعقادُ وطد عزمه منذ شبابه الأول على حمايةِ الحرياتِ الفرديةِ وصيانةِ حُريةِ الرأى والفكرِ والكلمةِ ..

والعقادُ قاتل ضد إرهاب الإخوان المسلمين فى أقوى لحظات جبروتهم وتسلطهم..

والعقادُ لم يتركْ فرصـــــــــةً لمناضلةِ الشيوعيةِ ومحاربتها وتفنيد دعاواها دون أن يستغلَها .

والعقادُ حارب نظرياتِ المستشرقين المغرضة ودعاواهم فى إيقاف الامتياز والعبقرية والابتكار على شعوب وأجناس دون غيرها ..

والعقادُ خاصم النازيةَ والفاشيةَ والدكتاتوريةَ العالمية ، مما عرضه فى فترة الحـــربِ العالميةِ الثانيةِ لخطر الانتقام ، حين بدأ هتلر فى اجتياحِ الأراضـــى المصـــرية فـــى العلمينَ ..

ولو خاضَ جيشٌ بأكمله ما كرّسَ العقادُ حياته وقلمه للثورةِ عليـــه ومهاجمتـــه لمـــا استوفى جزءاً بسيطاً من أجزاءِ مهامه ولما كافحَ بعض ما حظى العقاد به أطرافا من وقته وجهده ..

وفى الوقتِ نفسه فإن حضارةَ الغربِ لم تسحرْ العقادَ فلم يندفعْ قط فى الإكثـــار مـــن مذاهب الفكر الغربى إلى حد إهمال مقومات العروبة الأصيلة وإن كان استفاد الكثيـــرَ من ملازمة المؤلفات الغربية وقراءتها واستخلص جذورمواقفه من عبارات الفلاسفة وأساليب الشعراء والأدباء والعلماء ، بل إنه استفادَ منهم بطريقةَ الاتـــزان وفحـــص الأمورِ على نحو تحليلى ينفذ إلى قراراتِ المبادىء الأولية .

ولقد دافع العقادُ عن حريةِ الفكرِ والبحثِ العلمى ، حتى وإن اختلف فى الـــرأى مـــع أصحابها ، ومن ذلك نذكرُ دفاعه عن الدكتور طه حسين ســـنة ١٩٢٦م علـــى أثـــر إصدارِ كتابه فى الشعرِ الجاهلى . فقد قام بعضُ الوفـــديين يطـــالبونَ بإبعـــاده عـــن الجامعة بتهمة المساس بالدينِ وكان سعدُ زغلول زعيمَ الوفد يرى رأيهم فإذا بالعقـــادِ يقومُ فى وجههم مدافعا عن حـــريةِ الفكرِ وعن طه حسين ، وذلك رغـــم الخـــلافِ السياسى بينهما .

* العقاد .. شاعرا:

ولكن .. عندَ ذكر إسم عباس العقاد .. أسهمت عناصرٌ كثيرةٌ فى تكوين شعر العقــاد وشخصيته الأدبية فهو مصرىٌّ يستشعرُ أمجاد المصريين فى ضــميره وقلبــه وهــو عربى اللغةِ وقد تربى على قراءة الأمهات العربية فــى النثــرِ والشــعرِ والفلســفةِ والتصوفِ ، وهو غربىٌّ التفكير تزوَّد من آداب الغرب بكل ماستطاع من غذاءٍ عقلى فهو يتوغلُ فى قراءة الآداب الغربية المختلفة عن طريقِ اللغةِ الإنجليزية التى يتقنها ، كما يتوغلُ فى قراءةِ الآثارِ النقديةِ .

ورغم أنه لم يكملْ دراسته إلا أنهُ تعهد عقله بــالقراءةِ والتثقيــفِ وشــحذ مواهبــه بالإدمان الطويلِ على النظرِ فى آثار الشعراءِ المختلفين .

ونراه فى مطلع شبابه يقودُ مع شكرى والمازنى معارك التجديدِ فى شعرنا وقد خرجا من الميدانِ مع الحرب العالمية الأولى ، بينما ثبت هو بدافعٍ من روحهِ القومية التــى تؤمن دائما بمثل أعلى ثم تسعى إلى تحقيقه فى جهادٍ متواصــلٍ لا يعــرفُ التــوانى والفتورَ .

وإذا كان الشاعرُ من نعرفه بشعره ، فالعقادُ شاعرٌ من شعراءِ العربيةِ المتميزين ذلك لأن الناقدَ يستطيعُ حين يقرأ شعرَ العقادِ أن يميزَهُ وأن يدركَ أن لهذا القلــمِ المعبــرِ رؤيته الخاصة ، ولغته المتميزة وموضوعاته الأثيرة .

وقد صدر أول دواوين العقاد فى عام ١٩١٦م وأهم مايُحسبُ له أنه تمرَّدَ شجاعاً على الجوِّ الشعرى القائم " فالشعرُ يعمقُ الحياةَ فيجعلُ الساعةَ مــن العُمــرِ ســاعات " .. والشعرُ لا يفنى إلا إذا فنيت بواعثه إلا محاسن الطبيعة ومخاوفها وخــوالج الــنفس

وأمانيها " والشاعر لا ينبغى أن يتقيد إلا بمطلبٍ واحدٍ يطوى فيه جميع المطالب وهو التعبيرُ الجميلُ عن الشعورِ الصادقِ " .

والشعرُ من نفسِ الرحمن مقتبسٌ .

وآخر هذا البيتِ المشهورِ :

والشاعرُ الفذُّ بين الناسِ رحمة

كتب العقادُ هذا البيت من أبياتِ هذه القصيدة التى تتضمنُ عن الشعر ووظيفته بالنسبة لشاعره وبالنسبة للمجتمع ، بينما كانت أصداء بيت شوقى المعروف " شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب " مازالت تترددُ .

وكان شوقى يمثلُ العلية إبان الحرب الأولى العالمية وبعدها حتى ظهرَ العقادُ وإذا به يعلن حرباً عوانا على الفن الشعرى الذى يمثله شوقى بدون مواربةٍ أو إبطاءٍ .

وقد حاول العقادُ أن يدفعَ إلى الأمام بعجلة التقدم فى الأدبِ والشعرِ عن طريق تثبيت الدعائم والأسس والمقاييس التى نعم الآداب كلها ووضع لذلك بيانا مشهوراً فى سنة ١٩٤٧م " العقاد – مقاييس وأصول فى النقد والشعر – الرسالة العدد ٧١٩ " فالمقاييس الأولى أن الشعرَ قيمةٌ إنسانيةٌ قبل أن يكونَ قيمةً لفظيةً أو صناعيةً .. فأولُ مقياسٍ للشعرِ الصادقِ الرفيعِ أنه يحتفظُ بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميعِ اللغاتِ لأنه يرجعُ إلى الطبيعةِ ولا يجعلُ مرجعه كله إلى الأوزان أو موقع الألفاظِ .

والمقياسُ الثانى : أن الشعرَ تعبيرٌ عن نفس صاحبه وإن كان وصفاً لغيره فإذا قرأت ديواناً كاملاً من الشعرِ وجب أن تعرفَ صاحبه وتتمثله ولا يكونُ الشعرُ تعبيراً إذا كان صاحبه يزعم لك أنه يعطيك صورةً من الأحياءِ والجمادِ ولا يُعطيكَ صورةً من نفسهِ .

والمقياسُ الثالثُ : للشعرِ الصادقِ أن القصيدةَ بنيةٌ حيةٌ أو بنيةٌ عضويةٌ يقع كلُ جزءٍ منها فى موقعهِ الذى لا يغنى فيه عنه غيره .

والعقاد يستوعبُ الفكرَ الغربى وهو يعلنُ هذا الاستيعابَ منذ ديوانه الأول ولا يخفيـــه فقصيدته الرابعة معربة عن شكسبير وعنوانها " فينوس علـــى جثـــةِ أدونـــيس " .. ونمضى فى الديوانِ فنجده يترجمُ لقطعةٍ من مسرحيةِ روميو وجولييت .. وهذه القطع المترجمة ليست أكثر من رموز تشيرُ إلى ثقافتهُ الغربية وهى ثقافة متعمقـــةٌ ولكنـــه استطاع أن يتحررَ منها كما تحرر من ثقافتهِ العربيةِ ليجد نفسه وشخصيته وروحـــه المصرية .

ويتمثلُ فى ديوانه اتجاهان أولهما الوقوفُ بآثار الفراعنةِ وإشادته بحضارتنا القديمة وأما ثانيهما فوصف عواطفنا السياسية والوطنية وأروع مثال على ذلك قصيدته يـــوم الميعاد التى نظمَّها بعد رجوعِ سعد زغلولٍ من منفاه وفيها يقولُ :

مايبتغى الشعبُ لايدفعه مقتدر

من الطغاة ولا يمنعه مغتصبُ

للعقاد عشرةُ دواوين هى ثمرةُ ما يزيد على خمسين عاما من التجربةِ الشعريةِ . وقد كان للعقاد طبيعةٌ حسيةٌ بمعنى أنه كان يستطيعُ الإحساسَ بالأشياءِ ، وتبين الألـــوان والظلال وتشمم الروائح وتلمس الأشكال وتلك موهبة بعض الشعراء مثل جون كيتس ، وابن الرومى (أما المثال الذى اختاره العقاد لنفسه فهو مثالُ المفكر الفيلسوف ، لا المفكر الفيلسوف ناثرا فحسب ولكن المفكر الفيلسوف شاعرا) وقد يكون مرجع ذلك قراءته لأبى العلاء المعرى والمتنبى فى سن مبكرة ، كما يكشف ذلـــك ديوانـــه الأول خاصة وجملة دواوينه عامة .

ومن أهمِّ الموضوعاتِ التى عنى بها وخاصة فى ديوانه الأول بأجزائه الأربعة الحـــب والطبيعةُ أما الحبُّ فنراه يعبرُ فيه تعبيراً دقيقاً عن المشاعرِ والإحساساتِ الدفينةِ ومن خير قصائده فيه " نفثة " التى يستهلها بقوله : ظمآن لاصوب الغمـــام ولا عـــذب المدام ولا الأنداء ترويني . وتحتل الطبيعةُ الصامتةُ والمتحركةُ حيـــزاً واســـعاً فـــى

الديوان وقد خصَّ النيلَ بقصائدَ كثيرة لعل أهمها " على النيل ، ونراه يولع بتصوير فُصولِ السنة كما يولع بعالمِ الزهور .

ويقف طويلاً أمام عالم الطيران تملؤه الرحمةُ كما يملؤه العطفُ والشفقةُ وهو فى كل ذلك يحلق بأفكارهِ فى مدى بعيد من الحسِّ والشعورِ والتأمل العقلى الواسع .

وقد نظم كثيراً من القصائدِ فى " الكروان " هذا الطائرُ المصرىُّ الذى يملأ ليالى الوادى بأناشيده العذبة .

وفى سنة ١٩٣٤م أقيم للعقاد حفل تكريم كبير من المعجبين به وزملائه فى الجهاد وكانت الحفلةُ برئاسة مصطفى النحاس زعيمِ الوفدِ آنذاك فى مسرح الأزبكية بالقاهرةِ وشهدها جمعٌ حاشدٌ من الشخصياتِ البارزةِ وأعضاء البرلمان وأعلام الفكر .. وبايع عميدُ الأدبِ العربىِّ الدكتور طه حسين العقاد لإمارة الشعر حيث قال :

لنا نحن النقادَ مع العقادِ مواقفَ يالها من مواقف ! نختصم فيها حول المعنى اختصاماً مرهقاً عنيفاً, ونختصم معه فى اللفظِ اختصاماً تضيق به الناس , ولكنا حين نختصمُ معه فى معنى أو لفظٍ أو حين نشتط عليه فى النقد ,لا نزيد على أن نعترف له أنه الشاعر الفذ ولولا أنه الشاعر الفذ لما خاصمناه ويختم الدكتورُ طه حسين خطابه الرائع بهذا النداء . ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباءِ والشعراءِ أسرعوا واستظلوا بهذا اللواءِ فقد رفعه لكم صاحبه " .

وأخرج العقادُ فى الحربِ العالمية الثانية ديوانه " أعاصير مغرب " سماه بهذا الاسم إشارة إلى ظهوره والعالم مضطربٌ بأعاصير الحرب ، وعالم نفسه يضطرب أيضاً بأعاصير مختلفة ...

فهذا هو العقاد فى مجالِ الشعرِ الحديث والقديم .. عالمٌ كبير فى عالم الشعر والتجديد فى الشعرِ .

* العقاد صحفيا :

كانت الصحافةُ (يوميةً وأسبوعيةً) هى منطلقُ معارك العقاد السياسية والأدبية جميعاً ولا نعرف للعقادِ معاركَ أو مساجلاتٍ فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، حيث عمل فى الصحافةِ منذ عام ١٩٠٧م بالتحريرِ فى جريدةِ الدستور (فريد وجدى) ، ثم فى جريدةِ المؤيد (على يوسف) أما عمله الصحفى الذى كان مجال معاركه ومساجلاته . فقد بدأ مع ثورة ١٩١٩م ، وفى إبان النهضة الوطنية والسياسية فى صحيفةِ البلاغِ (عبد القادر حمزة) عام ١٩٢٣م وانتقل إلى صُحفِ كوكب الشرق ، المؤيد الجديد ، الضياء ، مصر ، الجهاد .

وفى هذه الفترة نهض العقادُ بالمقالةِ السياسية إذ ردد فيها كثيرا من آراءِ المفكرين والفلاسفة الغربيين ، وخاصة فى مجال الحريةِ وحقوق الشعب السياسية وقاد فى هذه المقالات معارك مع كتاب الأحزاب الأخرى مثل هيكل كاتب الأحرار الدستوريين وهى معارك ارتقتْ بفن الجهادِ العربيِّ القديمِ فلم يعدْ هجاءً شخصيًّا . إن أصبح هجاءً حزبيا يستمد من المبادىء العامة ومن فكرٍ راقٍ نشيطٍ.

وفى هذه الفترة أيضا فى العقد الثالث من هذا القرن رأى العقادُ مع هيكل والمازنى وطه حسين أن ينقلوا إلى قرائهم مباحثَ الأدبِ والنقد الغربيةَ ويشفعوها بنظراتٍ تحليليةٍ من المفكرين الغربيين وكان ذلك سبباً فى ظهورِ ملاحق أدبية للصحف اليومية فأخرج السياسة الأسبوعية وأخرج العقادُ أو أخرجت جريدةُ البلاغ الوفدية مجلةَ البلاغِ الأسبوعية ونتجت عن ذلك نهضة أدبية واسعة .. وجمع العقاد مقالاته الممتازة فى كتب فنشر " مجمع الأحياء " ، " مراجعات فى الأدب والفنون " ، " مطالعات فى الكتب والحياة " وهى تصور هذا الجهد العقلى الخصب الذى اضطلع به

فى حياتنا الأدبية فقد نقل إلينا كثيرا من الأفكار الأوربية التى لم تكنْ تعرفها العربيةُ ، وسلط عليها من شخصيته ما طبعها بطابعه الخاص .

وفى أثناء حكم صدقى (١٩٣٠ - ١٩٣٤م) دخلت مصر فى ظلال عهـد اسـتبدادى ألغى فيه الدستورُ والحياة النيابية فثارت ثائرة كتاب الأحزاب وعلى رأسـهم العقـاد فكتب كتابه " الحكم المطلق فى القرن العشرين " وهو أغنية بارعة فى الديمقراطيـة وصلاحيتها للأمم الشرقية وتناولَ فى بعضِ مقالاته الملكَ فؤاد فكانت من ضمن أسباب الحكم عليه بالسجنِ وقد وصف حياته فى السجنِ بكتابه (عالم السجون والقيود) .

وتوالت الأحداثُ فأنشق النقراشى وأحمد ماهر على حزبِ الوفدِ وخرج معهما العقـادُ مع الخارجين وظل يكتب فى جريدة الأساس حتى امتنعت عن الظهور وعين عضـواً فى مجلس الشيوخ وفى مجمعِ اللغةِ العربية .

وفى فترةِ الحرب العالمية الثانية ٣٩-١٩٤٥م نزع العقادُ عن الكتابة السياسية وبرز فى مجال الدراساتِ الأدبيةِ والتاريخيةِ والإسلاميات ،ثم عاد ثانيـة إلـى الصـحافةِ السياسية وصحافة الرأي خصوصاً ، فبعد الحرب ، حيث اشتغل بالكتابـاتِ الأدبيـةِ والصحافيةِ إلى نهاية حياته .

* فلسفة العقاد :

بوسعنا أن نستنبط للأديبِ الكبيرِ من خلال كتاباته المنوعة فلسفةً متسقةَ الأجـزاء ، قوامها الإيمانُ بالروحِ والاحتفالُ بالمثلِ الأعلى والاعتزازُ بكرامةِ الإنسانِ ، والدعوةُ إلى التعاطفِ والتفاؤلِ .

فرأيه كما يتبلور فى كثير من دواوينه وبحوثه أن الروحَ هـى حقيقـةُ الوجـودِ وأن الجوهرَ هو الباطنُ هو الأصلُ الكاملُ وراء البادىِ والظاهرِ ٠ وللدنيا روحٌ نلمسها فى يد من المادة فالروحُ هى الحقيقةُ والمادةُ هى وسيلةُ الإحساس بهما ٠

وموقفُ العقاد من نظرية المعرفة هو موقفُ الفيلسوف الاصيل تراه يفرق بين درجات لمعرفة ويفصلُ بين مناهج البحثِ فى التفكيرِ العلمىِّ والرياضىِّ والفلسفىِّ ٠

أما التفكيرُ العلمىُّ التجريبىُّ فيكفى فيه عنده أن يكونَ للباحث قـدرةٌ علـى ملاحظـةِ التجارب المحسوسة قلما تتعدى الوصفَ والإحساسَ والتفكيرَ الرياضى يكفى فيـه أن يتفهم الباحثُ علاقةَ المدركات الذهنية التى يلمسها والعقل فرضاً وتقديراً ولو لم يكن لها وجودٌ فى الخارجِ والتفكيرِ الفلسفى ملكة أخرى وقوامها أن تحسن الفهـمَ فـى المسائلِ المجردةِ ٠

* مذهبه الجمالى :-

والعقادُ يقرُّ بصعوبةِ الإحاطة بنظرية وافية للجمالِ فى كلِّ صورةٍ وكل لمحة ولكننى لا أرى مانعاً من القولِ فى غير ما تحفظ ولا استثناء بأن الجمالَ فـى الفـن والطبيعـة معنوىٌّ لا شكلىٌّ ...

وأن الأشكالَ لا تعجبنا وتحمل فى نفوسنا إلا لمعنى تحركه أو معنى توحى إليه لا فرق فى ذلك بين أشكال الوجوه الآدمية والأعضاء الحيـة ، وبـين مـا دون ذلـك مـن الصـور التى تخفى فيها معانى الحُسـن أو تبعدالشقة بينها وبين ما تـوحى إليه ٠

والحريةُ والجمالُ ـ عند العقاد ـ متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، إن الحريةَ فى رأيى هى العنصرُ الذى لا يخلو منه جمال فى عالمِ الحياةِ أو فى عالمِ الفنونِ وأننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مواكب الجمال فى الحياةِ لا نجد إلا مزيـةَ حريـة الاختيار ٠٠

* العقاد مؤرخ الاسلام :

اتخذ العقادُ لنفسه سمةً واضحةً فى تيارِ الفكرِ العربيِ المعاصرِ إذ جعل مـن نفسـه المدافع الأكبرعن كل عدوانٍ يهدد كيان العروبةِ وحضارة العروبة وحضـارة العـرب وفلسفة الإسلام .

وقد دافع عباسُ العقاد عن الإسلام بالمنطقِ وقد كان بذلك متمشيا مع المنهجِ الفكرى السليم للإسلام فالمنطقَ كما يقول عنه العقاد فى كتابه " التفكيرُ فريضةٌ إسلاميةٌ " هو بحثٌ عن الحقيقةِ عن طريق النظرِ المستقيمِ والتمييزِ الصحيحِ .

وليست حقائق الإسلام إلا الجوهر المصفى .. فإنك متى عرضت الحقيقـة ناصـعةً واضحةً فقد عرضت معها طريقة الدفاعِ عنها وحين لجأ العقادُ إلى المنطـق لتجليـة الإسلام وتنقيته والدفاع عنه فإنه لم ينس أن يعقدَ فى كتابه سالف الذكر فصلاً كـاملاً عن المنطقِ وموقفِ الإسلامِ منه ومن هنا تبدو براعة العقاد ولباقته وتمرسه بأساليب الدفاع فهو يدافعُ عن الإسلام بالمنطقِ ثم يؤكدُ قضية المنطق فى الإسلام .

وقد كان له فى هذا كتب متعددة مثل (مطلع النور) .. (ما يقال عن الإسلام) .

وما تركَ العقادُ ناحيةً من نواحى الفكرِ والمجتمعِ والضميرِ إلا بحثهـا فـى تاريخـه للإسلام، ودل على مكانها من الإسلام ومكان الإسلام منها فالإنسانُ فى الإسلام هـو شئٌ آخرُ غير ما عرفه المناطقةُ والفلاسفةُ وعلماءُ الأجناس. إنـه مخلـوقٌ مكلـفٌ ومخلوقٌ فى صوره الخالق ؟؟ يرتفع من الترابِ إلى السماءِ أوجا فوق أوج فى طريق شاق عسر المرتقى طويل هو طريق النهوض بأمانة التكليف.

والقدرُ فى الإسلام هو توافقٌ حكيمٌ بين قدرة الله وعدالته ، وحريةِ الإنسان وإختياره، والعبادات فى الإسلام هى تذكيرٌ للإنسان بوجوده الروحى ، وهى كلها تكليف لضـمير الإنسان وحده دون حاجة إلى وساطة كاهن أو قيام هيكل .

والعقادُ المفكرُ المثالى المسلمُ شديدُ الإيمان بخصوبةِ التراث الإسلامى وصلاحيته للحياة الجديدة على شرط مزجه بهذه الحياة الحاضرة وتحويله إلى مجراها فالتراثُ الإسلامى عامرٌ بسير العظماء والأبطال ‥ وكل واحدٍ من هؤلاءِ العظماءِ والأبطالِ له حياةٌ وله أشواقٌ ‥ وله همومٌ، وله وثباتٌ بين الرجاءِ وبين النجاحِ والإخفاق .

والتراثُ الإسلامى عامرٌ بالحركات الاجتماعية التى تحتاجُ منا إلى فهمٍ جديدٍ وتفسيرٍ جديدٍ حتى يسهلَ الالتقاء بين علمِ التاريخِ الماضى وعالم الحياة الحاضرة .

ولعل إيمانَ العقاد بخصوبة التراث الإسلامى فى سرِّ عظمائه وأبطاله هو الذى حداه إلى كتابة " العبقريات الإسلامية " على نسق غير مسبوق ، فقد كتب عن عبقريات محمد والصديق وعمر ، والإمام على ، وخالد ‥وأبى الشهداء الحسين ابن على ، والصديقة بنت الصديق ‥ وفاطمة الزهراء . وفى مجال فلاسفة الإسلام ومفكريه عن ابن سينا ، وابن رشد ، والغزالى ، والشيخ محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبى .

وهكذا سار العقادُ فى مواكب التاريخِ الإسلامىِ من القديمِ إلى الحديثِ ومن صاحبِ الدعوةِ .. فأستخرج من رجال هذه المواكب الحاشدة حفنةً كريمةً من هؤلاء الأبطال والأعلام وعرضهم عرض الدارس للشخصيةِ ، والراسم للصورةِ لا المتعرض للسيرةِ .

ديوان العقاد للأطفال :

(راجع في ذلك : د. إسماعيل عبد الفتاح ، ديوان العقاد للأطفال ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٩٩م ط١)

لاشك أن عالم الطفولة هو عالم الرؤى والأحداث والصور الجميلة .. وهو عالمُ الشعرِ العفوىِ والفن التلقائى .. عالم الخلقِ والإبداع .. عالمُ الخيال الذى يولدُ طليقاً لا حدودَ له .

والأطفالُ أكثرُ البشرِ حباً للنغمِ الموزون .. للألفاظِ التى تحركُ مكامنَ النفسِ البشرية وتدعو للتفكيرِ والتأمل .. الألفاظُ الشعريةُ الموسيقيةُ التى تبعثَ فى الـنفسِ البهجـة والسرور ٠

وقصائدُ الشعرِ للأطفال ، كما تعلم ، تختلفُ عن القصائد الشعرية الأخرى مـن عـدةِ أوجه .. أهمُها على الاطلاقِ أن قصيدةَ الطفلِ ليست وسيلةً من وسائلِ التعبيـر عـن ذات كاتبِها ولكنها تخصُ الطفلَ المتلقىَّ لها .. والمستعدَ لإستقبالها ..

فهى غالباً ماتكونُ قصائدَ وصفيةً مشوقةً وسريعة ، واضحة الألفاظ متناسقة النغمات موزونة القوافى حتى تصلَ بسرعةِ وسهولة لعقلِ وقلبِ الطفل ٠

فإذا كان الطفلُ فى حاجة للتعامل معه ككيانٍ متكاملٍ له خصائصه التى تنطوى علـى فهمٍ متميزٍ للعالم ، فإنه يجبُ عندَ كتابةِ قصيدة الطفل أن تكون متماثلـة مـع عـالم الطفولة حتى يشعر الطفل بأن هذه القصيدة موجهة له ..

ولذلك .. فلابد أن تندرج قصائد الشعر الموجهه للأطفال تحت مستويين ، الأول يتعلق بملكة الطفل اللغوية والألفاظ التى يجيدها ويحبها ، والثانى يتعلق بدرجة نضوج الطفل العقلى والنفسى ٠

ولذلك نجد أن الأطفال فى حاجة شديدة للشعر ولكن إذا كان هناك عزوف من الطفـل عن القراءة بسبب النقص فى الوعى الثقافى والاجتماعى فإن ذلك لابد وأن يؤثر سلبياً على قدرات الطفل التخيلية ، مما قد يؤدى إلى نشوء جيل يمتلك القوة التـى تؤهلـه على افساد واقعة بسبب النقص فى الخيال ٠

ولذلك فإن قصيدة الطفل تُعتبرُ فعلاً مصيريا مؤثرا ، وليس مجرد تعبير عن نزعـات ثقافية مجردة فى نفس مؤلف القصيدة ٠

وقديماً .. لم يكن هناك فاصلُ بين شعر الأطفال والشعر التقليدى للكبـار ، بسبب عدم المعرفة التامة والعلمية بكل الخصائص النفسية للطفل.

ـ ويسـبب ما كان يسود فى العقود الأولى من هذا القـرن مـن مفـاهيم ثقافيـة وتربويـة غير متعمقة وبعيدة كل البعد عن الإحتكام لحاجة الطفل وذاك نـاتج مـن انعدام الفهم العلمى الصحيح لخواص الطفل .

وفى عالم الشعر العربى ، لم نجد كاتباً يتخصص فى شعر الأطفال طوال النصف الاول من القرن الحالى ، حتى ان المتخصصين فى الكتابة للأطفال عموماً كانوا ندرة شديدة ، بإعتباره السائد حينذاك من أن الكتابة للأطفال تعتبر فى مرتبة أدنى مـن الكتابـة للكبار .. فما بالنا بالشعر وهو أرفع أشكال الكتابة الأدبية باللغة العربية .

ومع ذلك ، نجدُ كوكبة من كبار وعمالقة الشعراء العرب مثل أحمد شـوقى وحـافظ ابراهيم وابراهيم ناجى وعبد الرحمن شكرى.. وغيرهم الكثير والكثير ، ممن تضمنت كتاباتهم الشعرية ودواوينهم من كتابات بسيطة وخفيفة ذات معان والفاظ واضـحة ، ولذلك وجدت هذه القصائد اهتماما خاصا من كتاب ثقافة الطفـل فقـدموها بالشـرح والتحليل بإعتبارها قصائد خاصة بالطفل .

يقفُ المحلل ولا يجرؤ على الاقتراب من شعره ، نظراً لما عُـرف عنـه أن كتاباتـه تميزت بالعمق الشديد والمعانى الفلسفية المعقَدة ومن التحاور أساليب غير مباشـرة ومن استخدام الالفاظ ذات العمق اللغوى والمعنى الفلسفى والتى تمثل خلاصة بلاغـة اللغة العربية .

ولكن .. بعد الاقتراب من شعر العقاد .. نجد أنه كان انساناً قبـل كـل شـىء، لـه أحاسيسه الإنسانية والعاطفية والابوية لكل الاطفال ، وله تعاملاته وحياته الخاصـة التى يحتل الاطفال فيها مكانا متميزاً فى قصائده التى لم يكتبها إلا من أجل الأطفال.. ويظهر ذلك فى كثير من قصائده العاطفة الرقيقة والرغبة الجياشة فى التحدث باسلوب هادىء وبسيط يريح ويستمتع به كل الأطفال .

بل تعدى العقادُ ذلك ، فنجد قصائده التى يصفُ فيها الطبيعة أو التى يخلدُ فيها ذكرى كبار رجال الأدب والفن والموسيقى.. فهذه القصائد لم يتحاور فيها العقاد بألفاظ صعبة المعانى ، ولم يُضمها فلسفته وفكره ، بل نجدُها قَصائد مباشـرة بسـيطة المعـانى

واضحة الالفاظ لينتفع بها الجميع صغاراً وكباراً ، وبذلك وضع العقاد لبنةً أساسيةً فى كيفية التعامل الشعرى وصنع القصائد الخاصة بالأطفال ،
وعباس محمود العقاد .. عملاقُ الأدب العربى.. وُلدَ فى عــام ١٨٨٩ ميلاديــة فــى مدينة اسوان ، وجاءللقاهرة وهو لم يحصل فى دراسته سوى علوم المرحلة الابتدائية ، ليلقى نفسه فى خضم السياسة والثقافة والفكر والأدب .. حتى اصبح علامــة مــن علامات هذه المجالات.. بقدراته المتعددة وفكره المتسع الأفاق .. حتى أسماه البعض " الجبار " . ورغم ذلك فكان فى نفس الوقت شاعراً مجدداً وفيلسوفاً ومؤرخاً إسلامياً من الطراز الأول
أما عن شعر العقاد ، فإذا كان الشاعرُ مَنْ تعرفهُ بشعره الملىء بالاحاسيس ، فالعقاد شاعر من شعراء العربية المتميزين ، ولذلك فإن شعر العقاد مميز عن شعر ســابقيه ومعاصريه ، فلقد كان لقلمه رؤيته الخاصةُ المتميزة ، وموضوعاته الاثيــرة، .. بــل وقد اسهمت عناصرُ كثيرةً فى تكوين شعر العقاد وشخصيته الأدبية ، وهــو مصــرى يستشعر أمجاد المصريين فى ضميره وقلبه فهو عربى اللغة والفكر فقد أقبــل علــى قراءة الامهات العربية فى النثر والشعر والفلسفة والتصوف ، وهو غربــى التفكيــر تزود من آداب الغرب بكل ما استطاع من غذاء عقلى .
ولقد صدرت أول دواوين العقاد فى عام ١٩١٦ وكان ' ما يُحسب له أنه تمرد تمرداً شجاعاً على الجو الشعرى القائم ، فالشعر كما يرى العقاد " يعمــق الحيــاة فيجعــل الساعة من العمر ساعات ، والشعر لا يفنى إلا اذا فُنيت بواعثــه ومــا بواعثــه إلا محاسن الطبيعة ومخاوفها وخوالج النفس وأمانيها " ويرى أن الشاعر " لا ينبغى أن يتقيد الا بمطلب واحد يطوى فيه جميع المطالب وهو التعبير الحر الجميل عن الشعور الصادق " .
وأعلن العقادُ أن المقياس الأول لقيمة الشعر أنه قيمة إنسانية قبل أن يكــون قيمــة لفظية او صناعية ، فأول مقياس للشعر الصادق الرفيع أنه يحتفظ بقيمته الكبرى إذا

ترجم الى جميع اللغات لأنه يرجع الى الطبيعة.. ولا يجعل مرجعه كله إلى الاوزان أو موقع الالفاظ ·

كما أشار إلى أنه من المقاييس الهامة للشعر الصادق ان القصيدة بنية حية أو بنية عضوية يقع كل جزء منها فى موقعه الذى لا يصلح إلا فيه ·

ويتمثل إتجاهه فى الديوان فى طريقتين : الوقوف بآثار الفراعنة واشادتُه بحضارتنا القديمة ، ووصف عواطفنا السياسية والوطنية والطبيعية ·

ولقد الف العقادُ عشرة دواوين هى ثمرة ما يزيد عن خمسين عاماً من التجربة الشعرية ، منها الديوان " أربعة أجزاء .. وهدية الكروان ، وأعاصير مغرب وعابر سبيل ووحى الاربعين .. وبعد الاعاصير عام ١٩٥٠م · كلها من الشعر الرفيع والدانى ، العميق والساذج ، الحامل للموسيقى والخالى منها واللهم إلا العروض والقافية !!

وفى كل هذه الدواوين ، يتحدث العقاد حديثاً عذباً يخاطب فى بعض قصائده الاطفال .. ففى هدية الكروان .. كان مطلعُ الديوان يقول :

هل تسمعون سوى صدى الكروان

صوتاً يرفرف فى الهزيع الثانى

ويتحدث فى هذا الديوان عن تغريد كافة الطيور ويوازن بين هذا التغريد وإنشاد الشعر فى حماسة فياضة وايمان قوى.. ويقول العقادُ فى ذلك" وإذا لم يشعر الشاعر بتغريد الطير على إختلافه فبماذا عساه يشعر ؟ إن الطيرَ المغرد هو الشعر كله لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقى.. كما أن الطير هو هبة الطبيعة كشعر الإنسان وغناء الإنسان "

وإذا كان العقادُ قد اتخذ من الشعر وسيلة لإثبات مكانه كعملاق من عمالقة الفكر العربى ، ومع ذلك نجد القصائد المتعددة إستطاعت أن تفلت من العملاق وكبريائه لتشكو الحياة فى لغة مباشرة ساذجة ·

ثم كان العقاد شديد الشغف بالاطفال ، رقيق الشعر فى حديثه إليهم أو عنهم وله فى هذه قصائد عديدة تكاد تذكرنا بنمات فيكتور هوجو فى قصائدة التى جمعها فى ديوان خاص بالاطفال .

وفى الجزء الاول من الديوان ، نجد عدة قصائد خاصة بالطفل ، منها قصيدة " غيرة طفلة " التى تبدأ بنغم هادىء جميل وتقول :

ماكان أملح طفلة

من غير شىء تخجل

وفى نفس الديوان وتحت عنوان رثاءُ طفلة ، كتب العقاد قصيدة تؤكد أن العقاد قادر على التخاطب البسيط مع الأطفال حيث يقول فيها :

زهرة كان وجهها

نور قلبى .. وناظرى

ففى هذا الشعر الخفيف اللطيف أو الرقيق المؤثر لا نلمحُ أثراً للعملاق وضرورته ، ولكننا نحس روحاً شاعريةً لطيفةً فى تصوير تلك الطفلة العابثة المدللة فى تمايلها وشعورها المتهدلة ، ثم فى رثاء تلك الطفلة التى تدعوها إلى أن تعود فى الحلم لتمرح فى صدره وتضحكُ فى سريرته وأخيراً فى هذا الأسر الإنسانى الذى بلغ الذروة فى (قوة الشاعرية المعبرة حيث يقرر الشاعر فى بساطة إنسانية فذة فيقول :

إن صعباً على الصغار

إحتباس المقابر

بل إن هذا العملاق الجبار ليتضاءل حتى يصبح شاعراً غنائياً مؤثراً ، عندما يبكى حظ الشعراء فى ديوانه فيقول :

ملوكُ .. فأما حالهم فعبيد

وطير .. ولكن الجدود قعود

وأيضا ، يخرج العملاق عن نفسه وينسى ذاته ليتحدث عن المزمار حـديثاً شـعرياً جميلاً ، وإن لم ينس توكيد أنه العقلية المعهودة دون أن تُفسد هذه الفلسفةُ العقاديـةُ روح القصيدة البسيط حيث يقولُ عن المزمار :

ايها المستعيدُ صوتا شجيا

حس هذا الفؤاد رجع حنينه

وإذا بحثنا فى ديوان العقاد ، سنجدُ قصيدة ليلةُ الوداع وقصيدة كأسُ علـى ذكـرى وقصيدة عيشُ العصفور ، وقصائده المتعددة عن الكروان بصفته الطائرُ المصرىُ بديلُ البلبل .. كلها تؤكد روح العقاد الشاعرية البسيطة ، مما يثبت بجـلاء إنـه شـاعر للأطفال من الطراز الأول ..

حتى ، والعقادُ يقدمُ .. ديوانه .. يصف شعره بأوصاف بسيطة ، تجتذب الصغار قبـل الكبار مما يحببهم فى الشعر .. وقراءته .. بل وتنظيمه .. فيقول :

ينزلُ فى بحـر بلا إنتهـاء

فيه مـن الحكمـة والغبـاء

وفيه من يأس ومـن رجـاء

وفيه من حب ومـن بغضـاء

وفيه من صمت ومن ضوضاء

صورة محياى لعـين الرائـى

وكان نبع حب العقاد للأطفال من حبه إياهم .. فلقد كان يقول عن الأطفال ، فى (حياة قلم) إن الأطفال معلمون من الطراز الأول ، لأن أخلاق الإنسانية مكتوبةُ فى نفوسهم بالخط البارز الذى تقرأه لأول نظرة ، وهى فى نفوس الكبار ضامرةُ أو مصـفحةُ أو ملتبسةُ بوشى الرياء وزركشة العُرف وزخارف التكليف والتمويه ..

ويواصل حديثه عن الأطفال فيقول : إن معلمينا الصــغار لا يكتُمــون شــيئاً ، وكــل ماكتموه ابرزوه وضاعفوا ابرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنسانى من الطفــل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ولو كانوا من كبار العلماء .

ولقد تحدث العقاد عن تحليل ظاهرة عدم انجاب العظام للذكور أو عدم انجابهم أصــلاً فى كتابةِ (عبقريةُ محمد) فأرجع ذلك إلى أن الله عز وجل عوضهم أبوة الإنســانية عن ابوة اللحم والدم .. وذكر أن العظماء من أمثال الأفغانى ومحمد عبده وعبــد الله النديم ومصطفى كامل وسعد زغلول .. وغيرهم الكثيرون لم ينجبــوا ذكــوراً .. لأن أبوتهم الإنسانية العامة عوضتهم عن الابوة الضيقة ..

هكذا كان العقادُ يتحدثُ عن حنانه مع الأطفال وعنهم ، يتحدث عن الأطفال بحنان الأب وعطفه عليهم ونصحه اياهم بنصائح خالدة وحديثهُ اليهم عــن التــاريخ المصــرى والعربى الاسلامى وعن قادة الأدب والفن والسياسة لبلادهم .. حديثاً أبوياً عذبا .

ويتحدث العقاد فى قصائده عن قصص التاريخ العالمى وأساطير وقصص وحكايات فى التاريخ العربى والإسلامى ، تصلحُ أغلبُها للأطفال ، فيتحدثُ عن أســطورة فينــوس وقصة خمارويه وقصة كولومبس فى الاوقيانوس ، ويتحدث عن أبى العلاء المعــرى وهو يتحدث لولده ناصحاً فيقول :

ولدى .. إننى أبوك الرحيم
أنا بالعيــش يابُنى عليــم
لا تصــدق مقالــه من بعيد
إن عنــم الحياة من لم يجده
لــم يمتع به ، ولــم يفتقده
فإغتنم ربح شــرها المفقود
شــرهــا يابنى شــــر ثقيل
خــيرها يابنى خــــير قــليل

أهلُهـا يابُنى . أهــلُ حقود
قف بباب الحياة لا تدخـلنها
واعتصم يابُنى ماستطعت فيها
سوف ألقاك .. فانتظر بالوحيد

ونلاحظ فى قصائد العقاد الأخرى نسمة الطفولة تمرُ بلفحاتها المميزة والرقيقة ، ففى قصيدته (تسلم) نلمحُ هذه النسمة حين يسلمُ الشاعرُ حبيبته الشمس بعد عودتها إليه ، وبعد ذلك نراهُ يسلمُها الأطيار ثم الأنجم والأزهار ، ثم مايلبثُ أن يسـلمها الـدنيا بأسرها .. حين يقول :

تسلـم هــذه الدنيا
كمـا خلفتها عندى

وعندما ، يتحدثُ العقادُ عن الشيخ سيد درويش فنان الشعب ، يتحدثُ عن قصة الفن وكيف عبر سيد دوريش عن كافة طوائف الشعب المصرى دون حاجـة إلـى فنـون التعبير الايحائية كالتشبيه أو الإستعارة أو المجاز إلا فى القليل النادر ، ولذلك تُعتبـر هذه القصيدةُ التى كتبها العقادُ عن سيد درويش مرجعاً وقصة للأطفال قبل الكبار .
وليس غـريباً اهتمام العقـاد بالطبيعة وبالحيوان وبالطيور .. وكلها أشياء يحبُها الأطفال .
تلك كانت جولةُ سريعةُ فى بعض قصائد العقاد والتى تؤكد ريادته لمجال الشعر السهل البسيط المباشر ، شعر الأطفال والفتيان والشباب كريادته فى كافة المجالات التى كتب فيها ..
ولا بديل من تأمل تلك النصوص وقراءتها مرة أخرى حتى نعـرف قـدر العقـاد .. كشاعر أطفال .

وفيما يلى نماذج من قصائد العقاد للأطفال التى كتبها عبر دواوينه العديـدة والتـى تحمل خلاصة فكرة العمـــــــلاق والتى نقدمُها ضمن سلسلة تبسيط الأدب العربى للأطفال ٠

هذه القصـــــــــائد جُمعت من كل دواوينه ولقد كتبها بقلبه وعقله للطفل العربى فى كل مكان ٠

خاتمة

وبعد فإنه من الصعب أن نلمَّ بحياةٍ رائعة كحياةِ العقاد فى صـفحاتٍ أو فـى مئـات الصفحات هذا الفيض من الإنتاج الغزير المتصل فى كافـة مجـالات الفكـر والآداب والحياة المليئة بالأحداث والمشاعر والأزمات والمباهج.

فقد كان العقاد يحب الحياة ويسلم بقواعدها وقوانينها ويشعر مـع ذلـك بحلاوتهـا وجمالها والعقاد الذى حبس نفسه ساعات طوالا فى سنى حياته مـن أجـل الـدرس والبحث كان يشعر بمسئوليته أمام الحياة وأمام الأجيال التى تليه أمام رغبات روحـه التى تود الاستمتاع بجوانب الوجود.

وبعد سنوات طويلة من وفاته لا يزال العقادُ يخصبُ الفكر والحياة بما يثار حوله من آراء ونقاش .. وقد شاهدت مصر منذ قليل مسلسل، العمـلاق التليفزيـونى يتنـاول جوانب من حياة الكاتب الكبير ونضاله السياسى والفكرى ومشاعره العامة والخاصة ، فكان هذا المسلسل سبباً فى أن يصل إلى الجمهور المصرى العادى بعض أصداء هذه الحياة الفنية وأن يدور فى البيوت، وفى المجتمعـات الثقافيـة وبـين الإعلاميـين والمهتمين بشئون الفكر والأدب حوار راق مثمر حول العقاد وهذا الجانب أو ذاك من حياته ،فإذا به وهو فى الثرى يبعث الحياة والجدية فى موانيه فليس هناك فى مجـال الفكر كلمة تضيع فى الهواء .. أو موقف شريف وحقيقى يمكن أن يختفى.

لا شئ يتلاشى أو يتبدد ومن حينها كان عبء الكلمة صعباً إلى أبعد الحدود.

وقد تحمله العقاد بصلابةِ الجبالِ وعزم الصناديدِ.

العقاد في سطور

ـ ولد الكاتب الكبير عباس محمود العقاد بأسوان سنة ١٨٨٩ وأتم تعليمه الابتدائي ثم رحل إلى القاهرة وهو في الرابعة عشر من عمره ولم يكمل دراسته في المدارس والمعاهد الرسمية ، بل أخذ يكملها بنفسه معتمدا على ذهنه الخصب والتحق ببعض الوظائف الحكومية ثم تركها إلى الصحافة.

ـ عمل العقاد بالصحافة منذ سنة ١٩٠٧م بالتحرير في جريدة الدستور ثم جريدة المؤيد ،أما عمله الصحفي الذي كان مجال معاركه ومساجلاته فقد بدأه بعد ثورة ١٩١٩م وإبان النهضة الوطنية والسياسية في صحيفة البلاغ ، حيث كان المدافع عن حزب الوفد وعن سعد زغلول ضد القصر والاحتلال.

ـ تعرض للسجن لمدة تسعة أشهر في سنة ١٩٣٠م بتهمة العيب في الذات الملكية ، حيث هاجم الملك فؤاد الجالس على العرش آنذاك لتخطيه حدود الدستور.

ـ اختلف العقاد مع الوفد ، إبان حكم محمد نسيم باشا ثم انضم إلى السعديين أحمد ماهر والنقراشي بعد سنة١٩٣٧م وفي الفترة من ١٩٣٩- ١٩٤٥م نزع العقاد عن الكتابة السياسية وبرز في مجال الدراسات الأدبية والتاريخية والإسلاميات ثم عاد إلى الصحافة السياسية بعد الحرب حيث كتب في الأدب والصحافة إلى نهاية حياته.

ـ ارتاد العقاد بالنسبة للشعر العربي آفاقا جديدة فاتخذ من البيئة المصرية ومشاهد الحياة العادية مصادر للإلهام ولتأكيد هذا المذهب خاض العقاد الناقد

معارك شديدة مع أنصار القديم تتمثل حدتها الأولى فى كتاب اشترك فيه مع المازنى وصدر بإسم الديوان ١٩٢١م .

ـ اشتهر بكتبه عن العبقريات الإسلامية والتاريخية فكتب عبقريــة محمــد، وعبقرية عمر، وعبقرية خالد وعبقرية عثمان بن عفان وغيرها .

ـ توفى العقاد عام ١٩٦٤ بعد أثرى الحياة السياسية والفكريــة والأدبيــة لبلاده وكان مثالا نادرا للكاتب الشجاع والرأى المتحرر فى كل ما اتخذ مــن فكر وأراء.

الكاتب

عبد الرزاق محمد عبد المنعم خليف

أبو رقبة ـ أشمون ـ منوفية

الدكتور أحمد زويل

رائد التنوير العلمي

بقلم

نادية عبد ربه ناجي كريم

التعريف بالدكتور أحمد زويل:

ولد الدكتور أحمد زويل فى مدينة دمنهور جمهورية مصر العربية فى السادس والعشرين من فبراير ١٩٤٦ وبدأ تعليمه فى المراحل الاولى بمدينة دمنهور إنتقل مع الأسرة إلى مدينة دسوق مقر عمل والده حيث أكمل تعليمه حتى المرحلة الثانوية ثم إلتحق بكلية العلوم جامعة الأسكندرية عام ١٩٦٣ وحصل على بكالوريوس العلوم عام ١٩٦٧ بتقدير إمتياز مع مرتبة الشرف .

وكان يقيم أثناء دراسته الجامعية بمنزل خاله المرحوم على ربيع حماد بالعنوان ٨ ش ١٠ بمنشية إفلاقه بدمنهور ثم حصل بعد ذلك على شهادة الماجستير من جامعة الإسكندرية (بداية المشوار).

وبدأ الدكتور أحمد زويل مستقبله العلمى كمتدرب فى شركة (شل) فى مدينة الإسكندرية عام ١٩٦٦ واستكمل دراسته العليا بعد ذلك فى الولايات المتحدة حيث حصل شهادة الدكتوراة عام ١٩٧٤ من جامعة بنسلفانيا.

وبعد شهادة الدكتوراة إنتقل الدكتور زويل إلى جامعة بيركلى بولاية كاليفورنيا وانضم إلى فريق الأبحاث هناك وفى عام ١٩٧٦ عين زويل فى كلية كالتك كمساعد أستاذ الفيزياء الكيميائية وكان فى ذلك الوقت فى سن الثلاثين.

وفى عام ١٩٨٢ نجح فى تولى منصب أستاذ الكيمياء ، وفى عام ١٩٩٠ تم تكريمه بالحصول على منصب الأستاذ الأول لكيمياء فى معهد لينوس بولينج وفى سن الثانية والخمسين فاز أحمد زويل بجائزة بنيامين فرانكلين بعد اكتشافه العلمى المذهل المعروف باسم ثانية الفيمتو أو الفيمتو ثانية كما نطلق عليه Femto- Second وهى أصغر وحدة زمنية فى الثانية وقد تسلم جائزته فى إحتفال كبير حضره ١٥٠٠ مدعو من أشهر علماء والشخصيات العامة مثل الرئيسان الأسبقان للولايات المتحدة الأمريكية مثل الرئيس جيمى كارتر وجيرالد فورد وغيرهم.

وفى عام ١٩٩١ تم ترشيح الدكتور زويل لجائزة نوبل فى الكيمياء وبذلك يكون أول عالم عربى مسلم مصرى يفوز بتلك الجائزة فى الكيمياء منذ أن فاز بها الدكتور نجيب محفوظ عام ١٩٨٨ فى الأدب والرئيس الراحل أنور السادات فى السلام ١٩٧٨.

حياته الأسرية:

أحمد زويل له أربعة أبناء وهو متزوج من (ريما زويل) وهى تعمل طبيبه فى مجال الصحة العامة وهو يعيش حاليا فى سان مارنيو بولاية كاليفورينيا.

المناصب التى يشغلها حاليا:

يشغل الدكتور أحمد زويل منصب الأستاذ الأول للكيمياء ، وذلك في فى معهد لينوس باولينج ، وكذلك يعمل أستاذاً للفيزياء فى معهد كاليفورينيا للتكنولوجيا ومدير معمل العلوم الذرية.

أبحاث الدكتور أحمد زويل:

أبحاث الدكتور أحمد زويل حاليا تهدف إلى تطوير إستخدامات اشعة الليزر للإستفادة منها فى علم الكيمياء والأحياء أما فى مجال الفيمتو الذى تطور مع فريق العمل بجامعة كاتيك فإن هدفهم الرئيسى حاليا هو استخدام تكنولوجيا الفيمتو فى تصوير العمليات الكيميائية وفى المجالات المنطلقة بها فى الفيزياء والأحياء.

أهمية إكتشاف (الفيمتو):

إن الفرع الجديد فى العلم هو ثانية الفيمتو تم إكتشافه عام ١٩٨٨ بعد العديد من الأبحاث والتجارب التى أجريت فى معامل الأبحاث بجامعة كالتك بولاية كاليفورنيا الأمريكية ، وهذا الإكتشاف المذهل سيتم إستخدامه بكثرة فى العديد من المجالات مثل الطب والإليكترونيات علوم الفضاء والكيمياء والفيزياء وغيرها.

وإسهام الدكتور زويل بهذا الإكتشاف الرائع استحق عنه بجدارة جائزة نوبل للكيمياء لأنه وكانت ولأول مرو أن نلاحظ بالتصوير البطئ ما يحدث خلال أى تفاعل كيميائى وبذلك يستطيع أن نفهم وتشرح العديد من المعادلات والصيغ الكيميائية الصعبة التى لم يفهمها من قبل مثل معادلة فانت هوف التى نال عنها جائزة نوبل.

إن ثانية الفيمتو يستخدم حاليا فىة مختلف أنحاء العالم لفهم ميكانيكية التفاعلات الكيميائية التى تحدث عند أى إذابة أى من المواد الكيميائية المختلفة فى السوائل أو التطوير أنواع حديدة من المواد الصناعية لإستخدامها فى الإليكترونيات ، كما يستخدم فى مجالات البحث الخاصة بدراسة الأنظمة البيولوجية المختلفة ، حيث أن معرفة ميكانيكية التفاعلات الكيمائية تساعدنا أيضاً على التحكم فيها ، حيث أن بعض التفاعلات الكيميائية التى تقوم بها لإنتاج مادة معينة قد ينتج عنها بعض التفاعلات

الأخرى غير المرغوب فيها والتى يجب أن يتبعها عمليات التنظيف والفصل لاستخراج المادة المطلوبة فقط ولكن إذا امكننا التحكم في التفاعلات الكيميائية سنتطيع أن نتجنب هذه التفاعلات غير المطلوبة .

ويستخدم العلماء حول العالم الآن ثانية الفيمتو فى دراسة وتحليل العديد من المواد الكيمائية بمختلف اشكالها السائلة والصلبة والغازية وتفاعلاتها مع بعضها البعض وتطبيقاتها تغطى العديد من المجالات بدءا من من دراسة العوامل المساعدة فى التفاعلات الكيميائية ، وكيف يتم تصميم المكونات الالكترونية للجزئيات ، ووصولا إلى ادق العمليات المتعلقة بالحياة مثل الطب وكيفية تطوير فى المستقبل القريب .

إن استخدام الكاميرا الفائقة السرعة التى استخدمها الدكتور زويل يجعل مشاهدة التفاعلات الكيمائية أثناء حدوثها ممكنا ، كما يستطيع المتفرج أن يشاهد مشهد الإعادة للكرة فى المباراة بالتصوير البطىء .

وهذه التقنية تساعدنا أيضا على تفسير أسباب حدوث بعض التفاعلات الكيميائية وأسباب عدم حدوث بعضها كما يمكننا تفسير سبب تأثير تلك التفاعلات من حيث سرعتها ونتائجها بالحرارة.

الجوائز التى حصل عليها الدكتور زويل

لمع نجم الدكتور زويل المصرى الامريكى مؤخرا وأصبح محط الأنظار لجميع الناس فى مصر والولايات المتحدة والعالم كله بسبب انجازاته العلمية الكبيرة وحصوله على العديد من الجوائز العلمية العالمية .

١ - فى سن الاربعين من عمره اختارته مؤسسة كاليفورنيا للعلوم التكنولوجيا ليكون الاستاذ الأول للكيمياء فى معهد لينوس بولينج وقال الدكتور زويل أن هذا المنصب وهذا اللقب هو شرف كبير لى ، وقال ان

بولينج هو أعظم كيميائى فى القرن العشرون وانجازاته لها اثر كبير فى عمل أى كيميائى فى العالم ٠

٢ - فى سن الثانية والخمسين حصل أحمد زويل على جائزة بنيامين فرانكلين لانجازاته وإسهاماته العلمية لخدمة العلم والعلوم وقد فاز بهذه الجائزة العظيمة عن اكتشافه لثانية الفيمتو وهى أصغر وحدة زمنية فى الثانية الواحدة وقد أقيم احتفال كبير فى ٣٠ ابريل عام ١٩٩٩ فى مدينة فيلادليفيا الامريكية وتابع المصريين فى كل مكان فى العالم هذا الاحتفال ٠

٣ ـ وتسلم الدكتور زويل عام ١٩٩٥ وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس محمد حسنى مبارك تقديراً لدوره الحيوى فى اثراء العلم فى العالم .

٤ ـ وفى عام ١٩٩٨ تم إصدار أول طابع بريدى يحمل صورة الدكتور احمد زويل فى مصر ٠

٥ ـ وقد نال شهادات فخرية من الجامعة الامريكية من القاهرة ..

٦ ـ كما نال الدكتور أحمد زويل زمالة مؤسسة الفريدسلوت وجائزة الكساندرفون هاميلودت لصغار العلماء فى الولايات المتحدة ٠

٧ ـ ونال جائزة الملك فيصل الدولية عام ١٩٨٩م .

٨ ـ كما نجح الدكتور زويل خلال حياته فى حصد العديد من الجوائز والميداليات مثل الجوائز التالية : جائزة ويلش عام ١٩٩٧ ٠ جائزة ليونارد دافنشى للامتياز عام ١٩٩٥ ٠ جائزة وولف ١٩٩٢ ٠ جائزة هربرت بروبدا الهيئة الامريكية للفيزياء عام ١٩٩٥ ٠

٩ـ ومن أهم الجوائز التى حصل عليها : ميدالية الاكاديمية الملكية الهولندية للعلوم والفنون

١٠ ـ والدكتور أحمد زويل يحمل أيضا العديد من الشهادات الفخرية : شهادة جامعة أوكسفورد البريطانية ٠ شهادة جامعة كاثوليك البلجيكية ٠شهادة

جامعة بتسلفانيا الولايات المتحدة الامريكيـــة ، شـــهادة جامعـــة لـــوزان السويسرية ،شهادة جامعة سويتبرن الاسترالية .

١١ــ وحصل الدكتور زويل على جائزة عام ١٩٩٠ عن انجازاتـــه فـــى مجـــال الكيمياء الفيزيائية من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا باسادينا وتبلـــغ قيمـــة الجائزة ٩٦٠ ألف دولار .

جائزة نوبل

فاز الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل فى الكيمياء لعام ١٩٩٩ لإنجازاته العلمية الهائلة فى دراسة وتصوير ذرات المواد المختلفة خلال تفاعلاتهـــا الكيميائيـــة وقـــد قامـــت الأكاديمية الكندية الملكية بإعلان فوزه بهذه الجائزة وجاء سبب فوزه بالجائزة الـــذى اعلنته الاكاديمية كما يلى :-

ــ لدراساته لحالات الانتقال والتحول للتفاعلات الكيميائية باستخدان ثانية الفيمتـــو المطيافية . كما قالت الاكاديمية أن جائزة نوبل للكيمياء هذا العـــام ســـتهدى إلـــى الدكتور أحمد زويل العالم المصرى لإنجازاته الرائـــدة فـــى التفـــاعلات الكيميائيـــة الاساسية باستخدام ومضات اشعة الليزر القصيرة فى وقت حدوث تفاعلات كيميائية . وأن اسهامات الدكتور أحمد زويل قد احدثت ثورة فى الكيمياء والعلوم التى تتعلق بها ...لأن هذا الانجاز الهائل يمكننا من فهم وشرح وتوقع العديد مـــن التفـــاعلات الهامة التى لم يكن من الممكن قبل ذلك ملاحظاتها . كما اضفت الاكاديمية ان عمل الدكتور أحمد زويل فى أواخر عام ١٩٨٠ أدى إلى ميلاد كيمياء الفيمتـــو Femto Chemistry ، وهى استخدام كاميرات خاصة فائقة السرعة لملاحظـــة التفـــاعلات الكيميائية بسرعة ثانية الفيمتو وهى أقل وحدة زمنية فى الثانية الواحدة . واضافت أيضا أننا قد وصلنا إلى نهاية الطريق ، وأنه لا يوجد تفـــاعلات كيميائيـــة تحـــدث

بسرعة أكثر من سرعة ثانية الفيمتو ونحن الآن نستطيع أن نرى التحركات للذرات الذرية ــ كما تتخيلها ــ فلم تعد تلك الذرات غير مرئية لنا ٠

المناصب التى يشغلها الدكتور زويل

يشغل الدكتور زويل : الاستاذ الأول للكيمياء الفيزيائية بجامعة لينوس باولينج ٠

- استاذ الفيزياء جامعة كاليفورنيا للتكنولوجيا ٠
- مدير معمل علوم الجزئيات بالمعهد القومى الامريكى للعلوم ٠
- عضو فى الاكاديمية الامريكية القومية للعلوم ٠
- عضو الاكاديمية الامريكية للعلوم والفنون ٠
- عضو الاكاديمية للعالم الثالث للعلوم فى ايطاليا ٠
- عضو الاكاديمية الاوربية للعلوم والفنون والانسانيات فى فرنسا ٠
- وهو يعمل كمحـــــرر علمي للعديد من المقالات والكتب والمراجع فى مجال الكيمياء الفيزيائية ٠

أحمد زويل رائد للتنوير العلمي :

أحمد حسن زويل كيميائى مصرى حاصل على الجنسية الامريكية ، حصل على جائزة نوبل فى الكيمياء لعام ١٩٩٩ ويعابر الرائد الأول للتنوير العلمي ، حيث ساهم فـــي إنشاء العديد من المؤسسات العلمية والتقنية في مصر والدول العربية ٠

حياته العلمية التي أهلته ليكون رائد للتنوير العلمي:

ولد الدكتور أحمد زويل فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ م فى مدينة دمنهور بمصر ٠ تلقى تعليمه الأولى فى نفس المدينة ثم انتقل مع الاسرة إلى مدينة دسوق حيث أتـــم

تعليمه حتى المرحلة الثانوية . فى سنة ١٩٦٣ التحق أحمد زويل بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية وحصل على بكالوريوس العلوم من قسم الكيمياء سنة ١٩٦٧ ، ثم نال بعد ذلك شهادة الماجيستر من نفس الجامعة .

عمل زويل كمتدرب فى شركة " شل " فى الاسكندرية ,اكمل دراساته العليا بعد ذلك فى الولايات المتحدة الامريكية حيث نال درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا بعد ذلك انتقل الدكتور زويل إلى جامعة بروكلى بولاية كاليفورنيا وأنضم لفريق الابحاث هناك . وفى سنة ١٩٧٦ عين زويل فى معهد كاليفورنيا التقنى كاستاذ مساعد فى الكيمياء الفيزيائية سنة ١٩٨٢ تولى الدكتور زويل منصب استاذ أول للكيمياء فى معهد لينوس باولينج .

ومن أبرز إنجازات العالم المصرى أحمد زويل هو أنه أصبح عضوا فى الاكاديمية الامريكية للعلوم فى سن الثلاثة والأربعين ، علما أن هذه الأكاديمية لا تقبل أى عالماً بل تقبل اذكر العلماء وشرط أن يتخطى عمرهم الخامسة والخمسين عاماً .

الجوائز التى حصل عليها : جائزة الكسندر فون همبلدون من المانيا الغربية وهى أكبر جائزة علمية هناك ،وجائزة باك وتينى من نيويورك . وجائزة الملك فيصل فى العلوم والفيزياء عام ١٩٨٩ . وجائزة بنجامين فرانكلين عام ١٩٩٨ على عمله فى دراسة التفاعل الكيميائى فى زمن متناهى الصغر (Femto-Second) يسمى femtochemistry ، وجائزة نوبل للكيمياء لانجازاته فى نفس المجال عام ١٩٩٩ ويعتبر ثالث مصرى (الجائزة محسوبة له كعالم امريكى وليس مصرى) يحصل على جائزة نوبل جائزة " لورنس " الامريكية (اهداها الرئيس بيل كلينتون ليكون اول عربى يحصل على هذه الجائزة)..

كما انتخبته الاكاديمية البابوية، ليصبح عضواً بها كأول عربى مصرى ينضم إلى عضويتها ويحصل على وسامها الذهبى عام ٢٠٠٠ ،وحصل على جائزة وزارة الطاقة الامريكية السنوية فى الكيمياء ،كما حصل على جائزة " كارس " من جامعة زيورخ فى الكيمياء والطبيعة وهى أكبر جائزة علمية سويسرية ،وانتخب بالاجماع

عضواً بالاكاديمية الامريكية للعلوم ، كما تم وضع اسمه فـــى قائمـــة الشـــرف فـــى الولايات المتحدة الامريكية

ولقد كرمته مصر وحصل على عدة جوائز مصرية وأطلق اسمه على بعض الشوارع والميادين (ولم ينتبهوا اليه وهو فى مصر وبعد أن اصبح امريكيا وعالما مشـــهورا اعترفت به مصر كابن لها ؟؟!!!)

وهو حاليا يعيش البروفيسور زويل حاليا فى سان مارينو بولاية كاليفورنيـــا، وهـــو أستاذ كرسى لينوس باولينج فى الكيمياء الفيزيائية واستاذ الفيزياء فى كالتيك، وهـــو متزوج من السيدة ديما زويل وهى تعمل طبيبة فى مجال الصحة العامة ولهما أربعـــة أبناء .

منحته جامعة كامبردج دكتوراه فخرية فى ٢٠٠٦ . جائزة : منير سريب للعلوم فـــى الكيمياء .

نادية عبد ربه كريم

بيرم التونسي

الرائد الأول للتنوير من خلال الشعر الشعبي

بقلم

خديجة أمين محمد جوده

استهلال :

- بيرم التونسي هو رائد في الحياة الاجتماعية ، حيث استطاع أن يغزو قلوب الناس من خلال الشعر الشعبي والرجل .

- بيرم التونسي رائد فن الزجل.

- إن بيرم التونسي يعتبر رائداً التنوير في الحركة الشعرية، ويقال عنه أنه سندباد القرن، فهو الشاعر الساخر والروائي المُتهكم والكاتب المسرحي.

- بيرم التونسي قُبلة الشعراء المحدثين ورائد شعر العامية، المتمكن من كل أنواع الفن، فهو حتى الآن الأب الشرعي للحداثة في كتابة الشعر، بإعتباره نوعا أدبيا معترفا به له دور اجتماعي وسياسي وفكري وشعورى، وكان بيرم بحكم استخدام اللهجة العامية- كان أكثر تلوينا وجموحا في الخيال ولجوءه الى السخريه الناقدة، وعلى رغم أن أصوله تونسية، إلا أنه كتب لمصر أروع أزجالها.

- كان بيرم له أسلوبه المتميز ومذاقه الخاص في صـياغة الأغُنيـة العربيـة بسائر لهجاتها " البدوية- العربية ".
- كما أنه ساهم بنصيب كبير في مجال المسرح الغنائي في بداية العشرينيات.
- وقد امتد تأثيرة ليشمل من بعده فنانين مبدعين أمثال صلاح جاهين، أحمـد فؤاد نجم وفؤاد حداد.
- كما أنه أحد كبار الشعراء الذين ساهموا في التعبير عـن الثـوره الوطنيـة المصرية.

مولده ونشأته ومشواره الفني:

- ولد بيرم التونسي بالاسكندرية في حى السيالة في الرابع من مـارس عـام ١٨٩٣، وهو من أصل تونسي- والده تونسي وأمه مصرية مـن الإسـكندرية، إلتحق بيرم بمدرسة الرشاد الأولية التى كان يديرها أحد الشيوخ وبها حفظ بيرم أجزاء من القرآن الكريم وتعلم الكتابة والقراءة.
- وكان بيرم من عائلة فقيرة، توفى أبوه وهو في سن مبكرة ، فترك المدرسة واشتغل بالتجاره- وبذلك تحمل عبء حياته منذ صباه- ولذلك لم يكمل تعليمـه في المعهد الدينى.
- وقد ظهرت موهبة بيرم التونسي في مرحلة مبكرة وهو في سن العشـرين حيث نشرت له جريدة الاهالى قصائد متتالية ، إلـى أن نشـرت لـه قصـيدته المشهورة عن " المجلس البلدي " في هجاء الضرائب الفادحة التى كان يفرضها المجلس البلدي في مصر- فنالت الصحيفة رواجا غير مسبوق.
- وقد اختلط بيرم التونسي منذ طفولته بالأوساط الشعبية وكان حبـه للشـعر كبيرا حيث راح ينهل في قراءة الروايات ، ولكنه عشق اللهجة العاميـة ورأى فيها قدرته على التعبير عما يشعر به ، وأن القضية في نظـره لـيس مسـألة

الألفاظ العامية ، بل مسألة إحساس وتعبير، وحُبه للعامية قد عرضـه للهجـوم والنقد لكنه لم يهتم وقد كان من المدافعين عنه وعن لهجته العامية الشيخ أمين الخولي الذي قال إن: " استخدام بيرم للعامية من وجهة نظره لا تُكتسـب – أي العامية – في المدارس فهى محرومة من ذلك والسبيل الوحيد لمعرفتهـا هـى الممارسة والتجربة التى يصقلها الذوق الموهوب والوجدان الشفاف والملاحظة الحساسة ، فيجعل من ألفاظها ملامح مُحببة وخفيفة الظل ، ولهذا نرى أن لغـة بيرم وصلت الى هذه الدرجة العالية من الانتشار والتأثير لأنها حققـت الرقـي والجمال حين راعت مبدأ العموم أى مخاطبة المتحدثين باللغة العربية بـاختلاف ثقافتهم ودرجة تعلمهم.

– وقد عمل بيرم في بداية حياته في القسم الأدبي بجريدة الجمهورية، ونُفـى بيرم خارج مصر لتهجمه على العائلة المالكة وتسبب ذلك الزجل السـاخر فـي نفيه خارج مصر لسنوات عديدة تصل الى ١٢ سنه في باريس و٦ سنوات فـي تونس عام ١٩٣٨ ، وهذا النفى لم يبعده عن حبه لمصر وعن الحياه السياسية والمشاركة في أحداثها بل ظل يرسل أشعاره المُحرضة الساخرة الـى مصـر ، وأنه نظم خلال فتره النفي أفضل قصائدة الزجليـه وارسـلها الـى الصـحف والمجلات المصرية ونتيجة لكتاباته الثورية التى أثارت الشعب ضد الاسـتعمار الفرنسي ومشاركتة في التأليف لفرقة عكاشة ونجيب الريحانى وسيد درويش ، وكانت سبباً في إبعاده مرة أخرى عن مصر إلا ان بعـض الشخصـيات سـعت للحصول على العفو عنه من القصر ، وعندئذ بدأ بيرم يـزاول إنتاجـه الفنـي الأدبي في الصحف وكتابة الأغانى والتمثيليات الإذاعية.

– أصدر بيرم التونسي مجلة " المسلة " ١٩١٩ ولكنهـا أغلقـت بعـد العـدد الخامس عشر منها، ومجلة " الخاروق " لكن أغلقت بعد العدد الاول منها لنشرة زجلا لم يستحسنه محمود فخري باشا زوج الأميرة فايقة إبنه الملك فؤاد.

- كما شارك في تحرير مجلة " أهل الفن " زجل أسبوعي يتناول مشكلة من مشاكل الفن.

- بالإضافة الى ذلك أصدر بيرم في تونس جريدة " الشباب " فأغلقها الفرنسيون وطرد من تونس إلى سوريا ، ثم أرجعوه وعند عودته إلى تونس هرب إلى الاراضي المصرية حتى تم العفو عنه.

- كما أنه ساهم في تأسيس فن الدراما الغنائية الشعرية " الأوبريت " وأيضا في تأسيس البنية الدرامية للمسرحية ، وقد بدأ بيرم في إقتحام عالم المسرح من دنيا الشعر العالمي ، والجدير بالذكر أن بيرم أدخل أسلوبا جديدا في معالجتة للصيغ والتراكيب والمفردات اللغوية الشعبية في أغانيه- وهى إدخال شطره شعرية بجانب شطرة لحنية شعبية مثال " أغنية عطشان يا صبايا " هذه الصيغة الشعرية ألحقها بصيغة شطرة شعرية ليست من المأثور الشعبي وهى " عطشان والنيل في بلادكم متعكر مليان طين ".

- ولا ننسى أن بيرم كان وراء اصدار قانون حق المؤلف ، فقد ظل يكتب مقالات يطالب فيها بوجوب إصدار هذا القانون الذي يضمن حق المؤلف والملحن والمالكين الشرعيين للمصنف الفني ، وقام بإعداد ندوه في دار مجلة أهل الفن – القى الضوء من خلالها على أهمية هذا القانون ، وبعد أقل من اسبوع صدر قانون حق المؤلف.

- وقد توفي بيرم التونسي في يناير ١٩٦١.

دوره في الحياه الاجتماعية:

- كان بيرم متفوقا على معاريه من خلال تنوع إنتاجة وكثرته والتجديد المستمر في شكل القصيدة ومضمونها ...

- حيث قَدَّم الرواية والأوبريت والفوازير والأزجال وكان له دور هام في مجالات الفن المختلفة.

١-   في الأغنية العربية:

كان لدوره في الحفاظ على هوية الأغنية العربية ضد مجالات مسخها وصبغها بنغمة تركيبة أو غريبة.

حيث كانت تعانى الأغنية من موجة إسفاف نغمي،

ولذلك لاقت الاغنية هجوما من الشخصيات المثقفة مثل طه حسين والعقاد ، حتى جاء بيرم فَسَخَّر قدراته الفذه للحفاظ على ملامح الأغنية المصرية الجميلة شكلا ومضمونا.

٢-   في السينما:

كان بيرم له دور كبير في السينما حيث اشتهر بكتابة الحوار البدوى، الذي كان يجيده بحكم سفره الكثير ولذلك تميز في تقديم الأوبريت السينمائي في الاقلام الغنائية حيث شارك في كتابة أغانى وحوار فيلم " عايده " ١٩٤٢ ، ثم كتب حوار فيلم " رابحه " ١٩٤٣.

٣-   دوره في المسرح:

إن بيرم لم يكن مجرد شاعر ، بل لعب دور تنويريا يعكس همـوم وانفعـلات الشعب وأحلام الشعب ، حيث بدأ بيرم في اقتحام عالم المسرح من دنيا الشعر العامي وذلك بالمشاركة في كتابة أغانى أوبريت مثل أغانى أوبريت "شهرزاد".

أهم أعماله:

١-   فن الزجل:

- من قصيدة بعنوان " الكلمة الهايفه " يقول فيها:

من هفوه أو كلمة هايفه ننحمق ونقوم
نسب وندب ونشعلل عراك بالشوم
وكل محموق وله فرقه تقوم بهجوم
من قبل ما تعرف الظالم من المظلوم

- وقد رأى بيرم في البيروقراطية إنها سبب مشاكلنا فقال:

في دي الدوسيهات اشغالك واشغالي
بقى لها خمسين سنه في وضعها الحالى فيها معاش أرملة قالت يابو عيالي
وعرضحال شاب بائس م العمل خالى.. ومشكلة وقف فاتها خورشيد الدالي
حاطها صاحبها وبتقول لك وأنا مالي .. دا حسنى بيه المدير العام باعتها لى..
ولسة عايز لها امضت مستشار عالى....

- ونراه ينشد عند عودته من النفي فيقول:

غلبت أقطع تذاكر
وشبعت يارب غربة
بين الشطوط والبواخر
ومن بلادنا- لأوربا
في بور سعيد السفن
رست تفرغ وتملا
هتف بي هاتف، وقال لى
إنزل دي ساعة تجلي
فيها الشياطين في نومه
إنزل دا ربك تمللي
فوقك وفوق الحكومة

- ومن الازجال السياسية التى تعبر عن الحالة في مصر قال ينشد أثناء الانتخابات:

ياحامل التذكره إعمل بها سلطان
تأمر تحكم ولا يحكم عليك إنسان
النائب اللى يجيلك يطلب الإحسان
إبحث عاملك ملاك طاهر وهو شيطان

- كما قال في رثاء أحمد شوقي وهو في باريس:

مكتوب لى في الغيب مصيبه... والغيب عن العلم خافي
تطول حياتي الكئيبة... والصوت على البعد خافت.. موتك
وياريته موتي... أنطلق لسان كل ساكت... تسأل
باريس عن غيابك.. وأنت عارف جوابها...دى مكتبك
في شبابك... وملعبك في شبابها.. من جاك وزاك
في دارك.. وقال يادار ابن هانئْ... يقول لقبرك مبارك
إقبل التهانى.. يا قبر طال افتخارك.. على القبور والمباني
فيك الأمير اللى ساهر... فيك الأمير اللى نايم

- والمعروف عن بيرم أنه كان ينحاز للفقراء ويأسى دائما لمصير الانسان فيقول:

جماعة شافوا الغلابة طيبين م الجوع حنوا عليهم وقاموا وضبوا مشروع جاي
إنت بتقول دا دين البلشفيك ممنوع.. وإيش دخل البلشفيك في نجدة الإنسان؟!
لافي الجوامع رأيت مثلك ولا في الدير.. عالم ومسلم وبيعارض في فعل الخير
ما دام فضيلتك بتاكل كستليته وطير.. يبقي الدريس والدره والفجل للخرفان

٢- مؤلفاته الإذاعية:

أول تمثيلية إذاعية كتبها بيرم كانت باسم " إذاعة في إذاعة "، كما كتب مسلسلا رائعا عن الظاهر بيبرس وأنها أحد روائع بيرم التونسي الدرامية.

٣- المسح الغنائي " الاوبريت ":

- مساهمة بيرم التونسي في مجال المسرح الغنائي في بداية العشرينيات قبل أن يُنفَي إلى باريس...
- والمعروف أنه بعد عودته الى مصر بدأت صحوه جديده للمسرح الغنائي وكان له تأثير كبير في تطوير الحركة المسرحية سواء من ناحية الكلمة أو من ناحية الموسيقى.
- كما كتب مسرحية " الباروكة " وكتب أغانى أوبريت " شهرزاد ".
- وألف بيرم التونسي مسرحيات جديدة مثل " يوم القيامة " ، مسرحية " مايسه "، مسرحية " عزيزة ويونس " المستوحاد من السيرد الهلالية، مسرحية " بترفلاى " ، ومسرحية " سفينة الغجر "، ومسرحية " طباخة بريمو "، ومسرحيته التى لا تنسى " ليلة من الف ليلة " المقتبسة من مسرحية أنجليزية اسمها " لو كنت ملكا ".
- كما قام باخراج بعض اوبريتات الشيخ سيد درويش مثل " شهرزاد " و" العشرة الطيبة " وكذلك أوبريت " عقيلة ".

٤- من مؤلفاته الاخرى:

كتب سلسلة " المقامات " بعد عودته من المنفى ذات الطابع الروائي " الحكائي القصصي " فكان أول مؤلفاته باللهجة العامية تكتب في العصر الحديث بشكل جمع بين المقامة المورثة وقالب القصة المحبوكة والواقعية.

٥- مؤلفاته الغنائية:

كتب بيرم عشرات الأغاني المستقلة لكي تغنى في أفلام السينما والمسلسلات الإذاعية والمسرحيات ، وكذلك كتب أغانى لمطربين منهم:

- (كوكب الشرق أم كلثوم) الذي ارتبط باسمها في كثير من الأغانى مثل " غنى لى شوية شوية - يا صباح الخير - الورد جميل- ظلمونى الناس- نصره قوية- القلب يعشق- الحب كده - شمس الأصيل- حبيبي يسعد أوقاته- هو صحيح الهوى غلاب- أهل الهوى- الآهات- الأوله في الغرام وغيرها ".
كما ألف أغانى لمطربين منهم " ليلي مراد- محمد الكحلاوى- ملك- محمد فوزى- سعاد محمد- نور الهدى- عبد الحليم حافظ- صباح- شكوكو- صالح عبد الحي ".
وكذلك كتب لـ(فريد الأطرش) أغانى كثيرة " أحبابنا ياعين- أهواك وأقول للعوازل- بساط الريح- تطلع ياقمر- ما أخبيش عليك- هلت ليالي حلوة- يا ملكة القلب- إيدي في إيدك ".

أهم الجوائز التى حصل عليها:

- منحه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى
- بلغ تكريم بيرم التونسي ذروته حين احتفلت مصر بالذكرى المئوية لولادته.
- عُين في المجلس الأعلى للفنون والآداب.
- صدر عنه كتاب تناول شتى جوانب حياته وإبداعه الفنى ليذكر الاجيال بواحد من كبار الرواد.

خاتمة

وقد ظل بيرم التونسي حتى وفاته يغمر حياتنا بأعماله الفنية الباقية في كل مجال من مجالات نشاطنا الفنى ، سواء في السينما أو المسرح الغنائي والإذاعة ، وما كتبه لأم كلثوم من أغنيات وهذا التراث الوافر من الأزجال والمقولات الشعبية التى كتبها

ناقدا لكافة همومنا الاجتماعية والثقافية والسياسية لم يصل إليها أحد بعده حتى الآن.

وكان بيرم في حياته الخاصة شديد التدين الذي بلغ حد التصوف، والتعلق الدائم القوى بأبناء وطنه من طوائف الشعب " العمال والفلاحين " ، ونراه مرتبطا بالبيئة التى أنبتته والتى طالما آلمه ما تعانيه من فقر وجهل وتخلف ويظهر هذا الألم في أزجاله التى ظلت تنبض بشقاء الناس.

الإعلامية

خديجة أمين محمد جودة

حمد بن جاسر

رائد التنوير في المملكة العربية السعودية

بقلم الدكتور

إسماعيل عبد الفتاح

استهلال :

الشيخ حمد الجاسر (١٩١٠ ـ ٢٠٠٠). من أبرز العلماء الباحثين في السعودية والعالم العربي، وعضو سابق في أكاديميات بغداد ودمشق والقاهرة، كما كان قوة دافعة وراء النهضة التعليمية الحديثة في المملكة العربية السعودية. عمل في قطاع التعليم، والقضاء، والصحافة والنشر، وأنشأ (اليمامة)، أول صحيفة في الرياض، في عام ١٩٥٢، وتبعتها جريدة (الرياض) في عام ١٩٧٦ وأخيرا (العرب)، وهي فصلية متخصصة في تاريخ وآداب شبه الجزيرة العربية. أنشأ حمد الجاسر أول دار للطباعة في نجد في عام ١٩٥٥، وفي عام ١٩٦٦ أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. لقد أسهم حمد الجاسر إسهامه الأكبر في ثقافة وطنه كعلّامة ومؤرخ وجغرافي، وخلف العديد من الكتب التي تحمل اسمه والتي تغطي حقولا متنوعة من المعرفة: من المصورات الجغرافية والتاريخية إلى أدب الرحلات وكتب السيرة وطبعات نقدية للنصوص التراثية الهامة. وقد أسهم حمد الجاسر بعمق في تحديد استراتيجيات مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي لصاحبها أحمد زكي يماني، والتي كان عضوا مؤسسا للمجلس الاستشاري الدولي للمؤسسة.

مولده ونشأته:

• هو حمد بن محمد بن جاسر، من أسرة آل جاسر المنتمية إلى الكتمة من بني علي من قبيلة حرب .

• ولد سنة ١٣٢٨ هـ في قرية البرود من إقليم السر في منطقة نجد من أب فقير فلاح .

• نشأ ضعيف البنية عليلاً لم يستطع مساعدة أبيه فأدخله في المدرسة (كتّاب القرية) حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

• ذهب به أبوه إلى مدينة الرياض عام ١٣٤٠ هـ فبقي عند قريب له من طلبة العلم يدعى عبد العزيز بن فايز، وتعلم قليلا من مبادئ العلوم الدينية (الفقه والتوحيد).

• عاد من الرياض بعد موت الرجل الذي كان يعيش في كنفه سنة ١٣٤٢هـ، ولم يلبث أبوه أن توفي فكفله جده لأمه علي بن عبد الله بن سالم، وكان إمام مسجد قرية البرود، وصار يساعد جده في الإمامة ثم اشتغل معلما لصبيان القرية حتى سنة ١٣٤٦هـ .

• نُدب سنة ١٣٤٦هـ مرشداً لفخذ من قبيلة عتيبة تدعى الحَوَاما من النُّفَعَة من بَرْقا يصلي بهم رمضان، ويعلمهم أمور دينهم، وكانوا يعيشون في البادية وكان ينتقل معهم فيها .

• في آخر سنة ١٣٤٦هـ ذهب إلى الرياض واستقر لطلب العلم على مشايخها، فقرأ شيئاً من المتون كـ (الآجرومية) لابن آجروم ، و(الأصول الثلاثة)، و(آداب المشي

إلى الصلاة) للشيخ محمد بن عبد الوهاب و(ملحة الإعراب) للحريري ، ثـــم جـــاءت مرحلة زمنية مهمة في حياته ، حيث ترك الرياض قاصداً مكة المكرمة .
• وفي سنة ١٣٤٨هـــ ، التحق بالمعهد الإسلامي السعودي ، أول مدرســـة نظاميـــة تنشأ في العهد السعودي .

حياته العلمية :

وبعد أن أنهى مرحلة الدراسة في ذلك المعهد (متخصصا في القضاء الشرعي) تحوّل إلى الخدمة، فعمل مدرساً في ينبع من عام ١٣٥٣ حتى عام ١٣٥٧هـــ بعد أن أصبح مديرا للمدرسة .
ثم انتقل إلى سلك القضاء فعمل قاضيا في ظبا في شمال الحجاز وذلك عام ١٣٥٧هـــ.
ولم ينقطع حنينه وشوقه إلى المعرفة بعد أن أنهى الدراسة في المعهد، بل كان يرغب في المزيد.
حتى جاءته الفرصة المواتية فسافر إلى القاهرة. وفي عام ١٣٥٨هـــ التحق بكليـــة الآداب في جامعة القاهرة، ولكن الظروف العامة لم تساعده على إنهاء الدراسة فـــي تلك الكلية، فتركها قبل أن يحصل على درجتها العلمية حيث قامت الحـــرب العالميـــة الثانية وأعيدت البعثة السعودية من هناك. رجع إلى التدريس فدرّس في مناطق عديدة في المملكة العربية السعودية وشغل مناصب تربوية مختلفة، منهـــا رئـــيس مراقبـــة التعليم في الظهران، ثم مديرا للتعليم في نجد عام ١٣٦٩هـــ.
كان أول مدير لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض اللتين كانتا النواة لإنشـــاء (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) . أنشأ أثناء إدارته للتعليم في نجد مكتبـــة لبيع الكتب هي (مكتبة العرب) التي كانت أول مكتبة عنيت بعرض المؤلفات الحديثـــة تحت إشرافه.

نشر مقالات عديدة في الجرائد والمجلات العربية في موضوعات مختلفة أبرزها النواحي التاريخية والجغرافية ووصف الكتب المخطوطة ونقد المؤلفات والمطبوعات الحديثة.

كان عضواً عاملاً في (مجمع اللغة العربية في القاهرة) و(المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان) وعضواً مراسلاً في (مجمع اللغة العربية بدمشق) و(مجمع اللغة العربية في عمّان) و(المجمع العراقي في بغداد) و(المجمع العلمي في الهند).

مؤلفاته :

- كتب في الرحلات : "رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث"، "في الوطن العربي"، "إطلالة على العالم الفسيح"، "في سراة غامد وزهران"، "في شمال غرب الجزيرة" .
- كتب في الأنساب : "معجم قبائل المملكة العربية السعودية" جزءان، "جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد" جزءان، "باهلة القبيلة المفترى عليها".
- كتب في تحديد المواضع : من أقسام "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" (مقدمة المعجم) جزءان، (قسم شمال المملكة) ثلاثة أجزاء، (قسم المنطقة الشرقية) أربعة أجزاء، (المعجم المختصر) ثلاثة أجزاء..
- كتب في تاريخ البلدان : "بلاد ينبع"، "مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ".
- كتب عن الخيل : "معجم أسماء خيل العرب وفرسانها"، "أصول الخيل العربية الحديثة" .
- كتب في التراجم : "مع الشعراء"، تراجم لبعض شعراء مجهولين، نشره (نادي القصيم الأدبي)، "ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد"، ترجمة إبراهيم بن إسحاق الحربي في مقدمة كتاب "المناسك" الطبعة الأولى، "معجم المطبوعات العربية" إشراف، "رحالة غربيون في بلادنا" .

• كتب في المباحث اللغوية : "نظرات في كتاب تاج العـروس"، "ملاحظـات علـى المعجم الكبير" بالاشتراك .

• وحقق من الكتب : "رسائل في تاريخ المدينة"، "الأماكن" للحازمي جزءان، "الأمكنة والمياه والجبال" لنصر الإسكندري ثلاثة أجزاء تحت الطبع، "المناسك" أو "الطريق" – الطبعة الثانية...

• وكذا تحقيق كتاب "المغانم المطابة في معالم طابة" قسم الجغرافية، "البرق اليماني في الفتح العثماني" لقطب الدين النهروالي، "التعليقات والنوادر" للهجري أربعة أجزاء في الشعر واللغة والمواضع والأنساب – دراسة وتحقيق –، "الجوهرتين" للحسن بن أحمد الهمداني مع بحث في المعادن والتعدين، "الإيناس في علـم الأنسـاب" للـوزير المغربي، "أدب الخواص" للوزير المغربي، "المحمدون في الشعراء" للقفطي – إشراف، "شعر الشنفرى الأزدي" إشراف، "معجم الشيوخ" لابن فهد بالاشتراك، "الدرر الفرائـد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة" للجزيري في ثلاثة أجزاء، "جمهـرة نسب قريش" للزبير بن بكار – إشراف، جزءان .

تكريمه في حياته

• منح جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٤هـ؛ لإسهامه وعطائه الزاخـر من إثراء ميادين الفكر والأدب.

• منح وسام التكريم من مجلس التعاون الخليجي عام ١٤١٠هـ.

• منح وسام الملك عبد العزيز عند ما اختير الشخصية السـعودية المكرمـة فـي المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) عام ١٤١٥هـ.

• منحته جامعة الملك سعود(الدكتوراه) الفخرية عام ١٤١٦هـ؛ لما قدّمه للسـاحة الثقافية السعودية من عطاء وافر متواصل، وما قدّمه للمكتبة العربية والإسلامية من اثراء تاريخي وجغرافي وأدبي ولغوي.

- نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- نال جائزة سلطان العويس الأدبية في الإمارات العربية المتحدة في مجال الإنجاز الثقافي والعلمي، عام ١٤١٦هـ.
- نال جائزة الكويت للتقدم العلمي عن كتاب(أصول الخيل العربية الحديثة)، عام ١٤١٦هـ.

وفاته

في يوم الخميس ١٤٢١/٦/١٦هـ(٢٠٠٠/٩/١٤م) انتقل الشيخ حمد الجاسر إلى رحمة الله، بعد حياة حافلة بالعطاء، وقد عمت مشاعر الحزن كل محبيه على جميع المستويات داخل المملكة وخارجها، فرحمه الله رحمة واسعة.

كتب قدم لها حمد الجاسر

- اكتشاف جزيرة العرب : خمسة قرون من المغامرة والعلم، جاكلين برين، نقله إلى العربية قدري قلعجي، قدّم له حمد الجاسر ٤٣٤ص، بيروت، دار الكاتب العربي، ١٣٩٠هـ.

= طبعة ثانية، ٤٣٤ص، الرياض، منشورات الفاخرية، ١٤٠٠هـ .

- شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردّاس، طبع بإشراف دار اليمامة، قدّم له حمد الجاسر، ٤٤٨ص، دون تاريخ نشر .
- المملكة العربية السعودية (دراسة بيبليوجرافية)، إعداد شكري الضاني، تقديم حمد الجاسر، ٧١٠ص، الرياض، دار العلوم، ١٣٩٨هـ .
- أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء، أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، تقديم حمد الجلسر، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ .

- تاريخ الأفلاج وحضارتها، عبدالله بن عبدالعزيز بن مفلح الجذالين، قدّم له حمد الجاسر، الرياض، مطبعة سفير، ط١، ١٤١٣هـ .
- ديوان الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن هليّل، جمع وإعداد آمنة بنت محمد بن هليل، الرياض، الحرس الوطني .
- قبيلة الظفير : دراسة تاريخية لغوية، مقارنة بروس أنغام، ترجمة وتعليق : عطية كريم الظفيري، تقديم حمد الجاسر، الرياض، ط٢، ١٤١٥هـ .
- من جوانب العدالة عند الملك عبدالعزيز، عبدالرحمن بن صالح آل عبداللطيف، قدّم له حمد الجاسر، ١٣٧ص، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ .
- آل معمّر وإمارة العيينة، عبدالمحسن آل معمر، قدم له حمد الجاسر .
- الدرعية (قاعدة الدولة السعودية الأولى)، محمد الفهد العيسى، تقديم حمد الجاسر، غلاف ١٢٤ص .
- الصمان : بحوث وتحقيقات جغرافية ميدانية وتاريخية لمنطقة الصلب والصمّان، سعد بن عبدالعزيز الشبانات: تقديم حمد الجاسر، الرياض، دار عالم الكتب، ٢٠٠٠م .
- بني تميم في بلاد الجبلين عبدالله بن صقيه

معالم حملت اسمه

- تسمية مستشفى حديث في مسقط رأسه في بلدة (البرود) باسم مستشفى الشيخ حمد الجاسر.
- قاعة حمد الجاسر بجامعة الملك سعود بالرياض.
- قاعة حمد الجاسر في مؤسسة اليمامة الصحفية في الرياض.
- مجسم جغرافي بارز بجامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية.
- تسمية إحدى القاعات الكبرى بجامعة آل البيت باسم حمد الجاسر.
- تسمية شارع في مدينة تبوك بالمملكة.
- تسمية شارع في حي الورود بالرياض.

- تسمية إحدى الشوارع المتفرعة من شارع صاري في مدينة جدة. ([1])

أبحاثه :

نقف أمام نماذج منها :

ــ بحث حمد الجاسر الذي زلزل بقايا الصوفية في الحجاز !!ل سليمان بـــن صـــالح الخراشي :

ألقى الشيخ حمد الجاسر – رحمه الله – " علامة الجزيرة في التاريخ " محاضرة فـــي (جامعة أم القرى) بمكة بعد مغرب ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هــ ، ثم نشرها كبحث في مجلة العرب (س ١٧ ج ٣-٤) ؛ أحدث هزة وربكة بين أساطين التصوف في الحجاز بسبب نسفه – تاريخيًا – لكثير من خرافاتهم التـــي يوردونهـــا كحقائق ليُضلوا بها البسطاء ؛ ولذا فقد حاولوا الرد عليه والتهويش ، متناسين شهادة الجميع له بالتفرد والتفوق على أبناء عصره في هذا المجال التاريخي .

وقبـــل أن أنشـــر أهـــم ماجـــاء فـــي بحثـــه ؛ لابـــد مـــن ذكـــر ٣ تنبيهـــات :

الأول : أن الصوفية في الحجاز شرذمة قليلة حاولت خداع الناس بأنها تمثل أبناء تلك المنطقة ! مستغلة الأحداث السياسية المعروفة في بداية تشكيل المملكة . وهذا أمـــر مجانب للحقيقة ؛ إذ أن أهل الحجاز – وفقهم الله – هم من أهل السنة – ولله الحمـــد – ؛ كما يشهد بذلك تاريخهم وعلماؤهم الذين حاول دهاة التصوف إخفاء صـــوتهم . ومن أراد معرفة هذه الحقيقة المغيبة فليرجع إلى رسالة (جهود بعض علماء البلـــد الحرام في تقرير العقيدة السلفية في القرن الرابع عشر الهجري) للأستاذ عبدالمحسن الحربي . وأبشر الإخوة بطلائع حجازية قادمة تعيد الحق إلى نصابه ، وتســـهم فـــي

---

[1] -تم الاسترجاع من

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D٨٪AD%D٩٪٨٥٪D٨٪AF_%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪AC%D٨٪A٧٪D٨٪B٣٪D٨٪B١

كشف الحقيقة ؛ كما رأينا في رد الشريف حاتم العوني على مي يماني وغيرها من الصوفية ، وكما في ردود الشيخ الموفق سمير مالكي على قريبه محمد علوي مالكي .. وآخرين غيرهم ؛ زادهم الله توفيقًا .

الثاني : قد لايعرف كثيرون أن زناد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله قد انقدح من الحجاز ، وأن شيوخه الحجازيين (كابن سيف ومحمد حياة السندي المدني ومحمد البرهاني وغيرهم) هم أول من لفت نظره إلى أهمية التوحيد ، وأيدوه على دعوته إليه . (انظر : عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية .. للشيخ صالح العبود، ١/١٥٠-١٦٩) . وأن أبرز وأكثر من عارضه هم شيوخ نجد ! . فمايسمى بالدعوة (الوهابية) حجازية المنشأ ؛ لا كما يحاول الصوفية ترويجه ؛ بغية صد الناس عن الحق .

الثالث : قد يقال : ألا نكتفي بالنصوص وأقوال العلماء الشرعيين في الرد على هؤلاء الصوفية ؟ فأقول : يكفي هذا مع طلاب الحق ، أما الممارون المجادلون كالمتصوفة ؛ فلا يكفيهم أن تورد عليهم الأدلة الشرعية وأقوال العلماء ؛ لأنهم سيتخلصون منها بحيل كثيرة ؛ إما بصرف المعنى ، أو بتعدد الأفهام ، أو .. الخ . أما الرد التاريخي الذي ينسف خرافاتهم من أساسها فلن يستطيعوا له دفعًا ولا تحويلا . والله الموفق .

الآثار الإسلامية في مكة المشرفة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الآثار –أيها الإخوة– في هذه البلدة المشرفة نوعان:

١ – مشاعر العبادة المقدسة، في مكة ومنًى ومزدلفة وعرفات، ومواقيت الحج المكانية، وقد تكفل الله بصيانتها وحفظها، لارتباطها بما تعبّد عباده بالقيام به من أنواع العبادة.

٢ – ونوع آخر من الآثار، له ارتباط بحياة من عاش على تراب هذه البلدة الطاهر، كالمساجد والموالد والقبور والأمكنة، وهذا ما سأحاول حصر الحديث حوله، متوخياً

الإيجاز ، مشيراً إلى أمرٍ هام وثيق الصلة به، بل هو أساس يقوم عليه هذا الحديث عن هذا النوع من الآثار :
هو أن سلفنا الصالح في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ما كانوا يهتمون بالمحافظة على آثارهم، ولا يعتنون بتحديد مواقعها أو أزمانها، بل كانوا في كثير من الأحيان عندما يخشون المبالغة في تعظيمها يسعون لإزالتها، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى الناس ينتابون بالزيارة شجرة الرضوان، التي بايع المسلمون المصطفى -عليه الصلاة والسلام- تحتها، وأنزل الله في تلك البيعة قوله عز وجل: (قد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فأمر الفاروق رضي الله عنه بقطعها.
وقد أوفى المحققون من العلماء هذا الأمر إيضاحاً وتحقيقاً، وتحسن الإشارة أيضاً إلى أن لتساهل العلماء في رواية ما يتعلق بفضائل المواضع أثراً كبيراً في حدوث كثير من الآثار، كما أن التنافس بين أهل المدن في بعض الأحيان زاد تلك الفضائل كثرة وشهرة، بوسائل مختلفة.
ولا أريد التوسع في الحديث عن هذا، وحسب القارئ أن يستعرض جوانب منه في تشابه كثير من الآثار في المدينتين الكريمتين، ككثرة المساجد المنسوبة إلى بعض المتقدمين، ونسبة كثير من القبور لبعض المشاهير في مقبرتي المعلاة والبقيع، بل حتى في الآبار، كبئر زمزم -مثلاً-.
المو الد في مكة المكرمة :
لعل أشهر هذه المواضع وأقدمها المكان الذي يرى كثير من متقدمي العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلد فيه، الواقع في شعب بني هاشم بقرب سوق الليل، وهو مكان لا يزال معروفاً، مع كثرة ما طرأ عليه من التغيير، غير أن نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم محل شك لدى كثير من العلماء.
ولعل القائلين بصحة تلك النسبة اعتمدوا على القرائن في ذلك، فالرسول عليه الصلاة والسلام من أهل مكة -لا شك في ذلك- وبنوهاشم عشيرته الأقربون كان ربعهم

معروفاً في الشِّعب الذي عُرف بهم، ثم بأبي طالب أحدهم، والدار التي يقع فيها المولد كانت في ذاك الشعب، وكانت للرسول صلى الله عليه وسلم، فلما هاجر استولى عليها ابن عمه عقيل بن أبي طالب كما في الحديث الشريف: "وهل ترك لنا عقيل من دار"؟ من هنا قال بعض العلماء ومنهم ابن القيم في كتاب: "زاد المعـاد": (لا خـلاف فـي أنه صلى الله عليه وسلم وُلد بجوف مكة).

غير أن ممن تقدم ابن القيم من العلماء من ذكر الخلاف في ذلك، فقد نقل مؤرخ مكة تقي الدين الحسني الفاسي في "شفاء الغرام" وفي مقدمة "العقد الثمين" أن مُغْلطـاي العالم الحنفي المصري (٦٨٩/٧٦٢) وهو من حفّاظ الحديث ذكر أن النبي صـلى الله عليه وسلم وُلد بعُسفان.

ولمغلطاي مؤلف في السيرة في مكتبة الحرم المكي هو كتاب "الإشـارة إلـى سـيرة المصطفى، وتاريخ من بعده من الخلفاء"([1])ورد فيه: (وُلد صلى الله عليه وسلم بمكة، في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، ويقال: بالشِّعب، ويقال بـالرَّدم، ويقال: بعُسفان).

وعلى القول بأنه -عليه الصلاة والسلام- وُلد في مكة، فهناك اختلاف بين العلماء في تحديد الموضع الذي وُلد فيه. فقد ذكر محمد بن محمـد بـن سـيد النـاس (٧٣٤-٦٧١هـ) في كتاب "عيون الأثر في سيرة سيد البشر" ما نصه: (وولد في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، وقيل: إنه ولد في شعب بني هاشم) كـذا أورد الخبر بصيغة: (قيل) . وقال الإمام السهيلي (٥٨١-٥٠٨) في كتاب "الروض الأنف": (وولد بالشِّعب، وقيل: بالدار التي عند الصفا، وكانت بعد لمحمد بـن يوسـف أخـي الحجاج، ثم بنتها زبيدة مسجدًا، حين حجَّت).

---

[1] - رقمها (٨٧) سيرة) في ٦٧ ورقة. مخطوطة سنة ٨١٠ مصححة ومقابلة على الأصل المقروء على المؤلف تنتهي بخبر قتل المستعصم سنة ٦٥٦ من قبل التتار. ولمغلطاي كتاب آخر مطول في السيرة هو "الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم" منه مخطوطة في مكتبة (ليدن) في (هولندا) رقمها في فهرس المخطوطات الشرقية (٣٧٠).

وأورد تقي الدين الفاسي هذا القول واستغربه فقال: (مولد النبي صلى الله عليه وسلم، بسوق الليل وهو مشهور، وذكر السهيلي في خبر مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ما يُستغرب) ثم أورده وأضاف: (وأغرب منه ما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم، ولد في الردم، ردم بني جمح). ويقصد الردم الذي ردم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧ لصيانة المسجد الشريف من دخول السيل، موقعه في أعلى المُدَّعا الموضع الذي ذكر بعض العلماء أن المحرم يقف فيه للدعاء، إذ منه كانت تشاهد الكعبة المطهرة.

وهذا الاختلاف في الموضع الذي وُلد فيه النبي صلى الله عليه وسلم يحمل على القول بأن الجزم بأنه الموضع المعروف عند عامة الناس باسم المولد لا يقوم على أساس تاريخي صحيح، وهذا أمر أوضحه الشيخ عبدالله العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠هـ) في رحلته فقال ما نصه: (وقد عُلم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى أنه بمكة فقيل بالشِّعب وقيل المحصَّب إلى غير ذلك من الأقوال .

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة في قضية عادية، وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده، وإن أُريد بالشِّعب شِعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة، فلا يبعد ذلك؛ لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجب أنهم عيّنوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له: موضع ولادته صلى الله عليه وسلم !! ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها ؟! وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟! وعلى القول بتعيين الدار يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار. والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيما مع عدم

تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد عُلم من حال الصحابة وتابعيهم ضَعفُ اعتنائهم بالتقييد، بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم رضي الله عنهم لما هو أهم : من حفظ الشريعة، والذب عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام، من مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدافن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية؟! لا سيما مالا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له، كمولد علي ، ومولد عمر، ومولد فاطمة –رضي الله عنهم جميعهم– فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة، فيقولون: هذا مولد فلان، هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، فقد يتنَبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية، وأما مولد غيره ممن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته، إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبيهه أو أحد من أهل بيته) . انتهى كلام العياشي ، وهو شامل لجميع الموالد المنسوبة لمن عاش في عهد المصطفى –عليه الصلاة والسلام– فلا داعي للحديث عنها.

المساجد:

وفي مكة مساجد، كانت تُقصد للزيارة، منها: مسجد بأعلى مكة عند الردم – المدَّعا – يدعى مسجد الراية، يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه، وركز رايته حين فتح مكة بقربه.

ومسجد عند المُدَّعا –أيضاً– على يمين الهابط إلى مكة ويسار الصاعد منها، ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أنه صلى فيه المغرب.

ومسجد المختبا في سوق الليل بقرب ما يُزعم بأنه المولد ، يقال بأن النبي صلى الله عليه وسلمكان يختبئ فيه من الكفار.

ومسجد بأسفل مكة بقرب بركة الماجن، ينسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ،ومسجد الجن، ويسمى مسجد البيعة، ومسجد الحرس، ومسجد الإجابة في شعب بقرب ثنية أذاخر.

وهناك مساجد أخرى، وكلها وردت منسوبة له صلى الله عليه وسلم أو لأحد من أصحابه في أخبار لا تثبت أمام النقد، من حيث صحة نسبتها إلى من نسبت إليه. وكذا المساجد المذكورة في منى، باستثناء مسجد الخيف، وهذا لا ينافي قدم تاريخ إنشاء تلك المساجد، واعتبارها من الأماكن القديمة ، فيدرس تاريخها على هذا الأساس، ويهتم بها بصفتها أماكن للعبادة.

أماكن أثرية :

ومن أشهر المواضع الأثرية جبلا حِراء وثور -من جبال أم القرى- ففي غار الأول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد، وفيه نزل عليه الوحي. وفي غار الثاني اختبأ هو وأبو بكر حين هاجرا من مكة، وفيه نزل قوله تعالى: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

ومن أشهر المواضع الأثرية قرب مكة وادي حُنين (يدعان) أعلى وادي الشرائع ، الذي حدثت فيه الوقعة المذكورة في القرآن الكريم: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) الآية. وتحسن الإشارة إلى التفريق بين موضعي حُنينٍ وأوطاس، حيث وقع من بعض المؤرخين ما يُفهم منه اعتبارهما موضعاً واحداً، مع تغايرهما ، فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز، أقرب المواضع المأهولة منه عُشيرة، يقع غرب وادي العقيق، على مقربة من البركة شمالها بميل نحو الغرب .

القبور:

لا شك أن مقبرة المعلاة في مكة المشرفة حوت من رفات الأجسام الطاهرة من المؤمنين ما لم تحوه مقبرة من حيث الفضل، باستثناء مقبرة البقيع. وقد ألف الفيروز آبادي صاحب "القاموس المحيط" رسالة دعاها: "إثارة الحجون،

لزيارة الحَجون" ذكر الصحابة المدفونين في تلك المقبرة، ونظم هذه الرسالة علي بن أبي بكر الصايغ، أحد علماء مكة في صفر سنة ١٢٨٧ بأرجوزة سماها: "اللؤلؤ المكنون، في ذكر أسماء أهل الحجون" وذكر أن عدد الصحابة المدفونين في مقبرة الحجون ثمانية وثلاثون رجلاً وسبع نسوة، سرد جميع أسمائهم نقلاً عن رسالة الفيروز آبادي، التي تضمنت تراجم أولئك.

ولكن مما تجب ملاحظته:

١- الاختلاف في موقع الحجون الوارد في كتب المتقدمين، فقد ذكر الفاسي أن الحجون جبل على يسار الداخل إلى مكة، ويمين الخارج منها إلى منى على ما ذكر الأزرقي والفاكهي، وهما أقدم مؤرخي مكة ممن وصلت إلينا مؤلفاتهم([1]). وإذن فهو مخالف لما عليه الناس من أن الحجون الثنية التي يهبط منها إلى مقبرة المعلاة.

وأضاف الفاسي: ولعل الحجون على مقتضى كلام الأزرقي والفاكهي والخزاعي هو الجبل الذي يقال: فيه قبر ابن عمر رضي الله عنهما أو الجبل المقابل له، الذي بينهما الشعب المعروف بشعب العفاريت انتهى.

ويرى مؤرخ مكة في عصرنا الأستاذ الشيخ أحمد السباعي أن ثنية الحجون تقع في الجبل المتصل بشعب عامر، وأن إطلاق اسم الحجون على ما هو معروف عند الناس الآن حدث بعد الإسلام([2]).

٢- ليس كل من مات في مكة قبر في مقبرة الحجون كما يُفهم من رسالة صاحب "القاموس" إذ لمكة عند ظهور الإسلام مقابر غير مقبرة الحجون التي هي مقبرة

---

[1] - انظر مجلة "العرب" س ١٦ ص ٢٣٧.

[2] - محاضرة ألقاها سنة ١٣٨٨هـ في نادي الوحدة الرياضي بمكة بعنوان: (عبدالله بن الزبير صاحب فكرة في تاريخ مكة) "العرب" س ٢ ص ٨٦٥.

المعلاة ؛ منها: المقبرة العليا بين المعابدة وثنية الحرمانية -ثنية أذاخر- وكان يدفن فيها في الجاهلية وصدر الإسلام.
ومنهـا: مقبـرة المهـاجرين، بالحصـحاص، بـين فـخّ والزاهـر (الشـهداء).
ومنها: سقيرة الشبيكة، وكانت تعرف بمقبرة الأحلاف، بينما تعـرف مقبـرة المعـلاة بمقبرة المطيبين.
لهذا لا يمكن الجزم بأن من توفي فـي مكـة مقبـور بمقبـرة المعـلاة (الحجـون)
٣- نص المتقدمون من مؤرخي مكة على عدم معرفة قبر أحدٍ من الصحابة إلا قبـر ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في سرف.
قال الفاسي: ولا أعلم في مكة، ولا فيما قرب منها قبر أحد ممن صحب النبي صـلى الله عليه وسلم سوى قبر ميمونة، لأن الخلف يأثره عن السلف، وقال ابن ظهيرة في "الجامع اللطيف": عن مقبرة المعلاة: لما حوته من سادات الصحابة والتابعين، وكبار العلماء والصالحين، وإن لم يعرف قبر أحـد مـن الصـحابة تحقيقـاً الآن. انتهـى
وفي عصرنا -بل قبله بنحو ستة قرون- عُرف قبر أم المؤمنين خديجة- رضـي الله عنها ، معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صحَّ أن للجهل أساساً، فشُيِّدت قبـة عظيمة تحمل ذلك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قُبَّتان تحمل إحداهما اسم (عبد المطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبـي طالـب) !!
وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى عليه الصلاة والسلام أضفى عليها هالة من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبي طالب عمه، وهو اعتقاد خاطيء كما أشرت إلى ذلك في كلمة لي بعنوان: (خرافة قبة اليهودية) ([1]) قلت فيها: (من الأمور التـي لا حقيقة لها ما يصبح بمرور الزمان ذا تاريخ تتناقله الأجيال، حتى يُعد بطـول الـزمن ويتناقـل ذكـره بـين النـاس مـن الأمـور الثابتـة التـي لا يسـوغ إنكارهـا.

[1] - " العرب" س ١٠ ص ٢٧٨.

فقبر أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- كان مجهولاً لدى مؤرخي مكة حتى القرن الثامن الهجري ، أي طيلة سبعة قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفاً محدد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين في المنام([1]) كأن نوراً ينبعث من شُعبة النور، في مقبرة المعلاة، ولما علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان الذي رأى ذلك العارف أن النور ينبعث منه، جازماً ذلك الأمير أن ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة رضي الله عنها([2]) !!!

ويورد المرجاني في كتاب "بهجة النفوس والأسرار" الخبر باختصار ويعقب عليه: (ولا كان ينبغي تعيينه على الأمر المجهول).

ويدور الزمان فيصبح المكان وما حوله مقبرة للعظماء من أهل مكة ! ؛ فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠هـ عبد المطلب بن حسن بن أبي نُمي، ثم في سنة ١٠١٢هـ يموت أحد أمراء مكة ممن عرف بالظلم والجبروت، وهو أبو طالب بن حسن بن أبي نمي، وتُبنى فوقه قبة تعرف بقبة أبي طالب، بجوار قبة خديجة الخرافية وقبة عبدالمطلب، ويدور الزمان فيُجهل أمر صاحبي القبة، فتنشأ خرافة قبة عبدالمطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي مات في زمن الفترة، وقبة أبي

---

[1] - انظر كتاب "البحر العميق في العمرة والحج إلى بيت الله العتيق" لمحمد بن أحمد بن الضياء القرشي المكي الحنفي ج ١ الورقة (٢٠) مخطوطة مكتبة الحرم المكي. رقم (٤٠) فقه حنفي فقد أشار إلى هذا الخبر، وأورده مفصلاً أحد مؤرخي مكة المتأخرين.

[2] - ذكر كثير من المؤرخين المتأخرين أن خديجة -رضي الله عنها- قبرت بمقبرة المعلاة، وذكر التجيبي في رحلته أنه شاهد (سنة ٦٩٦هـ) في طرف مقبرة المعلاة شعباً ذكر أن فيه قبر خديجة وقال: (وليس لها بالشعب المذكور قبر ظاهر، ولكنهم يقولون إنها به والله أعلم) انتهى. ولهذا فإن المحققين من المؤرخين نصوا على أنه لا يعرف في مكة من قبور الصحابة سوى قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، في سرف خارج مكة بقرب التنعيم، وقبر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في ثنية أذاخر مما يلي باب المعلى (رحلة التجيبي ص٣٣٩) والله أعلم.

طالب بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، الذي مات مشركاً بنص القرآن الكريم.

ويُدون التاريخ تلك الخرافات الثلاث باعتبارها حقائق تاريخية، وتتناقلها الأجيال إلــى يومنا هذا، بل تزداد رسوخاً وقوة حين تصدى عالم جليل من علماء العصر([1]) بكتابة سفر نفيس دعاه "في منــزل الوحي" إذ تطغى عاطفة التدين على ذلك العـالم حـين يشاهد مقبرة مكة (المعلاة) فتنتابه الذكريات عمن ضمَّت من أجساد عظمـاء الأمـة خلال الثلاثة عشر قرناً وما فوقها من السنين، وتنطلي عليه خرافة قبر عبـدالمطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام، وقبر أبي طالب عمه، وقبـر أم المـؤمنين خديـجة زوجه، فيتقبل القول على عِلاّته، ويريح نفسه من عناء البحث والتحقيـق، فيجـري يراعه السيال بكتابة الصفحات التي يعدد فيها أمجاد السادة الذين ضـم تـراب تلـك المقبرة رفاتهم !! ويخص بالذكر منهم أولئك الثلاثة، وينحي باللائمة على مـن أزال تلك القباب الخرافية !!..

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن الباحثين ممن جاؤوا بعد ذلك العـالم اتخـذوا كتابه مصدراً يُعتمد عليه في آثار مكة وأخبارها، بحيث أن إحدى المجلات([2]) الدينية تقوم بنشر كُتيب عن الحج في كل عام منذ بضع سنوات، وتعدد فيه آثار قبور المعلاة الثلاثة القبور الخرافية !

وقل أن كتب عن هذه البلدة الكريمة أحدٌ من غير العارفين من أهلها فلم ينظر إلى هذه الآثار ونحوها نظـرة الواثـق بصـحة مـا يقـال عنهـا، لمُلامسـتها للعواطـف. أما مثقفو هذه البلاد، وأولوا الرأي فيها ؛ فهم يدركون أنها لا سند لها من التاريخ ، وأن ما يروى عنها غير صحيح([3]).

---

[1] – هو الدكتور محمد حسين هيكل باشا –رحمه الله–.

[2] – هي مجلة "الوعي الإسلامي" التي تصدر في الكويت.

[3] "منــزل الوحي" ص ٢٠٤ و ٢٠٥.

ـ معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، من تأليف حمد الجاسر ، هذا الكتاب معجم جغرافي للبلاد العربية السعودية" الذي قام بالدعوة لتأليفه، وشارك في ذلك، حتى قارب التمام، فمطالعه بحاجة- حين يمر به اسم قبيلة أو فرع من فروعها- في تحديد موضع أو مورد، أن يعرف صلة تلك القبيلة أو ذاك الفرْع بالقبائل الأخرى.

يقول حمد الجاسر : كما أن القارئ- أي قارئ كان- لا يجد بين يديه كتاباً شاملاً مرتباً على الحروف، مخصصاً لقبائل هذه البلاد، على كثرة المؤلفات في الموضوع. وقد حاولت الإيجاز بإيراد المعلومات بقدر الإمكان، فلم أتطرق للبحث في الأصول، ولا في إيراد مختلف الأقوال عن تفرع القبائل الكبيرة ولم أتوسع في ضبط الأسماء، بل اكتفيت بإيراد الاسم مضبوطاً بالشكل.

ولم أتعرض لذكر القبائل القديمة التي ليس لها بقية في هذه البلاد ولا لذكر القبائل التي تحضرت كل فروعها، ولم يبق لها بادية، ولا لذكر القبائل التي نزحت عنها سوى فروع بعض قبائل بقي أصلها ونزحت تلك الفروع إلى العراق والشام وغيرهما، ثم لما أنعم الله على هذه البلاد بنعمة الأمن والرخاء بدأ كثير من تلك الفروع في الرجوع إلى مواطنه القديمة بعد غياب طويل، فكثير من فروع عَنَزَةَ وشَمَّر والظَّفِيْر وغيرها من القبائل عادت إلى هذه البلاد، وقد يعود غيرها، ولهذا فقد حاولت ذكر بعض فروع تلك القبائل، ممن هاجر، ولا تزال مغريات العودة إلى هذه البلاد تزداد بازدياد ازدهار العُمَران، وتوفر أسباب الحياة الرغيدة.

ومع عنايتي بدراسة أصول أنساب القبائل، واتجاهي لتدوين بعض المعلومات عنها في مؤلف عن "أصول أنساب القبائل في المملكة العربية السعودية" وآخر عن "أصول الأسر المتحضرة في نجد" إلا أن عملي في هذا "المعجم" لا يعدو الجمع، فهو منحصر في جمع المعلومات وترتيبها مستقاة من مؤلفات معروفة وقد تحاشيت ذكر ما يثير التساؤل، أو يؤثر في بعض النفوس بوسائل: منها :أنني

أدعو القبيلة بالاسم التي تريد أن تسمى بها مثل بني رَشيْد فقد استعملته بدل" هُتَيم " الذي لا تعترف به تلك القبيلة المنتشرة حول خيبر، وفي سفوح الحرار المحيطة بـه، وفي جبلَيٍّ أبانٍ. وإن كان اسم "هُتَيم" يطلق على غيرها بل أصبَح من كلمات الشـتم. ومنها: أن بعض نسابي القبائل يختلفون بإضافة هذا الفَرْع إلى تلك القبيلة، فلم أعـر هـذا الاخـتلاف اهتمامـاً، مـا دام ذلـك الفَـرْع ينتسـب إلـى تلـك القبيلـة بل سرت على قاعدة: "الناس مأمونون على أنسابهم" وقد استعمل كلمة "فـي "بـدل "من" إذا كان لذلك الاختلاف أساس صحيح. ومنها: أن حصر جميع فروع القبائل من الصُّعُوْبة بمكان، ولهذا فحين أورد أسماء الفروع أو الأفخاذ أعبر بكلمة "منها" فقد أكون قد تركت على جهل ما يعرفه غيري ، فكثير من أحوال عشائر جنوب المملكة لا يزال بحاجة إلى الدراسة والبحث. وقد أذكر الفخذ منسوباً إلى فرعين من فروع القبيلة وهذا ناشئ عن اختلاف الرواة في نسبته.

وتحَسَن الإشارة إلى أمور قد يحتاج إلى معرفتها الباحث في هذا الكتاب منها: أن كثيراً من عشائر تِهَامَة وما يقرب منها من سفوح السَّرَوات قد تنتمي إلى الأمـاكن التـي تعيش فيها أو حولها، وتُهمل انتماءها إلى الجِذْم الذي يربطها بأصل معروف، فتشتهر بانتسابها إلى الموضع أكثر من اشتهارها بانتسابها إلى الأصل الذي يربطهـا بأحـد الأصول المعروفة، وهذا معروف منذ القدم، مثل "بارق" و "غسّان" ولهذا فليس أمـام من يُعنى بتدوين أحوال العشائر- ممن يجهل الجِذْمَ الذي ينتمي إليـه- سـوى ذكـر الموضع الذي تحله.

وهذا ما فعلته، فذكرت عشائر تهامة بأسماء بلادها مثل "بَيْش" و "جازان" و "صَبْيَا" و "فَيْفَـا" و" المِخْـلاَف" و "الْمُوَسَّـم" وغيرهـا ولا شـك أن كثيـراً ممـن ذكـرت ذات أصول معروفة- كغيرها من القبائل ومنها أن القبائل التي تقـع بلادهـا جنـوب المملكة في جهات نجران، وفي بلاد عَسِيْر، وفي غربها في تهامة من مكـة جنوبـاً، حتى اليمن لا تزال مجهولة، إذ لم تدرس أحوالها ولم يكتب عن أنسابها سوى نُتَـف موجزة، يعتريها الخطأ، وعدم التحقيق، ولهذا فليس أمام من يعنى بالكتابة عنها سوى

الاختلاط بها في بلادهم أو أن يقوم بذلك المثقفون من أبناء تلك القبائل، كما فعل غيرهم من إخوتهم عن قبائل السروات ومنها: أن تداخل القبائل سبّب خلافاً واسعاً في نسبة بعض الفروع<

وقد سِرت في هذا الكتاب على ما هو معروف الآن في عهدنا وإن خالف الصحيح، فذكرت :

ـــ "وَقْدَان" في فروع عُتَيْبَةَ، و "ثُمَالَة" في فروع ثَقِيف.

ومنها: أن لاختلاف لهجات القبائل أثراً كبيراً في طريقة النطق بالأسماء كعدم التفريق بين الضاد والظاء، والتعاقب بين الجيم والياء، وتقارب النطق بحروف الجيم والقاف والكاف أو السين والصاد وهذا يوقع الخطأ في كتابة الأسماء، وقد حاولت كتابتها بأقرب الوجوه إلى الصواب، مع ذكر الصورة التي تنطق بها وإن خالفت القاعدة المعروفة. كما جردت الأسماء من جميع الزوائد عند ذكرها- مع الإشارة إلى صفة نطقها مثل "بَنْيُوْس" و "بَلَيِّعْرب" و " بِلْجُرَشـي" فقد أوردتها "أوس" و "يعرب " و"الجرشي "بحذف الحروف الزائدة على الأسماء مثل"آل" و "إيل" و "أل" و "ضَنَا " و"وِلْد" و "بني" و "ذوي" و "عيال" و "أولاد" وأمثالها ومنها : أنني قد أنقل الاسم شاكاً في صحته بعده علامة الاستفهام "?" إشارة إلى الشكّ ومنها: أنني قد أكتفي بإيراد اسم الفُرْع من القبيلة عند ذكرها، ثم أذكره في موضعه فحدث عن هذا بعض التكرار، وقد لا أذكره، وكان ينبغي ذكر كل فرع في محله مع الإحالة إلى القبيلة ــ بدون ذكر فروعها عند ذكرها ــ وهذا ما ينبغي تداركه حالا ، ومستقبلاً.

هذا هو حمد الجاسر عملاق الجزيرة العربية وأحد أعمدة الأدب والثقافة والفكر في المملكة العربية السعودية ، والذي قدم للمكتبة العربية عشرات الكتب الهامة ، ويكفيه فخراً أنه مؤسس المجلة العربية التي صدرت وما زالت تصدر من الرياض لتكون منبراً تنويريا هاما للأمة العربية كلها .

حمد الجاسر الذي يفخر به كل عربي ، أراد أن يكون هو نفسه مشعلاً للتنوير الفكري والثقافي والأدبي ، فلم يبخل يوما عن كاتب أن يقدم له كتابه ، ولم يبخل يوماً أن يزيد الناس نوراً وثقافة وفكراً وعلماً ، ولم يستطع أن يقف يوماً عن مسيرة التنوير التي بدأها وظل يولي رعايتها حتى أصبحت قادرة على أن تنير للناس عقولهم وتقدح زناد فكرهم ..

حمد الجاسر هو رائد جسور للفكر وللتنوير في بلاد الحرمين الشريفين ، فهو مفكر اجتماعي إسلامي من الطراز الأول ، رحمه الله رحمة واسعة ،،،

د. إسماعيل عبدالفتاح

محمد حسن فقي

من أعلام التنوير العربي الخليجي

بقلم الدكتور

إسماعيل عبد الفتاح

استهلال :

محمد حسن فقي ، من مواليد مكة (١٩١٤-٢٠٠٤)، شاعر الرومانسية في الحجاز، ومن الرعيل الثاني في نهضته الأدبية. ومن طلائع الصحفيين بالحجاز. زاوج بين الشعر والفلسفة، واشتهرت أشعاره بالوجدانية والرؤية الغارقة في التشاؤم والزهد عن الحياة. وفضلا عن شهرته الأدبية والنقدية، كان الفقي بيروقراطياً تنقل في وظائف كثيرة بالدولة السعودية، قام بتأسيس ديوان الرقابة العامة، كما عُيّن سفيراً للسعودية بأندنوسيا من عام (١٩٥٥-١٩٥٧م). تخرج الفقي من مدارس الفلاح بمكة، وتأثر بأعمال الرعيل الأول في الحجاز وبأعمال طه حسين وعباس العقاد والمازني وأحمد أمين، وباقي طلائع النهضة العربية، وشعراء المهجر؛ جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا ابوماضي. كما رأس الفقي تحرير صحيفة صوت الحجاز.

- لُقب بشاعر مكة، و فيلسوف الحجاز وشاعر القافية. ويعد امتداد للشاعر حمزة شحاتة، كما يشبّه بالشاعر العربي أبو العلاء المعرّي.

• كرمته المملكة في مهرجان الجنادرية ومنحته جائزة الدولة التقديريـــة. كمـــا أن هناك جائزة أدبية عربية منذ عام ١٩٩٤م باسم جائزة محمد حسن فقي للشعر والنقد الأدبي مقرها مصر، أسستها مؤسسة أحمد زكي يماني الثقافية الخيرية.

مؤلفاته

- ديوان (قدر ورجل).
- المجموعة الشعرية الكاملة لمحمد حسن فقي. (٧ مجلدات).
- الفلك يدور.
- كتاب (نظرات).
- كتاب فلسفي بعنوان (افكار في المجتمع والحياة). (جزءين).
- هذه هي مصر.
- كتاب (ترجمة حياة).
- كتاب (رمضانيات فيلسوف).
- كتاب (فيلسوف) .
- كتاب (مذكرات يومية). (٣ أجزاء) .

من أقواله الشعرية الفلسفية

- وحدي في اعتزالي ذائق
- لذة الروح ابتعاداً واحتواء
- حيرتني نفسي فما اعرف ما تحتويه من اسرار!!
- الرشد تميل ام لضلال ، ولنفع تميلُ ام لضرار؟!!
- من صباي الغرير كنت اعاني قلقاً من شذوذها وعثاري!!([1])

---

[1] ــ من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

من مفكرة أفكاره :

لنقف على بعض أفكاره: محمد حسين فضل الله : الفقيه والسلطة ، يقول فقي:

هل هناك مفهوم اسلامي معين يحدد علاقة الفقيه بالسلطان؟ وهل يتنافى موقعه الفقهي الذي يختزن في داخله المعنى الروحي، مع الانفتاح على أجواء السلطة التي تختزن في مضمونها المعنى المادي؟

ربما يفكر بعض الناس بهذه الطريقة، فيرى أن الفقه يمنح صاحبه قيمة اسلامية كبيرة فيما يمثله من الثقافة الشرعية المتصلة بالموقع القيادي للأمة لاسيما على مستوى نظرية (ولاية الفقيه) التي تجعل له سلطة الولاية على شؤون الناس في حياتهم العامة مما يفرض عليه أن يكون بمنأى عن كل ما يثير الشبهات، أو يدفع إلى الانحراف، ولو من مكان بعيد.

ولعل من الطبيعي ـ فيما يتصور هؤلاء ـ انه كلما اقترب من السلطان أكثر، فإنه يقترب من المزالق التي تبتعد به عن خط الاستقامة، وتفتح له أبواب الإغراء وتجفف في أعماقه ينابيع الروح، بينما يمثل الابتعاد عن السلطان الصفاء الروحي، والطهارة القلبية، والاستقامة السلوكية الأمر الذي يمثل الضمانة الأخلاقية العملية في وعي الشعب لقيادته الفقهية.

وقد يكون للتوجيه العرفاني والثقافة الأخلاقية دور كبير في تركيز هذه الفكرة في نفوس الناس من خلال مفاهيم التجرد عن الدنيا والبعد عن الشهوات، والانعزال عن مظاهر الحياة اللاهية العابثة، والتنكر لكل أوضاع الواقع الحركي الذي ينطلق في دائرة العلاقات بالقوى المسيطرة الدنيوية، مما جعل القيمة الدينية الايجابية تتمثل في السلوك المنفصل عن مواقع السلطة وعن حركة الواقع المادي في الحياة، لتكون القيمة الدينية السلبية متمثلةً في السلوك المتحرك في مواقع السلطة وفي حركة الحياة. وقد أدى ذلك إلى الفكرة التي تفصل الدين عن السياسة لتضع الحواجز بين الفقهاء وبين الممارسة السياسية أو العلاقة بالواقع السياسي، ولم تكتف بذلك بل إنها

عملت على إبعاد الانسان المؤمن الملتزم عن الانفتاح على السياسة المتحركة في ساحته بطريقة ايجابية سواء كان ذلك في دائرة التصور فابتعدت به عن الاهتمام بالسياسة من قريب أو بعيد حتى على مستوى الفهم السياسي، أو كان ذلك في دائرة الممارسة، حيث عزلته عن أي نشاط سياسي مما يمكن أن يؤثر سلباً أو ايجاباً في القضايا المصيرية، الأمر الذي تحول إلى لون من ألوان الجمود السياسي المطلق الذي لا يثير أي حركة في المعارضة أو الموالاة، في الموقف الفكري، ولا يحرك أي خطوة مؤيدة أو رافضة في الموقف العملي، فيما هي التفاصيل السياسية التي تحدث في الوسط الاسلامي، أو في مجرى الساحة العالمية المرتبطة بالساحة الاسلامية بشكل مباشر أو غير مباشر.

وربما شارك ذلك في بعض ألوان الغباء السياسي في حركة الإخلاص الديني، حيث أن السلطة السياسية في العالم الاسلامي أو في غيره، كانت تستثير الروح الدينية التقية في بعض مواقع الضغط السياسي الذي يتحرك من هنا وهناك، فيندفع الفقهاء والمؤمنون في حماس ديني ثائر انطلاقاً من الغيرة على الاسلام والمسلمين، من دون تخطيط سياسي، أو احتياط للمشاكل المعقدة في الحركة، أو دراسة للظروف الموضوعية المحيطة بالموقف فتتلقف السلطة النتائج لمصالحها الخاصة، ولسياستها المرسومة وفقاً لتصوراتها .. ثم تبدأ في اضطهاد الثائرين أو محاصرتهم، أو إبعادهم عن ساحة العمل السياسي أو الجهادي الذي لا ينسجم مع مخططاتها.

وتلك هي مشكلة المسألة الأخلاقية فيما هي التأثيرات السلبية أو الايجابية في تكوين الذهنية الاسلامية حيث تجد هناك ارتباكاً واضطراباً وخللاً في تفكير المجتمع الاسلامي فيما يحمله من ركام هائل من الأخلاقيات الروحية والسلوكية التي اختلط فيها العرفان الفلسفي بالعرفان الأخلاقي، كما تداخلت فيها الأمثال والحكم والوصايا والنصائح الصادرة من بعض الحكماء أو المفكرين أو الناس العاديين التي لا تخضع لقاعدة فكرية محددة، بل تنطلق من تجربة ذاتية، أو تأمل شخصي أو ثقافة خاصة، أو غير ذلك من المؤثرات النفسية أو الفكرية أو الروحية، وهكذا تختلف الذهنيات تبعاً لاختلاف

القراءات أو البيئات، أو الثقافات، مما أوجد مشكلة للمجتمع الاسلامي في التصور والممارسة، وعلى مستوى التقييم المتبادل بين أفراد المجتمع.

الرفض الشيعي لحكم الحاكم: وهكذا رأينا الفقهاء يبتعدون عن مواقع السلطة، فيهربون من اللقاء بهم، والعلاقة معهم، ويعملون على التخفف من ضغوطهم ما أمكنهم ذلك. كما قد رأينا العامة من الناس يرصدون الفقهاء في سلوكهم من حيث قربهم من السلطة أو بعدهم عنها.. وتنطلق الكلمة المأثورة في حركة الذهنية العامة: (إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء).

وربما بادر بعض الملوك، انطلاقاً من ذلك، لزيارة بعض العلماء للحصول على الثقة الاجتماعية من خلاله.. وربما انطلق الكثيرون من العلماء في موقف المواجهة للسلطان بالقول أو بالفعل فيحصل لهم من ذلك شأن كبير فيما يتحدث به الناس من جرأته وبعده عن السلطة.. وقد امتد ذلك إلى الدرجة التي تتحرك فيها هذه الذهنية السلبية المعقدة من الاقتراب من السلطة، لتصل فيها إلى التعقيد في العلاقة مع السلطة التي تملك بعض الشرعية لدى الفقهاء سواء كان ذلك من ناحية العنوان المذهبي الكبير الذي تتخذه لنفسها في موقعها بما يتفق مع العنوان الذي ينتمي إليه الفقيه أو كان ذلك من ناحية العنوان الشرعي والسلوك العملي اللذين يتميز بهما صاحبها حتى لدى الفقيه في منطلقاته العامة بل قد تصل المسألة ببعض الناس بحيث يرفضون الاقتراب من الفقيه إذا تحول إلى صاحب سلطة.

وقد يكون الأساس في ذلك هو الصورة السلبية التي اختزنتها السلطة في مواقعها التاريخية أو الحاضرة بحيث أنها كانت تمثل خط الانحراف تارة، وخط الكفر أخرى، وخط الظلم والفسق والفجور والخلفيات الاستكبارية التي تخطط للإجهاز على الاسلام والمسلمين ثالثة. الأمر الذي يجعلها تمثل العنوان المرفوض اسلامياً للذين يريدون أن يبتعدوا بمواقعهم عن مواقع الزلل، وينطلقوا في حياتهم على أساس الخط المستقيم.

وإذا اقتربنا من الدائرة الاسلامية الشيعية، فإننا نجد أن هناك ذهنية عامة تحمل في

داخلها عقيدة بعدم شرعية أي حكم في بلاد المسلمين، لأن الموقع هو لأئمة أهل البيت ولمن يمثلهم ممن يمنحونه شرعية الولاية أو النيابة عنهم.

وقد نجد بعض الناس من الفقهاء أو من غير الفقهاء ممن لا يرى شرعية حتى للفقيه، لأنهم لا يرون الولاية للفقيه في نظريتهم الفقهية اجتهاداً أو تقليداً.

وقد نرى بعض المتعصبين المعقدين منهم مَن يدخل في عملية رفض لحكم الفقيه لأنه يعطي لنفسه الشرعية الاسلامية التي لا يملكها بينما لا يستطيع غيره من الحكام الآخرين أن يدعي لنفسه ذلك، وبذلك فإن حكم الفقيه الذي قد يقرر تشريعات غير صحيحة اسلامياً في نظر هؤلاء، وقد يتصرف تصرفات غير اسلامية، قد تغير الصورة الاسلامية المشرقة ليبدلها إلى صورة غير اسلامية، ويمنحها وجهاً اسلامياً وبذلك تتحرك الخطيئة في خط الوعي المنحرف والممارسة الخاطئة.

وهكذا استطاعت هذه الذهنية المتشبعة بالسلبية ضد السلطة القائمة، أن تبعد الانسان المسلم الشيعي الملتزم عن الانفتاح على السلطة أي سلطة في دائرة العلاقات.

رفض ولاية الظالم: وقد نجد في أحاديث أئمة أهل البيت الكثير من الكلمات التي ترفض العمل للسلطة غير الشرعية و التعاطف مع صاحبها، أو اقامة علاقات معه أو مع أجهزتها الأخرى، وذلك كما ورد في حديث الإمام موسى الكاظم مع صفوان الجمال ـ أحد أصحابه ـ حيث قال له ـ وكان يكري جماله لهارون الرشيد ـ : يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً، قلت: جعلت فداك، أي شيء؟ قال: إكراؤك جمال من هذا الرجل ـ يعني هارون الرشيد ـ ، قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ ولا أتولاه، ولكن أبعث إليه غلماني، فقال لي: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم، جعلت فداك، فقال لي: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم، قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومَن كان منهم ورد النار.

فقال صفوان: فذهبت وبعت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون فدعاني وقال: يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك؟ قلت: نعم، قال: لِمَ؟ قلت: أنا شيخ كبير وأن الغلمان لا

يفون بالأعمال، فقال: هيهات هيهات إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشارك موسى بن جعفر، فقلت: ما لي ولموسى بن جعفر، فقال: دع عنك هذا فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك.

فنحن نلاحظ في هذه الرواية ان الإمام يرفض العمل للسلطة الظالمة لأنها تؤدي إلى حالة عاطفية منطلقة من حسابات المصلحة الخاصة أولاً في التمني لبقائهم للحصول على رواتبهم.. ثم قد تتطور إلى حالة من التطبيع النفسي الذي يؤدي إلى التطبيع العملي فيما يمكن أن يؤدي إليه من الالتزام بحكمهم والتحرك الايجابي في خط تقويته وتثبيته والدفاع عنه ضد أهل الحق في نهاية المطاف. وقد يكون العامل لهم من الشخصيات النافذة في المجتمع بحيث يمثل العمل لهم لوناً من ألوان الدعم لوجودهم فيما قد يفهمه الناس الآخرون من إعطاء الشرعية لهم بالمستوى الذي يدل عليه ارتباط هؤلاء بأعمالهم ومواقعهم العامة والخاصة.

ونجد هناك نصاً آخر يحمل في مضمونه خطاً ايجابياً في دائرة استثناءات الخط السلبي العام فيما هو التوازن بين الخط المبدئي وبين الضرورات الواقعية. فقد روى صاحب الكافي عن الحسين بن الحسن الهاشمي عن صالح بن أبي حماد عن محمد بن خالد عن زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى (ع)، فقال لي: يا زياد إنك لتعمل عمل السلطان؟ قلت: أجل، قال لي: ولِمَ؟ قلت: أنا رجل لي مروة وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء.

فقال لي: يا زياد لأن أسقط من حالق فأتقطع قطعة قطعة أحب إليّ من أن أتولى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلا لتفريج كربة مؤمن أو فكّ أسرة أو قضاء دَينه. يا زياد إن أهون ما يصنع الله بمن تولى لهم عملاً أن يُضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق. يا زياد، فإن وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك فواحدة بواحدة والله من وراء ذلك.

يا زياد، أيما رجل منكم تولى منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له: أنت منتحل كذاب، يا زياد إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة الله عليك غداً ونفاذ ما أتيت إليهم عنهم وبقاء ما أتيت إليهم عليك.

إن هذه الرواية تدل دلالة واضحة على الرفض الحاسم لمسألة الولاية من قبل الظالم أو الارتباط به، أو الذهاب إليه.. لأن ذلك يؤدي إلى غضب الله الذي يستحق معه الانسان دخول النار..

ولكنه لا يطلق المسألة في كل مواقعها بشكل مطلق لأن ذلك قد يتحول إلى حالة حصار للمؤمنين عندما تحيط السلطة بكل مواقعهم، وتضغط على كل قضاياهم وتصادر كل أوضاعهم، مما يفرض وجود فئة من المؤمنين في داخل السلطة بحيث تحمي المؤمنين الآخرين من ذلك كله، ليستطيعوا الاستمرار في خط المعارضة بطريقة متوازنة عملية، حتى لا تضغط عليهم الوقائع بشكل كبير ضاغط وهكذا رخص الإمام لهذا العامل وغيره، أن يدخلوا في عمل السلطان الجائر لتحقيق الهداف الكبيرة في المجال العام أو الخاص في حياة المؤمنين.

متى يكون الفقيه (على باب السلطان)؟ ، وهذا هو ما نريد أن نثيره في حديثنا عن الفقيه والسلطان.

فإن الخط السلبي إذا كان يفرض على الانسان المؤمن العادي أن يبتعد عن السلطان الجائر إلا على أساس المصالح العامة التي تتحرك في حماية المؤمنين أو في تقوية الحركة الاسلامية الرافضة في تحصين مواقعها من داخل السلطة وخارجها.. فإن من الطبيعي أن يكون الفقيه هو الشخصية البارزة في موقف الرفض في المواقع الشرعية للرفض عندما تكون العلاقة سبباً في اعطاء الشرعية للسلطة..

لأنه هو الشخص الذي يمنح الشرعية في سلوكه للموقع وللموقف وللشخص، بلحاظ ما يمثله من الموقع الشرعي المميز على مستوى المرجعية في التقليد أو في الولاية، فلابد أن يدرس الحالة المحيطة به، والساحة التي يتحرك فيها، بكل دقة وموضوعية ليتعرف كيف يتوازن في موقفه بين شرعية الخط وبين حاجة الواقع.

وقد يدخل في ذلك مسألة اقامة العلاقات مع السلطان على صعيد العلاقات الاجتماعية، أو الأوضاع الاقتصادية، أو المواقف السياسية، أو المواقع الأمنيـة، ليحـدد لنفسـه الكلمة التي يقولها، أو الخطوة التي يخطوها، أو العلاقة التي يؤكدها في خط السـلب أو الايجاب، فلا يسيء إلى الاسلام في عناوينه الكبيـرة، ولا يسـيء إلـى الواقـع الاسلامي في تحدياته الصعبة ..

بل يكون الانسان الذي يستهدي حكم الله في ذلك كله لأن اختلاف الظروف قد يوجـب اختلاف الأحكام الشرعية فيما يمكن أن تختلف فيه موضوعات الأحكام التي قد تتنوع أوضاعها في عناوينها الأولية التي قد تفرض حكماً، وفي عناوينها الثانوية التي قـد تفرض حكماً آخر على أساس القاعدة الفقهية في حركـة الأحكـام المتنوعـة تبعـاً للعناوين الأولية والثانوية.

إن الفقيه الفقيه هو الذي يحرك فقهه في خط اجتهاده المرتكز على القواعد الثابتـة للاجتهاد، بعيداً عن كل المطامع والأهواء، فقد يفرض عليه الـرأي الاجتهـادي فـي موقف معين، أن يرتبط بالسلطة برباط قوي أو ضعيف تبعاً للمصلحة العامـة، وقـد يفرض عليه في موقف آخر، أن يقاطعها بشكل حاسم، فيما هي المقاطعة السـلبية أو يثور نحوها بشكل هادر ليعمل على أن يحل محله في موقع الحكم البـديل.. وهكـذا يكون الحكم الاسلامي هو خطه العريض، وهو الأساس في كل خطوطـه التفصـيلية.

وهذا هو ما لاحظناه في سلوك أئمة أهل البيت مع خلفاء زمانهم فقد كانت علاقـتهم بهم تتنوع بين المقاطعة وبين المهادنة.. وبين الثورة تبعاً للظروف المختلفة التي كان يعيشها الإمام في مرحلته الخاصة في شروطها وظروفها الموضوعية.

إن المسألة هي أن لا يعيش الفقيه في نطاق اهتماماته الذاتية وطموحاته الشخصية، ليسخر فقهه لشهواته ومطامعه، مما يدفع به إلى تسخيره ــ من خلال ذلك ــ لخدمة الحاكمين الظالمين، وبذلك يسيء إلى الاسلام والمسلمين عندما يتحول إلى أداة خبيثة لتثبيت قواعد الكفر والظلم والانحراف في حركة موقعه الديني الذي يضع نفسه فـي خدمتها فيستغل ثقة الناس به ليوظف تلك الثقة في الاتجاه الذي يضر بحياتهم.. وهذا

هو ما نستهديه من الحديث الشريف المروي عن رسول الله (ص): (العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا قالوا: وما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان فإذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم).

إن المسألة هي مسألة اعتبار الرسالة في دائرتها الفقهية والحركية أمانة الرسل عند العلماء من أجل أن يحافظوا على أصالتها وطهارتها واستقامتها وابتعادها عن كل مواقع الزيف وهذا هو الذي يفرض عليهم أن يتبعوا رموز الرسالة، لا رموز الكفر من سلاطين الجور الذين يعملون ضد الرسالة.

وهذا هو الذي يفرض على الناس أن يوازنوا في النظرة وفي الموقف من العلماء.

فهناك علماء يحبون الله ويخلصون له ولرسالته وهناك علماء يحبون الدنيا ويبتعدون عن خط رسالته فعلى الأمة أن تكتشف هؤلاء وهؤلاء لتعرف جيداً من خلال الرصد الدائم للفكر وللسلوك، أين يقف هؤلاء وأين يقف أولئك في النماذج التي تتحرك في دائرة عنوان العلماء..

هل هم وعاظ السلاطين وحماة السلطة ليكونوا علماء الحكم الجائر؟! ، أو هم وعاظ الشعب المستضعف الباحث عن الحقيقة وعن الخلاص في الدنيا والآخرة ليكونوا علماء الاسلام الذين يعملون من أجل أن يكون الاسلام قاعدة الحكم للحياة، وأنت كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين..

وذلك من خلال الدراسة الواعية، والنظرة الواسعة والفكرة العميقة التي لا تحكم على الأشياء بأشكالها الظاهرة بل بجذورها الضاربة في أرض الحقيقة في رحاب الله.([1])

الدكتور إسماعيل عبد الفتاح

---

[1] - المصدر : المنطلق/العدد ٥٩/١٩٨٩م

عبدالعزيز سعود البابطين

رائد تنويري خليجي عربيا

الكاتب : د. إسماعيل عبد الفتاح

استهلال :

- هذا التعريف المختصر بالشاعر الإنسان عبدالعزيز سعود البابطين محاولة في السير على حبل مشدود.. فهو لا يحب المديح ولا المبالغة..

- نشأ في ظل اسرة عرفت بالعلم والأدب والشعر: فقد كان والده شاعرا نبطيا، وعمه الشيخ عبدالمحسن ابراهيم البابطين الذي كان قاضيا في الثلاثينيات شاعر كذلك، وخاله نسبا الشاعر محمد بن لعبون أمير شعراء النبط في الجزيرة العربية والخليج (١٧٩٠-١٨٣١)، فأحب الشعر منذ طفولته، وتابع الشعراء، وقرأ الكثير من ابداعهم وسيرهم، فتأثر بذلك كثيرا، وكتب أول قصيدة- وكانت من الشعر النبطي- وعمره احدى عشرة سنة، اما أول قصيدة بالفصحى فكانت بعد ذلك بقليل عام ١٩٥١.

- من رجال الأعمال المعروفين في الكويت وله نشاط تجاري وصناعي بارز في مجالات "البتروكيماويات، والصناعات الغذائية" في أوروبا، وأمريكا، والصين، والشرق

الأوسط، وله استثمارات عقارية في عدد من الدول العربية.

- أصدر ديوانه الأول "بوح البوادي" عام ١٩٩٥.

- بذل الكثير من وقته وماله وجهده في الأعمال الخيرية حيث أنشأ وأسس عددا من الجوائز والبعثات والمدارس والكليات مثل: ١- جائزة سنوية باسم "جائزة عبدالعزيز سعود البابطين / أحفاد الامام البخاري" وقيمتها ١٠٠ ألف دولار، لترميم الجسور الثقافية القديمة بيننا وبين الدول الاسلامية المستقلة حديثا.

٢- بعثة سعود البابطين الكويتية للدراسات منذ ١٩٧٤، وهي تعطي الشعوب الاسلامية في جمهوريات آسيا الوسطى مائة منحة سنويا للدراسة في جامعة الأزهر في القاهرة، علاوة على خمس منح سنوية للمغرب وخمس منح سنوية للنيجر وخمس منح سنوية لاوغندا ومالي، وتتكفل هذه المؤسسة بجميع مصاريف السكن والتعليم والسفر بالطائرة والاقامة والأكل واللباس والكتب والمصاريف الدراسية والعلاج لهؤلاء الطلبة طيلة وجودهم بالقاهرة، ولقد بلغ عددهم حتى الآن حوالي ٥٢٢ طالبا.

- انتهى لبنى معرفي

أفضل الناس ما بين الورى رجلٌ
تُقضى على يدهِ للناس حاجاتُ
لا تمنعنَّ يد المعروف عن أحد
ما دمتَ مقتدرًا فالسعد تاراتُ
اشكرْ فضائلَ صنع الله أن جعلتْ
إليكَ لا لكَ عند الناس حاجاتُ

وكأنه يتمثل هذه الأبيات وهو يتصرف بكرم وبود ويقتحم الصعاب من أجل الآخرين ونجدتهم.. عبدالعزيز السريع

الشهادات الفخرية

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية من «جامعة طشقند» في أوزبكستان عام ١٩٩٥ تقديراً لدوره في إثراء الثقافة الإسلامية

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية من «جامعة باكو» في أذربيجان عام ٢٠٠٠، تقديراً لجهوده في خدمة الأدب والثقافة العربية والإسلامية

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة اليرموك الأردنية عام ٢٠٠١ تقديراً لعطائه المميز في مجالات الأدب والثقافة والإبداعات الشعرية

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية في مجال العلوم الإنسانية من «الجامعة القرغيزية الكويتية» عام ٢٠٠٢

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية من «جامعة جوي» في قرغيزستان عام ٢٠٠٢

ـ شهادة دبلوم فخرية من «الاتحاد التقدمي الاجتماعي للنساء في قرغيزستان» في مجال دعم الصداقة بين الشعوب في ٢٠٠٢/٤/٢٦

ـ شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة الجزائر في ١١ من مايو ٢٠٠٥

الأوسمة والجوائز

ـ وسام الاستحقاق الثقافي من الصنف الأول من فخامة رئيس جمهورية تونس في ١٩٩٦/٦/١٨

ـ وسام «الاستقلال» من الدرجة الأولى من جلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية، تقديراً لدوره المتميز في دعم وتشجيع الحركة الثقافية والشعرية في الوطن العربي في ٢٠٠١/٢/٦

ـ درع جائزة الملك فيصل العالمية

ـ نال جائزة الدولة التقديرية من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت عام ٢٠٠٢

ـ وسام الأرز برتبة ضابط من رئيس الجمهورية اللبنانية ٢٠٠٤

ـ في ٢ من ديسمبر ٢٠٠٤ كان موضع حفاوة وتكريم عربي ويمني، حيث منحته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو) جائزتها الذهبية (الوسام الذهبي الممتاز) أثناء انعقاد الجلسة الختامية للمؤتمر الرابع عشر لوزراء الثقافة العرب في القصر الجمهوري بصنعاء، وبحضور وزراء الثقافة العرب ووفود إعلامية عربية وأجنبية، وهو أول رجل أعمال عربي يمنح هذا الوسام

ـ في ٢٠٠٥/٦/١٤ قلده سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح رئيس مجلس الوزراء في الكويت نيابة عن حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح «وسام الكويت ذو الوشاح من الدرجة الأولى» تقديرًا لدوره في دعم ونشر الثقافة العربية في مجالات الأدب والثقافة في العديد من المحافل الثقافية والفكرية العربية والدولية.

ـ نال جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية للعلوم والآداب والفنون حيث تقلد وسام العلم والآداب والفنون الذهبي برئاسة الجمهورية في الخرطوم بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠٠٥، وهو أرفع الأوسمة التي تقدمها رئاسة الجمهورية في السودان.

أنواع من التكريم

كرم بأشكال مختلفة من قبل جهات متعددة، ومن ذلك:

ـ مجلة العربي في ندوتها السنوية في الكويت عام ٢٠٠٣ تقديرًا لجهوده في مجال الثقافة

ـ كرمته جامعة الكويت واحتفت به في أبريل ٢٠٠٤ في «يوم الأديب الكويتي» تقديرًا لجهوده وعطائه في المجال الثقافي والإنساني

ـ منحه وزير الثقافة والسياحة اليمني الأستاذ خالد الرويشان «تذكار صنعاء عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٤

ـ وفي ٢٠٠٤/١٢/٢ أيضًا وفي مقر مركز الدراسات والبحوث اليمني في صنعاء تم منحه درع المركز، بحضور وزير التعليم العالي اليمني الـدكتور عبـدالوهاب راوح ورئيس المركز الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح.

ـ منحته جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في صيدا بجنوب لبنان درع الجمعية في ٢٠٠٥/٦/١٥

ـ تم الاحتفاء به وتكريمه في:

* معرض القاهرة الدولي للكتاب
* مؤسسة الحريري الخيرية في بيروت
* النادي الثقافي العربي في بيروت .
* إثنينية الشيخ عبدالمقصود خوجة في جدة
* إثنينية الشيخ عثمان الصالح في الرياض
* إثنينية الشيخ محمد بن صالح النعيم في الأحساء
* احتفالية الشيخ محمد بن علي بن عيد آل خاطر في مدينة الجبيل
* احتفالية الكاتب الصحفي الأستاذ محمد رضا نصر الله بمدينة القطيـف – المملكة العربية السعودية
* احتفالية جامعة موليزي بمدينة كامبو باسو بجنوب إيطاليا

جهود في مجالات مختلفة:

أولاً – في الثقافة

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، فلقد كان انحسـار المـد الأدبي الوطن العربي، في نهايات القرن العشـرين، والتراجـع الكبيـر لـدور الأدب

وبخاصة الإبداع الشعري، مدعاة للمقارنة بين الحاضر المؤسف لهذا الأدب والإهمال المؤلم للشعراء المبدعين وللشعر فن العربية الأول وديوان العرب وسجل مآثرهم ومفاخرهم وبين ماضيه المزدهر..

وانطلاقا من هذا الواقع فكر الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين بإنشاء مؤسسة ترعى الأدب وتكرم الأدباء، سماها «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» وجعل مجال عملها، تكريم المبدعين من الشعراء ونقاد الشعر وإصدار المطبوعات عن الشعراء الذين تحمل دورات المؤسسة المتتابعة أسماءهم. وأعلن إنشاءها عام ١٩٨٩ في القاهرة عاصمة الثقافة والفن والإبداع العربي، ونمت المؤسسة وافتتحت لها مكاتب إقليمية في كل من تونس وعمان والكويت بالإضافة إلى مكتبها الرئيسي في القاهرة.

ومنذ إنشائها أقامت المؤسسة تسع دورات وهي بصدد إقامة دورتها العاشرة، كما أقامت أربعة ملتقيات أدبية هي: ملتقى «محمد بن لعبون» عام ١٩٩٧ بالكويت، و«ملتقى سعدي الشيرازي» بطهران عام ٢٠٠٠ وملتقى (مئوية الرحيل والميلاد) احتفاءً بالشاعرين الكبيرين عبدالله الفرج وأمين نخلة عام ٢٠٠١ و«ملتقى الكويت الأول للشعر العربي في العراق» عام ٢٠٠٥، وأصدرت عدداً من المطبوعات المهمة عن الشعر والشعراء يأتي في مقدمتها «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٥، وطبعته الثانية عام ٢٠٠٢، وتعد لإنجاز وإصدار «معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين».

كما كان لها إسهامات في العديد من المجالات الثقافية، ومنها الاحتفال باختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠١، حيث أصدرت (١١) مطبوعاً في هذه المناسبة وحدها.

وجائزة عبدالعزيز سعود البابطين «أحفاد الإمام البخاري» وهي جائزة سنوية قيمتها (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف دولار ، لترميم الجسور الثقافية الأصيلة بين الأمة العربية والدول الإسلامية المستقلة حديثًا في آسيا، وتقوم عليها لجنة مكونة من الدكتور خالد المذكور والدكتور عبدالله المحارب والدكتور عادل الفلاح والدكتور إبراهيم الشريدة والأستاذ أسامة البابطين ..

ومكتبة البابطين المركزية للشعر العربي في الكويت جاء إنشاؤها هدية من رئيس المؤسسة بمناسبة اختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠١، وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس بتاريخ ٦ يناير من العام ٢٠٠٢م، وسيكون افتتاحها في الربيع الأول من العام ٢٠٠٦م. وقد دعي لحضور حفل الافتتاح أكثر من (٢٠٠) شخصية عربية وأجنبية في المجالات الثقافية والفكرية والإعلامية والسياسية، ومديري المكتبات الوطنية والمركزية، ورؤساء أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية والأجنبية، وعدد كبير من مثل هذه الشخصيات من داخل الكويت.

ومكتبة البابطين الكويتية في القدس وقد أنشأها في حرم كلية الآداب بجامعة القدس، وستقدم خدماتها لأبناء القدس وفلسطين ..

وجائزة البابطين الكويتية للشعر العربي في فلسطين وهي موجهة للشباب الفلسطيني ممن تقل أعمارهم عن ٣٥ عاماً .
ومركز البابطين للترجمة قام بإنشائه في العام ٢٠٠٤-ويهدف إلى إسهام المؤسسة في دعم حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبالعكس. إضافة إلى

مشروع الترجمة الذي يقام بالتعاون مع منظمة اليونسكو في باريس للترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية ...

ثانيًا - في التعليم

- بعثة سعود البابطين الكويتية للدراسات العليا وهذه البعثة تُعطي الشعوب الإسلامية $ جمهوريات آسيا الوسطى (١٠٠) منحة سنويًا للدراسة $ جامعة الأزهر بالقاهرة، علاوة على (٥٠) منحة سنوية لأفريقيا و(١٠٠) منحة سنوية للطلبة العراقيين و٦٨ منحه للطلبة الفلسطينيين، وتتكفل هذه المؤسسة بجميع نفقات السكن والتعليم والسفر بالطائرة والإقامة والأكل واللباس والكتب والمصاريف الدراسية والعلاج لهؤلاء الطلبة طيلة وجودهم في القاهرة، ولقد وصل عددهم حتى الآن بين دارس وخريج إلى حوالي (١٥٠٠) طالب.
- دورات علم العروض وتذوق الشعر ومهارات اللغة العربية وهي دورات مجانية بدأ تنظيمها منذ العام ٢٠٠٠، وتهدف إلى نشر الوعي والمعارف الشعرية والعروضية واللغوية وعقد منها (٧٧) دورة في مختلف أنحاء الوطن العربي حتى نهاية العام ٢٠٠٥، تخرج فيها (٥٠٨٨) دارسًا
- مركز عبدالعزيز سعود البابطين لحوار الحضارات أسس هذا المركز في العام ٢٠٠٥ ، واختير الأستاذ الدكتور عبدالله المهنا مديرًا له، ويعنى المركز بالتعاون مع الجامعات العربية والأجنبية في تنظيم الدورات التدريبية العلمية في مجالات علوم اللغة والإرشاد السياحي التاريخي والحضاري.
- دورة المرشدين السياحيين الإسبان نظمت هذه الدورة عام ٢٠٠٥ بالتعاون مع جامعة قرطبة وبتمويل كامل من رئيس المؤسسة، وهي دورة تثقيفية شاملة شارك فيها (١١٨) مائة وثمانية عشر من المرشدين السياحيين الإسبان في منطقة الأندلس لتصويب معلوماتهم عن الآثار والمواقع التاريخية في إقليم

الأندلس بإشراف نخبة من الأساتذة المتخصصين من الإسبان والعرب والدورة في خمسين ساعة موزعة على ستة شهور.

ـ أستاذية البابطين للغة العربية في جامعة قرطبة وقعت بتاريخ ٨/١٠/٢٠٠٤ مع البروفسور أخينيو دومينيجيث فيلتشيس رئيس جامعة قرطبة اتفاقية لإنشاء (أستاذية البابطين للغة العربية) في جامعة قرطبة، حيث التزمت الجامعة باتباع المناهج العلمية الحديثة التي تمكن الطالب من إجادة اللغة العربية والتحدث بها.

ـ جائزة عبدالعزيز سعود البابطين الأندلسية تم الاتفاق مع جامعة قرطبة على رصد جائزة باسم «جائزة عبدالعزيز سعود البابطين الأندلسية» لها صفة العالمية، وتختص مبدئياً بدور القرى الأندلسية التي ساهمت في صنع الحضارة الأندلسية ولم تأخذ حقها من الدراسة والبحث الذي أخذته المدن الأندلسية كقرطبة وإشبيلية وغرناطة.

ـ بدأت المؤسسة بالإعداد لتعاون أكاديمي مماثل مع جامعة غرناطة

ـ ثانوية الرئيس حسني مبارك بالإسكندرية في مصر.

ـ ثانوية الملك فهد بمصر الجديدة.

ـ ثانوية الشيخ جابر الأحمد الصباح في «المقطم» بالقاهرة.

ـ ثانوية الأخوة الكويتية المغربية بمدينة «كلميم» في المغرب.

ـ ثانوية الشيخ محمد أمين الشنقيطي في البصرة.

ـ مدرستين باسم الكويت في «قانا» بلبنان إثر الغارة الإسرائيلية الدموية عليها عام ١٩٩٦.

ـ مدرسة الكويت في «درنكا» جنوبي القاهرة.

ـ مدرسة الصداقة الكويتية المغربية بمدينة مراكش».

ـ مدرسة الكويت في قرغيزستان.

ـ مدرسة أحمد بن عبدالعزيز في باماكو بجمهورية «مالي».

ـ مدرسة الكويت في مدينة كيدال بجمهورية «مالي».

ـ مدرسة الكويت في مدينة «كويتا» بجمهورية باكستان.

ـ مدرسة الكويت في «آلمآتا» بكازاخستان.

ـ مدرسة الكويت في مخيمات لاجئي كرباخ في أذربيجان.

ـ مـــدرسة الأخـــوة الجزائـــرية الكـــويتيـــة بمدينـــة «الأغواط» في الجزائر.

ـ مـــدرسة الكويـــت فـــي جمهورية جورجيا - محافظـة قاديـاتي تتســـع لـ (٣٠٠) طالب وطالبة وتعـــمـــل علـــى فتـرتين صـباحية ومسائية.

كلية عبدالرحمن البابطين الكويتية للدراسات الإسلامية بمدينة «شـمكنت» فـي كازاخستان.

ـ كليـــة سعـــود البـابطين الكـــويتية لـلآداب فـي «جامعـة عليكـــرة» بالهـــنـــد.

ـ كلية عبداللطيف سعود البابطين الكويتية للشـريعة الإسـلامية فـي «بـاكو» بأذربيجان.

ـ معاهد عبدالرحمن سعود البابطين الكويتية للغات الشرقية في «جامعة جوي» في قرغيزستان.

ثالثًا ـ المشاريع الإنسانية التي أنشأها:

ـ مركز سعود عبدالعزيز البابطين للحروق وجراحة التجميل فـي الكويـت (تبـرع بالمبنى والتجهيزات وسلمه لوزارة الصحة لإدارته ويقدم خدماته مجانًا للمواطنين).

ـ المركـــز الطبـــي الكويـــتـــي فـــي مدينـــة «الحميديـــة» جنوبـــي إيـــران.

ـ صالة أفراح باسم «سعود البابطين» في «الرياض» ليستفيد منها ذوو الدخل المحدود لتنظيم حفلات زواج أبنائهم بالمجان .
ـ صالة الكويت الثقافية المتعددة الأغراض بمدينة طولكرم في فلسطين.
ـ أنشأ ورمم الكثير من دور العبادة في الأقطار العربية والإسلامية .

حقا ، إن اسم البابطين مكتوب من نور في سجل الريادة التنويرية تعليمية كانت أم ثقافية أم شعرية أم في مجالات الخدمات الاجتماعية ، فهو رائد كويتي خليجي عربي في مجال التنوير الاجتماعي .

د. إسماعيل عبد الفتاح

وآخر دعوانا :

(أن الحمد لله

رب العالمين)

المؤلفون

المعد والمحرر

الناشر





مركز الاسكندرية للكتاب
٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة
الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨